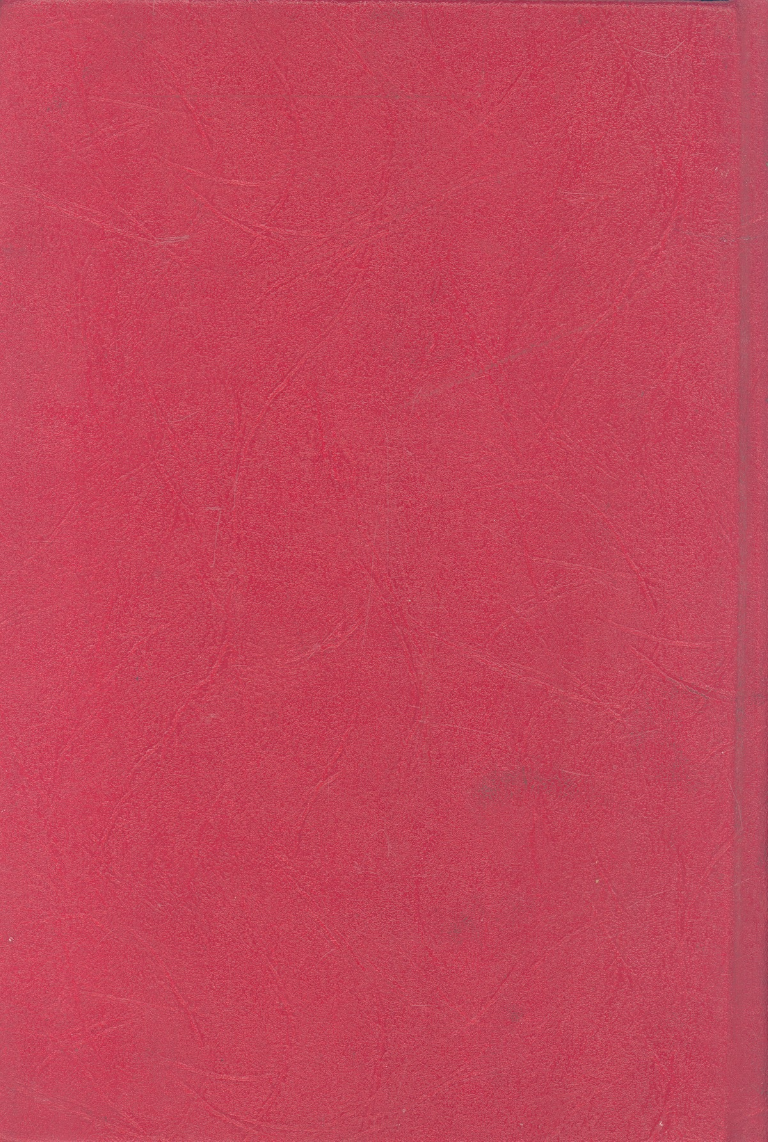
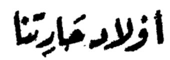



أولاد حارتنا

نجيب محفوظ

أولاد حارتنا

رواية

دار الآداب - بيروت

الطبعة الثانية

بيروت ، شباط (فبراير) ١٩٧٢

إفتتاحية

هذه حكاية حارتنا ، أو حكايات حارتنا وهو الأصدق . لم أشهد من واقعها إلا طوره الأخير الذي عاصرته ، ولكني سجلتها جميعاً كما يرويها الرواة وما اكثرهم . جميع أبناء حارتنا يروون هذه الحكايات ، يرويها كلٌّ كما يسمعها في قهوة حيّه أو كما نقلت اليه خلال الأجيال ، ولا سند لي فيما كتبت الا هذه المصادر . وما اكثر المناسبات التي تدعو الى ترديد الحكايات . كلما ضاق أحد بحاله ، أو ناء بظلم أو سوء معاملة ، أشار الى البيت الكبير على رأس الحارة من ناصيتها المتصلة بالصحراء وقال في حسرة : « هذا بيت جدّنا ، جميعنا من صلبه ، ونحن مستحقو اوقافه ، فلماذا نجوع وكيف نضام ؟! » ، ثم يأخذ في قصّ القصص والاستشهاد بسير أدهم وجبل ورفاعة وقاسم من أولاد حارتنا الأمجاد . وجدّنا هذا لغز من الالغاز . عمّر فوق ما يطمع انسان أو يتصور حتى ضُرب المثل بطول عمره . واعتزل في بيته لكبره منذ عهد بعيد ، فلم يره منذ اعتزاله أحد . وقصة اعتزاله وكبره مما يحير العقول ، ولعل الخيال أو الاغراض قد اشتركت في انشائها . على أيّ حال كان يدعى الجبلاوي وباسمه سميت حارتنا . وهو صاحب أوقافها وكل قائم فوق أرضها والأحكار المحيطة بها في الخلاء . سمعت مرة رجلاً يتحدث عنه فيقول : « هو أصل حارتنا ، وحارتنا أصل مصر أمّ الدنيا ، عاش فيها

وحده وهي خلاء خراب ، ثم امتلكها بقوة ساعده ومنزلته عند الوالي ، كان رجلاً لا يجود الزمان بمثله ، وفتوة تهاب الوحوش ذكره » وسمعت آخر يقول عنه : «كان فتوة حقاً ، ولكنه لم يكن كالفتوات الآخرين ، فلم يفرض على أحد أتاوة ، ولم يستكبر في الارض ، وكان بالضعفاء رحيماً » ، ثم جاء زمان فتناولته قلة من الناس بكلام لا يليق بقدره ومكانتـه ، وهكذا حال الدنيا . وكنت وما زلت أجد الحديث عنه شائقاً لا يمل . وكم دفعني ذاك الى الطواف ببيته الكبير لعلي افوز بنظرة منه ولكن دون جدوى . وكم وقفت امام بابه الضخم ارنو الى التمساح المحنط المركب أعلاه ، وكم جلست في صحراء المقطم غير بعيد من سوره الكبير فلا ارى الا رءوس اشجار التوت والجميز والنخيل تكتنف البيت ، ونوافذ مغلقة لا تنم على أي اثر لحياة . أليس من المحزن أن يكون لنـا جدّ مثل هذا الجد دون أن نراه أو يرانا ؟ أليس من الغريب ان يختفي هو في هذا البيت الكبير المغلق وأن نعيش نحن في التراب ؟! واذا تساءلت عما صار به وبنا الى هذا الحـال سمعت من فورك القصص ، وترددت على أذنيك اسماء أدهم وجبل ورفاعة وقاسم ، ولن تظفر بما يبل الصدر أو يريح العقل . قلت إن أحداً لم يره منذ اعتزاله . ولم يكن هذا بذي بال عند اكثر الناس ، فلم يهتموا منذ بادىء الأمر الا باوقافه وبشروطه العشرة التي كثر القيل والقال عنها ، ومن هنا ولد النزاع في حارتنا منذ ولدت ، ومضى خطره يستفحل بتعاقب الأجيال حتى اليوم ، والغد . ولذلك فليس أدعي الى السخريـة المريرة من الاشارة الى صلة القربى التي تجمع بين أبناء حارتنا . كنا وما زلنـا أسرة واحدة لم يدخلها غريب . وكل فرد في حارتنـا يعرف سكانها جميعاً نساء ورجـالاً . ومع ذلك فلم تعرف حارةٌ حدّة الخصام كما عرفناها ، ولا فرّق بين ابنائها النزاع كما فرّق بيننا ، ونظير كل ساع الى الخير تجد عشرة فتوات يلوحون بالنبابيت ويدعون الى القتال . حتى

اعتاد الناس ان يشتروا السلامة بالاتاوة ، والأمن بالخضوع والمهانة ، ولاحقتهم العقوبات الصارمة لأدنى هفوة في القول او في الفعل بل للخاطرة تخطر فيشي بها الوجه . وأعجب شيء ان الناس في الحارات القريبة منا كالعطوف وكفر الزغاري والدراسة والحسينية يحسدوننا على أوقاف حارتنا ورجالنا الأشداء ، فيقولون حارة منيعة وأوقاف تدر الخيرات وفتوات لا يغلبون . كل هذا حق ، ولكنهم لا يعلمون اننا بتنا من الفقر كالمتسولين ، نعيش في القاذورات بين الذباب والقمل ، نقنع بالفتات ، ونسعى باجساد شبه عارية ، وهؤلاء الفتوات يرونهم وهم يتبخترون فوق صدورنا فيأخذهم الإعجاب ، ولكنهم ينسون أنهم انما يتبخترون فوق صدورنا ، ولا عزاء لنا الا ان نتطلع إلى البيت الكبير ونقول في حزن وحسرة ، « هنا يقيم الجبلاوي ، صاحب الأوقاف ، هو الجد ونحن الأحفاد » .

شهدت العهد الأخير من حياة حارتنا ، وعاصرت الأحداث التي دفع بها الى الوجود « عرفة » ابن حارتنا البار . والى أحد اصحاب عرفة يرجع الفضل في تسجيل حكايات حارتنا على يدي ، اذ قال لي يوماً : « انك من القلة التي تعرف الكتابة ، فلماذا لا تكتب حكايات حارتنا ؟.. انها تروى بغير نظام ، وتخضع لأهواء الرواة وتحزباتهم ، ومن المفيد ان تسجل بامانة في وحدة متكاملة ليحسن الانتفاع بها ، وسوف أمدك بما لا تعلم من الاخبار والأسرار » . ونشطت الى تنفيذ الفكرة ، اقتناعاً بوجاهتها من ناحية ، وحباً فيمن اقترحها من ناحية أخرى . وكنت أول من اتخذ من الكتابة حرفةً في حارتنا على رغم ما جرّه ذلك علي من تحقير وسخرية . وكانت مهمّتي ان اكتب العرائض والشكاوي للمظلومين وأصحاب الحاجات . وعلى كثرة المتظلمين الذين

يقصدونني فان عملي لم يستطع ان يرفعني عن المستوى العام للمتسولين في حارتنا ، الى ما اطلعني عليه من أسرار الناس واحزانهم حتى ضيق صدري وأشجن قلبي . ولكن مهلاً ، فانني لا اكتب عن نفسي ولا عن متاعبي ، وما أهون متاعبي إذا قيست بمتاعب حارتنا . حارتنا العجيبة ذات الأحداث العجيبة . كيف وجدت ؟ وماذا كان من أمرها ؟ ومن هم أولاد حارتنا ؟



أدهم

١

كان مكان حارتنا خلاء . فهو امتداد لصحراء المقطم الذي يربض في الأفق . ولم يكن بالخلاء من قائم الا البيت الكبير الذي شيده الجبلاوي كأنما ليتحدى به الخوف والوحشة وقطاع الطريق . كان سوره الكبير العالي يتحلق مساحة واسعة ، نصفها الغربي حديقة ، والشرقي مسكن مكوّن من أدوار ثلاثة . ويوماً دعا الواقف ابناءه إلى مجلسه بالبهو التحتاني المتصل بسلاملك الحديقة . وجاء الأبناء جميعاً ، ادريس وعباس ورضوان وجليل وأدهم ، في جلابيبهم الحريرية ، فوقفوا بين يديه وهم من إجلاله لا يكادون ينظرون نحوه إلا خلسة . وأمرهم بالجلوس فجلسوا على المقاعد من حوله ، وراح يتفحصهم هنيهة بعينيه النافذتين كأعين الصقر ، ثم قام متجهاً نحو باب السلاملك . ووقف وسط الباب الكبير ينظر إلى الحديقة المترامية التي تزحمها أشجار التوت والجميز والنخيل ، وتعترش في جنباتها الحناء والياسمين ، وتثب فوق غصونها مزقزقة العصافير . ضجت الحديقة بالحياة والغناء على حين ساد الصمت بالبهو . وخيّل الى الاخوة ان فتوة الخلاء قد نسيهم ، وهو يبدو بطوله وعرضه خلقاً فوق الآدميين كأنما من كوكب هبط . وتبادلوا نظرات متسائلة . ان هذا شأنه إذا قرر أمراً ذا خطر ، وما يقلقهم إلا انه جبار في البيت كما هو جبار في الخلاء وانهم حياله لا شيء . التفت

الرجل نحوهم دون ان يبرح مكانه وقال بصوت خشن عميق تردد بقوة في أنحاء البهو الذي توارت جدرانه العالية وراء ستائر وطنافس :

– أرى من المستحسن أن يقوم غيري بادارة الوقف ...

وتفحّص وجوههم مرة أخرى ، ولكن لم تنم وجوههم على شيء . لم تكن ادارة الوقف مما يغري قوماً استحبوا الفراغ والدعة وعربدة الشباب ، وفضلاً عن هذا فادريس الأخ الأكبر هو المرشح الطبيعي للمنصب ، فلم يعد أحد منهم يتساءل عما هنالك . وقال ادريس لنفسه : « يا له من عبء ، هذه الافكار لا حصر لها ، وهؤلاء المستأجرون المناكيد ! » ؛ اما الجبلاوي فاستطرد قائلاً :

– وقد وقع اختياري على أخيكم أدهم ليدير الوقف تحت اشرافي ..

عكست الوجوه وقع مفاجأة غير متوقعة ، فتبودلت النظرات في سرعة وانفعال ، إلا أدهم فقد غض بصره حياء وارتباكاً ، وولاهم الجبلاوي ظهره وهو يقول في عدم اكتراث :

– لهذا دعوتكم ..

تفجر الغضب في باطن ادريس ، فبدا كالثمل من شدة مقاومته ، ونظر اليه إخوته بحرج ، ودارى كل منهم – عدا أدهم طبعاً – غضبه لكرامته باحتجاجه الصامت على تخطي ادريس ، الذي كان تخطياً مضاعفاً لهم . اما ادريس فقال بصوت هادىء كأنما يخرج من جسم آخر :

– ولكن يا أبي ..

قاطعه الأب ببرود وهو يلتفت نحوهم:

– ولكن ؟!

فغضّوا الابصار حذراً من ان يقرأ ما في نفوسهم ، الا ادريس فقد قال باصرار :

– ولكني الأخ الاكبر ..

فقال الجبلاوي مستاء :

- أظن انني اعلم ذلك ، فأنا الذي انجبتك .

فقال ادريس وحرارة غضبه آخذة في الارتفاع :

- للأخ الأكبر حقوق لا تهضم الا لسبب ..

فحدجه الرجل بنظرة طويلة كأنما يمنحه فرصة طيبة لتدبّر أمره وقال:

- أؤكد لكم اني راعيت في اختياري مصلحة الجميع ..

تلقى ادريس اللطمة بصبر ينفد . انه يعلم كم يضيق أبوه بالمعارضة ، وان عليه ان يتوقع لطمات أشد اذا تمادى فيها ، ولكن الغضب لم يدع له فرصة لتدبّر العواقب ، فاندفع خطوات حتى كاد يلاصق أدهم ، وانتفخ كالديك المزهو ليعلن للأبصار فوارق الحجم واللون والبهاء بينه وبين أخيه ، وانطلق الكلام من فيه كما ينطلق نثار الريق عند العطس بغير ضابط :

- اني واشقائي ابناء هانم من خيرة النساء . أما هذا فابن جارية سوداء . .

شحب وجه أدهم الأسمر دون ان تندّ عنه حركة ، على حين لوح الجبلاوي بيده قائلاً بنبرات الوعيد :

- تأدب يا ادريس ..

ولكن ادريس كانت تعصف به عواصف الغضب المجنونة فهتف :

- وهو اصغرنا أيضاً ، فدلني على سبب يرجحني بـه الا ان يكون زماننا زمان الخدم والعبيد . .

- اقطع لسانك رحمة بنفسك يا جاهل ..

- ان قطع رأسي أحب إلي من الهوان ..

ورفع رضوان رأسه نحو أبيه وقال برقة باسمة :

- نحن جميعاً ابناؤك ، ومن حقنا ان نحزن اذا افتقدنا رضاك عنا ، والأمر لك على أي حال .. وغاية مرامنا ان نعرف السبب ..

وعدل الجبلاوي عن ادريس الى رضوان ، مروّضاً غضبه لغاية في

نفسه ، فقال :

– أدهم على دراية بطباع المستأجرين ، ويعرف اكثرهم باسمائهم ، ثم انّه على علم بالكتابة والحساب ..

وعجب ادريس من قول أبيه كما عجب اخوته . متّى كانت معرفة الأوشاب ميزة يفضل من أجلها انسان ؟! . ودخول الكتّاب ، أهو ميزة أخرى ؟! . وهل كانت أم أدهم تدفع به الى الكتّاب لولا يأسها من فلاحه في دنيا الفتونة ؟! . وتساءل ادريس متهكماً :

– أتكفي هذه الأسباب لتبرير ما يراد بي من مذلة ؟

فأشار الجبلاوي نحوه بضجر وقال :

– هذه ارادتي ، وما عليك إلا السمع والطاعة ..

والتفت الرجل التفاتة حادة صوب أشقاء ادريس وهو يسأل :

– ما قولكم ؟

فلم يحتمل عباس نظرة أبيه ، وقال وهو واجم :

– سمعاً وطاعة ..

وسرعان ما قال جليل وهو يغض طرفه :

– أمرك يا أبي ..

وقال رضوان وهو يزدرد ريقه الجاف :

– على العين والراس ..

عند ذاك ضحك ادريس ضحكة غضب تقلصت الى اساريره حتّى قبحت وجهه وهتف :

– يا جبناء ، ما توقعت منكم الا الهزيمة المزرية . وبالجبن يتحكم فيكم ابن الجارية السوداء ..

فصاح الجبلاوي مقطباً عن عينين تتطاير منهما النذر :

– ادريس !

ولكن الغضب كان قد اقتلع جذور عقله فصاح بدوره :

— ما أهون الأبوة عليك ، خلقت فتوة جباراً فلم تعرف الا ان نكون فتوة جباراً ، ونحن أبناءك تعاملنا كما تعامل ضحاياك العديدين ..

اقترب الجبلاوي خطوتين في بطء كالتوثب، وقال بصوت منخفض وقد أنذرت أساريره المتقبضة بالشر :

— اقطع لسانك !

ولكن ادريس واصل صياحه قائلاً :

— لن ترعبني ، أنت تعلم أنني لا أرتعب ، وأنك اذا أردت أن ترفع ابن الجارية عليّ فلن أسمعك لحن السمع والطاعة .

— ألا تدرك عاقبة التحدي يا ملعون ؟

— الملعون حقاً هو ابن الجارية ..

فعلت نبرات الرجل واخشوشنت وهو يقول :

— انها زوجتي يا عربيد ، فتأدب وإلا سويت بك الأرض ..

وفزع الاخوة وأولهم أدهم لدرايتهم ببطش ابيهم الجبار،ولكن إدريس كان قد بلغ من الغضب درجة لم يعد يدرك معها خطراً كأنه مجنون يهاجم ناراً مندلعة ، فصاح :

— انك تبغضني ، لم أكن أعلم هذا ، ولكنك تبغضني دون ريب ، لعل الجارية هي التي بغضتنا اليك ، سيد الخلاء وصاحب الاوقاف والفتوة الرهيب ، ولكن جارية استطاعت أن تعبث بك ، وغداً يتحدث عنك الناس بكل عجيبة يا سيد الخلاء .

— قلت لك اقطع لسانك يا ملعون .

— لا تسبني من أجل أدهم ، طوب الأرض يأبى ذلك ويلعنه ، وقرارك الغريب سيجعلنا أحدوثة الاحياء والحواري ..

فصاح الجبلاوي بصوت صك الاسماع في الحديقة والحريم :

— أغرب بعيداً عن وجهي ..

— هذا بيتي ، فيه أمي ، وهي سيدته دون منازع .

– لن تُرى فيه بعد اليوم ، والى الأبد ..

واكفهر الوجه الكبير حتّى حاكى لونه النيل في احتدام فيضانه ، وتحرك صاحبه كالبنيان ، مكوراً قبضة من صوان . وأيقن الجميع أن ادريس قد انتهى . ما هو الا مأساة جديدة من المآسي التي يشهدهـا هذا البيت صامتاً . كم من سيدة مصونة تحولت بكلمة الى متسولة تعيسة . وكم من رجل غادره بعد خدمة طويلة مترنحاً يحمل على ظهره العاري آثار سياط حملت اطرافها بالرصاص والدم يطفح من فيه وأنفه . والرعاية التي تحوط الجميع عند الرضا لا تشفع لأحد وان عزّ جانبه عند الغضب . لهذا أيقن الجميع ان ادريس قد انتهى . حتّى ادريس بكري الواقف ومثيله في القوة والجمال قد انتهى . وتقدم الجبلاوي خطوتين أخريين وهو يقول :

– لا أنت ابني ولا أنا ابوك ، ولا هذا البيت بيتك ، ولا امّ لك فيه ولا اخ ولا تابع ، امامك الارض الواسعة فاذهب مصحوباً بغضبي ولعنتي ، وستعلمك الايام حقيقة قدرك وأنت تهيم على وجهك محروماً من عطفي ورعايتي !.

فضرب ادريس البساط الفارسي بقدمه وصاح :

– هذا بيتي ، ولن أغادره ..

فانقضّ عليه الأب قبل أن يتقيه ، وقبض على منكبه بقبضة كالمعصرة ، ودفعه أمامه والآخر يتراجع مقهقراً ، فعبرا باب السلاملك ، وهبطا السلم وادريس يتعثر ، ثم اخترق به ممراً تكتنفه شجيرات الورد والحناء مفروشاً بالياسمين حتّى البوابة الكبيرة فدفعه خارجاً وأغلق الباب .. وصاح بصوت سمعه كلّ من يقيم في البيت :

– الهلاك لمن يسمح له بالعودة أو يعينه عليها ..

ورفع رأسه صوب نوافذ الحريم المغلقة وصاح مرة أخرى :

– وطالقة ثلاثا من تجترىء على هذا ..

٢

منذ ذلك اليوم الكئيب وأدهم يذهب كل صباح إلى إدارة الوقف في المنظرة الواقعة الى يمين باب البيت الكبير . وعمل بهمة في تحصيل أجور الأحكار وتوزيع أنصبة المستحقين وتقديم الحساب الى أبيه . وأبدى في معاملة المستأجرين لباقة وسياسة،فرضوا عنه على رغم ما عرف عنهم من مشاكسة وفظاظة : وكانت شروط الواقف سراً لا يدري به أحد سوى الأب ، فبعث اختيار أدهم للادارة الخوف ان يكون هذا مقدمةً لايثاره في الوصية . والحق انه لم يبد من الأب قبل ذلك اليوم ما ينم عن التحيز في معاملته لأبنائه . وعاش الاخوة في وئام وانسجام بفضل مهابة الأب وعدالته . حتّى إدريس – على قوته وجماله واسرافه احياناً في اللهو – لم يسيء قبل ذلك اليوم الى أحد من اخوته . كان شاباً كريماً حلو المعشر حائزاً الود والاعجاب . ولعل الأشقاء الأربعة كانوا يضمرون لأدهم شيئاً من الاحساس بالفارق بينهم وبينه ، ولكن أحداً منهم لم يعلن هـذا ولا اشمّ منه في كلمة أو اشارة أو سلوك . ولعل أدهم كان أشد احساساً منهم بهذا الفارق ، ولعله قارن كثيراً بين لونهم المضيء ولونه الأسمر ، بين قوتهم ورقته ، بين سمو أمهم ووضاعة أمه ، ولعله عانى من ذلك أسى مكتوماً وألماً دفيناً ، ولكن جو البيت المعبق بشذى الرياحين ، الخاضع لقوة الأب وحكمته ، لم يسمح لشعور سيء بالاستقرار في نفسه ، فنشأ صافي القلب والعقل .

وقال أدهم لأمه قبيل ذهابه الى ادارة الوقف :

– باركيني يا أمي ، فما هذا العمل الذي عهد به اليّ الا امتحان شديد لي ولك ..

فقالت الأم بضراعة :

– ليكن التوفيق ظلك يا بني ، أنت ولد طيّب والعقبى للطيبين ..

ومضى أدهم الى المنظرة ترمقـــه العيون من السلاملك والحديقة ومن وراء النوافذ ، وجلس على مقعد ناظر الوقف وبدأ عمله . وكان عمله أخطر نشاط انساني يزاول في تلك البقعة الصحراوية ما بين المقطم شرقاً والقاهرة القديمة غرباً . واتخذ أدهم من الأمانة شعاراً ، وسجل كل مليم في الدفتر لأول مرة في تاريـخ الوقف . وكان يسلم اخوته رواتبهم في أدب ينسيهم مرارة الحنق ثم يقصد أباه بحصيلة الأموال . وسأله أبوه يوماً :

— كيف تجد العمل يا أدهم ؟

فقال أدهم بخشوع :

— ما دمت قد عهد به الي فهو أعظم ما في حياتي ..

فشاعت في الوجه العظيم البشاشة ، إذ أنه على جبروته كان يستخفه طرب الثناء . وكان أدهم يحب مجلسه . واذا جلس اليه اختلس منه نظرات الاعجاب والحب . وكم كان يسعده أن يتابع أحاديثه وهو يروى — له ولأخوته — حكايات الزمان الأول ، ومغامرات الفتوة والشباب ، اذ هو ينطلق في تلك البقـــاع ملوحاً بنبوته المخيف غازياً كل موضع تطأه قدماه . وبعد طرد ادريس ظل عباس ورضوان وجليل على عادتهم من الاجتماع فوق سطح البيت ، يأكلون ويشربون ويقامرون . أما أدهم فلم يكن يطيب له الجلوس إلا في الحديقة . كان عاشقاً للحديقة منذ درج ، وكان عاشقاً للناي . ولازمته تلك العادة بعد اضطلاعه بشئون الوقف وإن لم تعد تستأثر بجل وقته . فكان اذا فرغ من عمله في الوقف افترش سجادة على حافة جدول ، واسند ظهره الى جذع نخلة او حميزة ، أو استلقى تحت عريشة الياسمين ، وراح يرنو الى العصافير وما اكثر العصافير ، او يتابع اليمام وما أحلى اليمام ، ثم ينفخ في الناي محاكياً الزقزقة والهديل والتغريد وما أبدع المحاكاة ، أو يمد الطرف نحو السماء خلال الغصون وما أجمل السماء . ومر به اخوه رضوان وهو على تلك

الحال فرمقه بنظرة ساخرة وقال :
ـ ما أضيع الوقت الذي تنفقه في إدارة الوقف !
فقال أدهم باسماً :
ـ لولا إشفاقي من اغضاب أبي لشكوت ..
ـ فلنحمد نحن المولى على الفراغ !
فقال أدهم ببساطة :
ـ هنيئاً لكم ..
فسأله رضوان وهو يداري الامتعاض بالابتسام :
ـ أتود أن تعود مثلنا ؟
ـ خير ما تمضي الحياة في الحديقة والناي ..
فقال رضوان بمرارة :
ـ كان ادريس يود ان يعمل ..
فغض أدهم بصره وهو يقول :
ـ لم يكن عند ادريس وقت للعمل ، ولاعتبارات اخرى غضب ، اما السعادة الحقة ففي هذه الحديقة تجدها ..

ولما ذهب رضوان قال ادهم لنفسه : « الحديقة ، وسكانها المغردون ، والماء ، والسماء ، ونفسي النشوى ، هــذه هي الحياة الحقة . كأنني أحدّ في البحث عن شيء . ما هذا الشيء ؟ الناي أحياناً يكاد يجيب . ولكن السؤال يظل بلا جواب . لو تكلمت هذه العصفورة بلغتي لشفت قلبي باليقين . وللنجوم الزاهرة حديث كذلك . أما تحصيل الايجار فنشاز بين الانغام » .

ووقف أدهم يوماً ينظر الى ظله الملقى على الممشى بين الورود ، فاذا بظل جديد يمتد من ظله واشياً بقدوم شخص من المنعطف خلفه . بدا الظل الجديد كأنما يخرج من موضع ضلوعه . والتفت وراءه فرأى فتاة سمراء وهي تهمّ بالتراجع عندما اكتشفت وجوده ، فأشار بالوقوف

فوقفت ، وتفحصها ملياً ، ثم سألها برقة :

– من أنت ؟

فأجابت بصوت ملعثم :

– أميمة ..

انه يذكر الاسم ، فهو لجارية ، قريبة لأمه ، وكما كانت أمه قبل ان يتزوج منها أبوه .

ومال الى محادثتها اكثر فسألها :

– ماذا جاء بك الى الحديقة ؟

فأجابت مسبلة الجفنين :

– حسبتها خالية ...

– لكن ذلك محرم عليكن ..

فقالت بصوت لم يكد يسمع :

– أخطأت يا سيدي ..

وتراجعت حتى توارت وراء المنعطف ، ثم ترامى الى أذنيه وقع أقدامها المسرعـــة ، وإذا به يغمغم متأثراً « ما أملحك ! » . وشعر بأنه لم يكن قط أدخل في خلائق الحديقة منه في هذه اللحظة . وان الورد والياسمين والقرنفل والعصافير واليمام ونفسه نغمة واحدة . وقال لنفسه : « أميمة مليحة ، حتى شفتاها الغليظتان مليحتان ، وجميع اخوتي متزوجون عدا ادريس المتكبر ، وما أشبه لونها بلوني ، وما أجمل منظر ظلها وهو مفروش في ظلي كأنه جزء من جسدي المضطرب بالرغبات ، ولن يسخر أبي من اختياري وإلا فكيف جاز له أن يتزوج من أمي ؟! .»

٣

رجع أدهم الى ادارة الوقف بقلب مفعم بجمال غامض كالعبير .

وحاول كثيراً ان يراجع حساب اليوم ، ولكنه لم ير في صفحة عقله الا السمراء . ولم يكن عجيباً ان يرى أميمة اليوم لأول مرة ، فالحريم في هذا البيت كالأعضاء الباطنية يعرفها صاحبها على نحو ويعيش بفضلها ولكنه لا يراها . واستسلم ادهم الى تيار افكاره الوردية حتى انتزع منه على صوت مرعد قريب كأنما انفجر في المنظرة نفسها وهو يصيح : « أنا هنا ، في الخلاء يا جبلاوي ، ألعن الكل ، اللعنة على رءوسكم نساء ورجالاً ، واتحدى من لم تعجبه كلماتي ، سامعني يا جبلاوي ؟! » . وهتف أدهم : « ادريس ! » وغـادر المنظرة الى الحديقة فرأى أخاه رضوان متجهاً نحوه في اضطراب ظاهر ، وبادره قائلاً :

– ادريس سكران ، رأيته من النافذة مختل التوازن من السكر ، أي فضائح تخبىء الأقدار لأسرتنا ؟

فقال ادهم وهو يغضي ألماً :

– قلبي يتقطع أسفاً يا اخي ..

– وما العمل ؟! ان كارثة تهددنا !

– الا ترى يا اخي انه يجب علينا ان نحدث ابانا في الأمر ..؟

فقطب رضوان قائلاً :

– أبوك لا يراجَع في أمر ، وحال ادريس هذه لا شك ضاعفت من غضبه عليه ..

فغمغم أدهم في كآبة :

– ما كان أغنانا عن هذه الأحزان !

– نعم ، النساء يبكين في الحريم ، عبـاس وجليل معتكفان من الكدر ، وأبونا وحده في حجرته لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه ..

فتساءل أدهم في قلق وهو يشعر بأن ملابسات الحديث تدفعه الى مأزق :

– الا ترى انه ينبغي ان نعمل شيئاً ؟

– يبدو ان كل واحد منا يود أن يلوذ بالسلامة ، ولا يهدد السلامة

مثل طلبها بأي ثمن ، غير اني لن اجازف بمركزي ولو انطبقت السماء على الأرض ، أما كرامة اسرتنا فتتمرغ الساعة في التراب في ثوب ادريس ..

لماذا قصدتني اذن ؟! . بين يوم وليلة انقلب ادهم غراب بين ينعق . وتنهد قائلاً :

– اني بريء من كل هذا ، ولكن لن تطيب لي الحياة ان سكتّ ..

فقال رضوان وهو يهمّ بالذهاب :

– لديك من الأسباب ما يوجب عليك العمل ..!

ومضى راجعاً . ولبث أدهم وحده وأذناه ترددان هذه العبارة « لديك من الأسباب .. » . نعم . انه المتهم دون ذنب جناه . كالقلة التي تسقط على رأس لأن الريح أطاحت بها . وكلما أسف أحد على ادريس لُعِن ادهم . واتجه أدهم نحو الباب ففتحه في رفق ومرق منه . رأى ادريس غير بعيد يترنح دائراً حول نفسه ، يقلب عينين زائغتين ، وقد تشعث رأسه وانحسر جيب جلبابه عن شعر صدره . ولما عثرت عيناه على ادهم توثب للانقضاض كأنه قطة لمحت فأراً ، ولكن أعجزه السكر فمال نحو الارض وملأ قبضته تراباً ورمى به ادهم فأصاب صدره وانتثر على عباءته . وناداه ادهم برقة :

– اخي ..

فزمجر ادريس وهو يترنح :

– اخرس يا كلب يابن الكلب ، لا أنت أخي ولا ابوك ابي ، ولأدكّن هذا البيت فوق رءوسكم ..

فقال ادهم متودداً :

– بل انت اكرم هذا البيت وأنبله ..

فقهقه ادريس من فيه دون قلبه وصاح :

– لماذا جئت يا ابن الجارية ؟ ، عد الى امك وأنزلها الى بدروم الخدم ..

فقال ادهم دون ان تتغير مودته :
- لا تستسلم للغضب، ولا توصد الابواب في وجه الساعين لخيرك ..
فلوّح ادريس بيده ثائراً وصاح :
- ملعون البيت الذي لا يطمئن فيه الا الجبناء ، الذين يغمسون اللقمة في ذل الخنوع ، ويعبدون مذلهم ، لن اعود الى بيت انت فيه رئيس ، فقل لأبيك انني اعيش في الخلاء الذي جاء منه ، وانني عدت قطاع طريق كما كان ، وعربيداً اثيماً معتوياً كما يكون ، وسيشيرون اليّ في كل مكان اعيث فيه فساداً ويقولون : « ابن الجبلاوي » ، بذلك أمرغكم في التّراب يا من تظنون انفسكم سادة وانتم لصوص ..
وتوسل ادهم قائلاً :
- اخي أفِق ، حاسب نفسك على كل كلمة توجب اللوم ؛ ليس الطريق مسدوداً في وجهك الا ان تسده بيديك ، واني أعدك بأن يعود كل شيء طيب الى اصله ..
فخطا ادريس نحوه بصعوبة كأن ريحاً ترجعه وقال :
- بأي قوة تعدني يا ابن الجارية ؟
فقال وهو يرمقه بحذر :
- بقوة الأخوة !
- الأخوة ! قذفت بها في اول مرحاض صادفني ..
فقال ادهم متألماً :
- ما سمعت منك من قبل الا الجميل ..
- طغيان ابيك أنطقني بالحق ..
- لا احب ان يراك الناس على هذه الحال .
فأرسل ادريس ضحكة معربدة وصاح :
- وسيرونني على اسوأ منها كل يوم ، العار والفضيحة والجريمة ستحلّ بكم على يدي ، طردني ابوك دون حياء فليتحمل العواقب ..

ورمى بنفسه نحو أدهم فتنحّى هذا عن موقفه دون تردد، فكاد ادريس يهوى على الأرض لولا ان استند الى الجدار ، ولبث يلهث حانقاً ، وينظر في الأرض مفتشاً عن حجر، فتراجع ادهم بخفة الى الباب ودخل. واغرورقت عيناه من الحزن . وكان صياح ادريس ما زال صاخباً . وحانت منه التفاتة نحو السلاملك فلمح اباه خلال الباب وهو يعبر البهو ، فمضى نحوه وهو لا يدري ، متغلباً على خوفه بحزنه . ونظر اليه الجبلاوي بعينين لا تفصحان عن شيء . وكان يقف بقامته المديدة ومنكبيه العريضين امام صورة محراب نقشت على جدار البهو خلفه . واحنى أدهم رأسه قائلاً

– السلام عليكم ..

فتفحصه الجبلاوي بنظرة عميقة ثم قال بصوت نفذ الى اعماق قلبه :

– صرّح بما جئت من اجله ..

فقال ادهم بصوت مهموس :

– أبي ، ان اخي ادريس ..

فقاطعه الأب بصوت كضربة الفأس في الحجر :

– لا تذكر اسمه أمامي ..

ثم وهو يمضي الى الداخل :

– اذهب إلى عملك !

٤

توالى مشرق الشمس ومغيبها على هذه البقعة الخلاء وادريس يتردى في مهاوي الشقاوة . في كل يوم يسجل في كتابه حماقة جديدة . كان

يدور حول البيت ليقذفه بأقذع الشتائم . او يجلس على كثب من الباب ، عارياً كما ولدته أمـــه كأنما يتشمس ، وهو يترنم بأفحش الأغاني . وكان يتجول في الأحياء القريبة في خيلاء الفتوات ، يتحدى كل عابر بنظرات هجومية ، ويتحرش بكل من يعترض سبيله ، والناس يتحاشونه كاظمين ، وهم يتهامسون « إبن الجبلاوي ! » ولم يحمل لغذائه هماً ، فكان يمد يده بكل بساطة الى الطعام حيث وجـــده ، في مطعم او على عربة ، فيأكل حتى يكتظ ثم يمضي دون شكر من ناحيته أو محاسبة من الآخرين . وإذا تاقت نفسه الى العربدة مال الى اول حانة تصادفه ، فتقدم اليه البوظة حتى يسكر ، ثم ينطلق لسانه كالنافورة بأسرار أسرته وأعاجيبها ، وتقاليدها السخيفة وجبنها المهين ، منوهاً بثورته على أبيه ، جبار هذه الاحياء جميعاً ، ثم يدخل في قافيـــة ليغرق في الضحك ، ويغني إذا لزم الحال ويرقص ، وتتناهى مسرتـــه إذا ختمت السهرة بمعركة ، ثم يذهب مشيعاً بالتحيـــات . وفي كل مكان اشتهر بهذه السيرة ، فتحاماه الناس ما استطاعوا ، ولكنهم سلموا بأمره كأنـــه مصيبة من مصائب الدهر . ونال الأسرة من ذلك مـــا نالها من الغم والكرب . وغلب الحزن أم ادريس فشُلّت واحتضرت . وجاء الجبلاوي ليودعها فأشارت نحوه بيدها السليمة محتجة وفاضت روحها في أسى وغضب ، وخيم الحزن على الأسرة كخيـوط العنكبوت ، فتوقف سمر الاخوة فوق السطح ، وسكت ناي ادهم في الحديقة .

ويوماً تفجر الأب عن ثورة جديدة كانت ضحيتها تلك المرة امرأة. اذ تعالى صوته الجهير وهو يلعن نرجس الخادمة ويطردها من البيت . وعُلم في نفس اليوم أن أعراض الحمل ظهرت على المرأة ، فقُرّرت حتى أقرت بأن إدريس اعتدى عليها قبـــل طرده . وغادرت نرجس البيت وهي تصوت وتلطم خديها . وهامت على وجهها سحابة النهار حتى عثر عليها ادريس فالحقها بركابه دون ترحيب ، ودون جفاء كذلك إذ

لم تكن تخلو من نفع عند الحاجة .

على أن كل مصيبة وإنجلّت لا بد يوماً أن تُؤلّف . لذلك أخذت الحياة تعود إلى مجراها المألوف في البيت الكبير كما يعود السكان الى ديارهم عقب زلزال أكرههم على الفرار منها . عاد رضوان وعباس وجليل إلى ندوة السطح ، كما عاد أدهم إلى سهرة الحديقة يناجي الناي فيناجيه . ووجد أميمة تضيء خواطره وتدفيء مشاعره ، وصورة ظلها المعانق لظله ترتسم بوضوح في مخيلتـــه ، فقصد مجلس أمه في حجرتها حيث كانت تطرز شالاً ، فأفضى اليها بذات نفسه ، إلى ان قال :

– إنها أميمة يا أمي ، قريبتك ..

فابتسمت أمه ابتسامة باهتة دلت على أن فرحة الخبر لم تستطع التغلب على عناء مرضها وقالت :

– نعم يا أدهم ، انها فتاة طيبة ، تصلح لك كما تصلـــح لها ، وستسعدك بمشيئة المولى ..

ولما رأت تورد البهجة في وجنتيه استدركت قائلة :

– لا ينبغي أن تدللها يا بني حتى لا تفسد حياتك ، وسأخـــاطب أباك في الأمر لعلي أنعم برؤية ذريتك قبل ان يدركني الموت ..

وعندما دعاه الجبلاوي إلى مقابلته وجده يبتسم ابتسامة لطيفـــة حتى قال لنفسه : « لا شيء يعادل شدّة أبـي إلا رحمته » . وقال الأب :

– ها أنت تطلب زوجة يا أدهم ، ما أسرع الزمن ، وهذا البيت يحتقر المساكين ولكنك باختيار أميمة تكرم أملك ، لعلك تنجب ذريـة صالحة . لقد ضاع إدريس ، وعباس وجليـــل عقيمان ، ورضوان لم يعش له ولد حتى اليوم ، وجميعهم لم يرثوا عني إلا كبريائي ، فاملأ هذا البيت بذريتك ، وإلا ذهب عمري هباء .

وكانت زفة أدهم التي لم يشهد لها الحي نظيراً من قبـــل . وحتى اليوم يجري ذكرها مجرى الأمثال في حارتنا . تدلت ليلتذاك الكلوبـــات،

من غصون الاشجار ومن فوق السور حتى بـدا البيت بحيرة من نور وسط الخلاء المظلم . وأقيم سرادق فوق السطح للمغنين والمغنيـات . وامتدت موائد الطعام والشراب في البهو والحديقة والخلاء المتصل بمدخل البيت الكبير . وبدأت زفة أدهم من أقصى الجمالية عقب منتصف الليل . سار فيها كل من يحب الجبلاوي أو يخافه حتى انتظمت الجميع . وخطر أدهم في جلباب حريري ولاسة مزركشة بين عباس وجليل ، أما رضوان فسار في المقدمة ، وعلى اليمين وعلى اليسار حاملو الشموع والورود ، وتقدم الموكب مجموعة ضخمة من المنشدين والراقصين ، وتعالى الغناء ، وتبعته تأوهات المطربين وتحيات المعجبين بالجبلاوي وأدهم ، حتى استيقظ الحي ودوت الزغاريد . وسار الموكب من الجمالية فالعطوف ثم كفر الزغاري والمبيضة ، ينهال عليه الترحيب حتى من الفتوات ، وحطب من حطب، ورقص من رقص ، ووزعت الحانات البوظة مجاناً فسكر حتى الغلمان ، وتهادت الجوز من جميع الغرز في طريق الموكب هدية للمحتفلين فعبق الجو بحسن كيف والهندي .

وفجأة لاح إدريس كمارد انشقت عنه الظلمة في آخر الطريق . لاح عند المنعطف المفضي إلى الخلاء على ضوء الكلوبات التي تتقدم الموكب فتوقف حاملو الكلوبات عن السير وانتشر التهامس باسم ادريس . ولمحته أعين المنشدين فاعترض الخوف حناجرهم فكفت عن الغنـاء ، ورآه الراقصون فجمدت أوساطهم . وسرعان مـا سكتت المزامير وخرست الطبول ، وغاضت الضحكات . وتساءل كثيرون عم يفعلون ، فهم إن استكانوا لم يأمنوا الأذى وان ضربوا لم يضربوا إلا ابن الجبلاوي .

ولوح إدريس بنبوته وهو يصيح :

– لمن الزفة يا حثالة الجبناء ؟

فساد الصمت واشرأبت الأعناق نحو أدهم وإخوته ، وعاد ادريس يتساءل :

– متى كنتم لابن الجارية أو لأبيه أصدقاء ؟
عند ذاك تقدم رضوان خطوات وهتف قائلاً ؛
– إخي ، من الحكمة ان تدع الزفة تمر ..
فصاح إدريس مقطباً :
– أنت آخر من يتكلم يا رضوان ، أنت أخ خائن وابنٌ جبان ، وذليل يشتري رغد العيش بالكرامة والأخوة ..
فقال رضوان باشفاق :
– لا شأن للناس باختلافاتنا ..
فقهقه ادريس قائلاً :
– الناس يعلمون بخزيكم ، ولولا جبنهم العريق ما وجدت هذه الزفة زامراً أو منشداً ..
فقال رضوان بعزم ثابت :
– أبوك عهد إلينا بأخيك ، ولا بد أن نحفظه ..
فعاد ادريس يقهقه وهو يتساءل :
– أرأيت انك تدافع عن نفسك لا عن ابن الجارية ؟
– أين رشادك يا أخي ؟ بالحكمة وحدها تعود الى بيتك .
– إنك كاذب ، وأنت تعلم أنك كاذب ..
فقال رضوان في حزن :
– لن ألومك فيما يخصني ، ولكن دع الزفة تمر بسلام ..
فكان جوابه ان انقضّ على الموكب كالثور الهائج . وأخذ نبّوته يرتفع ويهوى فتتحطم الكلوبات وتتصدع الطبول وتبعثر الورود ؛ وراح الناس يولون مذعورين كالرمال أمام العاصفة . وتكاتف رضوان وعباس وجليل أمام أدهم فتضاعف غضب ادريس :
– يا أنذال ، تدافعون عمن تكرهون خوفاً على الطعام والشراب ..
وهجم عليهم ، فتلقّوا ضرباته بنبابيتهم دون ان يردوا عليها وهم

يتراجعون . وإذا به يرمي بنفسه فجأة بينهم فيشور سبيــلا الى موقف أدهم فعلا الصوات في النوافذ ، وهتف أدهم وهو يتحفز للدفـــاع عن نفسه :

– ادريس ، لستُ عدواً لك فارجع الى عقلك .

ورفع ادريس نبوته . وهنا صاح صائح : « الجبـــلاوي » . وصاح رضوان مخاطباً ادريس :

– أبوك قادم ..

فوثب ادريس الى جانب الطريق والتفت الى الوراء فرأى الجبلاوي قادماً وسط هالة من الخدم يحملون المشاعل . وعض ادريس على أسنانه ثم هتف ساخراً :

– سأهبك عما قريب حفيداً من الزنا تقرّ به عينك .

واندفع نحو الجمالية والناس توسع له على الجانبين حتى ابتلعته الظلمة . وبلغ الأب موقف الأخوة وهو يتظاهر بهدوء تحت آلاف الأعين المحدقة فيه ، ثم قال بلهجة آمرة :

– ليعد كل شيء إلى أصله ..

ورجع حملة الكلوبات الى مواقعهم ، ودقت الطبـــول ، وعزفت المزامير ، ثم غنى المنشدون ، ورقص الراقصون ، واستأنفت الزفـــة مسيرهـــا ..

وسهر البيت الكبير حتى الصباح في طرب وشراب وغناء . وعندما دخل أدهم حجرته المطلة على خلاء المقطم وجد أميمة واقفة الى جانب المرآة والنقاب الأبيض ما يزال يغطي وجهها . كان مخموراً مسطولاً لا تكاد تحمله قدماه ، فاقترب منها وهو يبذل جهداً شديـــداً ليتمالك اعصابه . ورفع النقاب عن وجهها الذي طالعه في أحسن رواء ، وهوى برأسه حتى لثم شفتيها المكتنزتين ، ثم قال بلسان مخمور :

– لتهن الهموم جميعاً ما دمتِ حسن الختام ..

واتجه نحو الفراش ، يستقيم خطوة ويترنح خطوة ، حتى استلقى على عرض السرير باللاسة والمركوب ، وكانت أميمة تنظر الى صورتـــه المنعكسة على المرآة وهي تبتسم في إشفاق وحنان ..

٥

وجد أدهم في أميمة سعادة لم يعرفها من قبل . ولبساطته أعلن عن سعادته بأقواله وأحواله حتى تندّر به إخوته . وعند ختـــام كل صلاة كان يبسط يديه هاتفاً : « الحمد لصاحب المنن ، على رضى أبـي الحمد له ، على حب زوجتي الحمد له ، على المنزلة التي أحظى بها دون من هم أجدر مني بها الحمد له ، على الحديقة الغناء والنـــاي الرفيق الحمد له » . وقالت كل امرأة من نساء البيت الكبير إن أميمة زوجة واعية ، فهي ترعى زوجها كأنـــه ابنها ، وتوادد حماتها وتخدمها حتى أسرتها ، وتولي مسكنها العناية التامة كأنه قطعة من جسدها . أما ادهم فكان زوجاً مترع القلب بالمحبة وحسن المعاشرة . وكما شغلته إدارة الوقف عن جزء من ملاهيه البريئة في الحديقة من قبل ، فقد شغل الحب بقية يومه ، واستبد به حتى نسي نفسه . وتوالت ايام هانئة ، وامتدت فوق مـــا قدر رضوان وعباس وجليل الساخرون ، ولكنها ارتطمت في النهايـــة بذاك الهدوء الحكيم كما تنتهي مياه الشلال المتدفقة الراغية المزبدة في النهر الرصين . وعاد التساؤل يحتل مكانه في قلب ادهم ، فشعر بأن الزمن لا يمر في غمضة عين ، وان النهار يعقبه الليل ، وان المناجاة اذا تواصلت الى غير نهاية فقدت كل معنى ، وان الحديقة ملهاة صادقة لا يجدر به أن يهجرها ، وان شيئاً من هذا لا يعني بحال ان قلبه تحول عن أميمة ، فما تزال في صميمه ، ولكن للحياة أطواراً لا يخبرها المرء الا يوماً بيوم.

وعاد الى مجلسه عند القناة ، وأجال بصره في الأزهار والعصافير ممتناً ومعتذراً . واذا بأميمة تلحق به مشرقة بالبهجة ، فجلست الى جانبه وهي تقول :

– نظرت من النافذة لأرى ما أخرّك ، لماذا لم تدعُني معك ؟

فقال باسماً :

– خفت ان اتعبك ..

– تتعبني ؟.. طالما احببت هذه الحديقة ، اتذكر اول لقاء لنا هنا ؟

واخذ يدها في يده ، واسند رأسه الى جذع النخلة مرسلاً طرفه الى الغصون ، والى السماء خلال الغصون ، وعادت هي تؤكد له حبها للحديقة ، وكلما امعن في الصمت أمعنت في التوكيد ، اذ انها كانت تكره الصمت بقدر ما تحب الحديقة ، وكان حديث حياتها اطيب حديث . ولا بأس بالوقوف بعض الوقت عند أهم الاحداث في البيت الكبير ، خاصة ما يتعلق بزوجات رضوان وعباس وجليل ، ثم تغير صوتها مائلا نحو العتاب وهي تقول :

– أنت تغيب عني يا أدهم ..؟

فابتسم إليها قائلاً :

– كيف وأنت ملء القلب !

– ولكنك لا تصغى إلي ..؟

هذا حق . ومع انه لم يرحب بمقدمها فانه لم يضق به . ولو همت بالرجوع لأمسك بها صادقاً . والحق انه يشعر بأنها جزء لا يتجزأ منه . وقال كالمعتذر :

– اني أحب هذه الحديقة ، لم يكن في حياتي الماضية أطيب من جلستها ، وتكاد أشجارها الباسقة ومياهها المفضفضة وعصافيرها المزقزقة تعرفني كما أعرفها ، وأود ان تقاسميني حبها ، أرأيت الى السماء كيف تبدو خلال الغصون ؟

فرفعت عينيها مقدار لحظة ثم نظرت اليه باسمة وقالت :
– انها جميلة حقاً ، وجديرة بأن تكون اطيب ما في حياتك ..
فـآنس من قولها العتاب دون افصاح وبادرها قائلاً :
– بل كانت كذلك قبل ان اعرفك ..
– والآن ؟
فضغط على يدها بحنوّ قائلاً :
– لا يتم جمالها الا بك ..
فقالت وهي تحدّ بصرها نحوه :
– من حسن الحظ انها لا تؤاخذك على انصرافك عنها اليّ ..
فضحك أدهم وجذبها نحوه حتى التصق خدها بشفتيه ، ثم سألها :
– أليست هذه الأزهار اجدر بالتفاتنا من الكلام عن زوجات اخوتي ؟!
فقالت أميمة باهتمام :
– الأزهار اجمل ولكن زوجات اخوتك لا يكففن عن الحديث عنك ، ادارة الوقف ، دائماً ادارة الوقف ، وثقة أبيك فيك، يُبدئن ويُعدن في هذا ..
وقطب أدهم غائباً عن الحديقة ، وقال بحدة :
– لا شيء ينقصهن !
– الحق اني اخاف عليك العين ..
فهتف ادهم غاضباً :
– لعنة الله على الوقف ، أرهقني وغيّر القلوب عليّ وسلبني راحة البال ، فليذهب في داهية ..
فوضعت أصبعها على شفتيه وهي تقول :
– لا تكفر بالنعمة يا أدهم ، ان ادارة الوقف شأن خطير ، وقد تجر وراءها نفعاً لا يخطر بالبال ..
– جرّت حتى الآن المتاعب .. ، وحسبنا مأساة ادريس ..

فابتسمت ، لكن ابتسامتها لم تنمّ عن بهجة وانما دارت بها اهتماماً جدياً تجلى في نظرة عينيها ، وقالت :

– انظر الى مستقبلنا كما تنظر الى الغصون والسماء والعصافير ..

وواظبت أميمة على مشاركته جلسته في الحديقة . ولم تكن تعرف الصمت إلاّ في النادر . لكنه اعتادها ، كما اعتاد الاصغاء بنصف انتباه او دون ذلك ، وعند الحاجة يتناول الناي لينفخ فيه ما شاء له الطرب . واستطاع ان يقول في رضى تام ان كل شيء طيّب . حتّى شقاوة ادريس باتت شيئاً مألوفاً . لكن المرض اشتد على أمه . وعانت آلاماً لم تعرفها من قبل تقطّع لها قلبه . وكانت تدعوه الى جانبها كثيراً فتسبغ عليه اكرم الدعاء . ومرة قالت له بتوسل حار : « أدع ربك دائماً ان يقيك الشر ويهديك سواء السبيل » . ولم تدعه يذهب . وظلت تراوح بين الأنين وبين مخاطبته وتذكيره بوصيتها حتّى فاضت روحها بين يديه . وبكاها أدهم ، وبكتها أميمة ، وجاء الجبلاوي فنظر في وجهها ملياً ثم سجّاها باحترام وقد تجلت في عينيه الحادّتين نظرة كئيبة مليئة بالشجن .

وما كاد ادهم يعود رويداً الى مألوف الحياة حتّى ارتطم بتغير طارىء على أميمة لم يعرف له علة . بدأ بانقطاعها عن مجلسه في الحديقة فلم يسر بذلك كما كان يتوهم احياناً . وسألها عن سر انقطاعها فاعتلّت بأعذار شتّى كالعمل او التعب . ولاحظ انها لم تعد تقبل عليه بالاندفاع المعهود ، فاذا اقبل هو عليها لاقته دون عاطفة حقيقية ، كأنما تجامله ، وكأنما مجاملته عناء . وتساءل عما هنالك ! لقد مر بشيء شبيه بهذا ، ولكن حبه صمد له وتغلب عليه . وكان بوسعه ان يقسو عليها ، وود احياناً لو يفعل ذلك ولكن منعه انكسارها وشحوبها ومغالاتها في التأدب معه . احياناً تبدو حزينة ، وأحياناً تبدو حائرة ، ومرة باغت في عينيها نظرة نافرة حتّى ركبه الغضب والجزع معاً . وقال لنفسه : « فلأصبر عليها قليلاً ، إما ينصلح حالها او فلتذهب في الف داهية ! » .

وجلس الى ابيه في مخدع الرجل ليعرض عليه حساب الشهر الختامي . وتفحصه الأب دون ان يعنى بمتابعته وسأله :

– مالك ؟

فرفع أدهم رأسه نحوه في دهش وقال :

– لا شيء يا ابي ..

فضيق الرجل عينيه وتمتم :

– خبرني عن اميمة ..

فانخذلت عيناه تحت نظرة ابيه النافذة وقال :

– بخير ، كل شيء طيب .

فقال الجبلاوي بضجر :

– صارحني بما عندك .

فصمت ادهم ملياً ، وهو يؤمن بأن اباه قادر على معرفة كل شيء ، ثم قال معترفاً :

– تغيرت كثيراً ، وتبدو كالنافرة .

فتجلت في عيني الأب نظرة غريبة وقال :

– هل وقع بينكما خلاف ..

– ابداً .

فقال الجبلاوي في ارتياح وهو يبتسم :

– يا جاهل ، ترفق بها ، لا تقترب منها حتى تدعوك ، سوف تكون اباً عما قريب .

٦

جلس ادهم في ادارة الوقف يستقبل مستأجري الأحكار الجدد ، واحداً بعد آخر ، وقد وقفوا طابوراً ، أوله امامه وآخره في نهاية المنظرة

الكبيرة . ولما جاء آخر المستأجرين سأله ادهم دون ان يرفع رأسه عن دفتره في عجلة وضجر :
– إسمك يا معلم ؟
فجاءه صوت يقول :
– ادريس الجبلاوي .
فرفع ادهم رأسه في فزع فرأى اخاه واقفاً امامه ، ثم وقف متوثباً للدفاع عن نفسه وهو ينظر نحوه بحذر . لكن ادريس بدا في مظهر جديد لا عهد لأحد به . بدا رث الهيأة ، هادئاً ، متواضعاً ، حزين الطرف ، مأمون الجانب ، كالثوب المنشى بعد نقعه في الماء . ومع ان هذا المنظر استل من نفس ادهم كل حنق قديم الا انه لم يطمئن الى السلامة كل الاطمئنان ، فقال في تحذير مشوب بالرجاء :
– ادريس .!
فأحنى ادريس رأسه قائلاً في رقة عجيبة :
– لا تخف ، لست الا ضيفك في هـــذا البيت اذا وسعني كرم اخلاقك .
أهذا الكلام اللطيف يصدر عن ادريس حقاً ! . هل أدّبته الآلام ؟. الحق ان خشوعه محزن كفجوره . وألا تعد استضافته له تحدياً للأب ؟. لكنه جاء دون دعوة منه . ووجد نفسه يشير إليه بالجلوس على مقعد قريب من مقعده ، فجلسا معاً وهما يتبادلان النظر في غرابة حتّى قال ادريس :
– اندسست في جموع المستأجرين لأتمكن من الانفراد بك .
فتساءل ادهم في قلق :
– ألم يرك احد ؟
– لم يرني احـــد من البيت ، اطمئنّ الى هذا ، لم أجيء لأكدر صفوكُ ولكني الجأ الى لطف اخلاقك .

فغض ادهم عينيه متأثراً وقد تصاعد الدم الى وجهه ، فقال ادريس :
ـ لعلك تعجب لما غيّرني ، لعلك تتساءل اين ذهب تكبره وصلفه ، فاعلم انني قاسيت آلاماً لا يقدر عليها احد ، ورغم هذا كله فانني لا اقف موقفي هذا من احد سواك اذ ان مثلي لا ينسى كبرياءه الا حيال الخلق اللطيف .

فغمغم ادهم قائلاً :
ـ خفف الله عنك وعنا ، فكم نغّص مصيرك حياتي وكدرها .
ـ كان ينبغي ان اعرف هـــذا من اول الأمر ، ولكن الغضب جنني ، وفتكت الخمر بكرامتي : ثم اجهزت حياة التشرد والبلطجة على الرمق الأخير من انسانيتي ، أعهدتَ مثل ذاك السلوك في اخيك الأول ؟!

ـ ابداً ، كنت خير أخ وأنبل انسان !
فقال ادريس بصوت المتوجع :
ـ حسرة على تلك الأيام ، لست اليوم الا شقياً ، أخبط في الخلاء جاراً ورائي امرأة حبلى ، اشبع في كل مكان باللعنات ، واشتري رزقي بالمنكر والعدوان .
ـ انك تمزق قلبي يا اخي .
ـ معذرة يا ادهم ، لكن هذه هي طويتك التي خبرتها منذ قديم ، ألم احملك صغيراً على يدي ، الم اشهد صباك ويفاعتك وألمس فيها نبلك وسجاياك الحميدة ؟ لعن الله الغضب حيثما احترق .
ـ لعنة ابدية يا اخي .
وتنهد ادريس وهو يقول وكأنما يخاطب نفسه :
ـ شدّ ما اسأت اليك : ان ما حاق بي من شر وما سيحيق لهو دون ما استحق من جزاء .
ـ خفف الله عنك ، اتدري أنني لم ايأس ابداً من عودتك ؟

حتى في ابان غضب ابينا جازفت بمخاطبته في شأنك .
فابتسم ادريس عن اسنان علاها الاصفرار والقذارة وقال :
— هذا ما حدثتني به نفسي ، قلت ان يكن ثمة رجاء في مراجعة ابي فلن يتأتى عن سبيل سواك .
فلمعت عينا ادهم وهو يقول :
— اني المس الهداية في روحك الكريم ، الا ترى انه قد آن الآوان لكي نخاطب والدنا في الأمر ؟
فهز ادريس رأسه الأشعث في يأس وقال :
— اكبر منك بيوم يعرف اكثر منك بسنة ، وأنا اكبرك بعشر سنوات لا بسنة واحدة ، فاعلم ان ابانا يغفر كل شيء الا ان يهينه احد ، لن يعفو عني ابوك بعد ما كان ، ولا أمل لي في العودة الى البيت الكبير .
لا شك فيما قاله ادريس ، وهذا ما زاده حرجاً وضيقاً ، وتمتم في كآبة :
— ماذا في وسعي ان افعل من اجلك ؟
فابتسم ادريس مرة اخرى قائلاً :
— لا تفكر في مساعدات مالية ، فاني واثق من امانتك كمدير للوقف ، واعلم انك اذا مددت لي يد المعونة فسيكون من حر مالك وهو ما لا اقبله ، انك اليوم زوج وغداً أب ، وأنا لم اجئك مدفوعاً بفقري ، ولكني جئت لأعلن لك ندمي عما فرط مني في حقك ، ولاسترد مودتك ، ثم ان لي رجاء .
فتطلع اليه ادهم باهتمام وتساءل :
— قل يا اخي ما رجاؤك ؟
فأدنى ادريس رأسه من اخيه كأنما يخشى ان تسمعه الجدران وقال :
— اريد ان اطمئن على مستقبلي بعد ان خسرت حاضري ، سأكون

اباً مثلك ، فما مصير ذريتي ؟
— ستجدني رهن اشارتك في كل ما استطيع ..
فربت ادريس كتف ادهم بامتنان وقال :
— أريد ان اعرف هل حرمني أبي حقي في الميراث ؟
— كيف لي بمعرفة هذا ، ولكن ان سألتني عن رأيي ..
فقاطعه ادريس قلقاً :
— اني لا أسأل عن رأيك ولكن عن رأي أبيك ..
— إنه كما تعلم لا يصارح احداً بما يدور في رأسه ..
— ولكنه دون شك قد سجله في حجة الوقف ..
فهز أدهم رأسه دون ان ينبس ، فعاد ادريس يقول:
— كل شيء في الحجة ..
— لا علم لي بها ، وانت تعلم ان احداً في بيتنا لا يدري عنها شيئاً ، وعملي في الادارة يسير تحت اشراف أبي الكامل ..
فحدجه ادريس بنظرة حزينة وقال :
— الحجة في مجلد ضخم ، وقد لمحته مرة في صباي وسألت أبي عما فيه — وكنت وقتذاك قرة عينه — فقال لي إنه يضم كل شيء عنا ، ولم نعد الى الحديث عنه ، ولم يسمح لي بذلك حين بــدا لي ان اسأل عن بعض ما جاء فيه ، ولا أشك الآن في ان مصيري قد تقرر فيه ..
فقال ادهم وهو يشعر بأنه ينحصر في ركن ضيق :
— الله أعلم .
— انه في الخلوة المتصلة بمخدع ابيك ، ولا شك انك رأيت بابها الصغير في نهاية الجدار الأيسر . وهو باب مغلق دائماً ، لكن مفتاحه مودع في صندوق فضي صغير في درج الخوامة القريب من الفراش ، اما المجلد الضخم فعلى ترابيزة في الخلوة الضيقة ..
فرفع ادهم حاجبيه الخفيفين في انزعاج وتمتم :

— ماذا تريد ؟
فقال ادريس متنهداً :
— إن كان ثمة راحة بال باقية لي في هذه الدنيا فهي رهن بمعرفتي ما سجّل في الحجة عني ..
فقال ادهم في ارتياع :
— أهون علي ان اسأله عما في الشروط العشرة صراحة !
— لن يجيب ، وسيغضب ، وربما اساء بك الظن ، او خمن الدافع الحقيقي وراء سؤالك فثار سخطه ، وكم أكره أن تخسر ثقة ابيك جزاء احسانك الي ، وهو لا شك لا يريد ان يذيع شروطـه العشرة ، ولو أراد ذلك لعرفناها جميعاً ، فلا سبيل مأموناً الى الحجة الا السبيل الذي وصفته لك ، وهو ميسور جداً عنـد الفجر حين يتجول ابوك في الحديقة ..
فامتقع وجه ادهم وهو يقول :
— ما افظع ما تدعوني اليه يا أخي ..
فدارى ادريس خيبته بابتسامة شاحبة وقال :
— ليس جريمة ان يطلع ابن على ما يخصه في حجة أبيه .
— لكنك تطلب إلي سرقة سر يحرص ابونا على صونه ..
فتنهد ادريس بصوت مسموع وقال :
— قلت لنفسي عندما قررت اللجوء إليك : « ما اصعب ان اقنـع ادهم بعمل يعتبره مخالفـاً لارادة الاب » ، ولكن داعبني أمل قوي فقلت : « لعله يقدم اذا لمس مدى حاجتي الى معونته » ، وليس في الأمر جريمة ، وسيمر بسلام ، وستجد أنك انتشلت روحاً من الجحيم دون ادنى خسارة ..
— ليحفظنا المولى من الأخطار ..
— آمين ، لكني اتوسل اليك ان تنقذني من العذاب ..

نهض ادهم في جزع واضطراب ، فنهض ادريس في أثره ، وابتسم ابتسامة دلت على تسليمه باليأس ، وقال :

– أزعجتك حقاً يا ادهم ؛ من امارات تعاستي انني لا ألقى شخصاً حتى تدركه المتاعب على وجه أو آخر ، بات ادريس لعنة ساخرة ..

– كم يعذبني عجزي عن مساعدتك ؛ انه عذاب ما بعده عذاب ..

فدنا منه حتى وضع يده على منكبه في رقة ، ثم لثم جبينه في عطف ، وقال :

– لا يسأل عن تعاستي إلا نفسي ، لماذا احملك فوق ما تطيق ؟ دعني أتركك بسلام وليفعل الله ما يشاء ..

قال ادريس ذلك ثم ذهب ..

٧

دبت الحيوية في وجه أميمة لأول مرة منذ عهد قصير ، فسألت ادهم باهتمام :

– ألم يحدثك ابوك عن الحجة من قبل ؟

كان ادهم متربعاً على الكنبة ، ينظر من النافذة الى الخلاء الغارق في الظلمة . فأجابها :

– لم يحدث أحداً عنها قط ..

– لكن انت ..

– لست إلا احد ابنائه الكثيرين ..

فابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت :

– لكنه اختارك انت لتدير الوقف ..

فالتفت نحوها قائلاً بحدة :

– قلت إنه لم يحدث احداً عنها قط ..
فابتسمت مرة اخرى كأنما لتلطف حدته ، ثم قالت بمكر :
– لا تشغل بالك ، ادريس لا يستحق ذلك ، إن اساءاته لك لا تُنسى أبداً ..
فحول ادهم رأسه نحو النافذة ، وقال بحزن :
– ادريس الذي جاءني اليـوم غير ادريس الذي اساء إلي ، إن منظره النادم الحزين لا يبرح مخيلتي ..
فقالت بارتياح ظافر :
– هذا ما أدركته من حديثك ، وهو سر اهتمامي بالأمر ، ولكنك تبدو ضيق الصدر بخلاف عادتك ..
كان ينظر إلى ظلام الليل الكثيف ، لكن رأسه المشغول لم يستجب له ، فقال :
– لا فائدة ترجى من الاهتمام ..
– لكن أخاك النادم يسألك الرحمة ..
– العين بصيرة واليد قصيرة ..
– يجب ان تحسن علاقتك به ، وبأخوته ، والا وجدت نفسك يوماً وحيداً أمامهم ..
– انك تهتمين بنفسك لا بادريس ..
فهزت رأسها كأنما تزيح عنه نقاب المكر وقالت :
– من حقي ان اهتم بنفسي ، ومعنى هـذا ان اهتم بك وبمـا في بطني ..
ماذا تريد المرأة ؟ وهذا الظلام ما أشد كثافته ، حتى المقطم العظيم قد ابتلعه . وأراح نفسه بالصمت . واذا بها تسأله :
– ألا تذكر انك دخلت الخلوة أبداً ؟
فأجاب خارجاً من صمته القصير :

– أبداً ، احببت في صباي ان ادخلها فنعني أبـي ، ولم تكن أمي تسمح لي بالاقتراب منها ..

– لا شك انك كنت تتمنى دخولها ..

ما حادثها في الأمر الا وهو ينتظر ان تدفعه عنه لا ان تجيز بـه اليه . كان بحاجة الى من يؤكد له صواب موقفة من أخيـه . كان بحاجة ماسة الى ذلك ولكنـه كمن كان ينادي في الظلام خفيراً فيخرج اليه قطاع طريق . وعادت أميمة تسأله :

– والحوان الذي به الصندوق الفضي هل تعرفه ؟

– كل من دخل الحجرة يعرفه ، لماذا تسألين عنه ؟

تزحزحت من مجلسها على الكنبة مقتربة منه وسألته باغراء :

– بربك ألا تود ان تتطلع على الحجة ؟

فأجاب بحدة :

– كلا ، لماذا أود ذلك ؟

– منذا يقاوم الرغبة في الاطلاع على المستقبل ؟

– تعنين مستقبلك أنت ؟!

– مستقبلي ومستقبلك ، ومستقبل ادريس الذي حزنت عليه رغم ما سبق منه ضدك !

المرأة تعرب عما في نفسه . وهذا ما يثير حنقه . ومـد رأسه نحو النافذة كأنما يهرب منها وهو يقول :

– لا أود ما لا يود أبـي ..

فرفعت حاجبيها المزججين متسائلة :

– لماذا يخفي هذا الأمر ؟

– ذلك شأنه ، ما اكثر اسئلتك الليلة !

فقالت وكأنما تخاطب نفسها :

– المستقبـل ! نعرف مستقبلنا ونقدم احسانـاً كبيراً الى ادريس التعيس ، لن يكلفنا هذا كله الا قراءة ورقة دون ان يدري أحـد ،

واتحدى أي صديق او عدو ان يثبت علينا سوء نيـــة في عملنا هذا او انه يمس من قريب او من بعيد والدك المحبوب !

وكان ادهم يراقب نجماً فاق الأنجم بضيائه اللامع فقال متجـــاهلاً قولهـــا :

– ما اجمل السماء ! لولا رطوبـــة الليل لجلست في الحديقة أراقبها من خلل الغصون ..

– لا شك انه ميّز البعض في شروطه ..

فهتف ادهم :

– ما ازهدني في امتياز لا يجر وراءه الا المتاعب ..

فقالت متنهدة :

– لو كنت اعرف القراءة لذهبت بنفسي الى الصندوق الفضي ..

تمنى لو كان ذلك كذلك . وتضاعف حنقه عليها وعلى نفسه . بل شعر بأنه قد وقع في المحظور فعلاً وانه يفكر فيـــه كحدث مضى . وتحول نحوها مقطباً فبدا وجهه على ضوء المصباح المرتعش بالنسيم المتسلل من النافذة متجهما ، ضعيفا رغم تجهمه وقال :

– لعنت حين افضيت اليك بالخبر !

– لا أريد بك شراً ، ومحبّتي لوالدك مثل محبتك له ..

– دعيك من هذا الحديث المتعب ، في هذه الساعة تستحب الراحة.

– يبدو ان قلبي لن يرتاح قبل الاقدام على هذا العمل السهل ..

فنفخ قائلاً :

– اللهم ارجع اليها عقلها !

فرمقته بنظرة المتحفز ثم سألته :

– ألم تخالف أباك باستقبالك ادريس في المنظرة ؟

فاتسعت عيناه دهشة وقال :

– وجدته أمامي فلم يسعني الا استقباله ..

— هل اخبرت والدك بنبأ زيارته ؟
— ما اثقلك الليلة يا أميمة ..
فقالت بصوت الظافر :
— اذا جاز لك ان تخالفه فيما قد يضرك فكيف لا تخالفه فيما يفيدك ويفيد أخاك ولا يضر أحداً ..؟

بوسعه ان يقطع الحديث لو شاء . ولكن المنحدر كان شديد الانحدار . والحق انــه لم يتركها تسترسل في حديثها الا لان جزءاً من نفسه كان بحاجة الى تأييدها . وتساءل فيما يشبه الغضب :
— ماذا تعنين ؟
— أعني ان تسهر حتى الفجر ، او حتى يخلو المكان لنا ..
فقال بامتعاض :
— ظننت الحمل قد افقدك عاطفتك وحدها ، ولكن ها هو يفقدك عقلك ايضاً ..
— انت مقتنع بما أقول وحق من خلق الروح في بطني ، ولكنك خائف ، والخوف لا يليق بك ..

فاكفهر وجهه اكفراراً منقطع الاسباب بالتراخي الساري في داخله وقـــال :
— سنذكر بهذه الليلة اول زعل فرق بيننا ..
فقالت برقة عجيبة :
— أدهم ، دعنا نفكر جادين في الامر ..
— لن نجني خيراً ..
— هذا قولك ولكنك سترى ..

شعر بوهج النار وهو يقترب منها . قال لنفسه : « اذا احترقت فلن تجدي دموعي في اخمادها » وحول رأسه الى النافذة فخيل اليه ان سكان ذلك النجم اللامع سعداء لبعدهم عن هذا البيت . وتمتم بصوت ضعيف :

– لم يحب احد أباه كما احبه ..
– ما ابعدك عما يسيئه ..
– أميمة ، ما أحوجك الى النوم !
– أنت الذي طيرت النوم عن عيني ..
– أمّلت ان اسمع عندك صوت العقل ..
– ما اسمعتك غيره ..
وساءل نفسه بصوت منخفض كالهمس :
– ترى هل أندفع نحو الخراب ؟
فربتت يده الملقاة على مسند الكنبة وقالت بعتاب :
– مصيرنا واحد يا ناكر الحب !
فقال في استسلام دل على انه اتخذ قراره :
– ولا هذا النجم يدري ما مصيري !
فقالت بانطلاق :
– ستقرأ مصيرك في الحجة ..
ومدّ بصره نحو النجوم الساهرة ، وقطع السحاب المستضيئة بنورها الهادىء ، وخيل اليه انها مطلعة على نجواه فغمغم : « يا لطف السماء » .
ثم سمع أميمة وهي تقول في نبرات مداعبة :
– أنت علمتني حب الحديقة ، دعني أرد إليك الجميل ..

٨

وعند الفجر غادر الأب حجرته قاصداً الحديقة . كان ادهم بأقصى الردهة يترقب وأميمة خلفه ممسكة بكتفه في الظلام . تابعا وقع الأقدام

الثقيل المتزن ولكنهما لم يتبينا اتجاهها في الظلام ، وكان من عادة الجبلاوي ان يسير في هذه الساعة دون حاجة الى ضوء او رفيق . وسكت الصوت فالتفت ادهم نحو زوجه هامساً :

– الا يحسن بنا ان نعود ؟

فدفعته وهي تهمس في أذنه :

– عليّ اللعنة ان كنت أضمر سوءاً لانسان .

فتقدم بخطوات حذرة ، في اضطراب أليم ، ويده قابضة على شمعة صغيرة في جيبه ، وجعل يتحسس الجدار حتى مست يده مصراع الباب . وهمست أميمة :

– سأبقى هنا لأرقب المكان ، اذهب مصحوباً بالعناية .

ومدت يدها فدفعت البـــاب حتى انفتح ثم تراجعت . ومضى ادهم نحو الحجرة بخطواته الحذرة فتلقى من داخلها رائحة مسكية شديدة النفاذ . ورد الباب وراءه ووقف يحملق في الظلام حتى تبين له خصاص النوافذ المطلة على الخلاء وهي تنضح بنور الفجر . شعر ادهم بأن الجريمة – ان كان ثمة جريمة – قد وقعت بدخوله الحجرة وان عليه ان يتم عمله . سار مع الجدار الأيسر ، مرتطماً احياناً بالمقاعد ، ماراً في طريقه بباب الخلوة ، حتى بلغ نهايته ، ثم مال مع الجدار الأوسط ، وما لبث ان عثر على الخوان . جذب الدرج ، وتحسس ما بداخله حتى وجد الصندوق ، ثم شعر بحـــاجة الى الراحة ليأخذ نفسه . ورجع الى باب الخلوة ، ففتش عن ثقبه ، ثم وضع فيه المفتاح واداره ، وفتح الباب ، واذا به يتسلل الى الخلوة التي لم يدخلها احد قبله الا الأب . رد الباب ، فأخرج الشمعة ، ثم اشعلها ، فرأى مربعاً ذا سقف عال لا منفذ فيه الا الباب ، مفروش الارض بسجادة صغيرة ، وعند ضلعه الأيمن ترابيزة انيقة عليها المجلد الكبير الذي ثبت في الجدار بعلاقة من صلب . ازدرد ادهم ريقه الجاف بشيء من الألم كأن وعكة اصابت اللوزتين ، وعض

على اسنانه ، كأنما ليعصر الخوف الساري في اوصاله المرعش للشمعة في يده . واقترب من الترابيزة وهو يحملق في غلاف المجلد المزخرف بخطوط مموهة بالذهب ، ثم مد يده ففتحه . وجد مشقة في تركيز ذهنه ونفض الاضطراب عنه . وبدأ يقرأ بالخط الفارسي « باسم الله .. »

لكنه سمع البـــاب وهو يفتح بغتة . انجذب رأسه نحو الصوت بقوة ودون وعي كأن الباب شده اليه وهو ينفتح . رأى الجبلاوي على ضوء شمعته يسد الباب بجسمه الكبير ملقياً عليه نظرة باردة قاسية . حملق ادهم في عيني ابيـــه في صمت وجمود ، وتخلت عنه قوى الكلام والحركة والتفكير . وأمره الجبلاوي قائلاً :

— اخرج .

لكن ادهم لم يستطع حراكاً . بقي في موقفه كالجماد الا ان الجماد لا يشعر بالقنوط . وهتف الأب :

— اخرج .

ايقظه الرعب من تجمده فتحرك ، وتخلى الأب عن الباب ، فغادر ادهم الخلوة والشمعة ما تزال تحترق في يده . ورأى أميمة واقفة وسط الحجرة صامتة ، والدمع ينحدر تباعاً من مقلتيها . وأشار له الأب ان يقف الى جانب زوجته ففعل ، ثم خاطبه بصرامة قائلاً :

— عليك ان تجيب على اسئلتي بالصدق .

فنطقت اساريره بالامتثال . وسأله الرجل :

— من الذي اخبرك بالكتاب ؟

فقال ادهم دون تردد كوعاء تحطم فسال ما فيه :

— ادريس .

— متى ؟

— صباح الأمس .

— كيف تم اللقاء بينكما ؟

ـ اندسّ بين المستأجرين الجدد وانتظر حتّى انفرد بي .
ـ لماذا لم تطرده ؟
ـ عز عليّ طرده يا ابي .
فقال الجبلاوي بحدة .
ـ لا تخاطبني بالابوة .
فاستجمع ادهم قواه قائلاً :
ـ انك ابي رغم غضبك ورغم حماقتي .
ـ أهو الذي اغراك بفعلتك ؟
وأجابت أميمة دون ان يوجه اليها السؤال :
ـ نعم يا سيدي .
ـ اخرسي يا حشرة .. (ثم موجهاً الخطاب الى ادهم) .. اجب !
ـ كان يائساً حزيناً نادماً وود لو يطمئن على مستقبل ذريته .
ـ وفعلت هذا من اجله !
ـ كلا .. اعتذرت له عن عجزي .
ـ وماذا غيّرك ؟
فتنهد ادهم يائساً وتمتم .
ـ الشيطان !
فسأله ساخراً :
ـ هل اخبرت زوجتك بما جرى بينك وبينه ؟
هنا انتحبت اميمة فنهرها الجبلاوي ان تخرس ، وحث ادهم على الاجابة باشارة من اصبعه ، فقال :
ـ نعم .
ـ وماذا قالت لك ؟
لاذ ادهم بالصمت كي يزدرد ريقه فصاح به :
ـ اجب يا وضيع .

ـ وجدت بهـا رغبة في الاطلاع على الوصية وظنت ان ذلك لن يضر احداً .

فحدجه باحتقار شديد وقال :

ـ وهكذا انصعت الى خيانة من فضّلك على من هم خير منك .

فقال ادهم بصوت كالأنين :

ـ لن يسعفني دفاع عن ذنبي ، لكن مغفرتك اكبر من الذنب والدفاع .

ـ تتآمر عليّ مع ادريس الذي طردته اكراماً لك ؟

ـ لم اتآمر مع ادريس ، لقد اخطأت ، ولا نجاة لي الا بمغفرتك .

وهتفت أميمة بتوسل :

ـ سيدي ..

فقاطعها قائلاً :

ـ اخرسي يا حشرة .

وجعل يردد عينيه بينهما عابساً ، ثم قال بصوت رهيب :

ـ اخرجا من البيت .

وهتف ادهم :

ـ ابي ..

فقال الرجل بصوت غليظ :

ـ غادرا البيت قبل ان تلقيا خارجاً .

٩

فتح باب البيت الكبير ليشهد هذه المرة خروج ادهم وأميمة مطرودين . خرج ادهم يحمل بقجة ملابس ، وتبعته أميمة حاملة بقجة ثانية وأطعمة خفيفة .

خرجا ذليلين حزينين باكيين بلا أمل . وعندما سمعا صوت الباب وهو يغلق خلفهما ارتفع صوتاهما بالنحيب . وقالت أميمة وهي تنشج :

— الموت دون ما استحق من جزاء !

فقال ادهم بصوت متهدج :

— لأول مرة تصدقين ، ولكن الموت دون ما أستحق كذلك !

وما كادا يبتعدان قليلاً عن البيت حتى دوت ضحكة ساخرة مخمورة ، فنظرا نحو مصدرها ، فرأيا ادريس امام كوخه الذي بناه من الصفائح والاخشاب وقد جلست امرأته نرجس وهي تغزل صامتة . كان ادريس يضحك في سخرية وشماتة حتى ذهل ادهم واميمة فوقفا يحملقان فيه . وراح ادريس يرقص ويفرقع بأصابعه حتى ضجرت نرجس فآوت الى الكوخ . تابعه ادهم بعينين محمرتين من البكاء والغضب . ادرك في لحظة المكر الذي مكره فتكشف له عن حقيقته الخبيثة المجرمة . وادرك ايضاً مدى حمقه وغباته الذي يرقص له المجرم شماتة وفرحاً . هذا هو ادريس الذي استحال شراً مجسداً . وغلى دمه حتى فار فأغرق مخه . وقبض على حفنة من تراب ورماه بها وهو يصيح بصوت مختنق بالغضب :

— يا قذر ، يا لعين ، ان العقرب بالقياس اليك حشرة مستأنسة !

فأجاب ادريس بمزيد من حركاته الراقصة ؛ هز رقبته يمنة ويسرة ، ولعّب حاجبيه وما زال يفرقع بأصابعه . وتضاعف غضب ادهم فصاح :

— الفساد والدناءة والوضاعة هذه هي صفات المخادعين الكاذبين .

فراح ادريس يهز وسطه بمثل الرشاقة التي هز بها رقبته ويرسم بفيه ضحكة صامتة قبيحة ، فصاح ادهم دون التفات الى أميمة التي حاولت ان تدفعه الى المسير :

— حتى الدعارة تجربها يا أقذر من خلق !

فضى ادريس يهز عجيزته وهو يدور حول نفسه في بطء ودلال فأعمى الغضب ادهم فرمى بالبقجة ارضاً ودفع اميمة التي همت بالتعلق

به وجرى نحوه حتّى قبض على عنقه وشد عليه بكل قوته . لم يبد على ادريس انه تأثر بالمنقضّ ولا بقبضته . وواصل الرقص وهو يتأنق في تأوّده . وجن جنون ادهم فانهال على ادريس ضرباً ولكن ادريس ازداد عبثاً وراح يغني بصوت كريه :

حطة يا بطة ويا دقن القطة

وتوقف بغته وهو يزمجر ، ثم دفع ادهم في صدره دفعة قوية تقهقر على اثرها يترنح ثم اختل توازنه فسقط على ظهره . وهرعت اليه أميمة صارخة فساعدته على النهوض وأخذت تنفض الغبار عن ثوبه وتقول :

— مالك انت وهذا الوحش ؛ فلنبتعد عنه ..!

وتنـــاول البقجة صامتاً ، وحملت زوجه بقجتها وابتعدا حتّى طرف البيت الآخر ، وكان الاعياء قد نال منه فرمى بالبقجة وجلس عليها وهو يقول : « لنسترّح قليلاً » . فجلست المرأة قبالته وقد رجعت تبكي . واذا بصوت ادريس يترامى اليهما قوياً كالرعد وصاحبه يقف ناظراً الى البيت الكبير نظرة التحدي ويصيح :

— طردتني اكراماً لأحقر من انجبت ، أرأيت كيف كان سلوكه نحوك ، ها انت ترميه بنفسك الى التراب ، عقاب بعقاب والبادي اظلم ، كي تعلم ان ادريس لا يقهر ، فلتبق وحدك مع ابنائك العقاء الجبناء ، لن يكون لك حفيد الا من يسعى في التراب ويتقلب في القاذورات ، غداً يسرحون بالبطـــاطة واللب ، غداً يتعرضون لصفعات الفتوات في العطوف وكفر الزغاري ، غداً يمتزج دمك بأحقر الدماء ، وتقبع انت وحيداً في حجرتك تبدل وتغير في كتابك كيف شاء لك الغضب والفشل وتعاني وحدة الشيخوخة في الظـــلام ، حتّى اذا جاء الأجل فلن تجد عيناً تبكيك .

ثم التفت صوب ادهم وواصل صياحه الجنوني :

— وأنت ايها الضعيف كيف تلقى الحياة وحدك ؟!.. لا قوة فيك

تؤيدك ولا قويّ لديك تعتمد عليه ، وماذا تفيدك مبادىء القراءة والحساب في هذا الخلاء ؟!. ها .. ها .. ها ..

ولم تزل أميمة تبكي حتّى ضاق بها ادهم فقال في فتور :

– كفّي عن البكاء .

فقالت وهي تجفف عينيها :

– سأبكي كثيراً ، انا الآثمة يا ادهم .

– لست دونك اثماً ، لو لم تلقي مني ضعيفاً نذلاً ما وقع الذي وقع .

– الذنب ذنبي وحدي .

فهتف بغيظ :

– انك تحملين على نفسك لتتقي حملّي عليك ..

فباخت حميتها في اتّهام نفسها وأحنت رأسها ملياً ، ثم عادت تقول بصوت ضعيف :

– لم اكن اتصور ان تبلغ قسوته هذا الحد !

– اني اعرفه ولا عذر لي .

فترددت قليلاً ثم قالت :

– كيف اعيش هنا وأنا حبلى ؟!

– في هذا الخلاء نعيش بعد البيت الكبير ، ليت للدموع جدوى ، ولكن ليس امامنا الا ان نقيم كوخاً لنا .

– اين ؟

فنظر فيما حوله ، ووقف نظرهُ قليلاً صوب كوخ ادريس ، ثم قال بقلق :

– لا يجوز ان نبتعد كثيراً عن البيت الكبير ولو اضطررنا الى البقاء غير بعيد من كوخ ادريس ، والا هلكنا وحدنا في اطراف هذا الخلاء .

ففكرت اميمة قليلاً ثم قالت بوجه مال الى الاقتناع برأيه :

– نعم ، ولكي نبقى على مرمى بصره لعلّه يرق لحالنا .

فتأوه ادهم قائلاً :
– الحسرة تقتلني ، ولولاك لتوهمت ما بي كابوساً ، هل يجفوني قلبه الى الأبد ؟ لن اتطاول عليه كادريس ، هيهات ، لست كادريس في شيء ، فهل القى نفس المعاملة ؟
فقالت أميمة في حنق :
– لم تعرف هذه الأحياء اباً مثل أبيك .
فتساءل بعينين حادّتين :
– متى يتوب لسانك !
فانفعلت قائلة :
– والله ما ارتكبت جريمة ولا اثماً ، خبّر من تشاء بما فعلت وبما نلت جزاء ما فعلت واراهنك على انه سيضرب كفاً بكف ، والله ما عرفت الابوة أباً كأبيك .
– ولا عرفت الدنيا رجلاً مثله ، هذا الجبل وهذه الصحراء وهذه السماء تعرفه ، ومثله يُحبّ عند التحدي .
– بهذا الجبروت لن يبقى في البيت احد من ابنائه .
– نحن اول الخارجين فنحن شر من فيه .
فقالت بامتعاض :
– لست كذلك ، لسنا كذلك .
– الحكم الصحيح لن يكون الا عند الامتحان .
لاذ كلاهما بالصمت. لم يكن بالخلاء حي يُرى ، الا بعض العابرين عن بعد عند سفح الجبل . وكانت الشمس ترسل اشعة حامية من سماء صافية فتغمر الرمال المترامية حيث يلمع الحصا او قطع الزجاج المتناثرة . ولم يكن من قائم الا الجبل في الأفق ، وصخرة كبيرة في الشرق كأنها رأس جسم مطمـــور في الرمال ، وكوخ ادريس عند الطرف الشرقي للبيت الكبير ينغرس في الأرض متحدياً بهيئته الزرية . كان الجو كله

ينذر بالشقاء والتعب والخوف . وتنهدت أميمة بصوت مسموع وقالت :
— ستتعب كثيراً حتى تتيسر لنا الحياة .
فرنا ادهم الى البيت الكبير وقال :
— وستتعب اكثر حتى يفتح لنا هذا الباب مرة اخرى .

١٠

شرع ادهم وأميمة في اقامة كوخ لهما عند الطرف الغربي للبيت الكبير . كانا يجيئان بالاحجار من المقطم ، ويجمعان الصفائح من سفح الجبل ، ويلتقطان الاخشاب من مشارف العطوف والجمالية وباب النصر . وتبين لهما ان بناء الكوخ سيستغرق وقتاً اطول مما قدرا ، وصادف ذلك نفاد الزاد الذي حملته اميمة من البيت من جبن وبيض وعسل اسود ، فقرر ادهم ان يبدأ بالسعي في سبيل رزقه . ورأى ان يبيع بعض ثيابه الثمينة ليشتري بثمنها عربة يد لبيع البطاطة والملانة والخيار وغيرها على حسب المواسم . وعندما اخذ في جمع ثيابه اجهشت اميمة في البكاء من شدة التأثر ، ولكنه لم يستجب لعواطفها ، فقال وهو بين السخط والسخرية :
— لم تعد هذه الثياب تناسبني ، أليس من المضحك ان اسرح ببطاطة وأنا متلفع بعباءة مزركشة من وبر الجمل ؟!
ثم شهده الخلاء وهو يدفع عربته نحو الجمالية ، الجمالية التي لم تنس بعد زفته ، وانقبض قلبه وانحبس صوته فكف عن النداء ، وكادت تغرورق عيناه . واتجه نحو الاحياء البعيدة متهرباً . وكان يواظب على المشي والنداء من الصباح الى المساء حتى كلت يداه وانجرد نعلاه وسرت الاوجاع في قدميه ومفاصله . وكم كان يشق عليه مساومات النسوان ، او ان يضطره الاعياء الى افتراش الأرض لصق جدار ، او ان يقف

في ركن ليفك حصره . بدت الحياة غير حقيقية ، وأيام الحديقة وادارة الوقف والمخدع المطـــل على المقطم كالاساطير . وجعل يقول لنفسه : « لا شيء حقيقي في هذه الدنيا ، هي البيت الكبير ، هي الكوخ الذي لم يتم ، هي الحديقة هي عربة اليد ، هي الأمس واليوم والغد ، لعلي احسنت صنعاً بالاقامة قبالة البيت حتى لا أفقد الماضي كما فقدت الحاضر والمستقبل ، وهل من عجب ان اخسر الذاكرة كما خسرت ابـي وكما خسرت نفسي ؟! » . فاذا عاد أول الليل الى اميمة فليس الى الراحة يعود ، ولكن ليواصل العمـــل في بناء الكوخ . ومرة جلس في حارة الوطاويط عند الظهر ليستريح فنعس . واستيقظ على حركة فرأى غلماناً يسرقون عربته فنهض مهدداً . ورآه غلام فنبه اقرانه بصفير ودفع العربة ليشغله بها عن مطاردتهم فاندلق الخيار على الارض على حين تفرق الغلمان مسرعين كالجراد . وغضب ادهم غضباً شديداً حتى قذف فوه المهذب بسيل من اقذع الشتائم ، ثم انكب على الارض يجمع الخيار الذي لوث بالطين . وتضاعف غضبه دون ان يجـــد له متنفساً فراح يقول بتأثر وانفعال : « لماذا كان غضبك كالنار تحرق بلا رحمة ؟ لماذا كانت كبرياؤك احب اليك من لحمك ودمك ؟ وكيف تنعم بالحياة الرغيدة وأنت تعلم اننا نداس بالأقدام كالحشرات ؟ والعفو واللين والتسامح ما شأنها في بيتك الكبير ايها الجبار ! » . وقبض على يدي العربة وهم يدفعها بعيداً عن الحارة اللعينة ، واذا بصوت يقول متهكماً :

ــ بكم الخيار يا عم ؟

رأى ادريس واقفاً يبتسم ابتسامة ساخرة ، رافلاً في جلباب مقلم بألوان زاهية ، وعلى رأسه لاسة بيضاء . رآه باسماً ساخراً لا تأثراً ولا هائجاً فضاقت لمنظره الدنيا في عينيه رغم ذلك . ودفع العربة ليذهب ، ولكن ادريس اعترض سبيله وهو يقول في دهشة :

ــ الا يستحق زبون مثلي حسن المعاملة ؟

فارتفع رأس ادهم في عصبية وهو يقول :
— دعني وشأني .
فأمعن ادريس في السخرية متسائلاً :
— الم تجد خيراً من هذه اللهجة تخاطب بها اخاك الأكبر ؟
فقال ادهم بلهجة المتصبر :
— يا ادريس اما كفاك ما فعلت بي ؟ لا اريد ان تعرفني او ان اعرفك !
— كيف يتأتى هذا ونحن في حكم الجيران ؟!
— ما اردت جوارك ولكني قصدت أن أبقى قريباً من البيت الذي ..
فقاطعه هازئاً :
— الذي طردت منه !
فسكت ادهم وقد تجلى الضيق في شحوب وجهه ، فاستطرد الآخر قائلاً :
— النفس تتعلق بالمكان الذي تطرد منه ، أليس كذلك ؟
فلم يخرج ادهم عن صمته ، فقال الآخر :
— انك تطمع في العودة الى البيت يا ماكر ، انك ضعيف حقاً ولكنك ملىء بالمكر ، الا فاعلم بأني لن اسمح لك بالعودة وحدك ولو انطبقت السماء على الأرض .
فتساءل ادهم ومنخراه يتحركان من الحنق :
— الم يكفك ما فعلت بي ؟
— الم يكفك انت ما فعلت بي ؟ من اجلك طردت وكنت كوكب البيت المنير .
— بل طردتَ بسبب نفسك المتعجرفة .
فقهقه ادريس قائلاً :
— وطردتَ انت بسبب نفسك الضعيفة ، فلا مكان في البيت الكبير للقوة ولا للضعف ! فانظر الى استبداد ابيك . انه لا يسمح باجتماع القوة

والضعف في نفس الا نفسه هو ، انه القوي لحد الفتك بفلذات كبده ، الضعيف لحد التزوج من أم كأملك .

فقطب ادهم غاضباً وقال بتهدج :

– دعني اذهب ، وتحرش اذا شئت بقويّ مثلك .

– ابوك يتحرش بالاقوياء والضعفاء .

فصمت ادهم وازداد وجهه عبوساً فقال ادريس هازئاً :

– لا تريد ان تتورط في تجريحه ! هـــذا مكر من مكرك ، ودليل على انك ما زلت تحلم بالعودة .

ثم تناول خيارة وأخذ ينظر اليها باشمئزاز ثم قال :

– كيف سولت لك نفسك ان تسرح بهذا الخيـــار الملوث ! الم تجد عملاً اشرف من هذا ؟

– اني راض عنه !

– بل اضطرتك الحاجة اليه ، على حين ينعم ابوك بالعيش الرغيد ، فكّر قليلاً في الأمر ، اليس من الأكرم لك ان تنضم اليّ ؟!

فقال ادهم في ضجر :

– لم اخلق لحياتك !

– انظر الى جلبابي ! كان صاحبه يرفل فيه امس دون وجه حق !

فلاح التساؤل في عيني ادهم وقال :

– وكيف حصلت عليه ؟

– كما يفعل الأقوياء !

أسرق أم قتل ! . وقال بحزن :

– لا أصدق انك اخي ادريس !

فقال وهو يقهقه :

– لا تعجب ما دمت تعلم انني ابن الجبلاوي !

فهتف ادهم في نفاد صبر :

ـ هلا اوسعت لي الطريق ؟
ـ كما تشاء لك حماقتك !
وملأ جيبه بالخيار ، وألقى عليه نظرة ازدراء ، ثم ابصق على العربة ومضى.
ووقفت اميمة تستقبله وهو يقترب من الكوخ . كانت الظلمة تغشى الخلاء ؛ وفي داخل الكوخ شمعة تحترق كأنها رمق في صدر محتضر ، اما في السماء فالنجوم تزهر ، وعلى ضوئها يبدو البيت الكبير كشبح عملاق . ادركت اميمة من صمته انه على حال يستحسن معها تجنبه . قدمت اليه كوز ماء ليغسل اطرافه وجاءته بجلباب نظيف . وغسل وجهه وقدميه وبدل جلبابه ثم جلس على الأرض ومدّ ساقيه . واقتربت منه في حذر ،فجلست وهي تقول بلهجة الاسترضاء :
ـ ليتني أتحمل عنك بعض تعبك .
وكأنها حكت اجرب فصاح :
ـ اخرسي يا اصل الشر والتعاسة .
فتزحزحت بعيداً عنه حتى كادت تختفي ، ولكنه صاح :
ـ انك خير من يذكرني بغفلتي وحماقتي ، ملعون اليوم الذي رأيتك فيه .
فجاءه في الظلام انتحابها ولكنه ضاعف من غضبه فقال :
ـ سحقاً لدموعك ! ان هي الا عرق الخبث الذي يمتلىء به جسدك .
فجاءه صوتها الباكي قائلاً :
ـ كل قول يهون بالقياس الى عذابي .
ـ لا تسمعيني صوتك ، وابعدي عن وجهي .
وكور ثوبه المخلوع ورماها به فتأوهت قائلة : « بطني ! » . وسرعان ما برد غضبه ، وأشفق من العواقب . وآنست هي من صمته تراجعاً فقالت بصوت المتوجع :

– سأذهب بعيداً كما تريد .

وقامت فمضت تبتعد حتى صاح بها :

– هل ترين الوقت مناسباً للدلال ؟

ثم تحفز للقيام وهو يصيح :

– ارجعي لا رجعت اليك الراحة .

وأحدّ بصره في الظلام حتى رأى شبحها يعود فأسند ظهره الى جدار الكوخ ورفع رأسه نحو السماء . وود لو يطمئن على بطنها ولكن ابت كبرياؤه . اجّل ذلك الى اجل قريب . ثم مهد له بقوله :

– أغسلي بعض الخيار للعشاء .

١١

مجلس لا يخلو من الراحة . لا نبت فيه ولا مــاء ، ولا عصافير تزقزق فوق الغصون ، لكن أرض الخلاء الجرداء المشاكسة تكتسي في الليل حلة غامضة يخالها الحالم ما يشاء . وفوقه قبة السماء المرصعة بالنجوم والمرأة داخل الكوخ ، والوحدة ناطقة ، والحزن كالجمر المدفون تحت الرماد . وسور البيت العالي يعاند المشتاق ، وهذا الأب الجبــار كيف السبيل الى اسماعه أنيني . ومن الحكمة نسيان الماضي ، لكن ليس لنا من زمن غيره ، لذلك كرهت ضعفي ولعنت نذالتي ورضيت الشقاء رفيقــاً وسألد له أبناء . والعصفورة التي لا تصدها قوة عن الحديقــة أسعد من أحلامي ، وعيناي احترقتا شوقاً الى المياه الجارية بين شجيرات الورد ، وأين عبير الحناء والياسمين أين ، أين خلو البال والناي أين ، أيهــا القاسي ، مضى نصف عام فمتى يذوب ثلج قسوتك ؟!

وعن بعد ترامى صوت ادريس مغنياً بصوت كريه : « عجايب والله

عجايب » . واذا به يوقد ناراً امام كوخه فاشتعلت كأنها شهاب هوى فانغرس في الأرض ، وكانت زوجه تذهب وتجيء ببطنها المتدلى لتقدم طعاماً او شراباً . ولطمته موجة سكر فصاح في السكون موجهاً الخطاب إلى البيت الكبير : « هذا أوان الملوخية والفراخ المحمرة ، اطفحوها سماً يا أهل البيت ! » ، ثم عاد الى الغناء .

وقال أدهم لنفسه متأسفاً : « كلما خلوت الى نفسي في الظلام جاء الشيطان فأشعل ناره وعربد فأفسد علي خلوتي ! » . وظهرت أميمة عند باب الكوخ فعلم انها لم تنم على خلاف ظنه . وكانت من الحمل في أعياء ، ومن الجهد والفقر على حال لا تسر . وقالت برقة واشفاق :

– ألا تنام ؟!

فقال في ضجر :

– دعيني للساعة الوحيدة التي تطيب فيها الحياة ..

– ستسعى بعربتك مع الصباح الباكر فما احوجك الى الراحة ..

– في وحدتي ارتد سيداً أو شبه سيد ، أتأمل السماء واتذكر الأيام الخالية .

فتنهدت بصوت مسموع وقالت :

– أود لو رأيت أباك ذاهباً من البيت أو راجعاً اليه ان أرمي بنفسي تحت اقدامه وان استغفره .

فقال أدهم في جزع :

– قلت لك مراراً ان تقلعي عن هذه الأفكار ، فليس بهذه الوسيلة يمكن ان نسترد عطفه .

فصمتت ملياً ثم قالت همساً :

– إني أفكر في مصير الشيء الذي في بطني .

– ولا شغل لي إلا هذا رغم اني لم أعد الا حيواناً قذراً .

فتمتمت بحزن :

– والله انك خير الرجال جميعاً .

فضحك أدهم ساخراً وقال :

– لم أعد انساناً ، فالحيوان وحده هو الذي لا يهمه الا الغذاء .

– لا تحزن ، كم من رجل بدأ مثلك ، ثم تيسر له العيش الرغيد فملك الدكاكين والبيوت !

– أراهن على ان أوجاع الحبل قد بلغت رأسك !

فقالت باصرار :

– ستكون رجلاً ذا شأن ، وسينشأ وليدنا في أحضان النعيم ..

فضرب أدهم كفاً بكف وتساءل ساخراً :

– أأبلغ ذلك بالبوظة أم بالحشيش ؟

– بالعمل يا أدهم .

فقال في سخط :

– العمل من أجل القوت لعنة اللعنات ، كنت في الحديقة أعيش ، لا عمل لي إلا ان انظر الى السماء أو انفخ في الناى ، أما اليوم فلست إلا حيواناً ، ادفع العربة أمامي ليل نهار في سبيل شيء حقير نأكله مساء ليلفظه جسمي صباحاً ، العمل من أجل القوت لعنة اللعنات ، الحياة الحقة في البيت الكبير ، حيث لا عمل للقوت ، وحيث المرح والجمال والغناء .

واذا بصوت ادريس يقول :

– نطقت بالحق يا أدهم ، العمل لعنة ، وهو ذل لم نعتده ، ألم أعرض عليك الانضمام إلي ؟!

التفت أدهم نحو الصوت فرأى شبح ادريس واقفاً على قرب منه . هكذا يتسلل في الظلام دون ان يشعر به فيتنصت الى الحديث ما شاء له التنصت ، ويشترك فيه اذا حلا له ذلك . ووقف أدهم منفعلاً وهو يقول :

ـ عد إلى كوخك .

فقال ادريس بلهجة جدية مفتعلة :

ـ اني مثلك اقول إن العمل لعنة لا تليق بكرامة الانسان .

ـ انك تدعوني الى البلطجة وهي أقذر من اللعنة .

ـ اذا كان العمل لعنة والبلطجة قذارة فكيف يعيش الانسان ؟

فلم يرتح الى محادثته فصمت ، وانتظر ادريس ان يتكلم فلم يتكلم ، فقال :

ـ لعلك تريد رزقاً بلا عمل ؟ ولكن ذلك سيكون حتماً على حساب الآخرين !

وثابر أدهم على صمته فعاد الآخر يقول :

ـ أم لعلك تريد رزقاً بلا عمل دون ان يضار به أحد ؟!.

وضحك ضحكة كريهة وقال :

ـ هذه فزورة يا ابن الجارية !

وصاحت أميمة بغضب :

ـ عد الى كوخك واخز الشيطان .

ونادته امرأته بحدة ، فرجع من حيث أتى وهو يترنم : « عجايب والله عجايب » .

وتوسلت أميمة الى زوجها قائلة :

ـ تجنب الاشتباك معه بأي ثمن .

ـ اني اجده فجأة فوق رأسي دون ان ادري كيف جاء .

وساد صمت اتخذا منه مسكناً لانفعالها . وعادت أميمة تقول برقة :

ـ قلبي يحدثني بانني ساجعل من كوخنا بيتاً شبيهاً بالبيت الذي طردنا منه ، لن تنقصه الحديقة ولا البلابل ، وسيلقى وليدنا فيه كل راحة ومتعة .

فوقف أدهم وهو يبتسم ابتسامة لم ترها في الظلام ، وقال ساخراً

وهو ينفض التّراب عن جلبابه :

— الخيار القشطة ! .. الخيار السكر !. والعرق يتصبب من جسدي والغلمان يتسلون بمعاكستي ، والأرض تأكل قدمي ، في سبيل ملاليم ..

ودخل الكوخ فتبعته وهي تقول :

— لكن سيأتي يوم المرح والغناء .

— لو كنت تشقين ما وجدت وقتاً للاحلام .

ورقد كل منهما على خيشة محشوة بالقش ، وهي تقول :

— أليس الله بقادر على ان يجعل من كوخنا بيتـاً كالبيت الذي طردنا منه ..؟

فقال أدهم وهو يتثاءب :

— أمنيتي أن أعود إلى البيت الكبير .

ثم وهو يتثاءب بدرجة أعلى :

— العمل لعنة !

فقالت بصوت هامس :

— ربما ، ولكنها لعنة لا تزول الا بالعمل !

١٢

وذات ليلة استيقظ أدهم على تأوهات عميقة . ولبث وهو بين النوم واليقظة حتى تبين صوت أميمة وهي تتوجع هاتفة : « آه يا ظهري .. آه يا بطني » ، فجلس من فوره وهو يحملق صوبها ، ثم قال :

— هذا حالك هذه الأيام ثم ينجلي عن لا شيء ، أشعلي الشمعة .

فقالت وهي تئن :

— اشعلها بنفسك ، هذه المرة جدّ .

فقام يتحسس موضع الشمعة بين أدوات الطهي حتى عثر عليها ، فأشعلها ، وثبتها على الطبلية ، فبـدت أميمة على الضوء الخافت جالسة

متكئة على ساعديها ، تئن ، وترفع رأسها لتتنفس بصعوبـــة ظاهرة .
وقال الرجل بقلق :
ـ هذا ما تظنينه كلما شعرت بوجع .
فقالت بوجه متقلص :
ـ كلا ، أنا متأكدة ان هذه المرة جدّ .
وساعدها حتّى اسند ظهرها الى جدار الكوخ ثم قال :
ـ هو شهرك على أيّ حال ، تجلّدي حتّى أذهب الى الجماليـــة لأحضر لك الداية .
ـ صحبتك السلامة . ما الوقت الآن ؟
مضى أدهم خارج الكوخ ، وجعل ينظر الى السماء ؛ ثم قال :
ـ الفجر قريب ، لن أغيب إلا مسير الطريق .

واندفع يسير على عجل نحو الجمالية . ثم عاد يشق الظلام وهو قابض على يد الداية العجوز ليهديها السبيل . وعند اقترابــه من الكوخ ترامى إليه صراخ أميمة الذي مزق السكون ، فخفق قلبـه وأوسع خطاه حتى تشكت الداية . ودخلا الكوخ معاً ، فخلعت المرأة ملاءتها وهي تقول لأميمة ضاحكة :
ـ جاء الفرج ، وما بعد الصبر إلا الراحة .
وسألها أدهم :
ـ كيف حالك ؟
فقالت في صوت كالأنين :
ـ أكاد أموت من الألم ، جسمي يتفكك ، وعظامي تتكسر ، لا تذهب:
فقالت الداية :
ـ بل ينتظر في الخارج بسلام .
وغادر أدهم الكوخ إلى العراء فلمح شبحاً واقفاً عن قرب ، عرفه قبل ان يتبينه ، فانقبض صدره ، ولكن ادريس قال مصطنعاً لهجة الأدب:

جاءها الطلق ؟ مسكينة ، مرت زوجي بهذه الحالة كما تعلم منذ زمن قصير ، انه ألم كاذب لا يلبث ان يزول ، ثم تتلقى نصيبك من عالم الغيب كما تلقيتُ هند ، انها طفلة ساحرة ولكنها لا تكف عن التبول والبكاء ، تجلّد .

فقال أدهم على مضض وضيق :

— الأمر لصاحب الأمر .

فصدرت عن ادريس ضحكة خشنة وتساءل :

— جئت لها بداية الجمالية ؟

— نعم .

— امرأة قذرة ، طماعة ، جئتُ بها أيضاً فغالت في تقدير اتعابها فطردتّها ، وما تزال تدعو علي كلما رأتني ماراً ببيتها .

فقال أدهم بعد تردد :

— ما ينبغي ان تعامل الناس هكذا .

— يا ابن الأكابر ، علمني أبوك ان أعامل الناس بالفظاظة والقسوة .

وارتفع صوت أميمة بصراخ كأنما هو صدى للتمزق الذي يقع في جوفها ، فانطبقت شفتا أدهم على ما همّ بقوله ، واقترب من الكوخ قلقاً ، وهتف بصوت رقيق :

— شدي حيلك .

فردد ادريس قوله بصوت مرتفع :

— شدي حيلك يا امرأة أخي .

فأشفق أدهم من سماع زوجه هذا الصوت ، لكنه دارى حنقه قائلا:

— يحسن بنا ان نقف بعيداً عن الكوخ .

— تعال بنا الى كوخي أقدمْ لك الشاي ، وترَ هند وهي تغط في النوم .

لكن أدهم ابتعد عن كوخه دون ان يتجه نحو كوخ الآخر ، وهو

يلعنه في سره في غيظ مكتوم ، فتبعه ادريس وهو يقول :
– ستكون أباً قبل طلوع الصبح ، انه تغير خطير ، من فوائده ان تشعر بالرابطة التي يمزقها أبوك في يسر وبلادة .
فنفس أدهم عن ضيقه بقوله :
– هذا الكلام يضايقني .
– ربما ، لكن لا هم لنا غيره .
فسكت أدهم متردداً ، ثم قال بشيء من الاشفاق :
– ادريس ، لماذا تتبعني وأنت تعلم ألا مودة بيننا ؟!
فقهقه ادريس عالياً وقال :
– يا لك من طفل قليل الحياء ، لقد أيقظني صراخ زوجك من أحلى نومة فلم أسمح لنفسي بالغضب ، وعلى العكس جئت لأقدم لك المعونة ان كنتَ في حاجة اليها ، وان أباك ليسمع الصراخ كما سمعته ولكنه عاود النوم كمن لا قلب له .
فقال أدهم في ضجر :
– حسبنا ما كتب لنا من مصير ، ألا تستطيع أن تتجاهلني كما أتجاهلك ؟
– انك تكرهني يا أدهم لا لأنني كنت السبب في طردك ولكن لأنني اذكرك بضعفك ، انك تكره فيَّ نفسك الآثمة ، أما أنا فلم يعد لي من مبرر لكراهيتك ؛ بل أنت اليوم عزائي وتسليتي ، ولا تنس أننا جيران ، وأول من سكن هذا الخلاء من الأحياء ، وسيدبّ عليه أولادنا جنباً الى جنب .
– انك تتلذذ بتعذيبي .
فصمت ادريس ملياً حتى منّى ادهم نفسه بالخلاص ، ولكنه عاد يسأل بلهجة جدية :
– لماذا لا نتفق ؟

فقال أدهم وهو يتنهد :
– لأني بياع على قد حالي وانت رجل هوايتك الضرب والاعتداء.
وعاد صراخ أميمة يعلو ويشتد فرفع أدهم رأسه متوسلاً ، فأدرك من توه ان كثافة الظلام قد خفت ، وان الفجر تسلق الجبل .
وهتف أدهم :
– ما ألعن الألم !
فقال ادريس ضاحكاً :
– ما أجمل الرقة ، خلقت لادارة الوقف والنفخ في الناي .
– أسخر ما شئت ، إني متألم .
– لماذا ؟ حسبت امرأتك هي المتألمة !
فصاح ادهم من فرط جزعه :
– دعني وشأني .
فتساءل الآخر في هدوء مغيظ :
– أتريد ان تصير أباً بلا ثمن ؟
فلزم ادهم الصمت وهو ينفخ فقال ادريس متعطفاً :
– أنت حكيم ، وقد جئت أعرض عليك عملاً تستعين به على اسعاد المخلوقات القادمة ، ان هذا الذي نسمع مقدمات تشريفه الأول وليس الأخير ، فان شهواتنا لا تقنع الا بأن تبنى فوقنا تلاً من الذرية الصاخبة ، ما رأيك ؟
– الضياء يلوح فاذهب لتستوفي نومك .
وتعالى الصراخ ، متتابعاً متواصلاً حتى ضاق ادهم بموقفه فرجع الى الكوخ الذي شق عنه الظلام ، وبلغه وأميمة ترسل تنهدة عميقة مثل ختام أغنية حزينة . اقترب من باب الكوخ وهو يتساءل :
– كيف الحال عندكم ؟
فجاءه صوت الداية وهو يقول : « انتظر » . تحفز قلبه للارتياح

عندما خيل اليه ان الصوت يوحي بالظفر . وما لبث ان لاحت المرأة في الباب وهي تقول :

— رزقت بذكرين !

— توأمين ؟

— فليرزقك الله برزقهما .

وصكت أذنيه ضحكة ادريس من وراء ظهره وسمعه يقول :

— ادريس الآن أب لأنثى وعم لذكرين .

ومضى نحو كوخه وهو يغني : « البخت والقسمة فين يا دي الزمان قلّي » . وعادت الداية تقول :

— ترغب الأم في ان يسميا قدري وهمام .

فراح ادهم يغمغم وقد استخفه السرور :

— قدري وهمام ، قدري وهمام .

١٣

قال قدري وهو يجفف وجهه بذيل جلبابه :

— فلنجلس لتناول طعامنا .

فقال همام وهو ينظر نحو الشمس المائلة للغروب :

— نعم ، سرقنا الوقت .

تربعا على الرمال تحت سفح المقطم . وحل همام عقدة المنديل الأحمر المخطط فكشف عن خبز وطعمية وكراث ، وراحا يأكلان ، وينظران بين حين وآخر نحو اغنامهما ، التي هام بعضها على وجهه ، وقعد البعض ليجتر في راحة وسلام . لم يكن ثمة مـا يميز بين الشقيقين في الملامح والقسمات ، غير ان نظرة الصائد المتجلية في عيني قدري أضفت

على سحنته حدّة ميّزته بطابع خاص . وعـــاد قدري يقول وهو يطحن الطعام المحتشد في فيه :

ـ لو كان هذا الخلاء لنا دون شريك لرعينا أغنامنا مرتاحي البال .

فقال همام باسماً :

ـ ولكن هـــذا الخلاء مقصد الرعاة من العطوف وكفر الزغاري والحسينية ، ومن الممكن ان نصادقهم فنتقي شرهم .

فضحك قدري ضحكة هازئة انطلقت من فيه مع فتات من طعامه وقال :

ـ هذه الحواري عندها جواب واحد لمن ينشد صداقتها هو الصفعات. لكن ..

ـ لا لكن يا ابن ابي ، اني اعرف طريقة واحدة ، وهي ان اجذب الرجل من جلبابه وأنطحه في جبينه فينقلب على وجهه او على قفاه .

ـ لذلك لا نكاد نحصي اعداءنا .

ـ ومن كلفك باحصائهم .؟!

وتابع همام جِدْياً أوغل في الابتعاد فراح يصفر له حتى توقف ودار عائداً في صمت الحكيم . وانتقى عوداً من الكراث ومسحه بأصابعه فدفعه في فيه متلذذاً ، ثم قال وهو يتمطق :

ـ ولذلك تجدنا وحدنا ، ويمضي الوقت الطويل دون ان نتكلم .

ـ وما حاجتك الى الكلام وانت تغني طوال الوقت ؟!

فنظر همام اليه بثقة وقال :

ـ يخيل اليّ انك تضيق بهذه الوحدة احياناً .

ـ سأجد دائماً عللاً للضيق ، الوحدة او غيرها .

وساد صمت وضح فيه التمطق . ولاحت عن بعد جماعة عائدة من الجبل نحو العطوف ، تسير على غناء منشد كالحادي والآخرون يرددون . فقال همام :

ـ هذه الناحية من الخلاء امتداد لحينا ، ولو ذهبنا شمالاً او جنوباً

فأغلب الظن اننا لن نعود .

فضحك قدري ضحكة مجلجلة وقال :

— ستجد في الشمال وفي الجنوب اناساً يودون قتلي ولكنك لن تجد واحداً يجرؤ على منازلتي .

فقال همام وهو ينظر نحو الأغنام :

— لا يمكن انكار شجاعتك ، ولكن لا تنس أننا نعيش بفضل اسم جدنا وسمعة عمنا المخيفة رغم ما بيننا وبينه من خصام .

فعقد قدري ما بين حاجبيه احتجاجاً ، ولكنه لم يجهر بمعارضة . واتجه بصره نحو البيت الكبير الذي لاح عن بعد في الغروب هيكلاً ضخماً مطموس المعالم ، وقال :

— هذا البيت ! لم اشهد له مثيلاً ، في خلاء يكتنفه من جميع النواحي ، وعلى مقربة من حوار وأزقة اشتهرت بالجبروت والمشاكسة ، صاحبه جبار بلا جدال ، هذا الجد الذي لم ير احفاده وهم على بعد اذرع منه !

فاتجه بصر همام ناحية البيت ، ثم قال :

— ان ابانا لا يذكره الا مصحوباً بالاجلال والاكبار .

— وعمنا لا يذكره الا مصحوباً باللعنات.

فقال همام باشفاق :

— هو جدنا على اي حال .

— وما جدوى ذلك يا غلام ؟ ان ابانا يكدح وراء عربته ، وأمنا تكد طوال النهار وشطراً من الليل ، ونحن نعاشر الأغنام حفاة شبه عراة ، اما هو فقابع وراء الأسوار ، بلا قلب ، متمتع بنعيم لا يخطر على بال .

فرغا من الطعام . نفض همام المنديل ولفه ثم دسه في جيبه ، واستلقى على ظهره متوسداً ذراعيه ، مرسلاً ناظريه الى السماء الصافية ، وهي

تقطر هدوء المغيب ، والحداي تولى في الافاق . ونهض قدري فانتحى جانباً ليبول ، وقال :

– يقول ابونا انه كان يخرج كثيراً في الماضي فيمر بهم في ذهابه وايابه ، اما اليوم فلا يراه احد ، وكأنما يخاف على نفسه .

قال همام بنبرات حالمة :

– كم تمنيت ان اراه .

– لا تحلم بأن ترى شيئاً خارقاً ، ستجده شبيهاً بأبينا او بعمنا ، او بكليهما معاً ، اني اعجب لوالدي كيف لا يذكره الا بالاجلال رغم ما ناله على يديه .

– الظاهر انه كان شديد التعلق به ، او انه آمن بعدالة ما نزل به من عقاب .

– او انه ما زال يطمع في عفوه !

– انك لا تفهم ابانا ، انه رجل ودود المعشر .

وعاد قدري الى مجلسه وهو يقول :

– انه لا يعجبني ، وأنت لا تعجبني ، أوكد لك ان جدنا شخص شاذ لا يستحق الاحترام ، ولو كانت به ذرة من خير ما جفا لحمه هذا الجفاء الغريب ، اني اراه كما يراه عمنا لعنة من لعنات الدهر .

فقال همام باسماً :

– لعل ارذل ما فيه هو ما تتباهى به انت ، اعني القوة والبطش .

فقال قدري بحدة :

– لقد نال هذه الأرض هبة بلا عناء ثم طغى واستكبر .

– لا تنكر ما اعترفت به منذ قليل ، ان الوالي نفسه لم يكن بوسعه ان يعيش وحده في مثل هذا الخلاء .

– وهل تجد في الحكاية التي رويت لنا مسوغاً حقاً لغضبه على والدينا ؟

– انك تجد اهون منها سبباً كافياً للبطش بالناس !

تناوول قدري الكوز ومضى يشرب حتى روي ، ثم تجشأ وقال :

— ما ذنب الأحفاد ؟ انه لا يدري ما رعي الغنم ، سحقاً له ! اود لو اعرف وصيته ، وماذا أعدّ لنا ! .

فتنهد همام وقال بصوت حالم :

— ثروة تربح من العناء ، كي يفرغ المرء لقلبه ، ويمضي العمر في يسر وطرب .

— انك تردد قول ابينا ، نشقى في التراب والطين ونحلم بالناي في ظل حديقة غناء ، الحق اقول اني أعجب بعمي اكثر من ابي .

فجلس همام وهو يتثاءب ، ثم نهض يتمطى ، وقال :

— على اي حال صرنا شيئاً ، لنا مأوى يسعنا ، ورزق يحفظ علينا الحياة ، واغنام نرعاها ، نبيع لبنها ونسمّنها لنبيعها ايضاً ، ومن شعرها تغزل امنا الكساء .

— والناي والحديقة ؟

فلم يجب ، واتجه نحو الأغنام بعد ان تناول عصاه الملقاة عند قدميه . ووقف قدري ، وصاح موجهاً خطابه الى البيت الكبير في عبث :

— أسمحت بأن نرثك ام ستعاقبنا في موتك كما عاقبتنا في حياتك ؟ اجب يا جبلاوي .

وردد الصدى : « اجب يا جبلاوي ! »

١٤

ورأيا عن بعـــد شخصاً يتجه نحوهما لم تتضح معالمه . ومضى القادم يقترب رويداً حتى تبيناه ، فانتصبت قامة قدري بحركة تلقائية وشعّت عيناه الجميلتان نور ابتهاج . ولحظ همام اخاه باسماً ، ثم نظر الى الأغنام

في غير مبالاة وهمس بلهجة تنبيه :

– الظلام غير بعيد .

فهتف قدري باستهانة :

– فليأت الفجر اذا شاء .

وخطا خطوات نحو الأمام ملوحاً بذراعيه في ترحاب للفتاة . وأخذت تدنو من موقفها ، مجهدة من المشي ، لطول المسافة من ناحية ولمقاومة الرمال لشبشبها من ناحية اخرى ، متطلعة نحوهما ببصر لامع يعكس مع فتنة العينين الخضراوين جرأة . وبدت ملتفة بملاءتها اللف حتى الكتفين ، مطلقة الرأس والعنق عاريين فعبث الهواء بضفيرتيها . وارتفع صوت قدري بسرور مسح عن وجهه امارات الحدة :

– أهلاً بهند .

فأجابت بصوت رقيق :

– أهلاً بك (ثم مخاطبة همام) مساء الخير يا ابن عمي .

فقال همام باسماً :

– مساء الخير يا بنت العم ، كيف حالك ؟

وتناول قدري يدها وسار بها نحو الصخرة الكبيرة القائمة على بعد أمتار من موقفها ، ودارا حول الصخرة حتى ضلعها المواجه للجبل فصارا في منعزل عن الخلاء ومن فيه . وجذبها نحوه فأحاطها بذراعيه ، ثم قبل ثغرها قبلة طويلة حتى تماست ثناياهما وغابت الفتاة في لحظة استسلام مذهلة . واستطاعت ان تتخلص من ذراعيه ، وان تقف مضطربة الانفاس فتحكم لف ملاءتها ، وتتلقى نظرته المهاجمة بنظرة باسمة . ولكن الابتسامة اختفت كأنما لخاطرة خطرت ، وتقوصت الشفتان في تبرم ، ثم قالت :

– جئت بعد معركة ، أف ، هذه الحياة لا تطاق .

فقطب قدري لادراكه ما تعني وقال بحدة :

– لا تبالي بشيء ، آننا ابناء الحمق ، ابي الطيب رجل غبي ، وأبوك الشرس لا يقل عنه غباء ، انهما يودان ان يورثانا الكراهية ، فيا للغباء ! خبريني كيف تيسر لك المجيء ؟.

فنفخت وقالت :

– مضى اليوم كالأيام السابقة في نقـــار متواصل بين أبـي وأمي ، وصفعها مرة او مرتين فصرخت تلعنه وصبّت غضبها على قلة فحطمتها، ولكن غضبها اليوم وقف عند هذا الحد ، انها كثيراً ما تمسك بخناقـه متحدية لطاته ، وتدعو عليه اذا غلبت على أمرها ، أما اذا غلبته الخمر فلا سلامة الا البعد عن وجهه . كثيراً ما أشعر برغبـــة في الهرب ، وبكراهية شديدة لهذه الحياة ، ولكني أروّح عن نفسي بالبكـــاء حتى تؤلمني عيناي . ما علينا ، انتظرت حتى ارتدى ثيابه وذهب ، فتناولت الملاءة ولكن أمي تعرضت لي تحاول منعي كالعـــادة ، ولكني تخلصت منها ومضيت الى الخارج .

فتناول قدري يدها بين يديه وتساءل :

– ألا تخمن أين تذهبين ؟

– لا أظن ، لا يهمني ، انها على أي حال لا تجرؤ على إخبار أبي.

فضحك قدري ضحكة مقتضبة وسألها :

– ماذا تظنينه يفعل لو عرف ؟

فرددت ضحكته في حيرة ولكنها قالت :

– اني لا أخشاه رغم شدته ، بل اقول لك إني أحبه ، وهو يحبني في سذاجة لا تتفق وحدة طبعه ؛ ولا يبـــالي أن يقول إنني أغلى شيء في دنياه ، ولعل هذا هو أصل متاعبي .

جلس قدري على الأرض أسفل الصخرة ودعاهـــا الى الجلوس بأن ربت الموضع جانبه ، فجلست وهي تتخفف من حبكة الملاءة ، ومال نحوها فلثم خدها ، ثم قال :

– يبدو ان غزو أبي أيسر من غزو أبيك ، ومع ذلك فشدّ مـا يبدو فظاً اذا جاء ذكر لأبيك ، أنه ينكر عليه صفات .

فضحكت قائلة وهي تذكر ما تردد عن ذكره :

– بني آدم !.. كذلك ينكر أبي عليه .

فحدجها بنظرة استنكار فقالت :

– أبوك ينكر علي أبي فظاظتـه ، وأبـي ينكر على أبيك طيبتـه ، والمهم أنهما لم يتفقا على شيء .

فندت عن رأس قدري حركة كأنما ينطح الهواء وقال بتحد :

– لكننا سنفعل ما نشاء .

فقالت هند وهي تنظر نحوه بعطف واشفاق :

– أبـي يستطيـع ان يفعل ما يشاء كذلك !

– وأنا قادر على أشياء كثيرة ، ماذا يريد لك هذا العم السكير ؟

فضحكت على رغمها ، وقالت بلهجة تشي بالاحتجاج والمداعبة معاً:

– تكلم عن أبي بأدب .

وواصلت الكلام وهي تقرصه في أذنه :

– طالما ساءلت نفسي عما يريد لي ، فخيل إلي أحياناً أنه يكره أن يزوجني من أحد .

فحملق فيها منكراً فعادت تقول :

– رأيته مرة يرمي بيت جدنا بنظرة غاضبة ويقول : « اذا كان قد رضي لأبنائه واحفاده بالهوان فهل يرضى به لحفيدته ؟ لا مكـان لائق بهند الا هذا البيت المغلق » . ومرة قال لأمي إن فتوة كفر الزغاري يرغب في الزواج مني ففرحت أمي فصاح بها حانقاً : « يا وضيعة .. يا خسيسة ، من يكون فتوة كفر الزغاري هذا ؟ ان احقر خادم في البيت الكبير اشرف منه وانظف » فسألتـه امي في حسرة : « فمن تراه الجدير بها ؟ » فصاح : « علم ذلك عند الطاغيـة المتواري خلف أسوار

بيته ، انها حفيدته ، وليس في الأرض من هو أهل لها ! أريـد لها زوجاً مثلي أنا » فقالت امي على رغمها: « أتريدها ان تكون تعيسة مثل أمها ! » فهجم عليها كالوحش وراح يركلها بشدة حتّى جرت خارج الكوخ !

– هذا هو الجنون بعينه .

– انه يكره جدنا ، ويلعنه كلما ذكره ، لكنه في أعماقه يتيه ادلالا بأبوتـه .

فكور قدري قبضته وجعل يضرب بها فخذه ويقول :

– لعلنا كنا نكون أسعد حالاً لو لم يكن ذلك الرجل جداً لنا ..

فقالت بمرارة :

– لعلنا .

فجذبها الى صدره بشدة تناسب الحدة في قوله وضمها اليه بقوة ، واستبقاها هكذا بين يديه ريثما تمر فترة الانتقال بين الشواغل المتعبة وبين الهيام الموعود ، وقال :

– اعطيني فاك .

عند ذاك تراجع همام من موقفه عند الصخرة ، واتجه بخفـة نحو الأغنام وهو يبتسم في حياء وأسى . خيل إليه ان الهواء يثمل بأنفاس الحب ، وان الحب ينذر بالمآسي . لكنه قال لنفسه : « صفا وجهه ورقّ ، لا يرى على هذا الحال الا خلف الصخرة ، فمن لنا بقوة هذا الحب السحرية لتزيل متاعبنا ؟ » . هنـا والسماء تشحب في استسلام ، وانفاس المغرب تتردد في خمول ، والسحرة تزحف كنغمة وداع وانية ، وهناك تيس يثب على عنزة . وعـاد همام يحدث نفسه : « ستفرح أمي يوم تلد هذه العنزة ؛ ولكن ميلاد انسان قد يجيء بالكوارث ، فوق رءوسنا لعنة من قبل ان نولد ، واعجب عداوة هي التي لا تجد هي لها من مبرر الا انها بين أخوين ، الى متى نعاني من هذه الكراهية ، لو نُسي

الماضي لابتهج الحاضر ، ولكنا سنظل نتطلع الى هذا البيت الذي لا عزة لنا الا به ولا تعاسة الا بسبب منه » . وعلقت عيناه بالتيس فابتسم . ومضى يدور حول الغنم وهو يصفر ويلوح بعصاه . وحانت منه التفاتة نحو الصخرة الكبيرة الصامتـــة فبدت في وقفتها كأنها لا تبـــالي شيئاً في الوجود .

١٥

استيقظت اميمة كعادتها عندما لم يبـــق في السماء الا نجمة واحدة . ونادت ادهم حتى استيقظ متأوهاً . ونهض الرجل فغادر غرفته مثقلا بالنعاس الى غرفة خارجية متصلة بها حيث ينام قدري وهمام فأيقظهما . وبدا الكوخ في مطهره الجديد نامياً ممتداً كأنه بيت صغير ، وأحاط به سورٌ ضم اليه فراغاً خلفيا لايواء الاغنام . وانتشرت على السور أفرع اللبلاب فلطفت من جفاء منظره ، ودلت على ان أميمة لم تيأس بعد من تحقيق حلمها القديم بان تهذب ما استطاعت كوخها على مثال البيت الكبير . واجتمع الرجال في الفناء حول صفيحة مملوءة بالماء ، فغسلوا وجوههم، وارتدوا جلابيب العمل ، وحمل الهواء من داخل الكوخ رائحة احتراق خشب ، وبكاء الاخوة الصغار . واخيراً جلسوا حول الطبلية امام مدخل الكوخ يأكلون من حلة فول مدمس . وكان جو الخريف رطيبا مائلا للبرودة في هذه الساعة المبكرة ولكنه لاقى اجساما قوية صمدت حيال نزواته . وعن بعد بدا كوخ ادريس وقد كبر وامتد كذلك ، أما البيت الكبير فقام في صمت منطويا على ذاته كأنما لا يربطه سبب بهذا العالم الخارجي . وجاءت أميمة تحمل كوز لبن محلوب لتوه فوضعته على الطبلية وجلست . وعند ذاك سألها قدري بسخرية :

– لماذا لا تبيعين اللبن الى بيت جدنا الموقر ؟

فالتفت اليه أدهم برأسه الذي وخط المشيب فوديه وقال :

– كل وأنت ساكت ، السكوت غاية ما نرجو عندك من خير .

وقالت أميمة وهي تطحن ما في فيها :

– آن لنا ان نخلل الليمون والزيتون والفلفل الأخضر ، كنت يا قدري تبتهج في أيام التخليل وتشترك في حشو الليمون .

فقال قدري بمرارة :

– كنا نبتهج ونحن صغار حتى بلا سبب .

فسأله أدهم وهو يعيد الكوز الى موضعه :

– وماذا يشقيك اليوم يا أبو زيد الهلالي ؟

فضحك قدري ولم يجب . أما همام فقال :

– يوم السوق قريب ، ينبغي أن نفرز الأغنام .

فهزت الأم رأسها بالايجاب ، على حين وجه الأب خطابه الى قدري قائلاً :

– يا قدري لا تكن فظاً ، لا أقابل شخصاً يعرفك إلا شكاك إلي، أخشى ان تعيد سيرة عمك في هذه الحياة .

– أو سيرة جدي !

فاتقدت عينا أدهم استياء وقال :

– لا تذكر جدك بسوء ، هل سمعتني أفعل ذلك ؟ ثم انه لم يسيء إليك .

فقال قدري باستنكار :

– أساء الينا ما دام أساء اليك .

– اسكت ، نقطتنا بسكوتك .

– بسببه كتبت علينا هذه الحياة ، وهي أيضاً مصير بنت عمنا .

فقال أدهم في عبوس :

ـ مالنا ومالها ، أبوها علة الكارثة .

فهتف قدري :

ـ أعني أنه ما كان يصح ان تنشأ نساء من دمنا في الخلاء والعراء ، ثم خبِّرني أي رجل ستتزوج هذه الفتاة ؟

ـ ليكن الشيطان نفسه ، لا شأن لنا بها ، لا شك انها مفترسة مثل أبيها .

ونظر نحو زوجه كأنما ينشد تأييداً فقالت أميمة :

ـ نعم ، مثل أبيها .

فبصق أدهم قائلاً :

ـ ملعونة هي وأبوها !

فتساءل همام :

ـ الا يفسد هذا الحديث علينا طعامنا ؟

فقالت أميمة برقة :

ـ لا تبالغ ، ان اسعد الاوقات وقت اجتماعنا .

هنا ترامى إليهم صوت إدريس كالهدير وهو يلعن ويسب ، فقال أدهم بتقزز :

ـ بدأت صلاة الصبح !

وتناول آخر لقمة ونهض ، ثم اتجه نحو عربته وراح يدفعها امامه وهو يقول : « تركتكم بعافية » فردوا عليه : « مع السلامة » . ومضى الرجل مبتعداً صوب الجمالية . وقام همام فمضى نحو الحظيرة من ممشى جانبي ، وما لبث ان تعالى ثغاء الأغنام ووقع اظلافها فملأت الممشى في طريقها الى الخارج . ونهض قدري كذلك فتناول عصاه ولوح لأمه مودعاً ولحق بأخيه . وعندما اقتربا من كوخ ادريس تصدّى لهما فتساءل ساخراً :

ـ بكم الرأس يا جدع ؟

فحدجه قدري بنظرة حب استطلاع على حين تجنّب همام النظر اليه.
وعاد إدريس يتساءل في انكار :
ـ ألا يتفضل احدكما بالجواب يا ابنيْ بياع الخيار ؟
فقال قدري بحدة :
ـ إذا اردت الشراء فاذهب الى السوق .
فتساءل إدريس مقهقهاً :
ـ وإذا قررت الاستيلاء على احداها ؟
وجاء صوت هند من الداخل وهي تقول :
ـ أبـي ، لا نريد فضائح .
فأجابها مداعباً :
ـ اهتمي بشأنك أنت ، ودعيني لسلالة الجواري !
فقال همام :
ـ نحن لا نتعرض لك فلا تتعرض لنا .
ـ آه ، صوت أدهم ، كان ينبغي ان تكون بين الأغنام لا وراءها .
فقال همام محتداً :
ـ أمرنا أبـي بألا نجيب على تحرُّشك بنا .
فقهقه إدريس عالياً وقال :
ـ جزاه الله كل خير ، لولا امره هذا لكنتُ في الهالكين ! (ثم بلهجة خشنة) .. انكما تعيشان عزيزين بفضل اسمي ، لعنـة الله عليكم جميعاً ، غورا من وجهي .
وواصلا سيرهما وهما يلوحـان من حين الى حين بعصويهما ، ولبث همام ممتقع اللون من الانفعال فقال لقدري :
ـ هذا الرجل مقيت ، ما أقذره ، حتى في هذه الساعـة المبكرة تنفث انفاسه رائحة الخمر .
فقال قدري وهما يوغلان وراء الاغنام في الخلاء :

ــ انه يتكلم كثيراً ، ولكنه لم يمد لنا يداً بأذى .

فقال همام محتجاً :

ــ بل استولى اكثر من مرة على بعض اغنامنا .

ــ انه سكير ، وهو للأسف عمنا ، لا مهرب من الاقرار بذلك .

وساد الصمت قليلاً وهما يتجهان نحو الصخرة الكبيرة ، وفي السماء سحب متفرقة ، والشمس ترسل اشعتها فتغمر الرمال المترامية . وضاق همام بكتمان ما يود قوله فقال :

ــ ستخطيء خطأ كبيراً إذا وصلت أسبابك بأسبابه .

فاشتعلت عينا قدري بنظرة غاضبة وهتف :

ــ لا تحاول نصحي ، حسبي أبوك .

فقال همام وهو لم يفق بعد من إهانات ادريس :

ــ حياتنا موفورة المتاعب فلا تزدها .

فصاح قدري :

ــ فلتسحقكم المتاعب التي تخلقونها بأنفسكم ، أما انا فأفعل ما أشاء .

وكانا قد بلغا الموضع الذي يسرحان عنده الأغنام فالتفت همام نحو أخيه وتساءل :

ــ أتظن أنك ناجٍ من عواقب افعالك ؟!

فقبض قدري على منكبه بقبضته وصاح :

ــ ما أنت إلا حسود .

فدهش همام . دهمه قول أخيه الذي لم يتوقعه . ولكنه كان متعوداً من ناحية أخرى على مفاجآته ومفرقعاته . ورفع يده عن منكبه وهو يقول :

ــ اللهم احفظنا .

فشبك قدري يديه على صدره وهو يهز رأسه ساخراً فقال همام :

ـ خير ما أفعل ان اتركك لنفسك حتى تندم ، لن تقر بخطأ ، ولن تقر به إلا بعد فوات الفرصة .

واولاه ظهره متجهاً نحو جانب الصخرة الظليـــل . ووقف قدري مكفهر الوجه تحت الأشعة الحامية .

١٦

جلست أسرة ادهم أمام الكوخ تتناول عشاءهـــا في ضوء النجوم الخافت . وإذا بحدث يقع لم يشهد له الخلاء مثيلاً مـــذ طرد ادهم . فتح باب البيت الكبير وخرج منه شبح حاملاً مصباحاً . وتطلعت الأعين الى المصباح في دهشة انعقدت لها الألسنة ، وتابعتـــه وهو يتحرك في الظلام ككوكب أرضي ، وعندما توسط المسافـــة بين البيت والكوخ تركزت الأبصار على الشبح لتتبينه على ضوء المصباح المنعكس حتى همس ادهم: « هذا عم كريم بواب البيت » . وتضاعفت الدهشة عندما أيقنوا من انه يقصدهم فوقفوا جميعاً ، بعضهم اللقمة في يده والبعض اللقمة في فيه بلا حراك . وبلغ الرجل موقفهم فوقف رافعاً يده وهو يقول :

ـ مساء الخير يا سيدي ادهم .

ارتجف ادهم لدى سماعه الصوت الذي انقطع عنه منذ عشرين عاماً، فدعا من أعماق ذاكرته نبرات الأب العميقة وشذا الياسمين والحناء وحنيناً وأشجاناً فادت به الأرض . وقال وهو يقاوم دموعه :

ـ مساء الخير يا عم كريم .

فقال الرجل بتأثر غير خاف :

ـ لعلك انت وأهلك بخير .

ـ الحمد لله يا عم كريم .

فقال الرجل برقة :
– أود أن أعرب لك عما بنفسي ولكني كلفت فقط بأن ابلغك بأن سيدي الكبير يدعو ابنك همام إلى مقابلته فوراً
وساد الصمت ، فتبادلوا النظرات ، ولفتهم الحيرة ، واذا بصوت يتساءل :
– همام وحده ؟
والتفتوا ساخطين نحو ادريس الذي بدا عن كثب وهو يصغي ، غير ان عم كريم لم يجب ، ورفع يده تحية ورجع صوب البيت الكبير تاركاً الجميع في ظلام . وتغيظ ادريس منه فصاح به :
– اتتركني بلا جواب يا ابن اللئيمة ؟
وأفاق قدري من ذهوله فتساءل غاضباً :
– لماذا همام وحده ؟
فردد ادريس تساؤله :
– نعم لماذا همام وحده ؟
فقال له ادهم ، ولعله وجد في مخاطبته متنفساً عن ازمته :
– عد الى كوخك ودعنا في سلام .
– سلام ؟ اني اقف حيث اشاء .
وتطلع همام الى البيت الكبير صامتاً ، وقلبه يخفق بشدة خيل اليه معها ان المقطم يردد صداه . وقال له ابوه بتسليم :
– اذهب يا همام الى جدّك مصحوباً بالسلامة .
فالتفت قدري الى ابيه يسأله بحدّة وتحدّ :
– وأنا ؟ ألست ابنك مثله ؟
– لا تتكلم كما يتكلم ادريس يا قدري ، انك ابني مثله بلا أدنى ريب ، ولا لوم عليّ فلست انا الداعي .
فقال ادريس محتجاً :

– ولكن بوسعك ان تمنع تمييز اخ عن اخيه .

– هذا شأن لا يعنيك (ثم مخاطباً همام) يجب ان تذهب ، وسيأتي دور قدري ، اني واثق من ذلك .

فقال ادريس وهو يهمّ بالذهاب :

– انك أب ظالم مثل ابيك ، مسكين قدري ، لماذا يعاقب دون ذنب ؟ لكن اللعنة تنزل اول ما تنزل في اسرتنا بالممتازين ، الا لعنة الله على هذه الأسرة المجنونة !

ومضى فابتلعته الظلمة . وعند ذاك هتف قدري :

– انك تظلمني يا ابي .

– لا تُعد أقواله ، تعال يا قدري ، واذهب يا همام .

فقال همام بحرج :

– وددت لو كان معي اخي .

– سيلحق بك .

فصاح قدري بحنق :

– اي ظلم هذا ! لماذا آثره عليّ ؟ انه لم يعرفه كما لم يعرفني فلماذا يختصه بالدعاء ؟

فدفع ادهم همام قائلاً :

– اذهب .

فسار همام . وهمست اميمة :

– تحفظك العناية .

واحتضنت قدري باكية ولكنه تخلص من ذراعيها ومضى في اثر اخيه فصاح به ادهم :

– عد يا قدري ولا تقامر بمستقبلك .

فقال قدري بغضب :

– لن ترجعني قوةٌ على الأرض .

وعلا صوت اميمة بالبكاء ، وبكى الصغار في الداخـل . وأوسع قدري خطاه حتى لحق بأخيه،وعلى كثب منه في الظلام رأى شبح ادريس يسير ممسكـاً بيد هند . ولما بلغوا باب البيت دفع ادريس قدري الى يسار همام وهند الى يمينه وتراجع خطوات وهو يصيح :

ـ افتح يا عم كريم ، جاء الأحفاد للقاء جدّهم .

وفتح الباب وظهر على عتبته عم كريم وبيده المصباح ، وقال بأدب :

ـ فليتفضل سيدي همام بالدخول .

فهتف ادريس :

ـ وهذا اخوه قدري ، وهذه هند وهي صورة مكررة من امي التي ماتت باكية .

فقال عم كريم بأدب :

ـ أنت تعلم يا سيدي ادريس انه لا يدخل هـذا البيت الا من يؤذن له .

وأشار الى همام فدخل ، وتبعه قدري آخذاً بيد هند ولكن علا صوت من الحديقة عرفه ادريس وهو يقول بصرامة :

ـ اذهبا بعاركما ايها الملوّثان .

تسمرت اقدامها . وأغلق الباب . وانقض ادريس عليها فقبض على منكبيها بقبضتيه وتساءل بصوت متهدج من الغضب :

ـ اي عار يعني ؟

وصرخت هنـد الماً ، على حين تحول قدري فجأة نحو ادريس ورفع يديه عنه وعن هند ، فافلتت هند وولت هاربة في الظلام . وتراجع ادريس بخفة الى الوراء ثم وجه الى قدري لكمة فتحملها الشاب رغم قوتها ووجه اليه لكمة اشدّ . واندفعا يتبادلان الضرب والركل بقسوة ووحشية تحت سور البيت الكبير . وصاح ادريس :

ـ سأقتلك يا ابن العاهرة .

فصاح قدري :
– سأقتلك قبل ان تقتلني .
وتبادلا الضربات حتى سال الدم من فم قدري وأنفه . وجاء ادهم جرياً كالمجنون وصاح بأعلى صوته :
– اترك ابني يا ادريس .
فصاح ادريس بحقد :
– سأقتله بجريمته .
– لن ادعك تقتله ، ولن ادعك تعيش ان قتلته .
وجاءت أم هند مولولة وهي تصيح :
– فرّت هند يا ادريس ، ادركها قبل ان تختفي .
ورمى ادهم بنفسه بين ادريس وقدري ، وصاح بأخيه :
– أفق ، انك تقاتل بلا سبب ، بنتك طاهرة لم تمسّ لكنك ارعبتها ففرت ، أدركها قبل ان تختفي .
وجذب قدري اليه ، ورجع به مسرعاً وهو يقول :
– أسرع .. تركت أمك في حالة اغماء .
اما ادريس فانطلق في الظلام وهو يصرخ بأعلى صوته : « هند .. هند .. »

١٧

تبع همام عم كريم فاجتازا الممشى تحت عريشة الياسمين متجهين نحو السلاملك . بدا الليل في الحديقة شيئاً جديداً ، لطيفاً رطباً مترعاً بنشوات الأزهار والرياحين فانسكب بروعته في اعماق روحه . وامتلأ الشاب بشعور جلال وافتتان ، وحنين مودة عميقة للمكان ، وبأنه مقبل على أجل لحظات

عمره . وتراءت لعينيـــه انوار وراء شيش بعض النوافذ ، ونور قوي ينبعث من باب البهو فارشاً على ارض الحديقة تحته شكلاً هندسياً ، فخفق قلبه وهو يتخيل الحياة خلف النوافذ وفي الأبهاء ، كيف تكون ومن يحياها . وزاد قلبه خفقاناً حينما تمثلت لخاطره هذه الحقيقة العجيبة وهي انه مخلوق من سلالة هذا البيت ونطفة من هذه الحياة ، وانه جاء ليلقاها وجهاً لوجه في جلباب أزرق بسيط وطاقية باهتة ، متعلاً أديم الأرض . ورقيا في سلم السلاملك ، فمالا الى جناح الشرفة الأيمن نحو باب صغير ، فتح على سلم فصعدا في صمت لا ينم عن حيـــاة ، حتى بلغا ردهة طويلة مضاءة بمصباح يتدلى من سقف مزركش ، واتجها نحو باب كبير مغلق يتوسط الردهة . وقال همام لنفسه في تأثر بالغ : « في موضع من هذه الردهة ، لعله هذا الموضع عند رأس السلم ، وقفت أمي منذ عشرين عاماً لتراقب الطريق ، أية ذكرى تعيسة ! » ونقـــر عم كريم على الباب الكبير مستأذناً للقادم ، ثم دفعه برقة وتنحى لهمام جانباً وهو يشير له بالدخول . ودخل الشاب في أناة وأدب ورهبة ، فلم يسمع صوت الباب وهو يغلق وراءه ، ولم يشعر الا شعوراً غامضاً بالنور المضيء في السقف والأركان ، اما وعيه كله فقد انجذب نحو الصدارة حيث تربع الرجل على ديوان . لم يكن رأى جده من قبل ولكنه لم يشك في هوية الجالس أمامه ، فمن يكون هذا الهائل ان لم يكن جده الذي سمع عنه الأعاجيب ؟ واقترب من مجلسه وهو يتلقى من عينيه الكبيرتين نظرة استلت من ذاكرته جميع ما فيها ، ولكنها بثت في قلبه في الوقت نفسه طمأنينة وسلاماً . وانحنى حتى كادت تمس جبهته طرف الديوان ، ومد يده ، فأعطاه الآخر يده ، فلثمها من الأعماق ، وقال بشجاعة غير متوقعة :

— مساء الخير يا جدي .

فجاءه الجواب من صوت جهوري لم يخل من انغام رحمة :

ـ اهلاً بك يا بني ، اجلس .

واتجه الشاب نحو مقعد الى يمين الديوان وجلس على حافته فقال الجبلاوي :

ـ خذ راحتك في مجلسك .

فتزحزح همام الى الداخل وقلبه يرتوي من المسرّة ، وتحركت شفتاه بشكر مهموس ثم ساد الصمت . ولبث ينظر في نقوش السجادة تحت قدميه ، وهو يشعر بموقع النظرة المسددة نحوه كما نشعر بموقع الشمس منا دون ان نراها . واذا بذهنه يتجه فجأة نحو الخلوة القائمة الى يمينه ، فلحظ بابها بخوف وكآبة ، واذا بالرجل يسأله :

ـ ماذا تعرف عن هذا الباب ؟

فارتجفت أوصاله ، وعجب كيف يرى كل شيء ، وقال بخشوع :

ـ اعرف انه فاتحة مأساتنا .

ـ وماذا ظننت بجدّك لدى سماعك الحكاية ؟

وفتح فاه ليتكلم فبادره الرجل :

ـ أصدقني القول .

فأثرت به اللهجة الى حد ان قال فيما يشبه الصراحة :

ـ بدا لي تصرف والديّ خطأً كبيراً ، كما بدا لي عقابهما صارماً شديداً .

فابتسم الجبلاوي قائلاً :

ـ هذا هو شعورك على وجه التقريب ، اني امقت الكذب والخداع ، ولذلك طردت من بيتي كل من لوث نفسه .

فاغرورقت عينا همام . فقال الجدّ :

ـ بدا لي انك شاب نظيف ، ولذلك استدعيتك .

فقال همام بصوت رطبته الدموع :

ـ شكراً يا سيدي .

فقال الجد بهدوء :

– رأيت ان اعطيك فرصة لم تتح لأحد ممن في الخارج ، وهي ان تعيش في هذا البيت ، وأن تتزوج به ، وأن تبدأ حياة جديدة فيه .

فتتابعت دقات قلب همام في نشوة من الافراح ، ولبث ينتظر انغاماً جديدة يستكمل بها هذا اللحن البديع كالسمّيع الذي ينتظر الجواب بعد ان طرب للقرار،ولكن الرجل لاذ بالصمت . وتردد همام قليلاً ثم قال :

– الشكر لك على نعمتك .

– انك تستحقها .

واختلج نظر الشاب بين جدّه وبين السجادة ، ثم تساءل في اشفاق :

– وأسرتي ؟

فقال الجبلاوي في عتاب :

– قلت ما اريد بوضوح .

فقال همام باستعطاف :

– انهم يستحقون رحمتك وعطفك .

فتساءل الجبلاوي بشيء من البرود :

– ألم تسمع ما قلت ؟

– بلى ، ولكنهم أمي وأبي واخوتي ، ان ابي رجل .

– ألم تسمع ما قلت ؟

وشى الصوت بالضجر فغلب الصمت . واذا بالرجل يقول إيذاناً بانتهاء الحديث :

– ارجع اليهم لتستأذن ، ثم عد .

وقام همام فلثم يد جدّه ومضى . وجد عم كريم ينتظر ، فتحرك الرجل وتبعه الشاب في سكون . ولما انتهيا الى السلاملك ، رأى همام فتاة في منطقة الضوء بأول الحديقة ، وقد سارعت الى الاختفاء . غير انه لمح منها العارض والعنق وقامة ممشوقة . وعاد صوت الجدّ يتردد في

أذنيه وهو يقول : « ان تعيش في هذا البيت وأن تتزوج به » . بفتاة كهذه الفتاة . وعيشة خبرها ابـي . كيف هانت عليه المقامرة ؟ وكيف وبأي قلب تحمّل الحياة بعد ذلك وراء عربة اليد ؟ . وهذه الفرصة السعيدة كأنها حلم . حلم ابـي منذ عشرين عاماً . لكني مثقل الرأس .

١٨

عاد همام الى الكوخ فوجد اسرته جالسة تترقب عودته . وأحاطوا به مستطلعين وسأله ادهم بلهفة :

– ماذا وراءك يا بني ؟

ولاحظ همام ان قدري معصوب العين فقرّب رأسه من وجهه ليتحقق من الأمر فقال أدهم بأسى :

– نشبت معركة حامية بين اخيك وبين ذلك الرجل .

وأشار بيده نحو كوخ ادريس الذي بدا غارقاً في الظلمة والصمت على حين قال قدري بغضب :

– كل ذلك بسبب التهمة الخبيثة الكاذبة التي قذفت بها من داخل البيت .

وأشار همام نحو كوخ ادريس وتساءل في قلق :

– ماذا يحدث هنالك ؟

فقال ادهم بحزن :

– الرجل وزوجه يبحثان عن ابنتها الهاربة .

فصاح قدري :

– من المسئول عن ذلك الا الرجل الفظّ اللعين !

فتوسلت أميمة قائلة :

– أخفت من صوتك .

فصاح قدري في حنق :

— ماذا تخافين ؟.. لا شيء الا الطمع في عودة لن تتحقق .. صدقيني انك لن تغادري هذا الكوخ حتى الممات .

فاحتد ادهم قائلاً :

— كفى هذيانا ، أنت مجنون وحق خالق الكون ، ألم تكن تريد ان تلحق بالفتاة الهاربة ؟

— وسألحق بها .

— اسكت ، لقد ضقت بحماقاتك .

وقالت أميمة بجزع :

— لن تطيب لنا الحياة بجوار إدريس بعد اليوم .

والتفت ادهم نحو همام وسأله :

— قلت ماذا وراءك ؟

فقال همام بصوت لا أثر للسرور فيه :

— دعاني جدي الى الاقامة في البيت الكبير .

وترقب ادهم بقية للحديث فلما لم ينبس الشاب تساءل في يأس :

— ونحن ، ماذا قال عنا ؟

فهز همام رأسه في حزن وهمس :

— لا شيء .

فضحك قدري ضحكة كلدغة عقرب وسأله في سخرية :

— وماذا جاء بك ؟

نعم ماذا جاء بي ، لا شيء إلا ان السعادة لم تخلق لينعم بها أمثالي . وقال بحزن :

— لم أقصّر في تذكيره بكم .

فقال قدري بحنق :

— شكراً ، ولكن ماذا جعله يؤثرك علينا ؟

ـ انت تعلم ألا شأن لي في ذلك .
وقال ادهم وهو يتنهد :
ـ لا شك انك يا همام خيرنا جميعاً .
فهتف قدري بمرارة :
ـ وانت يا أبـي الذي لم تذكره الا بخير لا يستحقه !
فقال ادهم :
ـ انت لا تفهم شيئاً .
ـ هذا الرجل اسوأ من ابنه ادريس .
فتوسلت أميمة قائلة :
ـ انك تقطع قلبي ، وتغلق أبواب الأمل في وجهك .
فصاح قدري باستهانة :
ـ لا أمل إلا في هذا الخلاء ، ادركوا هــذا وأريحوا أنفسكم ، إيأسوا من هذا البيت اللعين ، انا لا أخاف هذا الخلاء ، حتى ادريس نفسه لا أخافه ، وبوسعي ان اكيل له من الضربات أضعاف ما يكيل لي ، أبصقوا على هذا البيت وأريحوا أنفسكم .

وساءل ادهم نفسه : « أيمكن ان تمضي هذه الحياة على هذا النحو إلى الأبـــد ؟ ولماذا أيقظت يا ابـي طموحنا إليك قبـــل ان ترتضي العفو لنا ؟ وأي شيء يمكن ان يلين قلبك اذا كـــان ذلك الزمن الطويل لم يلينه ؟ وما جدوى الأمل إذا كان ذلك العذاب كله لم يزكّنا لرحمة من نحب ؟ » . وقال الرجل بصوت كالغروب :
ـ خبّرني يا همام عما لديك .
فقال همام في حياء :
ـ قال لي اذهب فاستأذن ثم عُدْ .
وشى الظلام بمحاولة فاشلة من أميمة لكتم انتحابها ، وتساءل قدري في خبث :

ــ وماذا يؤخرك ؟
فقال أدهم في حزم :
ــ اذهب يا همام مصحوباً بالسلامة والبركات .
وقال قدري بلهجة جدية كاذبة :
ــ اذهب يا شهم ولا تلق بالاً الى أحد .
فصاح ادهم :
ــ لا تهزأ بأخيك الطيب .
فقال قدري ضاحكاً :
ــ انه شرّنا جميعاً .
فهتف همام بحدة :
ــ إذا قررت البقاء فلن يكون هذا إكراماً لك أنت .
فقال ادهم بقوة :
ــ بل اذهب دون تردد .
وقالت أميمة خلال دموعها :
ــ نعم .. اذهب بالسلامة .
فقال همام :
ــ كلا يا أمي ، لن أذهب .
فتساءل ادهم :
ــ أجننت يا همام ؟
ــ كلا يا أبي ، الأمر يحتاج إلى تفكير ومشاورة .
ــ لا حاجة بك إلى ذلك ، ولا تحملني ذنباً جديداً .
فقال همام بعزم وهو يشير نحو كوخ ادريس :
ــ يخيل إلي ان احداثاً ستقع .
فقال قدري ساخراً :
ــ انك أضعف من أن تدفع شراً عن نفسك فضلاً عن الآخرين .

فقال همام بازدراء :

— خير ما أفعل ان اتجاهل ما تقول .

فعاد ادهم يقول برجاء :

— اذهب يا همام .

فاتجه همام نحو الكوخ وهو يقول :

— سأظل إلى جانبك .

١٩

لم يبق من الشمس إلا الشفق ، وانقطعت السابلة ، وانفرد بالخلاء قدري وهمام والأغنام . مر النهار فلم يتبادلا طواله إلا ما تقتضيه ضرورة الشركة في العمل . وغاب قدري شطراً كبيراً من النهار فخمن همام انه يتشمم أخبار هند ، ولبث وحده في ظل الصخرة على كثب من الأغنام . وفجأة ، وفي شيء من التحدي ، سأل قدري همام :

— خبرني عما انتويت من ذهابك الى جدك او عدولك ؟

فقال همام بامتعاض :

— هذا شأن يخصني وحدي .

فاحتدم الغيظ في قلب قدري ، ولاحت بوادره في وجهه كطلائع الظلام فوق المقطم ، وتساءل :

— لماذا بقيت ؟.. ومتى تذهب ؟.. متى تجد الشجاعة لاعلان نيتك ؟

— بل بقيت لأتحمل نصيبي من العناء الذي خلقته فضائحك .

فضحك قدري ضحكة كاسرة وقال :

— هكذا تقول لتداري حسدك !

فهز همام رأسه كالمتعجب وقال :

— إنك تستحق الرثاء لا الحسد .

فاقترب قدري منه واطرافه ترتجف من الحنق وقال بصوت مخنوق بالغضب :

— ما ابغضك حين تتظاهر بالحكمة .

فحدجه همام بنظرة احتكار دون ان ينبس ، فعاد الآخر يقول :

— يجب ان تخجل الحياة لانتساب امثالك اليها .

فلم يغض همام من بصره تحت النظرات المتقدة التي تنصب عليه وقال بثبات :

— اعلم انني لا أخافك .

— هل وعدك البلطجي الأكبر بالحماية ؟

— ان الغضب يجعل منك شيئاً حقيراً تعافه النفس .

وفجأة لطمه قدري على وجهه . لم تدهمه اللطمة فردّها بأشد منها وهو يقول :

— لا تتماد في جنونك .

وانحنى قدري بسرعة فالتقط حجراً وقذف به اخاه بكل ما اوتي من قوة . وبادر همام ليتفادى من الحجر ولكنه اصاب جبينه . ندّت عنه آهة وجمد في موقفه والغضب يشتعل في عينيه . واذا بالغضب يختفي منها فجأة كأنه شعلة ردمت بتراب كثيف . واذا بفراغ قاتم يحل فيهما فبدت العينان وكأنهما تنظران الى الداخل . وترنح ثم انكفأ على وجهه . وتبدل قدري حالاً بعد حال ، فزايله الغضب ، وتركه حديداً بارداً بعد انصهار ، وركبه الخوف . ترقب بلهفة ان ينهض المنكفىء او ان يتحرك ولكنه لم يرحم لهفته . وانحنى فوقه ، ومد اليه يده يهزه في رفق ولكنه لم يستجب . وسوّاه على ظهره ليخلص انفه وفاه من الرمال فاستلقى الآخر محملق العينين ولا حراك به : وركع قدري الى جانبه ، وراح يهزه ، ويدلك صدره ويديه ، وينظر بفزع الى الدم المتدفق

بغزارة من جرحه . وناداه برجاء فلم يجب . وبدا صمته كثيفاً عميقاً كأنه جزء لا يتجزأ من كيانه . كجموده الذي بدا غريباً عن الحي والجماد معاً . لا احساس ولا انفعال ولا اهتمام بشيء . كأنما القي الى الأرض من مكان مجهول فلم يمتّ اليها بسبب . عرف قدري الموت بفطرته فراح يشد شعر رأسه في يأ.س . ونظر فيما حوله خائفاً ، ولكن لم يكن هناك من حي الا الاغنام والحشرات . وجميعاً انصرفت عنه دون اكتّراث . سينتشر الليل ويستحكم الظلام . وقام بعزم ، فجاء بعصاه ، واتجه الى موضع بين الصخرة الكبيرة وبين الجبل ، وراح يحفر الأرض ويرفع التّراب بيديه ، ويواصل العمل بعناد ، وهو يتصبب عرقاً وترتجف منه الأوصال . وهرع نحو اخيه . هزه وناداه للمرة الاخيرة دون ان يتوقع جواباً . وقبض على اسفل ساقيه وجرّه حتّى أودعه الحفرة . وألقى نظرة وهو يتنهد ، وتردد ملياً ، ثم اهال عليه التّراب . ووقف يجفف عرق وجهه بكم جلبابه . وكلما رأى بقعة دم في الرمال غطاها بالتّراب . وارتمى على الأرض من شدة الاعياء . وشعر بقوّته تتخلى عنه ، وبرغبة في البكاء ، ولكن الدموع استعصت عليه . وقال : « غلبني الموت » . لم يدعه ولم يقصده ولكنه يجيء كما يحلو له . ولو انه انقلب تيساً لغاب في الاغنام . او ذرة من رمال لاختفى في الارض . ما دمت لا استطيع ان ارد الحياة فلا يجوز ان ادعي القوة ابداً . وهيهات ان تمحى تلك النظرة من رأسي ابداً . ان الذي دفنته لم يكن من الاحياء ولا من الجماد ، ولكنه من صنع يدي !

٢٠

عاد قدري الى الدار يسوق الأغنام ، ولم تكن عربة ادهم بموقفها .

وجاءه صوت امه من الداخل وهي تتساءل :
– لماذا تأخرتما عن موعدكما ؟
فدفع الاغنام الى الممشى المفضي الى حظيرتها وهو يقول :
– غلبني النوم ، ألم يحضر همام ؟
رفعت أميمة صوتها ليعلو على اصوات الطفلين قائلة :
– كلا ، الم يكن معك ؟
فازدرد ريقاً جافاً وقال :
– غادرني منذ الظهر دون ان يخبرني اين هو ذاهب . فظننته رجع الى هنا .
فتساءل ادهم وكان قد وصل ومضى يُدخل العربة الى الفناء :
– هل تشاجرتما ؟
– ابداً .
– أظنك كنت السبب في ذهابه ، ولكن اين هو ؟
خرجت أميمة الى الفناء ، على حين أغلق قدري باب الحظيرة وراح يغسل وجهه ويديه من ماء طشت تحت الزير . لا بد من مواجهة الموقف . الدنيا تغيرت ولكن اليأس قوة . وانضم الى والديه في الظلام وهو يجفف وجهه بطرف جلبابه . وتساءلت أميمة :
– أين ذهب همام ؟ لم يغب كهذه المرة من قبل .
فوافقها ادهم قائلاً :
– بلى ، خبرنا كيف ولماذا ذهب .
وارتعد قلب قدري لصورة خطرت برأسه ، لكنه قال :
– كنت جالساً في ظل الصخرة فلاحت مني التفاتة فرأيته يبتعد صوب حينا ، وهممت ان اناديه ولكني لم افعل .
فقالت اميمة في حسرة :
– ليتك ناديته ولم تستسلم لزعلك .

ونظر ادهم حائراً في الظلام حوله ، فرأى ضوءاً خافتاً خلال كوة في كوخ ادريس دلت على ان الحياة دبّت فيه من جديد ، ولكنه لم يأبه لذلك ، وثبّت بصره على البيت الكبير وتساءل :

— اتراه ذهب الى جده ؟

فقالت أميمة بانكار :

— لا يفعل ذلك دون اخبارنا .

فقال قدري بصوت شاحب :

— لعل الحياء منعه !

فسدد ادهم نحوه نظرة ارتياب منقبض الصدر لخلو صوته من السخرية والعدوان وقال :

— دفعناه الى الذهاب فأبى .

فقال قدري في اعياء :

— تحرج من القبول امامنا .

— ليس هذا من خلقه ، وأنت مالك كالمريض ؟!

فقال قدري بحدة :

— حملت عبء العمل وحدي .

فهتف ادهم في ضيق المستغيث :

— الحق اقول ان قلبي غير مطمئن .

فقالت اميمة بصوت مبحوح :

— سأذهب الى البيت الكبير لأسأل عنه .

فهز ادهم منكبيه في يأس وقال :

— لن يرد عليك احد ، ولكني اؤكد لك انه لم يذهب .

فنفخت اميمة في كرب وقالت :

— رباه ، لم يضطرب هكذا قلبي من قبل ، إفعل شيئاً يا رجل !

فتنهد ادهم بصوت مسموع في الظلام وقال :

ـ فلنفتش عنه كل في ناحية .
فقال قدري :
ـ لعله في الطريق الينا .
فهتفت أميمة :
ـ لا ينبغي ان ننتظر .
ثم مستدركة في جزع وهي تنظر صوب كوخ ادريس :
ـ أيكون ادريس قد صادفه في طريقه ؟
فقال ادهم بامتعاض :
ـ غريم ادريس قدري لا همام .
ـ انه لا يتردد عن القضاء على ايّ منا ، اني ذاهبة اليه !
فحال ادهم بينها وبين الذهاب وهو يقول :
ـ لا تزيدي امورنا تعقيداً ، أعدك اذا لم نعثر عليه ان اذهب الى ادريس ، وان اذهب الى البيت الكبير .
وحدج شبح قدري بنظرة قلقة . ما باله واجماً ؟! أليس عنده اكثر مما قال ؟ وأين انت يا همام ؟!

واندفعت اميمة لتغادر الفناء فمال ادهم نحوها وأمسك بمنكبها . واذا بباب البيت الكبير يفتح ، فتطلعوا نحوه . وبعد قليل لاح شبح عم كريم وهو يقترب منهم فخرج اليه ادهم وهو يقول : « اهلاً بك عم كريم » ، فحياه الرجل وقال :
ـ سيدي الكبير يسأل عمّا أخّر همام ؟
فقالت اميمة بيأس :
ـ لا ندري اين هو حتى ظنناه عندكم .
ـ سيدي يسأل عمّا أخّره ..
فهتفت أميمة :
ـ أعوذ بالله من اوهام قلبي .

وذهب عم كريم . وأخذت اميمة تحرك رأسها في اضطراب ينذر بالانفجار ، فساقها ادهم امامه الى حجرتها الداخلية حيث علا بكاء الصغيرين ، وصاح بوحشية :

— لا تغادري الحجرة ، سأعود به ، ولكن اياك ان تغادري الحجرة .

وعاد الى الفضـاء فعثر على قدري جالساً على الأرض فانحنى فوقه هامساً :

— خبرني ماذا تعرف عن اخيك ؟

فرفع رأسه نحوه بشدة ولكن شيئاً منعه من الكلام فعاد الرجل يسائله :

— خبّرني يا قدري ماذا فعلت بأخيك ؟

فقال الشاب بصوت لا يكاد يسمع :

— لا شيء .

وارتد الرجل نحو الداخل ثم رجع بمصباح فاشعله ووضعه على عربته فسقط نوره على وجه قدري فتفحصه الرجل برهبة وقال :

— وجهك ينذر بالشقاء .

وجاء صوت اميمة من الداخل مختلطاً باصوات الطفلين ليقول كلاماً لم يميزه احد فصاح ادهم :

— اسكتي يا ولية ، موتي ان شئت ولكن في صمت !

وعاد الى تفحص ابنه . وبغتة ارتعدت اطرافه . وامسك بطرف كمه وقال في فزع :

— دم ، ما هذا ؟ دم اخيك ؟!

فحملق قدري في كم جلبابه ثم انكمش بحركة لاإرادية ، وحنى رأسه في يأس . اعترف قدري بحركته اليائسة فجذبه ادهم حتى اقامه ، ثم دفعه الى الخارج . دفعه بقسوة لم يعهدها من قبل ، وغشى عينيه ظلام فوق الظلام المحيط .

٢١

دفعه نحو الخلاء قائلاً :

ــ سنميل نحو خلاء الدراسة كيلا نمر امام كوخ ادريس .

وأوغلا في الظلام ، وقدري يسير كالمترنح تحت قبضة ابيه الناشبة في منكبه . وتساءل ادهم وهو يجدّ في السير بصوت ادركه الهرم :

ــ خبّرني هل ضربته ؟ بأي شيء ضربته ؟ وعلى اي حال تركته ؟

لم يجب قدري . كانت قبضة ابيه شديدة ولكنه لم يكن يشعر بها . وكان ألمه شديداً ولكنه لم يفصح عنه . وود ان الشمس لا تطلع ابداً .

ــ ارحمني وتكلم ، ولكنك لم تعرف الرحمة ، وقد قضيت على نفسي بالعذاب يوم انجبتك ، انا الذي تطـاردني اللعنات منذ عشرين عاماً ، وها أنا اطلب الرحمة ممن لا يعرفها .

فانفجر قدري باكياً حتى ارتجف منكبه في قبضة ادهم القاسية ، وظل يرتجف حتى سرت عدواه الى ادهم ، لكنه قال :

ــ أهذا جوابك ؟ لماذا يا قدري لماذا ؟ كيف هان عليك ؟ اعترف في الظلام قبل ان ترى نفسك في ضوء النهار .

فهتف قدري :

ــ لا طلع النهار !

ــ نحن اسرة الظلام ، لن يطلع علينا نهار !. وكنت احسب الشر مقيماً في كوخ ادريس ، فاذا به في دمنـا نحن ، ان ادريس يقهقه ويسكر ويعربد ، اما نحن فيقتل بعضنا البعض ، رباه .. هل قتلت اخاك ؟

ــ ابداً !

ــ فأين هو ؟

ــ ما قصدت قتله !

فصاح ادهم :

— لكنه قتل !

واجهش قدري في البكاء واشتدت قبضة ابيه . اذن قتل همام ، زهرة العمـــل وحبيب الجد ، كأنه لم يكن ، لولا الالم المفترس ما صدقت .

وبلغا الصخرة الكبيرة فسأله ادهم بصوت غليظ :

— أين تركته يا مجرم ؟

فسار قدري نحـــو الموضع الذي حفره لأخيه ووقف عنده فيما بين الصخرة والجبل . وتساءل ادهم :

— اين اخوك ؟. لا ارى شيئاً .

فقال قدري بصوت لا يكاد يسمع :

— هنا دفنته .

فصرخ ادهم :

— دفنته ؟!

وأخرج من جيبه علبة ثقاب وأشعل عوداً تفحص الموضع على ضوئه حتى رأى قطعة من الأرض قلقة المستوى كما رأى مسحب الجثة الذي انتهى عندها . تأوه ادهم من الألم . وراح يزيح التراب بيدين مرتعشتين . وواصل عمله في جو رهيب حتى مست اصابعه رأس همام . وغرز يديه الى ما تحت ابطيه وسحب الجثة في رفق . وجثا على ركبتيه الى جانبها واضعاً يديه على رأسه ، مغمض العينين ، مثالاً للتعاسة والخيبة . وزفر من اعماقه ، ثم غمغم :

— ان حياة اربعين عاماً من العمر تبدو سخفاً سقيماً امام جثتك يا بني .

وقام بغتة ، ونظر نحو قدرى وهو يقف امام الجثة من النـــاحية الأخرى ، فعانى لحظات كراهية عمياء ، وقال بصوت غليظ :

— سيعود همام الى الكوخ محمولاً على عنقك .

فجفل قدري متراجعاً ، ولكن الرجل سارع اليه دائراً حول الجثة ثم قبض على منكبه وهتف :

– احمل أخاك !

فقال قدري بصوت كالأنين :

– لا استطيع .

– انك استطعت قتله .

– لا استطيع يا ابي .

– لا تقل « ابي » ، قاتل اخيه لا أب له ، لا ام له ، لا أخ له .

– لا استطيع .

فشد قبضته عليه وقال :

– على القاتل ان يحمل ضحيته .

حاول قدري ان يفلت من قبضة ادهم ولكن ادهم لم يمكّنه ، وانهال في عصبية على وجهه باللكمات فلم يتفاد من لكمة او يتأوه من ألم . وكف الرجل ، ثم قال :

– لا تضيع الوقت ، امك تنتظر .

وارتعد قدري لدى ذكر امه . فقال برجاء :

– دعني اختفي .

فجذبه نحو الجثة وهو يقول :

– هلم نحمله معاً .

تحول ادهم الى الجثة ووضع يديه تحت ابطي همام ، وانحنى قدري واضعاً يديه تحت الساقين . رفعا الجثة معاً ، وسارا في بطء نحو خلاء الدراسة . اوغل ادهم في مشاعره الأليمة حتّى فقد اي شعور بالألم او بسواه . ولبث قدري يعاني الملأ من خفقان قلبه وارتجاف اطرافه . وامتلأ انفه برائحة ترابية نفاذة على حين سرى مس الجثة من يديه الى اعماقه . وكان الظلام غليظاً بينا نضح الأفق بأنوار الأحياء الساهرة . وشعر

قدري باليأس يكتم آخر انفاسه فتوقف قائلاً لأبيه :
ـ سأحمل الجثة وحدي .
ووضع ذراعاً تحت الظهر وأخرى تحت الفخذين ، وسار يتبعه ادهم .

٢٢

وعندما اقتربا من الكوخ جاءهما صوت اميمة متسائلاً في جزع :
ـ هل وجدتماه ؟
فصاح ادهم بصوت آمر :
ـ اسبقيني الى الداخل .
وسبق قدري الى الكوخ ليتأكد من اختفائها . ووقف قدري عند مدخل الكوخ لا يريد ان يتحرك . وأشار له ابوه بالدخول فامتنع قائلاً في صوت هامس :
ـ لا استطيع ان القاها .
فهمس الأب حانقاً :
ـ استطعت ما هو افظع .
فتشبث قدري بموقفه وهو يقول :
ـ كلا ، هذا افظع .
ودفعه ادهم امامه بحزم فاضطر الى التحرك حتى بلغ الحجرة الخارجية . وانقض ادهم على اميمة بسرعة فكتم براحته الصرخة التي اوشكت على الافلات من فيها ، وقال بقسوة :
ـ لا تصرخي يا ولية ، لا ينبغي ان نلفت الأسماع حتى نتدبر الأمر ، فلنقاس المقدور صامتين ، ولنتحمل الألم صابرين ، الشر من بطنك ومن صلبي خرج ، واللعنة حقت علينا جميعاً .

وسد فاها بقوة . وحاولت التخلص من يده عبثاً . ارادت ان تعضها فلم تتمكن . اضطربت انفاسها وخارت قواها فسقطت مغشياً عليها . ولبث قدري واقفاً يحمل الجثة في صمت وخزي مركزاً بصره على المصباح ليتجنب النظر اليها . واتجه ادهم نحوه ، فساعده على وضع الجثة على الفراش ، ثم سجاهـا برفق . ونظر قدري الى جثة اخيه المسجاة على الفراش الذي اقتسماه طوال العمر فشعر بأنه لم يعد له مكان في الدار . وحركت اميمة رأسها ، ثم فتحت عينيها فبادر ادهم اليها وهو يقول بحزم :

ـ اياك ان تصرخي .

وارادت ان تنهض فساعدها على النهوض وهو يحذرها من احداث صوت . وهمت بالارتماء على الفراش فحال الرجل دون ذلك ، فوقفت مغلوبة على امرها واندفعت تنفس عن كربها بشد شعرها بقسوة فانتزعت منه خصلات بعد خصلات . ولم يبال الرجل بما تفعل ، وقال بغلظة :

ـ افعلي ما يريحك ولكن في صمت .

فقالت بصوت مبحوح :

ـ ابني !.. ابني ..

فقال ادهم في ذهول :

ـ هذه جثته ، لم يعد ابنك ولا ابني ، وهذا هو قاتله ، اقتليه ان شئت .

ولطمت اميمة خديها وقالت لقدري بوحشية :

ـ ان احط الوحوش تتبرأ من فعلتك !

فحنى قدري رأسه في صمت على حين قال ادهم بوحشية :

ـ هل تذهب هذه الروح هدراً ؟ لا ينبغي ان تحيا ، هـذه هي العدالة .

فهتفت اميمة :

ـ كان امس املاً مشرقاً ، قلنا له اذهب فأبى ، ليته ذهب ،

لو لم يكن كريماً نبيلاً رحيماً لذهب، أيكون جزاء هذا القتل ؟! كيف هان عليك يا صخري القلب ! لست ابني ولست أمك !

لم ينبس قدري لكنه قال لنفسه : « قتلته مرة وهو يقتلني مرة كل ثانية ، لست حياً ، من قال اني حيّ ؟! » . وسأله ادهم بفظاظة :

ــ ماذا افعل بك ؟

فقال قدري بهدوء :

ــ قلت انه لا ينبغي ان احيا .

فهتفت اميمة :

ــ كيف سولت لك نفسك قتله ؟!

فقال قدري في يأس :

ــ لا جدوى من النواح ، اني مستعد للعقاب ، والقتل اهون مما اعاني .

فقال ادهم بحنق :

ــ لكنك جعلت حياتنا ايضاً افظع من الموت .

وهبت اميمة هاتفة وهي تلطم خديها :

ــ لن احب هذه الحياة ، ادفنوني مع ابني ، لماذا لا تدعني اصوّت ؟

فقال ادهم بمرارة وسخرية :

ــ ليس شفقة على حنجرتك ولكني اخشى أن يسمعنا الشيطان .

فقال قدري باستهانة :

ــ فليسمع كيف شاء ، لم اعد اكترث الحياة .

واذا بصوت ادريس يعلو قريباً من مدخل الكوخ :

ــ اخي ادهم ! تعال يا مسكين !

فسرت الرعدة فيهم جميعاً ، غير ان ادهم صاح به :

ــ عد الى كوخك ، واحذر ان تستفزني .

فقال ادريس بصوت قوي :

ــ شر اهون من شر ، مصيبتكم نجتكم من غضبي ، ولكن لندع

هذا الحديث ، كلانا مصاب ، انت فقدت العزيز الغالي ، وأنا ضاعت ابنتي الوحيدة ، كان الابناء عزاءنا في منفانا ولكنهم ذهبوا ، تعـال يا مسكين نتبادل العزاء .

اذن ذاع السر ! كيف ذاع ؟! ولأول مرة يخاف قلب اميمة على قدري . وقال ادهم :

ـ لا تهمني شماتتك ، من يذق ألمي تهن عليه الشماتة !

فجاء صوت ادريس مستنكراً :

ـ شمـاتة ! الا تدري انني بكيت عندما رأيتك تسحب الجثة من الحفرة التي حفرها قدري ؟!

فصاح ادهم بغضب :

ـ تجسس حقير !

ـ لم ابك على القتيل وحده ولكن على القاتل ايضاً ! وقلت لنفسي يا لك من مسكين يا ادهم ، فقدت شابين في ليلة واحدة !

وصوتت اميمة دون اكتراث لأحد ، واندفع قدري خارج الكوخ بغتة . وجرى ادهم وراءه . وصرخت اميمة :

ـ لا اريد ان افقد الاثنين !

اراد قدري ان يثب على ادريس ولكن ادهم دفعـه بعيداً عنه ثم وقف امام الرجل متحدياً وهو يقول :

ـ احذر ان تتعرض لنا !

فقال ادريس بهدوء :

ـ انت احمق يا ادهم ، لا تفرق بين الصديق وبين العدو ، تريد ان تعارك اخاك دفاعاً عن قاتل ابنك :

ـ اذهب عني .

فقال ادريس ضاحكاً :

ـ كما تشاء ، تقبّل عزائي والسلام عليكم .

غاب ادريس في الظلام . وتحول ادهم نحو قدري فوجد اميمة واقفة تتساءل عنه ، فجزع الرجل وراح ينظر في الظلام ويصيح بأعلى صوته :

- قدري .. قدري .. اين انت ؟!

وجاءه صوت ادريس وهو يصيح بقوة :

- قدري .. قدري .. اين انت ؟!

٢٣

دُفن همام في مقبرة تابعة للوقف بباب النصر . سار في جنازته قوم كثيرون من معارف ادهم ، اكثرهم باعة من زملائه ، وأقلهم زبائن ممن اسرتهم رقة اخلاقه وحسن معاملته . وفرض ادريس نفسه على الجنازة فاشترك في تشييعها ، بل وقف يتقبل العزاء بصفته عم الفقيد . وسكت ادهم كارهاً ، فسار في الجنازة كثيرون من الفتوات والبلطجية والبرمجية واللصوص وقطاع الطرق . وعند الدفن وقف ادريس فوق القبر يشجع ادهم بكلمات العزاء والآخر صابر متصبر لا يجيب ودموعه تستبق على خديه . وروحت اميمة عن كربها باللطم والصوات والتمرغ في التراب . وعندما تفرق المشيعون ، التفت ادهم الى ادريس وقال بحنق :

- الا يوجد حد لقسوتك ؟!

فتظاهر ادريس بالدهشة وتساءل :

- عم تتحدث يا اخي المسكين ؟

فقال ادهم بحدة :

- لم اتصورك على هذا القدر من القسوة رغم سوء ظني بك ، الموت نهاية كل حي ، فما وجه الشماتة فيه ؟!

فقال ادريس وهو يضرب كفاً على كف :

ـ الحزن اخرجك عن ادبك ، لكني مسامحك .
ـ متى تقر بأنه لم تعد تربطنا صلة ؟
ـ لترحمنا السماء ، الست اخي ؟! هذه رابطة ليس في الامكان فصمها .
ـ ادريس !. كفاك ما فعلت بي .
ـ الحزن قبيح ، ولكن كلانا مصاب ، انت فقدت همام وقدري وأنا فقدت هند ، اصبح للجبلاوي العظيم حفيدة عاهرة وحفيد قاتل ، وعلى اي حال فانت خير حالاً مني اذ لك ذرية تعوضك عما فات.
فتساءل ادهم في حسرة :
ـ اما زلت تحسدني ؟
فقال ادريس متعجباً :
ـ ادريس يحسد ادهم !
فعلا صوت ادهم وهو يهدر :
ـ اذا لم يكن جزاؤك من جنس عملك فعلى الدنيا العفاء .
ـ العفاء ، العفاء .

ومرت ايام كئيبة مفعمة بالاشجان . وقهر الحزن اميمة فساءت صحتها واعتصرها الضمور . وفي اعوام قلائل بلغ ادهم من الهرم ما لا يُبلغ في عمر مديد . وبات الزوجان يعانيان الهزال والمرض . ويوماً اشتدت عليها وطأة المرض فركنا الى الرقاد ، اميمة مع طفليها في الغرفة الداخلية ، وادهم في الغرفة الخارجية ، غرفة قدري وهمام . ومضى النهار وجاء الليل فلم يشعلا مصباحاً ، وقنع ادهم بضوء القمر المنبعث من الفناء . وراح يغفو قليلاً ويستيقظ قليلاً في حال بين الوعي والذهول . وجاءه صوت ادريس من خارج الكوخ وهو يسأله متهكماً :
ـ الست في حاجة الى خدمة ؟
فانقبض صدره ولم يجبه . وكان يكره الساعة التي يغادر فيها الآخر

كوخه ليذهب الى سهرته الليلية . وجاءه الصوت مرة اخرى وهو يقول :
ـ اشهدوا يا ناس على برّي وعقوقه .
وذهب وهو يغني :

كنا تلاته طلعنا الجبـــل نصطاد
واحد قتله الهوى والثاني خدوه الاحباب

امتلأت عينـــا ادهم بالدموع . هذا الشر الذي لا يصد عن اللهو . يقاتل ويقتل ويحظى بكل احترام . يقسو ويستبد هازئاً بالعواقب وله ضحكة تجلجل فتملأ الآفاق . له لذة في العبث بالضعفاء ويسمر في المآتم ويغني فوق شواهد القبور . الموت يدنو مني وهو ما زال يضحك ساخراً . القتيل في التراب والقاتل ضائع وفي كوخي بكاء على الاثنين . ضحكة الطفولة في الحديقة استحالت مع الايام عبوسة غارقة في الدمع . وفي الداخل بقيـــة جسدي يتوجع . لماذا هذا العناء كله وأين صفو الاحلام أين ؟

وخيل الى ادهم انه يسمع وقع اقدام . اقدام بطيئة وثقيلة استثارت ذكريات غامضة كرائحة زكية مؤثرة تستعصي على الادراك والتحديد . حول وجهه نحو مدخل الكوخ فرأى الباب يفتح ، ثم رآه يمتلىء بشيء كجسم هائل . حلق في دهش ، وأحدّ بصره في أمل يكتنفه يأس ، وندّت عنه آهة عميقة ، وغمغم متسائلاً :
ـ أبي ؟!

وخيل اليه انه يسمع الصوت القديم وهو يقول :
ـ مساء الخير يا ادهم .
فاغرورقت عيناه ، وهم بالقيام فلم يستطع ووجد غبطة وبهجة لم يجدها منذ اكثر من عشرين عاماً . وقال بصوت متهدج :
ـ دعني اصدق .

فقال :

ــ أنت تبكي وأنت الذي اخطأت .

فقال ادهم بصوت يشرق بالدمع :

ــ الخطأ كثير والعقاب كثير ولكن حتّى الحشرات المؤذية لا تيأس من العثور على ظل .

ــ هكذا تعلمني الحكمة !

ــ عفواً عفواً ، الحزن ارهقني ، والمرض ركبني ، حتّى اغنامي مهددة بالهلاك .

ــ جميل ان تخاف على أغنامك .

تساءل ادهم في رجاء :

ــ هل عفوت عني ؟

أجاب بعد صمت :

ــ نعم .

فهتف ادهم بجسم مرتعش :

ــ الشكر لله ، منذ قليل كنت اقرع قاع هاوية اليأس بيدي .

ــ فعثرت علي فيها !

ــ نعم كالصحو بعد الكابوس .

ــ لذلك فأنت ولد طيب .

فتأوه أدهم قائلاً :

ــ أنجبت قاتلاً وقتيلاً .

ــ الميت لا يعود فماذا تطلب ؟

فتنهد أدهم قائلاً :

ــ كنت أهفو للغناء في الحديقة ولكن لن يطيب لي اليوم شيء .

فقال :

ــ سيكون الوقف لذريتك .

ـ الشكر لله .

فقال :

ـ لا تجهد نفسك واركن الى النوم .

* * *

وفي تواريخ متقاربة ودع الحيـــاة أدهم فأميمة ثم إدريس . وكبر الأطفال . وعاد قدري بعد غيبة طويلة ومعه هند ومعها أطفال . نشأوا جنباً الى جنب وخالطوا غيرهم فازدادوا بهم عدداً . وإنتشر العمران بفضل أموال الوقف فارتسمت في صفحة الوجود حارتنا . ومن هؤلاء وأولئك جاء أبناء حارتنا .

جبل



٢٤

أقيمت بيوت الوقف في خطين متقابلين يصنعان حارتنا . ويبدأ الخطان من خط يقع أمام البيت الكبير ، ويمتدان طولاً في اتجاه الجمالية . أما البيت الكبير فقد ترك خالياً من جميع الجهات على رأس الحارة من ناحية الصحراء . وحارتنا ، حارة الجبلاوي ، أطول حارة في المنطقة . اكثر بيوتها ربوع كما في حي آل حمدان ، وتكثر الأكواخ من منتصفها حتى الجمالية . ولن تتم الصورة الا بذكر بيت ناظر الوقف على رأس الصف الأيمن من المساكن ، وبيت الفتوة على رأس الصف الأيسر قبالته.

كان البيت الكبير قد أغلق أبوابه على صاحبه وخدمه المقربين . ومات أبناء الجبلاوي مبكرين فلم يبق من سلالة الذين أقاموا وماتوا في البيت الكبير إلا الأفندي ناظر الوقف في ذلك الوقت . أما أهل الحارة عامة فمنهم البائع الجوال ، ومنهم صاحب الدكان أو القهوة ، وكثيرون يتسولون ، وثمة تجارة مشتركة يعمل فيها كل قادر هي تجارة المخدرات وبخاصة الحشيش والأفيون والمدافع . وكان طابع حارتنا — كحالها اليوم — الزحام والضجيج . الاطفال الحفاة اشباه العرايا يلعبون في كل ركن ، ويملأون الجو بصراخهم والأرض بقاذوراتهم . وتكتظ مداخل البيوت بالنساء ، هذه تخرط الملوخية ، وتلك تقشر البصل ، وثالثة توقد النار ، يتبادلن الأحاديث والنكات ، وعند الضرورة الشتائم والسباب . والغناء والبكاء لا ينقطعان ، ودقة الزار تستأثر باهتمام خاص . وعربات

اليد في نشاط متواصل . ومعارك باللسان أو بالآيدي تنشب هنا وهناك . وقطط تموء وكلاب تهر وربما تشاجر النوعان حول أكوام الزبـــالة . والفئران تنطلق في الأفنية وعلى الجدران ، وليس بالنادر ان يتجمع قوم لقتل ثعبان أو عقرب . أما الذباب فلا يضاهيه في الكثرة إلا القمل ، نهو يشارك الآكلين في الأطباق والشاربين في الأكواز ، يلهو في الأعين ويغني في الأفواه كأنه صديق الجميع .

وما أن يجد شاب في نفسه جرأة أو في عضلاته قوة حتى يندفع إلى التحرش بالآمنين ، والاعتداء على المسالمين فيفرض نفسه فتوة على حي من أحياء الحارة ، يأخذ الاتاوات من العاملين ، ويعيش ولا عمل لــه إلا الفتونة . هكذا وجد فتوات الأحياء مثـــل قدره والليثي وأبو سريع وبركات وحمودة . وكان زقلط أحد هؤلاء الفتوات ، فخاض معـارك كثيرة مع فتوة بعد فتوة حتى هزم الجميع وصار فتوة الحارة كلها . وفرض الاتاوات على الفتوات جميعاً . ورأى الأفندي ناظر الوقف انـه بحاجة الى مثل هذا الرجل لينفذ أوامره أو يدفع عنه ما قد يتهدده من شر فقربه ورتب له راتباً عظيماً من ريع الوقف ، فأقام زقلط في بيته المقابل لبيت الناظر واستحكم سلطانه . وعند ذاك ندر وقوع المعارك بين الفتوات ، اذ ان الفتوة الاكبر لا يرتاح الى هذا النوع من المعارك الذي قد ينتهي بتكبير فتوة وبالتالي بتهديد مركزه هو ، لذلك لم يجد الفتوات متنفساً لقوة شرهم الحبيسة إلا في الاهـــالي المساكين المسالمين . كيف انتهى الأمر بحارتنا الى هذه الحال ؟

لقد وعد الجبلاوي أدهم بأن يكون الوقف لخير ذريته . وشيـــدت الربوع ووزعت الخيرات وحظي النـــاس بفترة من العمر السعيد . ولما أغلق الأب بابه واعتزل الدنيا احتذى الناظر مثاله الطيب حيناً ، ثم لعب الطمع بقلبه فنزع إلى الاستئثار بالريع . بدأ بالمغالطة في الحساب والتقتير في الأرزاق ثم قبض يـــده قبضاً مطمئناً إلى حماية فتوة الحـــارة الذي

اشتراه . ولم يجد الناس بدأ من ممارسة أحقر الاعمال . وتكاثف عددهم فزاد فقرهم وغرقوا في البؤس والقذارة . وعمد الأقوياء الى الارهاب والضعفاء الى التسول ، والجميع الى المخدرات . كان الواحد يكد ويكدح نظير لقمات يشاركه فيها فتوة ، لا بالشكر ، ولكن بالصفع والسب واللعن . الفتوة وحده يعيش في بحبوحة ورفاهية ، وفوق هذا الفتوة الاكبر ، والناظر فوق الجميع ، أما الاهالي فتحت الأقدام . واذا عجز مسكين عن أداء الاتاوة انتقم منه فتوة حيه شر الانتقام ، واذا شكا أمره الى الفتوة الاكبر ضربه الفتوة الأكبر وأسلمه الى فتوة حيه ليعيد تأديبه ، فاذا سولت له نفسه أن يشكو الى الناظر ضربه الناظر والفتوة الأكبر وفتوات الاحياء جميعاً . وهذه الحال الكئيبة شهدتها بنفسي في أيامنا الاخيرة ، صورة صادقة مما يروي الرواة عن الازمان الماضية . أما شعراء المقاهي المنتشرة في حارتنا فلا يروون الا عهود البطولات متجنبين الجهر بما يحرج مراكز السادة ، ويتغنون بمزايا الناظر والفتوات ، بعدل لا نحظى به ورحمة لا نجدها وشهامة لا نلقاها وزهد لا نراه ونزاهة لا نسمع عنها . واني لأتساءل عما ابقى آباءنا — أو عما يبقينا نحن — بهذه الحارة اللعينة ؟ الجواب يسير . لن نلقى في الحواري الاخريات الا حياة اسوأ من الحياة التي نكابدها هنا ، هذا إذا لم يهلكنا فتواتها انتقاماً مما لاقوا على أيدي فتواتنا . والادهى الامر أننا محسودون ! يقول أهالي الحواري حولنا يا لها من حارة سعيدة ! تحظى بوقف لا مثيل له ، وفتوات تقشعر عند ذكرهم الابدان . ونحن لا ننال من الوقف إلا الحسرات ، ومن قوة فتواتنا إلا الاهانات والاذى . على ذلك كله فنحن باقون ، وعلى الهم صابرون . نتطلع إلى مستقبل لا ندري متى يجيء ، ونشير الى البيت الكبير ونقول هنا أبونا العتيد ، ونومىء إلى الفتوات ونقول هؤلاء رجالنا ، ولله الامر من قبل ومن بعد .

٢٥

ونفد صبر آل حمدان فاصطخبت في حيهم أمواج التمرد .

كان آل حمدان يقيمون في قمة الحارة فيما يلي بيتي الافندي وزقلط ، حول البقعة التي بنى أدهم فيها كوخه . وكان رئيسهم حمدان صاحب قهوة ، قهوة حمدان ، أجمل قهوة في الحارة كلها ، التي تتوسط حي حمدان بين الربوع . جلس المعلم حمدان في الجهة اليمنى من مدخل القهوة ، في عباءة رمادية ، وعلى الرأس لاسة مزركشة ، يتابع عبدون صبي القهوة في نشاطه المتواصل ، ويتبادل مع بعض الزبائن الاحاديث . وكانت القهوة ضيقة العرض ولكنها تمتد طولا حتى أريكة الشاعر في الصدر تحت صورة خيالية ملونة لادهم في رقاده الاخير وهو يتطلع الى الجبلاوي الواقف بباب الكوخ . أشار حمدان إلى الشاعر فتناول الربابة واستعد للانشاد . وبين انغام الأوتار بدأ بتحية الناظر حبيب الجبلاوي ، وزقلط زين الرجال ، ثم روى فترة من حياة الجبلاوي قبيل مولد أدهم . وندت عن احتساء القهوة والقرفة والشاي أصوات ، وانعقد الدخان المتصاعد من الجوز حول الفانوس سحباً شفافة . وتركزت الأعين في الشاعر ، واهتزت الرؤوس لجمال ذكرى أوحش موعظة . ومضى وقت الخيال في شغف وانسجام حتى وافاه الختام ، وترامت على الشاعر تحيات الاستحسان . عند ذاك تحركت في الأعماق موجة التمرد التي اجتاحت آل حمدان ، فقال عتريس الأعمش من مجلسه وسط القهوة ، معلقاً على ما سمع من قصة الجبلاوي :

— كان في الدنيا خير ، حتى أدهم لم يجع يوماً واحداً .

وإذا بتمرحنة العجوز تقف أمام الدكان وتنزل قفص البرتقال من

فوق رأسها ، ثم تقول موجهة الخطاب الى عتريس الأعمش :
– يسلم فمك يا عتريس ، كلامك كالبرتقال السكري !
فنهرها المعلم حمدان قائلاً :
– اذهبي يا وليه وأريحينا من كلامك الفارغ .
لكن تمرحنة جلست على الأرض لصق مدخل القهوة وهي تقول :
– ما أحلى القعدة جنبك يا معلم حمدان (ثم وهي تشير الى قفص البرتقال) يوم ونصف ليلة في المشي والنداء نظير ملاليم يا معلم ..
وهمّ المعلم بالرد عليها ولكنه رأى ضلمة مقبلاً مقطباً وقد تلوث جبينه بالتراب فنظر اليه حتى وقف أمامه في مدخل القهوة وهتف بصوت مرتفع :
– ربنا على المفتري ! قدره ... قدره هو اكبر مفتري ، قلت له امهلني الى الغد حتى يفتح الله عليّ فرماني على الأرض وبرك فوق صدري حتى كتم أنفاسي .
فجاء صوت عم دعبس من أقصى القهوة وهو يقول :
– تعال يا ضلمة اقعد جنبي ، تعال الله يلعن أولاد الحرام ، نحن أسياد هذه الحارة ولكننا نُضرب فيها كالكلاب ، ضلمة لا يجد اتاوة لقدره ، تمرحنة تسرح بالبرتقال وهي لا ترى أبعد من ذراع أمامها ، وأنت يا حمدان أين شجاعتك يا ابن أدهم ؟!
فاتجه ضلمة الى الداخل ، وتساءلت تمرحنة :
– أين شجاعتك يا ابن ادهم ؟!
فهتف بها حمدان :
– غوري يا تمرحنة ، أنتِ فتِ سن الزواج من خمسين سنة فلمَ تحبين مجالس الرجال ؟
فتساءلت المرأة :
– أين هم الرجال ؟!

فقطب حمدان ولكن تمرحنة بادرته كالمعتذرة :

ــ دعني اسمع الشاعر يا معلم .

فقال دعبس للشاعر بمرارة :

ــ حدثها عن هوان آل حمدان في هذه الحارة .

فابتسم الشاعر قائلاً :

ــ حلمك يا عم دعبس ، حلمك يا سيد الناس .

فقال دعبس محتداً :

ــ من سيد النـــاس ؟ ان سيد الناس يضرب الناس ويظلم النـــاس ويغتال الناس ، أنت تعرف من هو سيد الناس !

فقال الشاعر بقلق :

ــ قد نجد بيننا فجأة قدره او غيره من الشياطين !

فقال دعبس بحدة :

ــ كلهم ذرية إدريس !

فقال الشاعر بصوت خافت :

ــ حلمك يا عم دعبس قبل إن تهدم القهوة فوق رؤوسنا .

فنهض دعبس من مجلسه وقطع القهوة في خطوات واسعة ثم جلس الى يمين حمدان على أريكة وهمّ بالكلام ، ولكن ضجة غلمان علت بغتة حتى غطت على صوته ، وانتشروا أمـام القهوة كالجراد وهم يتبادلون السباب فصرخ فيهم دعبس :

ــ يا أولاد الشياطين أليس لكم جحور تؤيكم في الليل ؟

لكنهم لم يبالوا بصراخه فوثب كالملـــدوغ وأنقض عليهم ، فجروا في الحارة وهم يصيحون « هيـه » ، وترامى أكثر من صوت نسائي من نوافذ الربع المواجه للقهوة ، « وحد الله يـــا عم دعبس » ، « خوفت الأولاد يـــا رجل » ، فلوح بيده ساخطاً وعـــاد الى مجلسه وهو يقول :

ـ الواحد حيران ، لا عند الأولاد راحة ولا عند الفتوات راحة ولا عند الناظر راحة .

آمن كل على قوله . آل حمدان ضاع حقهم في الوقف ، آل حمدان تمرغوا في تراب القذارة والبؤس . آل حمدان تسلط عليهم فتوة ليس منهم بل من أحط الأحياء . قدره يسير بينهم مختالا يصفع من يشاء ويأخذ الاتاوة ممن يشاء . لذلك نفد صبر آل حمدان واصطخبت في حيهم أمواج التمرد .

والتفت دعبس الى حمدان وقال :

ـ يا حمدان ، الجميع على رأي واحد ، نحن آل حمدان ، عددنا كبير ، أصلنا معروف ، وحقنا في الوقف كحق الناظر نفسه .

فغمغم الشاعر :

ـ اللهم فوت الليلة على خير .

حمدان حبك العباءة حوله ورفع حاجبيه المثلثين الغزيرين وقال :

ـ قلنا في هذا وعدنا ، سيحدث أمر ، اني اشم الأحداث شماً .

وارتفع صوت علي فوانيس بالتحية وهو يدخل القهوة مشمر الجلباب وطاقيته الترابية مائلة حتى حاجبيه ، وما لبث ان قال :

ـ الكل مستعدون ، ولو احتاج الأمر الى نقود سيعطون ، حتى الشحاذون .

وانحشر بين دعبس وحمدان وهو يهتف بعبدون صبي القهوة :

ـ شاي من غير سكر .

فانتبه اليه الشاعر قائلاً :

ـ إحم !

فابتسم علي فوانيس ودس يده في صدره فأخرج كيساً ثم فتحه واستخرج منه لفافة صغيرة رمى بها الى الشاعر . وربت فخذ حمدان متسائلاً فقال هذا :

ـ أمامنا المحكمة .

فقالت تمرحنة :

ـ خير ما نفعل .

فقال الشاعر وهو يخرج الشيء من اللفافة :

ـ فكروا في العواقب .

فقال علي فوانيس بحدة :

ـ لا هوان أحط مما نحن فيه ، ولنا عدد وفير يجب حسابه ، والأفندي لا يمكن ان يتجاهل أصلنا وقرابتنا اليه والى صاحب الوقف .

فقال الشاعر وهو ينظر الى حمدان نظرة ذات معنى :

ـ لم تضق بنا الحلول .

فقال حمدان كأنما يجيبه :

ـ عندي فكرة جريئة !

تطلعت اليه الأبصار فقال :

ـ أن نلجأ الى الناظر !

فقال عبدون وهو يقدم الشاي الى فوانيس :

ـ خطوة عزيزة وبعدها تحفر قبور .

فضحكت تمرحنة قائلة :

ـ اسمعوا فالكم من عيالكم .

لكن حمدان قال بتصميم :

ـ ينبغي ان نذهب ، ولنذهب جماعة .

٢٦

تجمهر امام بيت الناظر جمع كثير من آل حمدان نساء ورجالاً :

على رأسهم حمـــدان ودعبس وعتّريس الأعمش وضلمة وعلي فوانيس ورضوان الشاعر . كان من رأى رضوان ان يذهب حمدان وحده نفياً لشبهة العصيان واتقاء لعواقبه،ولكن حمدان قال له بصراحة : « ان قتلي شيء يسير ولكن قتل آل حمدان لا يقدرون عليه » . ولفت التجمهر انظار اهل الحارة وبخاصة الجيران الأقربين ، فبرزت رءوس النساء من النوافذ ، وتطلعت أعين من تحت السلال والمقاطف ومن فوق عربات اليد ، وأقبل كثيرون كباراً وصغاراً وتساءلوا ماذا يريد آل حمدان ؟. وقبض حمدان على المطرقة النحاسية وطرق الباب ، ففتح بعد قليل عن البواب بوجهه الكئيب ونسائم محملة بشذا الفل والياسمين . نظر البواب الى المتجمهرين بانزعاج وتساءل :

ــ ماذا تريدون ؟

فقال حمدان بقوة استمدها ممن خلفه :

ــ نريد مقابلة حضرة الناظر .

ــ كلكم ؟

ــ ليس فينا من هو احق بالمقابلة من الآخرين .

ــ انتظروا حتى استأذن لكم .

وهمّ برد الباب لكن دعبس مرق الى الداخل وهو يقول :

ــ الانتظار في الداخل أكرم .

واندفع وراءه الآخرون كالسرب وراء الحمامة ، ودُفع حمدان بينهم رغم سخطه على اندفاع دعبس فانتقلت المظاهرة الى الممشى المفروش بين السلاملك والحديقة . وصاح البواب :

ــ يجب ان تخرجوا .

فقال حمدان :

ــ الضيف لا يطرد ، اذهب وخبّر سيدك .

وتحركت شفتا الرجل باحتجاج غـــير مسموع ، وشت به قسماته

المكفهرة ثم تحول مهرولاً نحو السلاملك . وتبعته الأعين حتى اختفى وراء الستار المسدل على باب البهو ، وظلت اعين عالقة بالستار ، وجالت أعين في انحاء الحديقة ، حول الفسقية المحاطة بالنخيل ، وأعراش العنب لصق الجدران ، وفروع الياسمين المتسلقة الأسوار ، جالت بنظرات حائرة وحواس مغلقة بالهمّ وما لبثت ان ردت الى الستار المسدل على باب البهو .

وانزاح الستار فخرج الأفندي بنفسه متجهم الوجه ، وتقدم في خطوات حادة غاضبة حتى وقف عنـد رأس السلم . لم يبد من شخصه المتلفع بالعباءة الا وجهه الغاضب وشبشبه الوبري وسبحة طويلة في يمناه . القى نظرة ازدراء على المظاهرة ثم استقرت عيناه على حمدان فقال هـذا بأدب جم :

ـ صبحك الله بالسعادة يا حضرة الناظر .

فاكتفى برد التحية بحركة من يده ، وتساءل :

ـ من هؤلاء ؟

ـ آل حمدان يا حضرة الناظر .

ـ من اذن لهم بالدخول في بيتي ؟

فقال حمدان بدهاء :

ـ انه بيت ناظرهم ، فهو بيتهم ، وهم في حماه .

فلم يلن وجه الأفندي وقال :

ـ تحاول الاعتذار عن سوء سلوككم ! .

وضاق دعبس بتأدب حمدان فقال :

ـ نحن اسرة واحدة ، جميعنا ابناء ادهم وأميمة .

فقال الأفندي بامتعاض :

ـ ذاك تاريخ مضى ، ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه .

فقال حمدان :

ـ نحن في كرب من الفقر وسوء المعاملة ، فاجتمع الرأي بيننا على

اللجوء اليك لتفرج كربنا .
وهنا قالت تمرحنة :
– وحياتك عيشتنا تقرف الصراصير .
فقال دعبس بصوت ارتفع درجات :
– اكثرنا متسولون ، اطفالنـــا جياع ، وجوهنا متورمة من صفع الفتوات ، أيليق ذلك بأبناء الجبلاوي ومستحقي وقفه ؟!
فتقبض يد الأفندي على المسبحة وهتف :
– اي وقف يا هذا ؟
حاول حمدان ان يمنع دعبس من الكلام ولكنه اندفع قائلاً كمن لطشت الخمر رأسه :
– الوقف الكبير ، لا تغضب يا حضرة الناظر ، الوقف الكبير الذي يملك حارتنا من أولها الى آخرها ، ويتبعه كل حكر في الخلاء المحيط ، وقف الجبلاوي يا حضرة الناظر .
فاندلعت ألسنة الغضب من عيني الأفندي وصاح :
– هذا وقف ابي وجدي ما لـكم به صلة ، انـكم تتناقلون الحكايات الخرافية وتصدقونها ، وما لديكم دليل او حجة .
فقال اكثر من صوت وضح بينها صوتا دعبس وتمرحنة :
– الجميع يعرفون ذلك ؟
– الجميع ؟ ما قيمة ذلك ؟ لو تناقلتم فيما بينـكم ان بيتي هو بيت فلان او علان منـكم فهل يكفي هذا لاغتصاب بيتي يا هؤلاء ؟ حارة حشاشين حقيقة ! خبروني متى اخذ احدكم مليماً من ريع الوقف ؟
فساد الصمت ملياً ثم قال حمدان :
– كان اباؤنا يأخذون .
– ألديكم دليل ؟
فعاد حمدان يقول :
– قالوا لنا ونحن نصدقهم .

فهتف الأفندي :

ـ كذب في كذب ، وتفضلوا غير مطرودين .

فقال دعبس بتصميم :

ـ أطلعنا على الشروط العشرة .

فصاح الأفندي :

ـ لماذا اطلعكم عليها ؟ من انتم ؟ ما علاقتكم بها ؟

ـ نحن المستحقون .

عند ذاك تعالى صوت هدى هانم حرم الناظر من وراء الباب وهي تقول :

ـ دعهم وادخل ، لا تبح صوتك بمناقشتهم .

فقالت تمرحنة :

ـ كوني محضر خير يا ست هانم .

فقالت هدى هانم بصوت متهدج من الغضب :

ـ قطع الطرق لا تكون بالنهار والشمس طالعة !

فقالت تمرحنة بامتعاض :

ـ الله يسامحك يا ست هانم ، الحق على جدنا الذي اغلق على نفسه الأبواب .

فرفع دعبس رأسه وصاح بصوت كالرعد :

ـ يا جبلاوي ! تعال شف حالنا ، تركتنا تحت رحمة من لا رحمة لهم .

دوّى الصوت قوياً حتى خيل الى البعض انه سيبلغ الجد في بيته . ولكن الافندي صاح مرتعش النبرات من الحنق :

ـ اخرجوا ، اخرجوا دون تردد .

وقال حمدان بضيق :

ـ هيا بنا .

وتحول عن موقفه ومضى نحو الباب . واخذوا يتبعونه صامتين . حتى دعبس تبعه . لكنه رفع رأسه مرة اخرى وصاح بالقوة نفسها :

— يا جبلاوي !

٢٧

دخل الافندي البهو مصفر الوجه من الغضب فوجد زوجه واقفة مقطبة ، فقالت :

— حركة غريبة لها ما بعدها ، ستكون حديث الحارة كلها ، واذا تهاونا في الأمر فقل علينا السلام .

فقال الافندي بتقزز :

— رعاع ابناء رعاع ويطمعون في الوقف ، منذا الذي يستطيع ان يعرف اصله في حارة مثل خلية النحل ؟

— احسم الأمر ، ادع زقلط ودبر امرك ، زقلط يقاسمنا الريع دون ان يفعل شيئاً فدعه يحلل ما ينهب من أموالنا .

فحدجها الأفندي بنظرة طويلة ثم تساءل :

— وجبل ؟!

فقالت بطمأنينة وثقة :

— جبل ! انه ربيبنا ، بل هو ابني ، لم يعرف من الدنيا الا بيتنا ، اما آل حمدان فلا يعرفهم ولا يعرفونه ، ولو كانوا يعدّونه منهم لتشفعوا به الينا ، اطمئنّ من ناحيته ، وسوف يعود من جولته بين المستأجرين فيحضر الاجتماع .

وجاء زقلط تلبية لدعوة الناظر . كان متوسط القامة ، بديناً ، متين البنيان ، وبقسماته سماجة وغلظة ، وبرقبته وذقنه ندوب . جلسوا متقاربين وزقلط يقول :

– سمعت اخباراً لا تسر .

فقالت هدى بغيظ :

– ما اسرع ما تجري اخبار السوء .

وقال الافندي وهو يلحظ زقلط بمكر :

– انها تمس هيبتنا كما تمس هيبتك .

فقال زقلط بصوت كالخوار :

– مضى زمن غير قصير دون ان نحرك نبوتاً او نسفك دماً .

فابتسمت هدى قائلة :

– يا لهم من مغرورين آل حمدان ، لم يظهر منهم فتوة واحد ، ومع ذلك فأحقرهم يزعم انه سيد الحارة .

فقال زقلط باشمئزاز :

– باعة ومتسولون ، ولن يظهر فتوة من قوم خرعين !

فتساءل الأفندي :

– والعمل يا زقلط ؟

– سأدوسهم بقدمي كالصراصير .

سمع جبل قول زقلط وهو يدخل البهو . بدا مورد الوجه بعد جولته في الخلاء ، وجرت حيوية الشباب في جسمه الفارع القوي ، ووجهه ذي الملامح الصريحة وبخاصة انفه المستقيم وعينيه الكبيرتين الذكيتين . حيا الموجودين بأدب وبدأ يتكلم عن الأحكار التي تم تأجيرها اليوم ولكن هدى هانم قاطعته قائلة :

– اجلس يا جبل ، نحن في انتظارك لأمر عظيم .

فجلس جبل وعيناه تعكسان نظرة تحرّج لم تغب عن عيني الهانم فقالت :

– ارى انك تحدس ما نحن مهتمون له .

فقال بصوت هادىء :

ـ الجميع يتحدثون في الخارج .
فنظرت الهانم صوب زوجها هاتفة :
ـ أسمعت ؟.. الجميع يتوقعون منا الجواب .
فقال زقلط وقسماته تزداد سماجة :
ـ شعلة تطفئها حفنة تراب ، بودي ان ابدأ العمل !
فالتفتت هدى الى جبل متسائلة :
ـ ألديك ما تقوله يا جبل ؟
فقال وهو يداري ضيقه بالنظر في الأرض :
ـ الأمر منكم واليكم يا سيدتي .
ـ يهمني ان اعرف رأيك !
تفكر ملياً وهو يشعر بنظرات الأفندي الحادة ، ونظرات زقلط المتعضة ثم قال :
ـ سيدتي ، اني ربيب نعمتك ، ولكني لا أدري ماذا أقول ، فلست الا أحد ابناء حمدان !
قالت هدى بحدة :
ـ لماذا تذكر حمدان ولا أب ولا أم ولا أقارب لك فيهم ؟
وندّ عن الأفندي صوت ساخر مقتضب يشبه الضحك لكنه لم يتكلم.
وبدا في وجه جبل انه يعاني ألماً صادقاً ، لكنه أجاب :
ـ كان أبي وأمي منهم ، لا يمكن انكار ذلك .
وقالت هدى :
ـ ما أخيب أملي في ابني .
ـ معاذ الله ، ان المقطم لا يستطيع ان يزحزحني عن الوفاء لك ، لكن انكار الحقائق لا يغيرها .
وقام الأفندي نافد الصبر وقال يخاطب زقلط :
ـ لا تضيع وقتك في سماع هذه المعاتبات .

فقام زقلط باسماً ، واذا بالهانم تقول له وهي ترمي جبل بلحظ خفي :
— لا تجاوز المعقول يا معلم زقلط ، نريد تأديبهم لا إبادتهم .
غادر زقلط البهو . وألقى الأفندي على جبل نظرة لوم وهو يتساءل ساخـــراً :
— اذن أنت من آل حمدان يا جبل ؟!
ولاذ جبل بالصمت حتى رحمته هدى فقالت :
— قلبه معنا ولكن شق عليه ان يتنكر لأصله أمام زقلط .
فقال جبل بحزن واضح :
— انهم بؤساء يا سيدتي رغم أنهم اكرم أهل الحارة أصلاً .
فصاح الأفندي :
— حارة لا أصل لها .
فقال جبل جاداً :
— اننا أبناء أدهم ، وما زال جدنا حياً أطال الله بقاءه .
فتساءل الأفندي :
— منذا يستطيع ان يثبت بنوته لأبيه ؟.. انه كلام لا بأس ان يقال احياناً ولكنه لا ينبغي ان يتخذ وسيلة لنهب أموال الغير .
وقالت هدى :
— نحن لا نريد بهم شراً على شرط ألا يطمعوا في أموالنا .
وأراد الأفندي ان ينهي الحديث فقال لجبل :
— إذهب الى عملك ولا تفكر في سواه .
غادر جبل البهو فذهب الى ادارة الوقف في منظرة الحديقة . كان عليه ان يسجل في الدفاتر عـدداً من عقود الايجار وان يراجع الحساب الختامي للشهر ولكن الحزن شتت عقله . ومن عجب ان آل حمدان لا يحبونه ، وهو يعلم ذلك ويذكر كيف كان يقابـــل بالبرود في قهوة حمدان في المرات القلائل التي غشيها . مع ذلك أحزنه ما يدبر لهم من

شر . احزنه اكثر مما اسخطه سلوكهم الجريء . وود ان يدفع عنهم الشر لولا اشفاقه من اغضاب البيت الذي آواه ورباه وتبناه . ماذا كان يكون لو لم يدركه عطف هدى هانم ؟. منذ عشرين عاماً رأت الهانم طفلاً عارياً يستحم في حفرة مملوءة بمياه الأمطار . مضت تتسلى بمشاهدته فمال قلبها الذي حرمه العقم من نعم الأمومة اليـه . ارسلت من حمله اليها وهو يبكي خائفاً . وتحرت عنه فعلمت انه طفل يتيم ترعاه بياعة دجاج. استدعت الهانم بياعة الدجاج وطلبت اليها ان تتنزل لها عن الطفل فرحبت بذلك كل الترحيب . هكذا نشأ جبل في بيت الناظر وفي رعاية حضرته ينعم بأسعد أمومـة في الحارة جميعاً . وأُدخل الكتّاب فتعـلم القراءة والكتابة ، ولما بلغ رشده ولاه الافندي ادارة الوقف . في كل بقعـة فيها للوقف املاك يدعونه « حضرة الوكيل » . وتتابعه نظرات الاكبار والاعجاب اينما حلّ . وكانت الحياة تبدو ودودة واعـدة بكل جميل حتى كان تمرد آل حمدان . وجد جبل انه ليس شخصاً واحـداً كما توهم طوال عمره ولكنه شخصان . أحدهما يؤمن بالوفاء لأمه وآخرهما يتساءل في حيرة : وآل حمدان ؟!

٢٨

انبعثت الرباب تحكي مصرع همام على يد قدري . اتجهت الأعين نحو رضوان الشاعر في انتباه يشوبه القلق . ليست الليلة كبقية الليالي ، ليلة ختمت نهاراً ثائراً ، وظل كثيرون من آل حمدان يتساءلون هل تمر بسلام ؟ وشمل الحارة ظـلام ، حتى النجوم توارت وراء سحب الخريف فلم يبد من ضوء الا ما نضحت به النوافذ المغلقة او ما ارسلته مصابيح عربات اليد المتباعدة في أحياء الحارة . وضجت الأركان بغوغاء

الغلمان المتجمعين كالفراشات حول مصابيح العربات ، على حين افترشت تمرحنة خيشة امام أحد ربوع حمدان وراحت تدندن :

على باب حارتنا حسن القهوجي

وارتفع مواء قطط في نوبات متقطعة واشياً بمنافسات جنسية أو منازعات تموينية . واحتد صوت الشاعر وهو يروي قائلاً : وصرخ أدهم في وجه قدري « ماذا فعلت بأخيك ؟ » في تلك اللحظة ظهر زقلط في دائرة الضوء التي يرسمها فانوس القهوة على الأرض . ظهر فجأة كأنما انشق عنه الظلام . بدا عابساً متحدياً كارهاً مكروهاً يتفجر الشر في عينيه وتشد قبضته على نبوته المرعب . وزحفت من محجريه نظرة ثقيلة مخيفة على القهوة والجالسين كأنها حشرة سامة ، فتحجر الكلام في حلق الشاعر . وباخت نشوة ضلمة وعتريس ، وانقطع عن التهامس دعبس وعلي فوانيس ، وكف عن الحركة عبدون . أما حمدان فشدت يده على خرطوم النارجيلة بعصبية ، وساد صمت كالموت .

وتتابعت حركات خاطفة . غادر القهوة سراعاً الزبائن الذين لا ينتسبون لآل حمدان . جاء فتوات الأحياء قدره والليثي وأبو سريع وبركات وحمودة فصنعوا جداراً وراء زقلط . وسرى الخبر في الحارة بسرعة كأنه بيت تهدم ففتحت النوافذ ، واقبل الصغار يجرون والكبار يتنازع قلوبهم الإشفاق والشماتة . وكان حمدان أول من خرق الصمت فقام في هيئة استقبالية وهو يقول :

— أهلاً بالمعلم زقلط فتوة حارتنا ، تفضلوا .

لكن زقلط تجاهله . كأنه لا يسمعه ولا يراه . وظل يطلق الطعنات من عينيه القاسيتين . ثم تساءل بصوت غليظ :

— مَن فتوة هذا الحي ؟

فأجاب حمدان ولو ان السؤال لم يوجه اليه :

– فتوتنا قدره .

التفت زقلط نحو قدره متسائلاً في سخرية :

– انت حامي آل حمدان ؟

فتقدم قدره خطوات بجسمه القصير المدمج ووجهـه المتحرش بكل شيء وقال :

– أنا حاميهم من الجميع إلاك يا معلم .

فابتسم زقلط ابتسامة كالامتعاض وقال :

– ألم تجد حياً غير حي النسوان لتكون فتوة عليه ؟

ثم صاح بالقهوة :

– يا نسوان ، يا أولاد الزواني ، ألا تعترفون بأن للحارة فتوة ؟

فقال حمدان بوجه شاحب :

– يا معلم زقلط ليس بيننا وبينك الا الخير .

فصاح به :

– اخرس يا عجوز يا قارح ، الآن تتمسكن بعد ان تهجمت على أسيادك وأسياد أهلك .

فقال حمدان بصوت المتألم :

– لم يكن في الأمر تهجم ، لكنها شكوى سرنا بهـا الى حضرة النـاظر .

فصاح زقلط :

– – أسمعتم ما يقول ابن الزانيـة ؟ حمدان يا نتن أنسيت مـا كانت تفعله أمك ؟ والله لن يسير أحدكم آمناً في هذه الحارة حتى يقول بأعلى صوته : أنا مرة .

ورفع بسرعة نبوته وهوى به بشدة على الطاولة فتطايرت الفنـاجيل والاكواب والصواني والملاعق وعلب البن والشاي والسكر والقرفة والزنجبيل والكنجات . وثب عبدون الى الوراء فارتطم بترابيزه وسقطا معاً . وبغتة

وجه زقلط لطمة الى وجه حمدان ففقد الرجل توازنه وسقط على جنبه فوق النارجيلة التي تحطمت . ورفع زقلط نبوته مرة اخرى وهو يصيح:
— لا ذنب بلا عقاب يا أولاد الزواني .

وتناول دعبس كرسياً ورمى به الفانوس الكبير فتحطم وساد الظلام قبل ان يهوي النبوت على المرآة الكبيرة وراء الطاولة . وصوتت تمرحنة فرددت نساء حمدان الصوات في النوافذ والأبواب كأنما انقلبت الحارة حنجرة كلب رُمي بحجر . وجن جنون زقلط فاطلق ضرباته في كل ناحية فأصابت أناساً ومقاعد والجدار . وتلاطمت أمواج الصراخ والاستغاثات والتأوهات . وتطايرت الأشباح في كل ناحية . وارتطمت أشباح بأشباح . وصاح زقلط بصوت كالرعد :

— كل واحد يلزم بيته .

فبادر إلى تنفيذ الأمر كل شخص ، من آل حمدان او من غيرهم ، وتتابع وقع الاقدام المتراجعة . وجـاء الليثي بفانوس فظهر على ضوئه زقلط والفتوات من حوله ، في حارة خالية ، لا يسمع بها إلا صوات النسوان . وقال بركات متودداً :

— وفّر نفسك يا معلم للشدائد ، وعلينا نحن تأديب الصراصير .

وقال ابو سريع :

— لو شئتَ جعلنا من آل حمدان تراباً تمشي عليه بحصانك .

وقال قدره فتوة حمدان :

— لو كلفتني بتأديبهم لحققت لي امنية كبيرة وهي ان اخدمك يا معلم .

وعلا صوت تمرحنة من وراء باب الربع :

— ربنا على الظالم .

فصاح بها زقلط :

— يا تمرحنة أتحدى أي رجل من حمدان ان يعدّ الزانين بك !

فهتفت تمرحنة وان دل آخر كلامها على ان يــداً وضعت على فيها لتمنعها من الاستمرار :

— ربنا بيننا وبينك ، حمدان اسياد أل ...

ووجه زقلط الخطــاب الى الفتوات بصوت اراد ان يسمعه آل حمدان ، قال :

— لا يغادر رجل من حمدان داره الا ضرب .

فصاح قدره مهدداً :

— من يرَ نفسه رجلاً فليخرج .

وتساءل حمودة :

— والنسوان يا معلم ؟

فقال زقلط بحدة :

— زقلط يعامل الرجال لا النسوان .

وطلع النهار فلم يغادر الربوع رجل من آل حمدان . وجلس كل فتوة عند باب قهوة حيّه يراقب الطريق . وجعل زقلط يمر بالحارة كل بضع ساعات فيستبق الناس الى تحيته والتودد اليه والثناء عليه ، « والله اسد بين الرجال يا فتوة حارتنا » ، « عفارم عليك يا زين الرجال يا ملبس حمدان الطرح » ، والحمد لله الذي اذلّ حمدان المتعجرفين بيدك القوية يا زقلط » . ولم يكن يعير احداً ادنى اهتمام .

٢٩

هل يرضيك هذا الظلم يا جبلاوي ؟!

تساءل جبل وهو يفترّش الأرض اسفل الصخرة التي تقول الحكايات ان عندها كان يخلو قدري الى هند ، وان عندها قتل همام . ونظر الى

الشفق بعين لم تعد ترى الا ما يكدر الصفو . لم يكن ممن يركنون الى الخلوات لكثرة مشاغله لكنه شعر اخيراً برغبة قاهرة في الخلاو بنفسه التي زلزلهــا ما حاق بآل حمدان . لعل في الخلاء ان تسكت الأصوات التي تعيّره والتي تعذبه . أصوات تهتف به من النوافذ وهو مار : « يا خائن حمدان يا لئيم » ، وأصوات تهتف به من اعماق نفسه : « لن تطيب الحياة على حساب الغير » . وآل حمدان اهله ، ففيهم ولدت أمه وأبوه ، وفي مقابرهم دفنا . وهم مظلومون وما أقبح الظلم ، اغتصبت أموالهم ولكن من الظالم ؟ انه ولي نعمته ، الرجل الذي انتشلته زوجه من الطين فرفعته الى مصاف آل البيت الكبير . وجميع الأمور تجري في الحارة على سنّة الارهاب ، فليس عجيباً ان يُسجن سادتها في بيوتهم . وحارتنا لم تعرف يوماً العدالة او السلام . هذا ما قضي به عليهــا منذ طرد ادهم وأميمة من البيت الكبير ، الا تعلم بذلك يا جبلاوي ؟ ويبدو ان الظلم ستشتد كثافة ظلماته كلما طال بك السكوت فحتى متى تسكت يا جبلاوي ؟ الرجال سجناء في البيوت والنساء يتعرضن في الحارة لكل سخرية ، وأنا امضغ المهانة في صمت . ومن عجب ان اهل حارتنــا يضحكون ! علام يضحكون ؟ انهم يهتفون للمنتصر اياً كان المنتصر ، ويهللون للقوي اياً كان القوي ، ويسجدون امام النبابيت ، يدارون بذلك كله الرعب الكامن في اعماقهم . غموس اللقمة في حارتنا الهوان . لا يدري احد متى يجيء دوره ليهوي النبوت على هامته . ورفع رأسه الى السماء فوجدها صامتة هادئة ناعسة ، يوشي اطرافها الغمام ، وتودعها آخر حدأة . وانقطع المارة وآن للحشرات ان تزحف . وفجأة سمع جبل صوتاً غليظاً يصيح من قريب : « قف يا ابن الزانية » . استيقظ من افكاره فنهض قائماً وهو يحاول ان يتذكر أين سمع هذا الصوت ، ثم اتجه حول صخرة هند الى الجنــوب فرأى رجلاً يركض في رعب وآخر وراءه يطارده ويوشك ان يلحق به . وأمعن النظر فعرف في الهارب دعبس وفي المطارد

قدره فتوة حي حمدان ، وفي الحـــال ادرك حقيقة الموقف . ومضى يراقب المطاردة التي تقترب منه بفؤاد قاق . وما لبث قدره ان ادرك دعبس فقبض بيده على منكبه وتوقف الاثنان عن العدو وهما يلهثان من الجهد . وصاح قدره بصوت متقطع من البهر :

ـ كيف تجرؤ على مغادرة جحرك يا ابن الأفعى ؟ لن تعود سالماً .

فهتف دعبس وهو يحمي رأسه بذراعه :

ـ دعني يا قدره ، انت فتوة حينا وعليك ان تدافع عنا .

فهزه قدره هزة اطارت اللاسة عن رأسه وصاح به :

ـ انت تعرف يا ابن اللئيمة اني ادافع عنكم ضد اي مخلوق الا زقلط .

وحانت من دعبس نظرة نحو موقف جبل فرآه وعرفه فناداه قائلاً :

ـ اغثني يا جبل ، أغثني فأنت منا قبل ان تكون منهم .

فقال قدره بغلظة وتحد :

ـ لا مغيث لك مني يا ابن الداعرة .

ووجد جبل نفسه يتقدم منهما حتى وقف عندهما وهو يقول بهدوء .

ـ ترفق بالرجل يا معلم قدره .

فحدجه قدره بنظرة باردة وهو يقول :

ـ اني اعرف ما ينبغي ان افعله .

ـ لعل امراً ضرورياً دفعه الى مغادرة بيته .

ـ ما دفعه الا قضاؤه المحتوم .

وشد على منكبه حتى أن دعبس انيناً مسموعاً ، فقال جبل بحدة :

ـ ترفق به ، الا ترى انه اكبر منك سناً وأضعف بنية ؟

رفع قدره يده عن منكبه فصفعه على قفاه بقوة تقوس لها ظهره ، ثم ضرب بركبته دبره فانكفأ على وجهه ، وسرعان ما برك فوقه وراح يكيل له الضربات وهو يقول بصوت يزفر الغل والحنق :

ـ ألم تسمع ما قال زقلط ؟!

واشتعل الغضب في دماء جبل فصاح به :
ـ اللعنة عليك وعلى زقلط ، اتركه يا قليل الحياء !
فكف قدره عن ضرب دعبس ورفع رأسه الى جبل وجهاً ذاهلاً ثم قال :
ـ انت تقول هذا يا جبل ! ألم تشهد حضرة الناظر وهو يأمر زقلط بتأديب حمدان ؟
فصاح جبل وغضبه آخذ في ازدياد :
ـ اتركه يا قليل الحياء .
فقال قدره بصوت يرتعش من الحنق :
ـ لا تظن ان خدمتك في بيت الناظر تحميك مني اذا اردت محاسبتك !
فانقض عليه جبل كمن فقد وعيه وركله فالقاه جانباً وصاح به :
ـ عد الى امك قبل ان تثكلك .

وثب قدره قائماً وهو يتناول نبوته من على الأرض ثم رفعه بخفة ولكن جبل بادره بضربة في بطنه من يد قوية فترنح متألماً . وانتهز جبل هذه الفرصة فخطف النبوت من يده ووقف وهو ينظر نحوه بحذر . تراجع قدره خطوتين ، ثم انحنى بسرعة خاطفة فالتقط حجراً ولكنه قبل ان يقذف به أصاب النبوت رأسه فصرخ ، ودار حول نفسه ، ثم سقط على وجهه والدم يتفجر من جبينه بغزارة . كان الليل يهبط فنظر جبل فيما حوله فلم يرَ احداً الاّ دعبس الذي وقف ينفض جلبابه ويتحسس المواضع التي تؤلمه من جسده ، ثم اقترب من جبل وهو يقول ممتناً :
ـ عوفيت من أخ كريم يا جبل .
فلم يجبه جبل ، وانحنى فوق قدره فعدله على ظهره ، ثم تمتم :
ـ أغمي عليه !
فانحنى دعبس فوقه كذلك ثم بصق على وجهه ، فجذبه جبل بعيداً عنه ، وانحنى فوقه مرة اخرى ، وراح يهزه برفق ولكنه لم يبد أملاً

في الافاقة ، فتساءل :

ــ ما له ؟

فانحنى دعبس فوقه والصق أذنه بصدره ، ثم قرب وجهه من وجهه ، واشعل عوداً من الثقاب ، ثم وقف وهو يهمس :

ــ انه ميت .

فاقشعر بدن جبل وقال :

ــ كذبت !

ــ ميت ابن ميت وحياتك .

ــ يا خبر اسود .

فقال دعبس مهوناً الأمر :

ــ كم ضرب وكم قتل فليذهب الى الزبانية !

فقال جبل بصوت حزين وكأنه يخاطب نفسه :

ــ لكنني لم اضرب ولم اقتل .

ــ كنت تدافع عن نفسك .

ــ لكنني لم اقصد قتله ولا اردته .

فقال دعبس باهتمام :

ــ ان يدك لشديدة يا جبل ، لا خوف عليك منهم ، وبوسعك ان تكون فتوة لو اردت .

فضرب جبل جبينه بيده وهتف :

ــ يا ويلي ، هل أنقلب قاتلاً من اول ضربة ؟

ــ انتبه الى نفسك وهلمّ ندفنه والا قامت القيامة .

ــ ستقوم القيامة دفنّاه ام لم ندفنه .

ــ لست آسفاً ، عقبى للباقي ، عاونّي على اخفاء هذا الحيوان .

وتناول دعبس النبوت وراح يحفر في الأرض غير بعيد من الموضع الذي حفر فيه قدري من قبل . وما لبث جبل ان انضم اليه بقلب كئيب .

وتواصل العمل في صمت حتى قال دعبس ليخفف عن جبل ثقل مشاعره :
— لا تحزن فالقتل في حارتنا مثل أكل الدوم .
فقال جبل متنهداً :
— ما وددت ان اكون قاتلاً قط ، رباه ما كنت احسب ان غضبي بهذه الفظاعة !
ولما فرغا من الحفر وقف دعبس يجفف جبينه بكم جلبابه ويتمخط ليطرد الرائحة الترابية التي تملأ خيشومه . قال بحقد :
— هذه الحفرة تسع ابن الزانية والفتوات الآخرين .
فقال جبل بضجر :
— احترم الميت فجميعنا اموات .
فقال دعبس بحدة :
— عندما يحترموننا احياء نحترمهم امواتاً .
ورفعا الجثة فأودعاها الحفرة ، ووضع جبل النبوت الى جانبها ، ثم اهالا عليها التراب .
ولما رفع جبل رأسه رأى الليل قد اخفى الدنيا وما عليها فتنهد من الأعماق وهو يكبت نزوعاً نحو البكاء .

٣٠

أين قدره ؟
سأل زقلط نفسه كما سأل الفتوات الآخرين . لكن الفتوات كانوا يتساءلون ايضاً عن صاحبهم الذي اختفى من الوجود كما اختفى رجال حمدان من الحارة . كان قدره يسكن في الحي التالي لحي حمدان . وكان اعزب يسهر الليل في الخارج فلا يعود الى مسكنه الا مع الفجر

او بعد ذلك ، ولم يكن من النادر ان يغيب عن مسكنه ليلة او ليلتين ، ولكن لم يحـدث ابداً ان غاب اسبوعاً كاملاً دون ان يعلم احد بمكانه وبخاصة في ايام الحصار هذه التي اوجبت عليه اعباء لا يستهان بها من اليقظة والمراقبـة . وقامت الظنون حول حمدان فتقرر تفتيش بيوتهم . واقتحم الفتوات وعلى رأسهم زقلط ربوعهم ففتشوها تفتيشاً دقيقاً من البدروم الى السطح ، وحفرت الأفنية بالطول والعرض . وتعرض رجال حمدان لاهانات شتى ، ولم يسلم احد منهم من لطمة او ركلة او بصقة ، ولكنهم لم يعثروا على شيء بريب . وتفرقوا في اطراف الخلاء يسألون فلم يدلهم احد على امر ذي بال . وبات قدره الموضوع الذي تدور به الجوزة في غرزة زقلط تحت تكعيبـة العنب بحديقة بيته . كان الظلام يغش الحديقة عدا نور حي ينبعث من مصباح صغير قائم على الأرض على بعد شبرين من المجمرة ليستضيء به بركات وهو يقطع الحشيش ويبططه ، ويفتت الجمرات ، ويرص الحجر ويخشنه ليعد الجوزة . وكان نور المصباح الراقص في مجرى النسيم ينعكس على وجوه زقلط وحمودة والليثي وأبو سريع الكالحة فيبدي عن أعين متراخية الجفون ، انعقدت في نظراتها الشاردة نوايا معتمة . وتعالى نقيق ضفادع كأنه استغاثات خرس في هدأة الليل . قال الليثي وهو يتناول الجوزة من بركات ويوجهها نحو زقلط :

– اين ذهب الرجل ؟ كأن الأرض بلعته .

شد زقلط نفساً عميقاً وهو ينقر الغـابة بسبابته ثم زفره دخاناً كثيفاً وقال :

– قدره بلعته الأرض وهو راقد في جوفها منذ اسبوع .

تطلعت اليه الأبصار باهتمام عدا بركات الذي بدا مسلوباً بعمله ، فعاد زقلط يقول :

– لا يختفي فتوة لغير ما سبب ، وللموت رائحة اعرفها .

فتساءل أبو سريع بعد سعال تقوّس له ظهره كأنه سنبلة في مهب ريح عاتية :

– ومن قاتله يا معلم ؟

– عجيبة ! ومن يكون غير رجل من حمدان ؟

– لكنهم لا يغادرون بيوتهم وقد فتشناها .

فضرب زقلط طرف الشلتة بقبضته وتساءل :

– ماذا يقول أهل الحارة الآخرون ؟

فقال حمودة :

– يعتقد حينا بأن لحمدان يداً في اختفاء قدره .

– افهموا يا مساطيل ! ما دام الناس يعتقدون ان قاتل قدره في حمدان فالواجب علينا ان نعتبره كذلك !

– ولو كان القاتل من العطوف ؟

– ولو كان من كفر الزغاري ، نحن لا يهمنا عقاب القاتل بقدر ما يهمنا ارهاب الآخرين .

فهتف أبو سريع باعجاب :

– الله اكبر .

فقال الليثي وهو ينفض الحجر في الكوز ويعيد الجوزة الى بركات:

– الله يرحمكم يا آل حمدان .

فندت عن أفواههم ضحكات جافة اختلطت بنقيق الضفادع وتحركت منهم الرؤوس حركات الوعيد على حين هبت نسمة بقوة طارئة أعقبتها خشخشة في الأوراق الجافة . وصفق حمودة بيديه وهو يقول :

– لم تعد المسألة صراعاً بين حمدان والناظر ولكنها كرامة الفتوات.

فعاد زقلط يضرب طرف الشلته بقبضته ويقول :

– لم يقتل فتوة بيد حارته من قبل .

وتصلبت ملامحه من الغضب حتى خاف شره ندماؤه فحذروا أن تند

عنهم كلمة او حركة تحول غضبه إليهم . وساد الصمت فلم يعد يسمع إلا قرقرة الجوزة وسعلة أو نحنحة . وإذا ببركات يسأل :

- وإذا عاد قدره على غير ما نظن ؟

فقال زقلط بحنق :

- أحلق شاربي يا ابن المسطولة .

كان بركات اول من ضحك ثم عادوا الى الصمت . تخايلت للأعين المذبحة ، والعصي تحطم الرؤوس ، والدماء تسيل حتى تصبغ الأرض ، والصوات يعلو من النوافذ والاسطح ، وعشرات الرجال يصعدون حشرجة الموت . اضطربت في النفوس رغبة نمرية في الافتراس وتبادلوا نظرات قاسية . لم يهمهم قدره لذاته ، بل لم يكن أحد منهم يحبه ، ولم يكن أحد منهم يحب الآخر قط ، ولكن جمعتهم رغبة واحدة في الارهاب والذود عن الفتونة . وتساءل الليثي :

- وبعد ؟

فقال زقلط :

- ينبغي ان ارجع الى الناظر كالعهد بيننا .

٣١

قال زقلط :

- يا حضرة الناظر ، قتل آل حمدان فتوتهم قدره .

وركز بصره في الناظر ولكنه كان يرى في الوقت نفسه هدى هانم إلى يمينه وجبل إلى يمينها . وبدا ان الأفندي لم يفجأه الخبر إذ قال :

- بلغتني أنباء عن اختفائه ولكن هل يتسم حقاً من العثور عليه ؟

قال زقلط وكان نور الضحى الذي يقتحم باب البهو يؤكد سماجــة ملامحــه :

— لن يُعثر عليه وأنا خبير بهذه المكائد .

فقالت هدى بعصبية وهي تلحظ وجه جبل الذي راح ينظر الى الجدار المواجه له :

— لو صح انه قتل لكان ذاك حدثاً خطيراً ..

فقال زقلط وهو يشد على أصابعه المتشابكة :

— ويقتضي عقاباً شاملاً أو قولوا علينا وعليكم السلام !

فلعبت أصابع الأفندي بحبات مسبحته وقال :

— انه يمثل هيبتنا !

فقال زقلط بتركيز مقصود :

— ويمثل الوقف كله !

وخرج جبل من صمته قائلاً :

— لعلها جريمة مزعومة لم تقع .

واندلع الغضب في صدر زقلط لدى سماعه صوت جبل فقال :

— لا ينبغي ان نضيع الوقت في الكلام .

— هات دليلاً على مقتله .

فقال الأفندي بلهجة اصطنع لها القوة ليخفي ما وراءها من ارتياب :

— لا يختفي أحد من ابناء حارتنا على هذا النحو الا إن كان قتل !

ولم تفلح زفرات الخريف الرطيبة في تلطيف هذا الجو المشحون بالنوايا الدموية فهتف زقلط :

— الجريمة تنادينا بصوت سوف تسمعه الحواري المجاورة وما الكلام إلا مضيعة الوقت .

لكن جبل قال باصرار :

— رجال حمدان في بيوتهم مسجونون !

فضحك زقلط بصوته دون وجهه وقال ساخراً :
– فزوره حلوة !
ثم وهو يستريح في مجلسه ويتحداه بنظرة نافذة :
– لا يهمك إلا تبرئة أهلك !
ومع ان جبل بذل جهداً صادقاً لشكم غضبه إلا ان صوته احتد وهو يقول :
– يهمني الحق ، انكم تعتدون لأوهى الأسباب ، وأحياناً بلا سبب ، وما همك الآن الا الحصول على إذن لاحداث مذبحة في قوم مسالمين .
وتبدّى الحقد في عيني زقلط وهو يقول :
– أهلك مجرمون ، قتلوا قدره وهو يدافع عن الوقف !
فالتفت جبل نحو الأفندي وقال :
– يا سيدي الناظر لا تسمح لهذا الرجل باشباع شراهته الدموية .
فقال الأفندي :
– إذا ضاعت هيبتنا ضاعت حياتنا !
وتساءلت هدى وهي تنظر نحو جبل :
– أتريد ان ندفن أحياء في حارتنا ؟
فقال زقلط بحنق :
– انك تنسى فضل أصحاب الفضل عليك وتذكر المجرمين .
وارتفعت موجة الغضب في صدر جبل حتّى قلقلت جذور ارادته فقال بصوت شديد :
– ليسوا مجرمين وان غصّت حارتنا بالمجرمين !
قبضت يد هدى بشدة على طرف شالها الأزرق ، وتحركت فتحتا أنف الأفندي وقد عبرت وجهه صفرة ، فتشجع زقلط بهذه المظاهر وقال بحقد ساخر :

ـ لك عذر في دفاعك عن المجرمين ما دمت منهم !
ـ تهجمك على المجرمين شيء لا يصدق وانت شيـــخ الاجرام في حارتنـــا .
قام زقلط قومة عنيفة وقد اربدّ وجهه ، وقال :
ـ لولا مكانتك عند آل هذا البيت لاخرجتك من مجلسك على أجزاء!
فقال جبل بهدوء مخيف يشف عما تحته :
ـ أنت واهم يا زقلط !
وصاح الأفندي :
ـ أتجرؤن على هذا أمامي ؟
فقال زقلط بخبث :
ـ إني أناطحه دفاعاً عن هيبتك !
فأوشكت أصابع الأفندي ان تفتـــك بالمسبحة ، وخاطب جبـــل بشدة قائلاً :
ـ لا اسمح لك بالدفاع عن حمدان .
ـ هذا الرجل يفتري الكذب عليهم لغاية سوء في نفسه .
ـ دع هذا لتقديري أنا !
وساد الصمت هنيهة . ترامت من الحديقة زقزقة لاهية ، وتعالت في الحارة موجة تهليل صاخبة يتخللها سباب فاحش . وابتسم زقلط قائلاً :
ـ أيأذن لي حضرة الناظر في تأديب الجناة ؟
أيقن جبل ان ساعة المنايا قد دنت فالتفت نحو الهانم وقال يائساً :
ـ سيدتي ، سأجد نفسي مضطراً الى الانضمام الى أهلي في سجنهم لألقى معهم مصيرهم .
فهتفت هدى في عصبية ظاهرة :
ـ يا لخيبة رجائي !
فتأثر جبل حتى انحنى رأسه ، ودفعه شعور مرهف الى ان ينظر نحو

زقلط فرآه يبتسم ابتسامة شماتة كريهة فانطبقت شفتاه في حنق ، ثم قال في أسى :

ــ لا خيار لي ، ولن أنسى صنيعك معي ما حييت .

فحدجه الأفندي بنظرة قاسية وسأله :

ــ يجب ان أعرف إن كنت معنا أم علينا ؟

فقال جبل بحزن وهو يشعر بأنه في النزع الأخير من حياته الراهنة:

ــ ما أنا إلا ربيب نعمتك فلا يمكن ان أكون عليك ، ولكن من العار أن اترك اهلي يبادون وأنا انعم بظلك .

وقالت هدى وهي تتلوى من انفعال الأزمة التي تهدد أمومتها :

ــ يا معلم زقلط فلنؤجل الحديث الى وقت آخر .

فقطب زقلط كأنما ركب على وجه حافر بغل ، ونقل عينيه بين الأفندي وزوجه ثم تمتم :

ــ لا أدري ماذا يحدث غداً في الحارة !

فتجنب الأفندي النظر إلى هدى وتساءل :

ــ أجبني يا جبل أأنت معنا أم علينا ؟

وتمادت موجة الغضب به حتى بلغت قمة رأسه فهتف دون ان ينتظر الجواب :

ــ فاما ان تبقى معنا كواحد منا وأما ان تذهب إلى أهلك !

وثار جبل ، وخاصة وهو يلحظ أثر هذا القول في صفحة وجه زقلط فقال بعزم :

ــ يا سيدي انك تطردني واني ذاهب .

وهتفت هدى بصوت معذب :

ــ جبل !

وهتف زقلط ساخراً :

ــ امامكم الرجل كما ولدته أمه .

وضاق جبل بمجلسه ، فقام ، ثم سار بخطوات ثابتة نحو باب البهو. ووقفت هدى ولكن ذراع الافندي حالت دون تحركها . وسرعان ما اختفى جبل . وفي الخارج هبت ريح تحركت بها الستائر واصطفقت مصاريع نوافذ . وامتلأ جو البهو بتوتر وانقباض . وقال زقلط بهدوء :

— ينبغي ان نعمل .

ولكن هدى قالت باصرار وعصبية ينذران بالعناد :

— كلا ، حسبهم الآن الحصار ، وحذار ان يُمسّ جبل بشرّ .

لم يغضب زقلط اذ انه لم يهضم بعد ما احرز من فوز ، ورفع الى الناظر عيناً متسائلة .

فقال الافندي وهو يبدو كمن يتمصص ليمونة :

— سنعود الى الحديث مرة أخرى .

٣٢

ألقى جبل نظرة وداع على الحديقة والمنظرة فتذكر مأساة أدهم التي ترويها الرباب كل مساء . واتجه نحو الباب فوقف له البواب وهو يتساءل :

— ماذا يدعوك الى الخروج ثانية يا سيدي ؟

فقال جبل بامتعاض :

— اني ذاهب بلا عودة يا عم حسنين !

ففغر الرجل فاه وجعل ينظر اليه ملياً في انزعاج ثم غمغم متسائلاً :

— بسبب آل حمدان ؟

فأحنى جبل رأسه صامتاً ، فعاد البواب يقول :

— من يصدق هذا ؟ كيف تسمح به الهانم ؟ يا رب السماوات ! وكيف تعيش يابني ؟

فعبر جبل عتبة الباب مرسلاً بصره إلى الحارة المكتظـــة بالناس والحيوان والقاذورات وهو يقول :

ــ كما يعيش أهل حارتنا .

ــ لم تخلق لهذا .

فابتسم جبل ابتسامة ذاهلة وقال :

ــ انها الصدفة وحدها التي انتشلتني منه .

ومضى يبتعد عن البيت وصوت البواب يحذره في حسرة من التعرض إلى غضب الفتوات .

وامتدت أمام عينيه الحارة بأتربتها ودوابّها وقططها وغلمانها وجحورها فأدرك مدى الانقلاب الذي جرى على حياته ، ما ينتظره من متاعب ، وما خسره من نعيم . لكن غضبه غطى على آلامه فبدا وكأنه لا يبالي بالازهار والعصافير والامومة الحانيـــة . ومر في سبيله بالفتوة حمودة فقال هذا بسخرية ملساء :

ــ ليتك تعيرنا قوتك لنؤدب بها آل حمدان .

فلم يعره التفاتاً وقصد ربعاً كبيراً من ربوع حمدان وطرقه . وإذا بحمودة يلحق به ويسأله في دهشة واستنكار :

ــ ماذا تريد ؟

فأجابه في هدوء :

ــ اني أعود إلى أهلي .

وارتسمت الدهشة في عيني حمودة الضيقتين وبدا انـــه لا يصدق ما سمع . ورآهما زقلط وهو يغادر بيت الناظر متجهاً نحو مسكنه فصاح بحمودة :

ــ دعه يدخل ، وإذا خرج بعد ذلك ادفنه حياً .

فزايلت حمودة دهشته وابتسم ابتسامة بلهاء متشفيـــة . ومضى جبل يطرق الباب حتى فتحت نوافذ في الربع وفي الربوع الملاصقة ، واطلت

رؤوس كثيرة من بينها حمدان وعتريس وضلمة وعلي فوانيس وعبدون ورضوان الشاعر وتمرحنة ، وتساءل ضلمة ساخراً :

ــ ماذا تريد يا ابن الأكابر ؟

وسأله حمدان :

ــ معنا أم علينا ؟

فصاح حمودة :

ــ طردوه فعاد الى أصله القذر !

فتساءل حمدان بلهفة :

ــ طردوك حقاً ؟

فقال جبل بهدوء :

ــ افتح الباب يا عم حمدان .

وزغردت تمرحنة ثم صاحت :

ــ كان أبوك رجلاً طيباً وأمك امرأة شريفة .

فضحك حمودة قائلاً :

ــ مباركة عليك شهادة الزانية .

فصاحت تمرحنة غاضبة :

ــ اسم الله على أمك ولياليها الملاح عند حمام السلطان .

وأسرعت باغلاق النافذة فصك الحجر المنطلق من يد حمودة الضافة من الخارج محدثاً دوياً هلل له الصبية في الأركان . وفتح باب الربع فدخل جبل مستقبلاً جواً رطباً وهواء غريب الرائحة . واستقبله أهله بالعناق واختلطت الكلمات الطيبات . ولكن قطع الترحيب عليهم جعجعة شجار آتية من اقصى الحوش فنظر جبل فرأى دعبس مشتبكـاً في شد وجذب مع رجل يدعى كعبلها ، فمضى نحوهما ودفع نفسه بينهما وهو يقول بحدة :

ــ تتشاجران وهم يحبسوننا في بيوتنا !

فقال دعبس خلال انفاسه المضطربة :

– سرق البطاطة من حلة على نافذتي .

وصاح كعبلها :

– هل رأيتني وأنا اسرق ؟ حرام عليك يا دعبس !

فصاح جبل غاضباً :

– فلنرحم انفسنا كي يرحمنا من في السماء !

لكن دعبس قال بأصرار :

– بطاطتي في بطنه وسأستخرجها بيدي .

فقال كعبلها وهو يعيد طاقيته الى رأسه :

– والله ما ذقت البطاطة من اسبوع .

– انت اللص الوحيد في هذا الربع .

فقال جبل :

– لا تقض بلا دليل كما يفعل زقلط معكم .

فصاح دعبس :

– لا بد من تأديب ابن الخطافة .

فصرخ كعبلها :

– يا دعبس يا ابن بياعة الفجل !

وثب دعبس على كعبلها فنطحه فترنح كعبلها وسال الدم من جبينه ، وراح يكيل له الضربات غير مبال بزجر الواقفين حتى غضب جبل فانقض عليه وقبض على عنقه بشدة . وعبثاً حاول دعبس ان يتخلص من قبضة جبل فقال بصوت مبحوح :

– اتريد ان تقتلني كما قتلت قدره ؟!

فدفعه جبل بقوة فارتمى على الجدار وراح يحدق فيه بحنق وغيظ . وردد الرجال ابصارهم بين الرجلين ، وتساءلوا أجبل حقاً الذي قتل قدره ؟ وقبله ضلمة ، وصاح عتريس : « فلتحل بك البركة يا خير

آل حمدان » . وقال جبل لدعبس حانقاً :
– لم اقتله الا دفاعاً عنك !
فقال دعبس بصوت منخفض :
– لكنك استحليت القتل .
فصاح ضلمة :
– يا لك من جاحد يا دعبس ، اخجل من نفسك يا رجل .
ثم وهو يجذب جبل من ذراعه :
– ستنزل ضيفاً عليّ في شقتي .. تعال يا سيد حمدان !
طاوع جبل يد ضلمة لكنه شعر بأن الهاوية التي انفتحت اليوم تحت قدميه لا قرار لها .
وهمس متسائلاً في اذنه وهما يسيران معاً :
– الا يوجد سبيل الى الهرب ؟
فقال ضلمة باستنكار :
– اتخاف يا جبل ان يشي بك احد الى اعدائنا ؟!
– دعبس احمق .
– نعم ولكنه ليس بالنذل !
– اخاف ان تثبت عليكم التهمة بسببي !
فقال ضلمة بثقة :
– سأدلك على طريق الهرب اذا اردته ، ولكن اين تقصد ؟
– الخلاء واسع لا يحيط به خاطر .

٣٣

لم يتيسر الفرار لجبل الا في الهزيع الأخير من الليل . جعل ينتقل

من سطح الى سطح في هدآة الليل ، وفي رعاية النوم المرفق بالأجفان حتّى وجد نفسه في الجمالية . ومضى رغم الظلام الحالك نحو الدراسة ثم مال نحو الخلاء ، متجهاً نحو صخرة هند وقدري ، فلما بلغها على ضوء النجوم الخافت لم يعد بوسعه ان يغالب النوم ، من فرط ما نال منـــه الأعياء والسهر ، فاستلقى على الرمال ملتفعاً بعباءته وغط في النوم . وفتح عينيه مع اول شعاع يضيء أعلى الصخرة ، فقام من فوره كي يصل الى الجبل قبل ان يعبر الخلاء عابر . لكن بصره انجذب نحو البقعة الّتي دفن فيها قدره قبل ان يهم بالسير . ارتعدت فصائله وهو ينظر اليها حتّى جف ريقه ثم فر بنفسه وهو في ضيق شديد . ما قتل الا مجرماً ، لكنه بدا كالمطارد وهو يبتعد عن قبره . وقال لنفسه : « لم نخلق لنقتل وان فاق عدد قتلانا الحصر » . وعجب لنفسه كيف انه لم يجد مكاناً ينام فيه الا المكان الذي دفن فيه قتيله ! وشعر برغبته في الابتعـــاد تتضاعف ، وان عليه ان يودع الى الأبد من يحب ومن يكره على السواء ، أمه وحمدان والفتوات الى الأبد . وبلغ سفح المقطم ونفسه تفيض بالأسى والوحشة ، فسار معه نحو الجنوب حتّى بلغ سوق المقطم وسط الضحى . وألقى نظرة طويلة الى الخـــلاء وراءه وقال في شيء من الاطمئنان : « الآن بعد ما بيني وبينهم » . وراح يتفحص سوق المقطم أمامه ، ذلك الميدان الصغير الذي تصب فيه جملة حواري من جميع نواحيه ، وتتصاعد من جنباته ضوضاء عالية تختلط فيها اصوات الآدميين بنهيق الحمير . وكان ثمـــة ما يدل على مولد يقام ، لازدحام الميدان بالمارة والباعة والمجذوبين والدراويش والمهرجين رغم ان حركة المولد الحقيقية لا تبدأ قبل الغروب ، ففلقت عيناه بين امواج البشر المتلاطمة . ورأى عند حافة الخلاء كوخاً من الصفائح صنعت حوله مقاعد خشبية فبدا على حقارته اصلح مقهى في السوق وأحفله بالزبائن ، فاتجه نحو مقعد خال وجلس بجسم اشتد حنينه الى الراحة . وأقبل نحوه صاحب الكوخ محتفلاً

بمظهره المتميز بين الجلوس بعباءة فاخرة وعمامة عالية ومركوب ثمين فطلب قدح شاي وراح يتسلى بمتابعة الناس . وما لبث ان جذب سمعه ضوضاء اشتدّت حول كشك حنفية مياه عمومية ، رأى الناس يتزاحمون أمامها ليملأوا أوعيتهم بالماء ، وكان التزاحم كالقتال عنفاً وضحايا ، فارتفع الصخب وتهاوت اللعنات ، ثم ندت صرخات رفيعة حادة من الوسط عن فتاتين غرقتا في لجة الزحام وراحتا تتراجعان لتنجوا بنفسيهما حتى خرجتا من المعترك بصفيحتين فارغتين . بدتا في جلبابين فاقعي الالوان ينسدلان على جسميهما من العنق حتى الكعبين ، فلم يظهر منهما الا وجهان يزهر فيهما الشباب . مرت عيناه بأقصرهما دون توقف ، ثم ثبتتا على الأخرى ذات العينين السوداوين فلم تتحولا عنها . أقبلتا نحو مكان خال قريب من مجلسه فتبين في ملامحهما شبهاً أخوياً على تميز جاذبته بقسط اوفر من الحسن فقال جبل لنفسه منتشياً : « ما ابدع هذه الملاحة ، لم تقع عيني على مثلها في حارتنا » . وقفتا تسويان ما تشعث من شعريهما وتعيدان الخمار الى رأسيهما ، ثم وضعتا الصفيحتين مقلوبتين وجلستا عليهما ، والقصيرة تقول متشكية :

— كيف نملأ الصفيحة في هذا الزحام ؟

فقالت جاذبته :

— المولد اجارك الله ! وأبونا الآن ينتظر غاضباً !

فدخل جبل في الحديث دون وعي منه متسائلاً :

— لماذا لم يحضر بنفسه ليملأ الصفيحتين ؟

فالتفتتا نحوه باحتجاج ، ولكن منظره المتميز لم يخل من اثر مسكّن فاكتفت فتاته بأن قالت :

— ما شأنك انت ! هل شكونا اليك ؟!

فسر جبل بخطابها وقال معتذراً :

— اردت ان اقول ان الرجل اقدر على اقتحام زحام المولد !

– هذا عملنا ، وله عمل اشق .

فتساءل مبتسماً :

– ماذا يعمل ابوك ؟

– هذا ليس من شأنك .

وقام جبـــل غير مبال بالأعين المحدقة حوله ، حتى وقف امامهما وقال بأدب :

– سأملأ لكما الصفيحتين .

فقالت جاذبته وهي تدير عنه وجهها :

– لسنا في حاجة اليك !

ولكن القصيرة قالت بجرأة :

– افعل ولك الشكر .

وقامت وهي تشد الأخرى لتقوم معها ، فتناول جبل الصفيحتين من مقبضيهما ، وسار بجسمه القوي ، يشق الزحام ، ويرتطم بالرجال ، ويلاقي الجهد ، حتى بلغ الحنفية التي يجلس وراءها الساقي في كشكه الخشبي ، فنقده مليمين ، وملأ الصفيحتين وعاد بهما نحو موقف الفتاتين . وأزعجه ان يجد الفتاتين مشتبكتين مع بعض الشبان في معركة كلاميـــة بسبب معاكستهم لهما ، فوضع الصفيحتين على الأرض ، وتصدى للشبان مهدداً . وتحرش به احدهم ولكنه صرعه بضربة في صدره فتجمع الشبان للهجوم عليه وهم يسبونه ، غير ان صوتاً غريباً صاح بهم :

– اذهبوا يا شين الرجال .

اتجهت الابصار نحو رجل كهل ، قصير مدمج الجسم ، براق العينين ، يشد جلبـــابه على وسطه بحزام فهتفوا خجلين : « المعلم البلقيطي » وسرعان ما تفرقوا وهم يرمقون جبل بحنق . ولاذت الفتاتان بالرجل والقصيرة تقول :

– اليوم عسير بسبب المولد وهؤلاء الاوغاد .

فقال البلقيطي يجيبها وهو يتفحص جبل :

– تذكرت المولد لتأخيركما فجئت ، جئت في الوقت المناسب .

ثم خاطب جبل قائلاً :

– وأنت من اهل الشهامة وما اندرهم في ايامنا !

فقال جبل في حياء :

– ما هي الا مساعدة تافهة لا تستحق شكراً .

في أثناء ذلك حملت الفتاتان الصفيحتين وغادرتا المكان صامتتين . ود جبل بأن يملأ من المليحة عينيه ولكنه لم يجرؤ على نزعهما من عيني البلقيطي الحادتين . خيل اليه ان هذا الرجل يستطيع ان يرى الأعماق فخشي ان يقرأ رغائبه ولكن المعلم قال :

– دفعت عنهما الأشرار ، امثالك يستحقون الحب ، وهؤلاء الشبان كيف تجرأوا على التحرش بابنتي البلقيطي ؟ انها البوظة ! الم تلحظ انهم سكارى !

فهز جبل رأسه نفياً فقال الآخر :

– اني اشم كالجن الأحمر ، ما علينا ، الا تعرفني ؟

– كلا يا معلم ، لم يحصل لي هذا الشرف .

فقال بثقة :

– اذن فأنت لست من هذه الناحية .

– بلى .

– انا البلقيطي الحاوي .

وأضاء وجه جبل بنور التذكر المباغت فقال :

– حصل لنا الشرف ، كثيرون يعرفونك في حارتنا .

– وما حارتكم ؟

– حارة الجبلاوي .

فرفع البلقيطي حاجبيه الخفيفين الابيضين وقال بصوت منغوم :

– انعم واكرم ، منذا الذي يجهل الجبلاوي صاحب الوقف ؟ او فتوتكم زقلط ! وهل جئت للمولد يا معلم ؟

– جبل .

ثم قال بمكر :

– جئت ابحث عن مقام جديد .

– هجرت حارتك ؟

– نعم ..

فاشتد تفحص البلقيطي له ثم قال :

– ما دام يوجد فتوات فلا بد ان يوجد مهاجرون ! ولكن خبّرني اقتلت رجلاً أم امرأة ؟

فانقبض قلب جبل وقال بثبات :

– مزاحك ليس لطيفاً مثلك !

فضحك البلقيطي عن فم خرب وقال :

– لست من الرعاع الذين يعبث بهم الفتوات ، ولا انت من اهل السرقة ، فمثلك لا يهاجر من حارته الا بسبب القتل !

فقال جبل بحدة وضيق :

– قلت لك ..

فقاطعه قائلاً :

– يا سيدي انا لا يهمّني ان تكون قاتلاً خاصة بعد ان ثبتت لي شهامتك ، ما من رجل هنا الا وقد سرق او نهب او قتل ، ولكي تطمئن الى صدق قولي فاني ادعوك الى فنجان قهوة ونفسين في داري !

فعاود الأمل جبل وقال :

– حباً وشرفاً .

سارا جنباً الى جنب يخترقان السوق نحو حارة قلة ، وعندما خلفا الزحام وراءهما سأله البلقيطي :

ـ اكنت تقصد احداً في حيّنا ؟
ـ لا أعرف أحداً .
ـ ولا مأوى ؟
ـ ولا مأوى .
فقال البلقيطي في انبساط :
ـ كن ضيفي إذا شئت حتى تجد لنفسك مأوى .
فرقص قلب جبل فرحاً وقال :
ـ ما أنبلك يا معلم بلقيطي .
فقال الرجل ضاحكاً :
ـ لا تعجب لذلك ، في داري تقيم الثعابين والحيات فكيف تضيق عن انسان ؟! هل أفزعك قولي ؟ اني حاوٍ وستعرف عنــدي كيف تستأنس الثعابين !
عبرا الحارة فانتهيا الى خلاء لا يحد . ورأى جبل في مطلع الخلاء داراً صغيرة بعيدة عن الحارة ، جدرانها احجار غير مطليــة ، لكنها تعتبر جديدة بالقياس الى بيوت حارة قلة المتداعيــة ، فاشار البلقليطي اليها وقال بفخار :
ـ بيت البلقيطي الحاوي .

٣٤

ولما بلغا البيت قال البلقيطي :
ـ اخترت هذا المكان المنعزل لبيتي لان الناس لا يرون في الحاوي الا ثعباناً كبيراً .
دخلا معاً الى دهليز غير قصير يفضي في نهايته الى حجرة مغلقة ،

على حين قامت على الجانبين حجرتان مغلقتان . واردف البلقيطي وهو يشير الى الحجرة المواجهة للداخل :

– في هذه الحجرة توجد أدوات العمل ، الحي منها والجامد ، لا تخشَ شيئاً فبابها محكم الاغلاق ، أؤكد لك ان الثعابين أصلح للمعاشرة من أناس كثيرين ، كالذين فررت منهم مثلاً !.

ثم ضحك كاشفاً عن فيه الخرب وقال :

– الناس تخاف الثعابين ، حتى الفتوات تخافها ، أما انا فأدين لها برزقي ، وبفضلها اقمت هذا البيت .

وأشار الى الحجرة اليمنى وهو يقول :

– هنا تنام ابنتاي ، ماتت أمهما من زمن تاركة اياي لشيخوخة لا تصلح للزواج من جديد (ثم أشار الى اليسرى) وهنا سننام معاً .

وترامى صوت الفتاة القصيرة من سلم جانبي يصعـد الى السطح وهي تنادي :

– شفيقة ، ساعديني في الغسل ولا تقفي هكذا كالحجر بلا عمل .

فصاح البلقيطي :

– يا سيدة ! صوتك سيوقظ الثعابين ، وأنت يا شفيقة لا تقفي كالحجر !

اسمها شفيقة ! ما أبدع المليحة ! وزجرها غير الجارح . والشكر الصامت في عينيها السوداوين . من يخبرها بأنه ما قبل هـذه الضيافة الخطيرة الا من اجل عينيها ؟

ودفع البلقيطي باب الحجرة اليسرى وأوسع لجبل حتى دخل ثم تبعه ورد الباب . ومضى الرجل الى كنبة تمتـد بطول الحجرة الصغيرة في جانبها الأيمن ، متأبطاً ذراع جبل حتى جلسا معاً . وأحاط جبل بالحجرة بنظرة واحدة ، فرأى فراشاً في الجانب الآخر مغطى ببطانية ترابيـة اللون ، وفي أرض الحجرة فيما بين الفراش والكنبة حصيرة مزركشة

تتوسطها صينية نحاس حال لونها من كثرة البقع ، ويرقد وسطها موقد هرمي الرماد ، مركونة الى قائمة جوزة ، وعلى مسطح حافتــه سيخ وكماشة وحفنة من معسل جاف . ولم يكن يرى من النافذة الوحيــدة المفتوحة إلا الخلاء والسماء الشاحبة وجدار شاهق راكن عن بعد من جدران المقطم ، على حين ورد منها خلال الصمت المخيم زعيق راعيــة ونسائم مشبعة بحرارة الشمس الساطعة . وكان البلقيطي يتفحصه لحد المضايقة ففكر في ان يشغله عن نفسه بالحديث ولكن السقف فوقهما اهتز لوقع أقدام تمشي فوق السطح فاهتز قلب جبل . تخيل أول ما تخيل قدميها ففاض قلبه برغبة كريمة في ان تحل السعادة بالبيت ولو انطلقت ثعابينه، وقال لنفسه: « قد يغتالني هذا الرجل ويدفنني في الخلاء كما دفنت قدره دون ان تدري فتاتي أني ضحيتها هي » .

وأيقظه صوت البلقيطي وهو يسأله :

– هل لك عمل ؟

فاجابه وهو يتذكر آخر نقود يملكها في جيبه :

– سأجد عملاً ، أي عمل .

– لعلك في غير حاجة عاجلة الى عمل ؟

فداخله شيء من القلق لهذا السؤال وقال :

– بل يحسن بـي ان أبحث عن عمل اليوم قبل الغد !

– لك جسم فتوات !

– لكني اكره العدوان !

فضحك البلقيطي وتساءل :

– ماذا كنت تعمل في الحارة ؟

فتردد قليلاً ثم قال :

– كنت أعمل في ادارة الوقف .

– يا خبر اسود ، وكيف تهجر هذا النعيم ؟

ــ حظي !
ــ هل طمعت عينك في احدى الهوانم ؟
ــ اتق الله يا شيخ .
ــ انك شديد الحذر ، ولكنك ستأنس اليّ سريعاً وتفضي لي بكل اسرارك .
ــ ان شاء الله .
ــ معك نقود ؟
فعاوده القلق ولكنه لم يكشف عنه وقال ببراءة :
ــ عندي قليل منها لن يغني عن السعي .
فقال البلقيطي وهو يرمش :
ــ أنت ذكي كالعفاريت ، الا تدري انك تصلح حاوياً ؟ لعلنا نتعاون معاً ، لا تدهش لقولي ، فإني عجوز في حاجة الى المعين .
لم يأخذ قوله مأخذ الجد ولكنه كان مدفوعاً برغبة عميقة الى توثيق صلته به ، وهمّ بأن يتكلم ولكن الآخر بادره قائلاً :
ــ سنفكر في ذلك على مهل ، أما الآن ...
ونهض الرجل ، ومال فوق الموقد فرفعه ، ومضى به خارجاً كأنما ليشعله .

★

وقبيل العصر خرج الرجلان معاً ، فمضى البلقيطي الى تجواله ، وقصد جبل السوق للفرجة والتسوق . وعاد مع المساء الى الخلاء فاهتدى الى البيت المنعزل على بصيص نور ينبعث من نافذة . ولما بلغ البيت ترامت الى أذنيه اصوات محتدمة في نقاش فلم يملك ان يصغي . سمع سيدة تقول :
ــ ان صح ما تقول يا أبي فان وراءه جريمة ونحن لا قبل لنا بفتوات الحارة .
فقالت شفيقة :
ــ لا يبدو انه مجرم !

فقال البلقيطي بسخرية واضحة :

– وهل عرفتِه لهذا الحد يا بنت الأفاعي ؟

فقالت سيدة :

– لماذا يهرب من النعيم ؟

فقالت شفيقة :

– ليس عجيباً ان يهرب الانسان من حارة اشتهرت بكثرة فتواتها !

فتساءلت سيدة بسخرية :

– من أين أتتك هذه القدرة على معرفة الغيب ؟

فقال البلقيطي متنهداً :

– معاشرة الثعابين جعلتني أنجب حيتين !

– أتستضيفه يا أبي وأنت لا تدري عنه شيئاً ؟

– عرفت عنه أشياء ، وسأعرف كل شيء ، لي عينان يعتمد عليهما عند الحاجة ، ثم استضفته متأثراً بشهامته ولن أرجع عن رأيي .

ما كان يتردد عن الذهاب في غير هذا الظرف . ألم يهجر بيت النعيم بلا تردد ؟ ولكنه يذعن للقوة التي تشده الى هذا البيت . وطرب منه الفؤاد حتى سكر لسماع الصوت الذي دافع عنه . صوت الحنان الذي بدد وحشة الليل والخلاء وجعل الهلال السابح فوق الجبل يبتسم كمن يزف بشرى في الظلام . ولبث ينتظر في الظلام ، ثم سعل ، واقبل الباب فطرقه . فتح الباب عن وجه البلقيطي الذي انعكس عليه ضوء المصباح في يده . وذهب الرجلان الى حجرتهما ، فجلس جبل بعد ان ترك فوق الصينية النحاس لفة جاء بها . ونظر البلقيطي الى اللفة متسائلاً فقال جبل :

– تمر وجبن وحلاوة طحينية وطعمية ساخنة .

فابتسم البلقيطي ، وجعل يشير الى الجوزة تارة والى اللفة أخرى ويقول :

ـ خير الليل ما مضى بين هذا وذاك .

وربت كتفه متودداً وهو يتساءل :

ـ أليس كذلك يا ابن الواقف ؟

وانقبض قلبه على رغمه ، وتوالت على مخيلته صور الهانم التي تبنته والحديقة الغناء باعراش الياسمين والعصافير والمياه الجارية ، والطمأنينة والسلام والأحلام الناعمة ، دنيا النعيم الزائلة ، حتى أوشكت الحياة ان تفسد . واذا بموجة تدفع ذكرياته الغارقة في الأسى الى بر الأمان ، الى هذه الصبية الودودة الطيبة ، الى القوة الساحرة التي تشده الى بيت فيه وكر للثعابين ، فقال بحماس غير متوقع كتوهج مصباح أثر هبة نسيم :

ـ .. ما أطيب الحياة في جوارك يا عم .

٣٥

لم يعطف عليه النوم إلا قبيـــل الفجر إذ عانى من الخوف كثيراً . وزاره طيفها في هلوسة المخاوف كما تساقط أوراق الياسمين على حشائش جافة تسعى بينها الحشرات . كابد الأوهام التى تلدها الظلماء في البيت الغريب . وقال لنفسه في الظلام : « ما أنت إلا غريب في بيت الثعابين ، تطاردك جريمة ويهتز قلبك بالعشق » . ولو ترك وشأنه ما رغب في غير السلام والدعة . وما خاف الثعابين قدر خوفه الغدر من ناحية ذلك الرجل الذي يتعالى شخيره في فراشه ؛ فمن أدراه أن شخيره صادق ؟ وما عاد يطمئن الى صدق شيء . حتى دعبس المدين له بحياتـه ستذيع حماقتـه السر فيثور زقلط وتبكي أمه وتندلع النيران في الحارة التعيسة . والحب الذي شده الى هذا البيت ، والى حجرة رفيقه مروض الثعابين ، من ادراه انه سيعيش حتى يصرح بمكنونه . هكذا لم يعطف عليه النوم إلا

قبيل الفجر بعد ان عانى من الخوف كثيراً .

وفتح عينيه المثقلتين عندما نضحت النافذة المغلقة بنور الصباح . رأى البلقيطي جالساً في فراشه متقوس الظهر ، يدلك بيديه المعروقتين ساقيه تحت الغطاء . وابتسم في ارتيـاح رغم الدوخة الملمة برأسه لقلـة النوم . لعن الأوهام التي تعشش في الرأس في الظلام وتتبدد في النور كالخفافيش. أليست أوهاماً جديرة بسوء ظن قاتل ؟ أجل ، ان اسرتنا المجيدة تجري في دماها الجريمة منذ القدم . وسمع البلقيطي يتثاءب بصوت مرتفـع متماوج كالحية الراقصة فهاج صدره وراح يسعل طويلاً بشدة حتى خيل إليه ان وجهه سيلفظ عينيه . ولما سكت السعال تأوه الرجل من الأعماق فقال جبل :

– صباح الخير .

وجلس على الكنبة فالتفت البلقيطي نحوه ووجهه ما زال محتقنـاً من السعال وقال :

– صباح الخير يا معلم جبل ، يا من لم ينم من الليل إلا أقله .

– لعل وجهي متغير ؟

– بل أذكر تقلبك في الظلام والتفاتات رأسك نحوي كالخائف !

يـا لك من ثعبان ! ولكن كن ثعبـاناً غير سامٍّ وحق العينين السوداوين .

– الحق اني أرقت لتغيير مكان النوم .

فضحك البلقيطي قائلاً :

– أرقت لسبب واحـد وهو انك كنت تخافني على نفسك ، قلت سيقتلني ويسلبني نقودي ثم يدفنني في الخلاء كما فعلت أنـا بالرجل الذي قتلته .

– أنت ..

– اسمع يا جبل ، الخوف شديد الايذاء ، والثعبـان لا يلدغ إلا

عند الخوف !

فقال جبل في انهزام خفي :

ــ انك تقرأ ما ليس في الصدور .

ــ انك تعلم انني ما جاوزت الحق يا موظف الوقف السابق !

وترامى صوت من الداخل ينادي بقوة : « يا سيدة تعالي » فشعشع روحه بانبساط غير متوقع . هذه الحمامة الزجالة في وكر الثعابين ، التي قضت له بالبراءة وجذبته الى شجرة الآمال المورقة . وقـــال البلقيطي وكأنه يعلق على نشاط شفيقة :

ــ النشاط يدب في بيتنا منذ الصباح الباكر ، فتنطلق هاتان البنتان الى الطريق لتعودا بالماء والمدمس لتطعما اباهما العجوز ثم ترسلاه بجراب الثعابين ليلتقط لنفسه ولهما الرزق .

وحلت السكينة بقلبه ، وشعر بأنه عضو في هذه الأسرة ، وفاضت نفسه بالمودة ، فنزع الى فتح صدره والتسليم الى مقاديره في عفوية لا تقاوم فقال :

ــ يا معلم ، بالحق سأقص عليك قصتي .

فابتسم البلقبطي وتشاغل بتدليك ساقيه فعاد جبل يقول :

ــ اني قاتل كما قلت، ولكن لي قصة .

وقص عليه قصته . ولما فرغ قال الرجل :

ــ يا لهم من قوم ظـــالمين ، أما أنت فرجـــل شهم ولم يخب نظري فيك .

واعتدل في جلسته باعتزاز ثم قال :

ــ من حقك الآن ان ابادلك صراحة بصراحة ، فاعلم اني انتسب في الأصل الى حارة الجبلاوي .

ــ أنت !

ــ نعم ، وفررت منها في صدر الشباب ضيقاً بفتواتها !

فقال جبل والدهشة لم تزايله بعد :
ــ هم شقاء حارتنا .
ــ نعم ، لكننا لا ننسى حارتنا رغم فتواتهـا ، ولذلك أحببتك عندما عرفت أصلك .
ــ من أي حيّ كنت ؟
ــ من حي حمدان مثلك .
ــ يا للعجب !
ــ لا تعجب لشيء في هذه الدنيا ، لكنه تاريخ مضى من بعيد ، فلا أحد يعرفني الآن ولا تمرحنة نفسها التي تربطني بها صلة قربى .
ــ اعرف هـذه السيدة الشجاعة ، ولكن من كـان غريمك من الفتوات ؟ زقلط ؟
ــ لم يكن في ذلك العهد الا فتوة حيّ حقير .
ــ قلت هم شقاء حارتنا !
ــ أبصق على الماضي بكل ما فيه .
ثم بلهجة فيها اغراء :
ــ اشغل نفسك منذ الساعة بمستقبلك ، وها أنذا اكرر لك القول بأنك تصلح حاوياً ماهراً ، ولنا مجال مريح في الجنوب من هنا بعيداً عن حارتنا ، وعلى اي حال ففتواتكم واتباعهم لا يظهرون في هذا الحي :
لم يكن بطبيعـة الحال يدري شيئاً عن فن الحواة ولكنه رحب به باعتباره الوسيلة التي ستلصقه بهذه الأسرة فتساءل بنبرات فضحت رضاه :
ــ أتراني اصلح حقـاً لذلك ؟
فوثب الرجل الى الأرض في سرعة بهلوانية ووقف امامه بجسمه القصير وقد كشف طوق جلبابه عن شعر كث ابيض وقال :
ــ أنت موافق ، لم يخب نظري في شيء قط .
ومد له يده فتصافحا ثم قال الرجل :

ـ اصارحك بأني احبك اكثر من اي ثعبان عندي .

فضحك جبل في نشوة طفل ، وشد على يد الرجل ليمنعه من الذهاب حتى وقف متسائلاً ثم قال باندفاع لم تجْدِ حيلة في منعه :

ـ يا معلم ، جبل يطلب القرب منك .

فابتسمت عينا البلقيطي المحمرتين وتساءل :

ـ حقاً ؟

ـ نعم ورب السماوات .

فضحك البلقيطي ضحكة قصيرة وقال :

ـ كنت اتساءل متى يا ترى يفاتحني في ذلك ! نعم يا جبل فلست أحمق ، ولكنك الرجل الذي اعهد اليه بابنتي مطمئناً ، ومن حسن الحظ ان سيدة فتاة ممتازة كما كانت المرحومة امها !

واعترى ابتسامة الابتهاج في فم جبل ارتباك غير خاف كما يعتري اطراف الزهرة اليانعة الذبول ، وخاف ان يتبدد حلمه بعد ان صار في قبضته وغمغم :

ـ لكن ..

فقهقه البلقيطي قائلاً :

ـ لكنك تطلب شفيقـــة ! اعلم هذا يا ابن والدي ، اخبرتني به عيناك وحديث الصغيرة ومعاشرة الثعابين والحيّات فلا تؤاخذني فهذه هي طريقة الحواة فيما يعقدون من اتفاقات .

تنهد جبل من صميم القلب ، وشعر ببرد الطمأنينة والسلام ، ووثبت بصدره مشاعر فتوة وحماس وانطلاق ، حتى بيت النعيم لم يعد يبالي به ، ولا الجاه المولى ، ولم يعد يخافِ ما ينتظره من كد ومرمطة ، فليسدل على الماضي ستاراً لا ينضح بضوءٍ ، وليبتلع النسيان كافة المتاعب والآلام الماضية ، وليبتلع فيما يبتلع حنان القلب الى الأمومة الضائعة .

في الضحى زغردت سيدة .
وسرى النبأ السعيد في الحواري المجاورة .
ثم شهد سوق المقطم وحيّه زفة جبل .

٣٦

قال البلقيطي بلهجة انتقاد ساخرة :
– لا يجمل بالرجل ان يركن الى حياة الأرنب والديك ! وها أنت لم تتعلم شيئاً واوشكت نقودك ان تفرغ !
كانا يجلسان على فروة امام باب الدار ، وكان جبل يمد ساقيه على الرمال المشمسة تاوح في عينيه الغبطة والدعة فالتفت الى حميه وقال باسماً :
– عاش ابونا ادهم ثم مات وهو يتمنّى الحياة البريئة اللاهيـــة في الحديقة الغناء !
فضحك البلقيطي ضحكة مرتفعة ونادى بأعلى صوته :
– يا شفيقة ! ادركي زوجك قبل ان يقتله الكسل .
فظهرت شفيقة على عتبة الباب وهي تنقّي عدساً في طبق على يدها ، وقد لفّت رأسها بخمار ارجواني اكد صفاء وجهها . تساءلت دون ان ترفع عينيها عن الطبق :
– ما له يا ابي ؟
– يتمنى شيئين : رضاك وحياة بلا عمل .
فضحكت متسائلة في انكار :
– وكيف يجمع بين ارضائي وقتلي جوعاً ؟
فقال جبل :
– هذا سر الحاوي !
فلكزه البلقيطي في جنبه قائلاً :

– لا تستهن بأشق المهن . كيف تخفي بيضة في جيب متفرج وتستخرجها من جيب آخر في الصف الذي يقابله ؟ كيف تحول البلى الى كتاكيت ؟ كيف ترقّص الحيّة ؟

فقالت شفيقة التي بدت منوّرة بالسعادة :

– علّمه يا ابي ، انه لم يعرف من الحياة الا الجلوس على مقعد وثير في ادارة الوقف .

فقام البلقيطي وهو يقول : « جاء وقت العمل » ثم دخل البيت . وراح جبل يتأمل زوجه باعجاب ويقول :

– زوجة زقاط دونك في الملاحة الف درجة لكنها تقطع النهار على اريكة ناعمة ، والاصيل في الحديقة تستنشق عبير الفل وتلهو بالمياه الجارية .

فقالت بسخرية ومرارة معاً :

– هذا حال المتخمين بارزاق الناس .

فهرش جانب رأسه متفكراً وقال :

– ولكن هنالك سبيل إلى السعادة الشاملة .

– لا تحلم ، لم تكن حالماً عندما نهضت للأخذ بيدي في السوق ، ولم تكن حالماً عندما طردت عني ذباب البشر ، ولذلك دخلت قلبي .

فاشتاق ان يقبلها . ولم يهون من قيمة كلامها اقتناعه بأنه يعرف اكثر منها . وقال :

– اما انا فاحببتك دون ما سبب .

– في هذه الحواري من حولنا لا يحلم الا المجانين .

– ماذا تريدين مني يا حلوة ؟

– ان تكون مثل أبي .

فتساءل معاتباً :

– وهذه الحلاوة تقطر منك ما شأنها ؟

فانفرجت شفتاها عن ابتسامة واسرعت أصابع يدها بين حبات العدس .

– عندما فررت من الحارة كنت اشقى الناس جميعاً ، ولكن لولا ذلك ما تزوجتك !

فضحكت قائلة :

– نحن مدينان في سعادتنا لفتوات حارتك كما يدين ابي في رزقه للحيّات والثعابين .

فتنهد جبل قائلاً :

– ومع ذلك فقد آمن خير من عرفته حارتنا من ابنائها بأنه يوجد سبيل يكفل الرزق للناس وهم في الحدائق يغنون .

– رجعتا ! ها هو ابي قادماً بجرابه ، قم رعاك الله .

وجاء البلقيطي بجرابه وقام جبل ومضى الاثنان في طريقهما المعهود . وجعل البلقيطي يقول له :

– تعلم بعينيك كما تتعلم بعقلك ، انظر ماذا افعل ولا تسألني امام احد من الناس ، واصبر حتى اوضح لك ما يغمض عليك فهمه .

ووجد جبـــل الحرفة شاقة حقاً ولكنه لم يستهن بها من اول الأمر ووطن نفسه على الحذق فيها مهما كلفه الجهد . والواقع انه لم يكن امامه من مهنة اخرى الا ان يرضى بمهنة بائع جوال او الفتونة او اللصوصية وقطع الطريق . لم تكن الحواري في حيّه الجديد لتختلف عن حارته في شيء عدا الوقف والقصص التي نشأت حوله . وقد رسبت في قرارة نفسه حسرة متخلفة من احلام الماضي وذكريات المجد الغابر والآمال التي يتعذب بسببها آل حمدان كما تعذب ادهم من قبل . وكان مصمماً على النسيان بالقاء نفسه في خضم الحياة الجديدة وتقبلها وفتح الصدر لها ؛ واللواذ بزوجـــه المحبة المحبوبة كلما خطر له خاطر حزنٍ او هوان في تجواله . وتفـــوق على احزانه وذكرياته وبرع في تعليمه حتى ادهش البلقيطي نفسه . وكان يواصل التدريب في الخلاء ويعمل في النهار والليل ،

وتمضي الايام والاسابيع والاشهر فلا تهن له عزيمة ولا يدركه الكلال. وقد عرف الحواري والأزقة . واستأنس الثعابين والحيّات . ولعب امام آلاف الصبية . وذاق حلاوة النجاح والربح . وتلقى بشرى الأبوة المقبلة . واستلقى على ظهره يرعى النجوم حين الراحة . وسهر الليالي يتجاذب مع البلقيطي الجـــوزة ويقص القصص التي كانت ترويها الرباب بقهوة حمدان . وتساءل من حين الى حين أين الجبلاوي . واذا اشفقت شفيقة من ان يفسد عليه الماضي حياته هتف بها : الى هؤلاء ينتسب الشيء الذي في بطنك ، وآل حمدان آله ، والأفندي رأس الاغتصاب كما ان زقلط رأس الارهاب ، فكيف تطيب الحياة وبها امثال اولئك ؟

* * *

ويوماً كان يعرض ألاعيبه في زينهم وسط حلقة محكمة من الصغار . ولاحت منه التفاتة فرأى امامه دعبس وقد شق سبيله الى الصف الأمامي وراح يحملق فيه بذهول . اضطرب جبل وتجنب النظر الى وجهه ولم يعد بمستطاعه ان يواصل عمله فأنهاه رغم احتجاج الصغار ورفع جرابه ومضى . وما لبث ان لحق به دعبس وهو يصيح :

— جبل ! أهذا أنت يا جبل !

فتوقف عن السير ملتفتاً اليه وقال :

— نعم ، ماذا جاء بك يا دعبس ؟

ولم يفق دعبس من دهشته وجعل يقول :

— جبل حاو ! متى تعلمت هذا وأين ؟

فقال جبل باستهانة :

— ليس هذا بأعجب ما يقع في هذه الدنيا .

وسار جبل والآخر يتبعه حتى بلغا سفح الجبل ثم جلسا في ظل نتوء ، ولم يكن بالمكان الا اغنام ترعى وراع جلس عارياً يفلّي جلبابه . وتفرس

دعبس في وجه صاحبه وقال :

ــ لماذا هربت يا جبل ؟ كيف ساء ظنك بي حتى توقعت ان اخونك ؟ والله ما اخون احداً من حمدان ولو يكن كعبلها ! ولحساب من اخونك ؟ الأفندي أم زقلط ؟! فليحرقهم رب السماوات جميعاً ، كم سألوا عنك كثيراً ، وكنت اسمعهم يسألون فأغرق في عرقي .

فسأله جبل باهتمام :

ــ خبرني كيف تعرض نفسك للانتقام بالتسلل من ربعك ؟

فلوح دعبس بيده في استهانة قائلاً :

ــ رفع الحصار عنا من زمن ، لم يعد احد يسأل اليوم عن قدره او قاتله ، ويقال ان هدى هانم هي التي انقذتنا من الموت جوعاً ، ولكن قضي علينا بالذل الى الأبد ، لا مقهى لنا ولا كرامة ، نسعى في اعمالنا بعيداً عن حارتنا واذا عدنا توارينا وراء الجدران ، واذا عثر على احدنا فتوة عبث به صفعاً او بصقاً ، ان تراب حارتنا اليوم اكرم عليهم منا يا جبل ... ما اسعدك في غربتك .

فقال جبل بامتعاض :

ــ دع سعادتي في شأنها وخبرني الم يصب احد بسوء ؟

فقال دعبس وهو يتناول طوبة ويضرب بها الأرض :

ــ قتلوا منا عشرة في عهد الحصار !

ــ يا رب السماوات !

ــ ذهبوا فداء لقدره الحقير ابن الحقيرة ، ولكنهم ليسوا من اصحابنا !

فقال جبل بحنق :

ــ الم يكونوا من آل حمدان يا دعبس ؟

فرمش دعبس حياء وتحركت شفتاه بعذر غير مسموع فعاد جبل يقول :

ــ والآخرون ينعمون بالصفع والبصق .

وشعر الرجل بأنه مسئول عن الارواح التي زهقت ، وعصّر الالم قلبه . ووجد ندماً دامياً على كل لحظة سلام مرت به منذ هجرته . ودهمه دعبس بقوله :

– لعلك الوحيد السعيد اليوم من آل حمدان .

فهتف :

– لم اكف يوماً عن التفكير فيكم .

– لكنك بعيد عن الهم والغم .

فقال بحدة :

– لم افلت من الماضي قط .

– لا تبدد راحة بالك بلا امل ، لم يعد لنا أمل .

فردد جبل قوله الأخير ولكن في نبرات غامضة :

– لم يعد لنا أمل !

فرمقه دعبس باهتمام مستطلعاً ولكنه لم ينبس احتراماً للحزن المرسوم على وجهه . ونظر الى الأرض فرأى خنفساء تدب مسرعة حتى اختفت تحت كومة احجار . وكان الراعي ينفض جلبابه ليغطي جسده الذي الهبته الشمس . وعاد جبل يقول :

– في الحق لم اكن سعيداً الا في الظاهر .

فقال مجاملاً :

– انك تستحق السعادة عن جدارة .

– تزوجت واتخذت لنفسي عملاً جديداً كما ترى وما برح نداء خفي يلح في اقلاق منامي .

– فليباركك الله ! اين تقيم ؟

لم يجبه . وبدا وكأنه يخاطب نفسه . ثم قال :

– لا تطيب الحياة وبها امثال اولئك الأوغاد .

– صدقت ، ولكن كيف التخلص منهم ؟

ارتفع صوت الراعي وهو ينادي اغنامه ، ويسير نحوها متأبطاً عصاه الطويلة ، ثم ترامى عنه لحن غناء غير واضح . وتساءل دعبس :

— كيف استطيع ان ألقاك ؟

— سل عن بيت البلقيطي الحـــاوي عند سوق المقطم ولكن اكتم خبري الى حين .

ونهض دعبس فشد على يده ومضى والأخر يتابعه بعينين محزونتين .

٣٧

أوشك الليل ان ينتصف . وكادت حارة الجبلاوي تغرق في الظلمة لولا اضواء وانية تتسلل من ابواب المقاهي المواربة اتقاء للبرد . ولم يلح في سماء الشتاء نجم واحد وتوارى الغلمان في الحجرات ، وحتى الكلاب والقطط آوت الى الأفنية . ومن خلال الصمت الشامل انبعثت انغام الرباب الرتيبة تردد الحكايات ، أما حيّ حمدان فقد تلفّع بظلمة خرساء . وجاء شبحان من ناحية الخلاء ، فسارا تحت سور البيت الكبير ، ثم مرّا امام بيت الافندي ، قاصدين حيّ حمدان ، حتى وقفا امام الربع الأوسط وطرق احدهما الباب ، فرنّ الطرق في الصمت مثل قرع الطبول . وفتح الباب عن وجه حمدان نفسه الذي بدا شاحباً على ضوء سراج بيده ، ورفع السراج ليتبين وجه الطارق ، وما عتّم ان هتف في دهشة :

— جبل !

وتنحى عن الباب فدخل جبل حاملاً بقجة كبيرة وجراباً ، وتبعته زوجه حاملة بقجة اخرى . وتعانق الرجلان . وألقى حمدان نظرة سريعة على المرأة فلمح بطنها ، وقال :

— زوجتك ؟ أهلاً بكما ، إتبعاني على مهل .

اخترقوا دهليزاً طويلاً مسقوفاً حتى بلغوا الحوش الواسع غير المسقوف ، ثم مالوا الى السلم الضيق ورقـوا فيه حتى مسكن حمدان . وادخلت شفيقة الى الحريم ، ومضى حمدان بجبل الى حجرة واسعة متصلة بشرفة مطلة على حوش الربع . وما لبث خبر عودة جبل ان ذاع فأقبـل كثيرون من رجال حمدان على رأسهم دعبس وعتريس وضلمة وفوانيس ورضوان الشاعر وعبدون ، فصافحوا جبل بحرارة ، وجلسوا في الحجرة على الشلت يتطلعون الى العائد باهتمام وحب استطلاع . وتتابعت الأسئلة على جبل فقص عليهم طرفاً من حياته الأخيرة . وتبادلوا نظرات الأسى . ورأى جبل ان ارواحهم المضعضعة تنعكس على اجسادهم المهزولة وأن الفناء يدب في الأوصال . وقصوا عليه ما يلقون من هوان فقال دعبس انه اخبره بكل شيء في لقاء اتفق لهما منذ شهر ، وانه لذلك يعجب لما جاء به ، وسأله ساخراً :

ـ أجئت لتدعونا للهجرة الى مقامك الجديد ؟

فقال جبل بحدة :

ـ لا مقام لنا الا هنا !

وجذب الأسمـاع في صوته نبرة قوة حتى لاح الاستطلاع في عيني حمدان وقال :

ـ لو كانوا ثعابين لما استعصى عليك ردعهم .

ودخلت تمرحنة بأقداح الشاي فحيت جبل تحية حارة ، واثنت على زوجه ، وتنبأت له بأنه سينجب ذكراً ولكنها قالت مستدركة :

ـ لم يعد من فارق بين رجالنا ونسائنا !

ونهرها حمدان وهي تغـادر الحجرة ولكن اعين الرجال عكست اقتناعاً ذليلاً بقولها ، وتكاثفت سحب الاحزان المخيمة على المجلس فلم يذق احد للشاي طعماً . وتساءل رضوان الشاعر :

ـ لماذا عدت يا جبل وأنت لم تألف الاهانة ؟

فقال حمدان بصوت ينم عن الانتصار :

– قلت لكم مراراً ان الصبر على ما نلقى خير من التسكع بين غرباء سيكرهوننا .

فقال جبل بقوة :

– ليس الأمر كما ترى .

وهز حمدان رأسه دون ان ينبس فساد صمت حتى قال دعبس :

– يا جماعة فلنتركه ليستريح .

ولكنه اشار لهم بالبقاء وقال :

– ما جئت لأستريح ولكن لأحدثكم في شأن خطير ، اخطر مما تتصورون .

وتطلعت اليه الأعين بدهشة وغمغم رضوان متمنياً الخير فيما سيسمع . اما جبل فراح يقلب في الوجوه عينيه القويتين ، ثم قال :

– كان بوسعي ان امضي العمر كله في اسرتي الجديدة دون تفكير في العودة الى حارتنا .

وصمت ملياً ، ثم عاد يقول :

– لكنه حدث منذ ايام معدودة ان شعرت برغبة في المشي وحدي رغم البرد والظلام ، فخرجت الى الخلاء ، واذا بقدمي تقودانني الى البقعة المشرفة على حارتنا ، ولم اكن دنوت منها منذ هروبي .

تجلى الاهتمام في الأعين فواصل الرجل حديثه قائلاً :

– مضيت في تجوالي في ظلام دامس ، فحتى النجوم توارت وراء السحب ، وما ادري الا وأنا اوشك ان اصطدم بشبح هائل ، توهمته اول الأمر أحد الفتوات ، ولكنه بدا لي شخصاً ليس كمثله احد في حارتنا ولا في الناس جميعاً ، طويلاً عريضاً كأنه جبل ، فامتلأت رهبة وهممت بالتراجع واذا به يقول بصوت عجيب : « قف يا جبل » فتسمرت في مكاني وسألته وجلدي ينضح بالخوف : « من ؟ من انت ؟ » .

وتوقف جبـــل عن الحديث فمالت الرءوس الى الأمام في اهتمام ، وتساءل ضلمة :

– من حارتنا ؟

ولكن عتريس قال بسرعة معترضاً :

– قال انه ليس كمثله احد في حارتنا ولا في الناس جميعاً .

ولكن جبل قال :

– بل انه من حارتنا !

وتساءلوا عن هويته جميعاً فقال جبل :

– قال لي بصوته العجيب : « لا تخف ، انا جدك الجبلاوي ! »

وارتفعت صيحات الدهشة من الجميع ورمقوه بنظرات الارتياب . وقال حمدان :

– انك تهزر دون شك .

– بل اقول الحق دون زيادة ولا نقصان !

فسأله فوانيس :

– ألم تكن مسطولاً ؟

فصاح جبل بغضب :

– ان السطل لم يذهب بعقلي قط !

فقال عتريس :

– له لطسات لا تعرف عزيزاً وخصوصاً الأصناف الجيدة !

فتبدى الغضب في وجه جبل كالسحاب المظلم وصاح :

– سمعته باذني وهو يقول لي : « لا تخف ، انا جدك الجبلاوي »

فقال حمدان برقة ليسكن غضبه :

– لكنه لم يغادر بيته من زمن ولم يره احد !

– لعله يخرج كل ليلة دون ان يدري احد .

فعاد حمدان يتساءل في حذر :

ـ لكن احداً غيرك لم يصادفه !

ـ صادفته انا !

ـ لا تغضب يا جبل فما قصدت التشكيك في صدقك ، ولكن الوهم خداع ، بالله خبرني اذا كان الرجل يستطيع الخروج من بيته فلماذا نزل عن النظارة لغيره ؟ ولماذا يتركهم يعبثون بحقوق ابنائه ؟!

فقال جبل مقطباً :

ـ هذا سره وهو به اعلم .

ـ ان ما قيل عن اعتزاله لكبره وعجزه اقرب الى المعقول .

فقال دعبس :

ـ اننا نتخبط بين الاقاويل ، دعونا نسمع القصة ان كان لها بقية .

فقال جبل :

ـ قلت له : « لم احلم ان اقابلك في هذه الحياة » فقال : « ها انت ذا تقابلني » وحددت بصري لأتبين وجهه المرتفع في الظلام فقال لي : « لن تستطيع رؤيتي ما دام الظلام » فقلت بذهول لرؤيته محاولة رؤيتي له : « لكنك تراني في الظلام » فقال : « اني ارى في الظلام منذ اعتدت التجوال فيه قبل ان توجد الحارة » فقلت باعجاب : « الحمد لرب السماوات على انك ما زلت تتمتع بصحتك » فقال : « انت يا جبل ممن يركن اليهم ، وآي ذلك انك هجرت النعيم غضباً لأسرتك المظلومة ، وما اسرتك الا أسرتي ، وهم لهم في وقفي حق يجب ان يأخذوه ، ولهم كرامة يجب ان تصان ، وحياة يجب ان تكون جميلة » فسألته في فورة حماس اضاءت الظلام : « وكيف السبيل الى ذلك ؟ » فقال : « بالقوة تهزمون البغي ، وتأخذون الحق ، وتحيون الحياة الطيبة » فهتفت من اعماق قلبي : « سنكون اقوياء » فقال : « وسيكون النجاح حليفك » .

وترك صوت جبل وراءه صمتاً كالحلم بدوا فيه جميعاً مسحورين .

كانوا يفكرون ويتبادلون النظرات ثم يتجهون بأعينهم الى حمدان حتى خرج عن الصمت قائلاً :

– فلنتدبّر هذه الحكاية بعقولنا وقلوبنا !

فقال دعبس بقوة :

– انها لا تبدو وهماً من اوهام السطل وكل ما تتضمنه حق .

فقال ضلمة بايمان :

– لن تكون وهماً الا اذا كانت حقوقنا وهماً !

فتساءل حمدان في شيء من التردد :

– ألم تسأله عما يمنعه من اجراء العدل بنفسه ؟ او عما جعله يعهد بالنظارة الى قوم لا يحسنون القيام على حقوق الناس ؟

فقال جبل بامتعاض :

– لم اسأله . ولم يكن بوسعي ان اسأله ، أنت لم تلقــه في الخلاء والظلمة ولم تستشعر الرهبة في حضرته ، ولو وقع لك ذلك ما فكرت في مناقشته الحساب ولا داخلك الشك في امره .

فهز حمدان رأسه فيما يشبه التسليم وقال :

– هذا كلام خليق بالجبلاوي حقاً ولكن ما اخلقه بأن ينفذه بنفسه !

فصاح دعبس :

– انتظروا حتى تموتوا في هوانكم !

فتنحنح رضوان الشاعر وقال وهو ينظر بحذر في الوجوه :

– كلامه جميل ولكن فكروا فيما يجرنا اليه .

فقال حمدان بحزن :

– ذهبنا مرة نستجدي بعض حقنا فكان ما كان .

واذا بعبدون الصغير يصيح :

– علام نخاف وليس هناك اسوأ مما نحن فيه ؟!

فقال حمدان كالمعتذر :

— لست اخاف على نفسي ولكني اخاف عليكم .

فقال جبل بازدراء :

— سأذهب الى الناظر وحدي .

فقال دعبس وهو يتزحزح مقترباً من مجلسه :

— ونحن معك ، لا تنسوا ان الجبلاوي وعده بالنجاح !

فقال جبل :

— سأذهب وحدي عندما اقرر الذهاب ، ولكني اريد ان اطمئن الى انكم ستكونون ورائي وحدة متماسكة خليقة بمواجهة الشدة والصمود لها !

ووثب عبدون واقفاً في حماس وهتف :

— وراءك حتى الموت !

وانتقل حماس الغلام الى دعبس وعتريس وضلمة وفوانيس . وتساءل رضوان الشاعر بشيء من المكر ان كانت زوجـة جبل تدري بما جاء زوجها من اجله فقص جبل عليهم كيف انه افضى بسره الى البلقيطي ، وكيف نصحه الرجل بتقـدير العواقب ، وكيف أصر على العودة الى حارته ، وكيف اختارت زوجه ان تسير معه الى النهاية .

وعند ذاك قال حمدان بصوت انبأ بأنه مع الآخرين :

— ومتى تذهب الى الناظر ؟

فأجاب جبل :

— عندما تنضج خطتي .

فقام حمدان وهو يقول :

— سأدبر لك مقاماً في مسكني ، انك اعز الأبناء ، وهذه ليلة لها ما وراءها ، ولعل الرباب ترويها غداً موصولة بقصة ادهم ، هلموا نتعاهد على الخير والشر !

عند ذاك تصاعد صوت حمودة الفتوة ، العائد مع الفجر ، وهو

يغني بلسان مخمور مترنح :

يا واد يا سكري تشرب تنجلي   وتخش الحارة تتطوح تترمي
وعامللي فنجري   وتمز بجنبري

فلم يؤخذوا بصوته الا لحظة ، ثم مدوا أيديهم للتعاقد في حماس ، وفي رجاء .

٣٨

وعلمت الحارة بعودة جبل . رأته يسير بجرابه . ورأت زوجته وهي تسعى الى الجمالية لابتياع حوائجها . وتحدثوا عن مهنته الجديدة التي لم يسبقه اليها احد من ابناء الحارة . على انه كان يعرض ألاعيبه السحرية في الأحياء المجاورة دون حارته ، وتجنب استعمال الثعابين في ألاعيبه فلم يفطن احد الى انه بها خبير . ومر ببيت الناظر مرات وكأنما لم يطرقه في حياته وهو يكابد في اعماقه حنيناً أليماً الى أمه . ورآه الفتوات مثل حمودة والليثي وبركات وابو سريع فلم يصفعوه كما يفعلون مع غيره من آل حمدان ولكنهم عرّضوا به وهزئوا بجرابه . وصادفه مرة زقلط فحدجه بنظرة قاسية ، ثم اعترض سبيله متسائلاً :

ـ أين كانت غيبتك ؟

فقال في حلم :

ـ في الأرض الواسعة ..

فقال الرجل متحرشاً :

ـ اني فتوتك ومن حقي ان اسألك عما أريد وعليك ان تجيب ...

ـ أجبتك بما عندي .

ـ وماذا عاد بك ؟

فقال في هدوء :

ـ ما يعود بالانسان الى حارته !

فقال بصوت نمّ عن وعيد :

ـ لو كنت في مكانك ما عدت !

وسار فجأة بقوة ، فكاد يرتطم به لولا ان تنحّى جبل عن سبيله بسرعة ، كاظماً غيظه . واذا بصوت بواب بيت الناظر يناديه ، فالتفت جبل نحوه دهشاً ، ثم مشى اليه ، فالتقيا امام البيت وتصافحا بحرارة . وجعل الرجل يسأله عن احواله ، ثم اخبره بأن الهانم تودّ رؤيته . وكان جبل يتوقع هذه الدعوة منذ ظهوره في الحارة . كان قلبه يحدثه بأنها آتية لا ريب فيها . ومن ناحيته لم يكن بوسعه ان يزور البيت للحال التي غادره عليها . وفضلاً عن ذلك فقد قرّر الا يطلب المقابلة حتى لا يثير الشكوك حولها قبل ان تقع ، سواء في نفس الناظر أم في نفوس الفتوات . ولكنه ما كاد يدخل البيت حتى جرى الخبر في الحارة جميعاً . والقى نظرة سريعة ـ عند مسيره الى السلاملك ـ على الحديقة ، على اشجار الجميز والتوت العالية ، وشجيرات الأزهار والورود التي تغطي الأركان ، وقد اختفى العبير التقليدي تحت قبضة الشتـــاء ، وغشي الجو نور هادىء وديع كالأصيل كأنه يقطر من السحاب الأبيض المنتشر . وصعد السلم وهو يطرد عن قلبه بقوة اسراب الذكريات . ودخل البهو فرأى في صدره الهانم وزوجها جالسين ، منتظرين . نظر الى أمه فتلاقت نظرتاهما ، وقامت المرأة لاستقباله في تأثر شديد ، فهوى على يديهـــا يقبلها ، ولثمت جبينـــه في حنان ، فاجتاحه في موقفه شعور بالحب والسعادة . والتفت رأسه الى الناظر فرآه جالساً في عباءته يطالعها بعينين باردتين ، فمدّ له يده فقام نصف قومة ليصافحه وسرعان ما جلس . وجرت عينا هدى على جبل في دهشة ممزوجة بانزعاج ، وهو يبدو

بجسمه الفارع في جلباب خشن مشمر وسطه بحزام غليظ ، وفي قدميه مركوب شبه بال ، وعلى شعره الغزير طاقية عمّاء ، فتجلى في عينيها الرثاء . وتحدثت عيناها – دون اللسان – فأبدت حزنها على مظهره وعلى ما ارتضاه لنفسه من حياة ، وكأنما كانت تطالع املاً باهراً تهاوى الى حطام . وأشارت له بالجلوس فجلس على مقعد قريب منها ، وجلست هي فيما يشبه الاعياء . وأدرك ما يدور في نفسها فحدثها بصوت قوي عن حياته في سوق المقطم ، وعن مهنته ، وزواجه ، حدثها حديث الراضي عن تلك الحيـــاة رغم خشونتها ، والقانع بها . فامتعضت لقوله وقالت :

– لتكن حياتك ما تكون ، ولكن كيف لم تجعل من بيتي اول بيت تقصده لدى عودتك الى الحارة ؟

كاد يقول لها انه ليس لعودته الى الحارة من هدف الا بيتها ، ولكنه اجل ذلك لأن اللحظة لم تكن مناسبة ، ولأنه لم يفق بعد من تأثر اللقيا . وأجاب قائلاً :

– كان بيتك امنيتي ولكني لم اجد الشجاعة لاقتحامه بعد ما كان ..

واذا بالافندي يسأله بصوت بارد :

– ولماذا عدت ما دام العيش قد طاب لك في الخارج ؟

فندت عن الهانم نظرة عتاب نحو زوجها الذي تجاهلها ، أما جبل فقال باسماً :

– لعلّي عدت يا سيدي طامعاً في لقياك !

فقالت هدى في عتاب :

– ولم تزرنا حتى دعوناك يا جاحد .

فقال جبل وهو يخفض رأسه :

– ثقي يا سيدتي بأنـــني كلما ذكرت الظروف التي اضطرتني الى مغادرة هذا البيت لعنتها من صميم قلبي .

فحدجه الافندي بنظرة مريبة وهمّ بسؤاله عما يعني ولكن هدى سبقته قائلة :

ــ علمت بلا شك بعفونا عن آل حمدان اكراماً لك .

وأدرك جبل انه آن لهذا الموقف العائلي الطيب ان ينتهي كما قدر له من اول الأمر ، وانه آن للكفاح ان يبدأ فقال :

ــ الحق يا سيدتي انهم يعانون ذلاً ألعن من الموت ، وقد قتل منهم من قتل .

فقبض الأفندي بشدة على مسبحته وهتف بحدة :

ــ انهم مجرمون ، وقد نالوا ما يستحقون .

فلوحت هدى بيدها في رجاء وقالت :

ــ فلننس الماضي كله .

فقال الافندي باصرار :

ــ ما كان يجوز ان يضيع دم قدره هدراً .

فقال له جبل بثبات :

ــ المجرمون حقاً هم الفتوات .

فوقف الأفندي في عصبية ووجه الخطاب الى زوجته قائلاً في لوم :

ــ أرأيت نتيجة اذعاني لك في دعوته الى بيتنا ؟

فقال جبل بصوت افصحت نبراته عما وراءه من عزم :

ــ سيدي ، كان في نيّتي ان اجيء اليك على اي حال ، ولعل الاعتراف بالجميل الذي أكنّه نحو البيت هو الذي جعلني انتظر حتى أدعى اليه .

فرمقه الناظر بنظرة توجس وارتياب ثم سأله :

ــ ماذا تريد من مجيئك ؟

فوقف جبل مواجهاً الناظر في شجاعة ، وهو يدرك تماماً انه يفتح باباً ستهب منه العواصف جامحة ، ولكنه كان يستمد من مقابلة الخلاء

شجاعة لا تتزعزع . قال :

– جئت مطالباً بحقوق آل حمدان في الوقف وفي الحياة الآمنة !

اسود وجه الافندي من الغضب على حين فغرت الهانم فاها من اليأس ، وقال الرجل وهو يحدجه بنظرة محرقة :

– اتجرؤ حقاً على معاودة هذا الحديث ؟ أنسيت ان المصائب تتابعت عليكم مذ جرؤ شيخكم المخرف على التقدم بهذه المطالب الخرافية ؟! أقسم على انك جننت ، ولست مطالباً بتضييع وقتي مع المجانين .

وقالت هدى بصوت باك :

– جبل ، كان في نيّتي ان ادعوك انت وزوجك للاقامة معنا .

لكن جبل قال بصوت قوي :

– انما رددت على مسامعك رغبة من لا تُردُّ له رغبة وهو جدّك وجدّنا الجبلاوي !

نظر الافندي الى جبل بامعان وتفرس وذهول . نهضت هدى جزعة فوضعت كفها على منكب جبل وهي تتساءل :

– جبل ، ماذا دهاك ؟!

فقال جبل باسماً :

– بخير يا سيدتي .

فقال الافندي في ذهول :

– بخير ! انت بخير ؟ ماذا حصل لعقلك ؟

فقال جبل بهدوء وسكينة :

– اسمع قصتي واحكم بنفسك .

وقصّ عليهما ما سبق ان قصه على آل حمدان . ولما فرغ من قصته قال الافندي وكان يتفرس وجهه طوال الوقت بريبة :

– الواقف لم يغادر بيته قط منذ اعتزل ..

فقال جبل :

– لكني قابلته في الخلاء .
فسأله متهكماً :
– ولماذا لم يطلعني أنا على رغباته ؟
فقال جبل :
– هذا سرّه وهو به أعلم .
فضحك الافندي ضحكة حانقة وقال :
– إنك حاوٍ بحقّ وجدارة ، ولكنك لا تقنع بالاعيب الحواة وانما تطمع في اللعب بالوقف كله !
فقال جبل دون ان يزايله هدوؤه :
– علم الله اني ما جاوزت الحق ، فلنحتكم الى الجبلاوي نفسه ان استطعت ، او الى شروطه العشرة ..
فانفجر غضب الافندي . اربدّ وجهه وارتعشت أطرافه وصاح :
– ايها اللص المحتال ! لن تنجو من مصيرك الأسود ولو اعتصمت بقمة الجبل ..
وهتفت هدى :
– يا للشقاء ! ما كنت أتوقع ان تجيئني بهذه التعاسة كلها يا جبل .
فتساءل جبل في عجب :
– ايحدث هذا كله لا لشيء الا لأنني طالبت بحق آلي المشروع ؟!
فصرخ الافندي بأعلى صوته :
– اخرس يا محتـــال ، يا حشاش ، يا حـــارة حشاشين يا أولاد الكلب ، اخرج من بيتي ، وان عدت الى هذيانك قضيت على نفسك وعلى اهلك بالذبح كالنعاج .
فقطب جبل غاضباً وصاح :
– احذر ان يحيق بك غضب الجبلاوي .
فهجم الافندي على جبل ولكمه في صدره العريض باقصى قوتـــه

ولكن جبل تلقاها بثبات وصبر ، والتفت الى الهانم قائلاً :
ـ انما اكرمه اكراماً لك .
ثم ولى لهما ظهره وذهب .

٣٩

توقع آل حمدان شراً داهماً . وخالفت تمرحنة الاجماع فظنت انه ما دام جبل على رأس آل حمدان هذه المرة فلن تسمح الهانم بالقضاء عليه . لكن جبل نفسه لم يؤمن بظن تمرحنة واكد انه إذا هدّد الوقف طامع فلن يقام وزن لجبل ولا لأحد من الناس ولو كان اقربهم الى الافندي نفسه . وذكرهم جبل بوصية جدهم بأن يكونوا أقوياء وأن يصمدوا للملمات . ومضى دعبس يقول ان جبل كان يرفل في النعيم وإنه بنبذه مختاراً اكراماً لهم فلا يصح ان يخذله أحد ، وإن التذرع بالقوة إذا لم ينفع فلن يدفع بهم الى أسوأ مما هم فيه بحال . والحق أن آل حمدان استشعروا الخوف وتوترت منهم الأعصاب ولكنهم وجدوا في اليأس قوة وعزيمة فكانوا يرددون المثل القائل « لطابق لاتنين عور » . رضوان الشاعر وحده راح يقول متحسراً : « لو شاء الواقف لأعلن كلمة العدل وقضى لنا بالحق ونجّانا من الهلاك المبين » . وقد غضب جبل لما بلغه قوله ، فقصده عابساً هائجاً ثم هزّه من منكبيه حتى كاد يقتلعه من مجلسه وصاح به : « أهذا هو حال الشعراء يا رضوان ؟! تروون حكايات الأبطال وتغنون على الرباب فإذا جد الجد تقهقرتم الى الجحور واشعتم التردد والهزيمة ، الا لعنة الله على الجبناء » والتفت الى الجالسين قائلاً : « لم يكرم الجبلاوي حياً من أحياء هذه الحارة كما أكرمكم ، ولو لم يكن يعتبركم أسرته الخاصة ما لاقاني ولا كلمني ،

ولكنه نور السبيل ووعد بالتأييـد ، ووالله لأكافحـنّ ولو كنت وحدي » . لكن بدا أنه لم يكن وحده . أيده كل رجل ، وأيدته كل امرأة ، وانتظروا جميعاً المحنة وكأنهم لا يبالون بالعواقب . واحتل جبل مكان الزعامة في حيه بطريقة عفوية أملتها الأحداث دون قصد منه او تدبير ، ودون ممانعة من حمدان الذي ارتاح الى تخليه عن موضع سيصير هدفاً لهجوم لن يعرف مداه . ولم يقبع جبل في الربع فخرج – مخالفاً نصيحة حمدان – ليتجول كعادته . كان يتوقع شراً عند كل خطوة ولكن أحداً من الفتوات لم يتعرض له بسوء ، فعجب لذلك غاية العجب ، ولم يجد له من تفسير الا ان يكون الافندي قد كتّم أنباء المقابلة على أمـل ان يسكت هو أيضاً عن مطالبه فينتهي الأمر وكأنه ما كان . وأشفق من ان ينتهي الأمر وكأنه ما كان . ورأى وراء هـذه السياسة وجه الهانم المحزون وأمومتها الصادقة . وخاف ان يثبت حنانها انه أقسى عليه من غلظة زوجها ففكر طويلاً فيما ينبغي ان يفعل لينفض الرماد عن الجمر .

وجرت في الحارة أحداث غريبة . فذات يوم ترامت استغاثة امرأة من بدروم ، وتبين ان ثعبانا زحف بين قدميهـا فخرجت تجري الى الطريق . وتطوع رجال للتفتيش عن الثعبان فدخلوا مسكنها بعصيهم ، وفتشوا عن الثعبان حتى عثروا عليه ، فانهالوا عليه ضرباً حتى قتلوه ، وطرحوه على أرض الحارة فتلقفه الغلمان وراحوا يلعبون به مهللين . ولم يكن الحادث بالغريب في الحارة ولكن لم تكد تمضي ساعة حتى ارتفعت صرخة استغاثة ثانية من بيت في مطلع الحارة فيما يلي الجمالية . وما جثم الليل حتى تعالت ضجة في ربوع حمدان ، اذ رأى البعض ثعبانا ولكنه اختفى قبل ان يلحق به أحد ، وضاعت جهود القوم للعثور عليـه ، وعند ذاك تطوع جبل نفسه لاستخراجه مستعيناً بالخبرة التي اكتسبها عند البلقيطي . وتحدث آل حمدان عن وقفة جبل عارياً في الحوش ، وعن لغته السرية التي خاطب بها الثعبان حتى جاءه طائعاً . وكادت تُنسى تلك

الأحداث مع صباح اليوم التالي لولا ان تكرر وقوعها في بيوت أناس من ذوي الشأن . فقد ذاع وملأ الاسماع ان ثعباناً لدغ حمودة الفتوة وهو يقطع دهليز الربع الذي يقيم فيه ، فصرخ الرجل على رغمه حتى أدركه أصحابه وأسعفوه . هنا انقلب الحادث أحدوثة . وقال الناس في الثعابين وأعادوا . غير ان نشاط الثعابين العجيب لم يتوقف . فقد رأى بعض الصحاب في غرزة الفتوة بركات ثعباناً بين عمد السقف ، لاح نصف دقيقة ثم اختفى ، فهبوا مذعورين وتقوض المجلس . وغطت اخبار الثعابين على حكايات الشعراء في المقاهي . وبدا ان نشاطها قد جاوز حدود الأدب اذ ظهر ثعبان ضخم في بيت حضرة الناظر . ومع ان خدم البيت الكثيرين انتشروا في اركانه للتفتيش عن الثعبان المختفي الا انهم لم يقفوا له على أثر . وركب الخوف الناظر والهانم حتى فكرت جدياً في مغادرة البيت الى ان تطمئن الى خلوه من الثعابين . وبينما البيت مقلوب رأساً على عقب ترامى من بيت زقلط فتوة الحارة صراخ وضجة ، وذهب البواب ليستطلع الخبر ثم عاد ليخبر سيده بأن ثعباناً لدغ أحد أبناء زقلط ثم أختفى . وتملك الخوف النفوس . وتتابعت الاستغاثات من الثعابين من كل ربع فصممت الهانم على مغادرة الحارة . وقال عم حسنين البواب إن جبل حاو وللحواة خبرة باصطياد الثعابين ، واكد انه استخرج ثعباناً من أحد ربوع حمدان . وامتقع لون الافندي ولم ينبس ، أما الهانم فأمرت البواب بأن يستدعي جبل . ونظر البواب الى سيده مستأذناً ، فغمغم الافندي بكلمات حانقة دون أن يبين . وخيرته الهانم بين دعوة جبل وبين مغادرة البيت فاذن للرجل بالذهاب وهو ينتفض حنقاً وغضباً . وتجمع كثيرون فيما بين بيتي الناظر والفتوة ، وتوافد ذوو الشأن على بيت الناظر وفي مقدمتهم الفتوات : زقلط وحمودة وبركات والليثي وابو سريع . ولم يكن للمجتمعين من حديث الا الثعابين ، فقال ابو سريع :

ـــ لا بد أن شيئاً في الجبل دفع بالثعابين الى بيوتنا .

فصاح زقلط وقد بدا وكأنه يقاتل نفسه لأنه لا يجد من يقاتله :

ــ طول عمرنا جيران للجبل وما حصل منه شيء .

كان زقلط ثائراً لما أصاب ابنه ، وكان حمودة ما يزال يعرج من اصابة ساقه ، على حين تملّك الخوف الجميع فقالوا إن بيوتهم لم تعد صالحة للمبيت ، وإن السكان تجمهروا في الحارة .

وجاء جبل حاملاً جرابه ، فحيا الجميع، ووقف أمام الناظر والهانم في أدب وثقة .

ولم يستطع الناظر أن ينظر إليه ، اما الهانم فقالت له :

ــ قيل لنا يا جبل إنك تستطيع استخراج الثعابين من بيوتنا ؟

فقال جبل بهدوء :

ــ تعلمت ذلك فيما تعلمت يا صاحبة الفضل .

ــ دعوتك لتطهر البيت من الثعابين .

فنظر جبل الى الافندي متسائلاً :

ــ هل يأذن لي حضرة الناظر ؟

فغمغم الناظر وهو يداري حنقه وقهره :

ــ نعم .

وهنا تقدم الليثي بإيحاء خفي من زقلط وسأله :

ــ وبيوتنا وبيوت الآخرين ؟

فقال جبل :

ــ إن خبرتي تحت أمر الجميع .

وارتفعت أصوات بالشكر ، فأجال جبل عينيه الكبيرتين في الوجوه ملياً ثم قال :

ــ ولعلي في غير حاجة الى تذكيركم بأن لكل شيء ثمنه كما تجري المعاملات في حارتنا !

فتطلع اليه الفتوات في دهشة فقال :

ـ علام تدهشون ؟ انكم تحمون الأحياء نظير الاتاوات ، وحضرة الناظر يدير الوقف نظير التصرف في ريعه !

والظاهر ان حرج الموقف لم يسمح للأعين بالافصاح عما في الصدور ، غير ان زقلط سأله :

ـ ماذا تطلب نظير عملك ؟

فقال بهدوء :

ـ لن أطلب نقوداً ، ولكني أطلب كلمة شرف باحترام آل حمدان في كرامتهم وحقهم في الوقف .

وساد الصمت فبدا ان الجو يتنفس بالحقد المكتوم . وتضاعف قلق الهانم على حين أخفى الناظر عينيه في الأرض . وعاد جبل يقول :

ـ لا تظنوا انني اتحداكم بما يمليه عليكم الحق والعدل نحو اخوانكم المغلوبين على أمرهم ، ان الخوف الذي أخرجكم من دياركم ما هو الا جرعة مما يتجرع اخوانكم كل يوم من أيام حياتهم التعيسة .

التمعت في الأعين نظرات غضب سريعة كالبرق في السحاب وسرعان ما اختفت تحت غيم الكظم . غير ان ابو سريع صاح :

ـ استطيع ان آتيكم بأحد الرفاعية ولو نبيت خارج بيوتنا يومين أو ثلاثة أيام حتى يحضر من قريته .

فتساءلت الهانم :

ـ كيف لحارة باكملها أن تبيت خارج بيوتها يومين أو ثلاثة ؟

وكان الافندي يفكر بكل قواه مغالباً مـــا استطاع عواطف الغضب والحقد التي تستعر في صدره ، واذا به يقول مخاطباً جبل :

ـ اني معطيك كلمة الشرف التي تطلب فابدأ عملك .

وذهل الفتوات غير ان الموقف لم يسمح لهم باعلان ما في نفوسهم ، وران على صدورهم همّ قاتل . أما جبل فأمر الجميع بالابتعاد الى اقصى الحديقة فخلا له المكان والبيت . وتجرد من ثيابه فانقلب كيوم التقطته

الهانم من الحفرة المترعة بمياه الأمطار . ومضى ينتقل من مكان الى مكان ، ومن حجرة الى حجرة ، وهو يصفر صفيراً خافتاً تارة او يغمغم بكلام غير مبين ، واقترب زقلط من الناظر وقال له :

— انه هو الذي بعث بالثعابين الى بيوتنا .

فاشار الناظر اليه بالسكوت وتمتم :

— دعه يخرج ثعابينه .

وأذعن لجبل ثعبان كان مختفياً في المنور ، وأخرج آخر من حجرة ادارة الوقف ، فلف الثعابين على ذراعه ، وظهر بهما امام السلاملك حيث اودعها جرابه . وارتدى ملابسه ووقف ينتظر حتى جاء الجميع ، فقال موجهاً خطابه لهم :

— هلموا الى بيوتكم لأطهرها .

والتفت نحو الهانم وقال بصوت خافت :

— لولا تعاسة أهلي ما اشترطت في خدمتك شرطاً قط .

واقترب من الناظر فرفع يده تحية وقال بشجاعة :

— وعد الحر دين عليه .

ومضى خارجاً والجمع يسير وراءه صامتاً .

٤٠

وفق جبل في تطهير الحارة من الثعابين على مرأى من جميع أهلها . وكان كلما أذعن له ثعبان تعالى الهتاف والزغاريد حتى باتت حديث الحارة من البيت الكبير الى الجمالية . ولما فرغ من عمله ومضى الى ربعه تجمع حوله الغلمان والشبان وراحوا يتغنون مصفقين :

جبل يا نصير المساكين

جبل يا قاهر الثعابين

وتواصل الغنـــاء والتصفيق حتّى بعد ذهابه،غير انه كان لذلك رد فعل شديد في انفس الفتوات ، فما لبث ان خرج للمتظاهرين حمودة والليثي وابو سريع وبركات ، فانهالوا عليهم لعناً وسباً وصفعاً وركلاً حتّى تفرقوا لائذين بالبيوت ، فلم يبق في الطريق الا الكلاب والقطط والذباب . وتساءل الناس عن سر هذه الحملة ، كيف يجزي الفتوات صنيع جبل بالاعتداء على المتظاهرين من اجله ، وهل يحافظ الأفندي على وعده لجبل او تكون حملة الفتوات بداية لحملة انتقام عاتية ؟ ودارت هذه الأسئلة برأس جبل فدعا رجال حمدان الى الربع الذي يقيم فيه ليتدبروا الأمر معاً . وكان زقاط مجتمعاً في ذات الوقت بالناظر وحرمه ، وكان يقول باصرار والحنق يلتهمه :

– لن نبقي منهم على احد .

وبدا الارتياح في وجه الافندي ، غير ان الهانم تساءلت :

– وكلمة الشرف التي اعطاها الناظر ؟

فعبس زقلط حتّى انقلب وجهه اقبح من ايّ وجه آدمي وقال :

– الناس يخضعون للقوة لا للشرف .

فقالت بامتعاض :

– سيقولون فينا ويعيدون .

– فليقـــولوا ما حلا لهم ، متى سكتوا عنكم او عنا ؟ ان الغرز تضج كل ليلة بالقفش والتنكيت علينا ، ولكن اذا خرجنا الى الطريق وقفوا خاشعين ، وهم يخشعون خوفاً من النبوت لا اعجاباً بالشرف .

وحدجها الأفندي بنظرة ممتعضة وقال :

– جبل هو الذي دبّر مؤامرة الثعابين ليملي علينا شروطه ، كل احد يعرف ذلك . فنذا الذي يطالب باحترام كلمة أعطيت لمحتـــال نصّاب مخاتل؟

وقال زقاط محذراً ووجهه ما زال متشبثاً بقبحه :

ــ تذكري يا هانم انه اذا نجح جبل في استخلاص حق آل حمدان في الوقف فلن يهدأ بال احد في الحارة حتّى ينال حقه ايضاً ، بذلك يضيع الوقف ونضيع جميعاً .

وقبض الافندي على المسبحة في يده بشدة حتّى طقطقت حباتها وهتف بزقلط :

ــ لا تبق على احد منهم .

ودُعي الفتوات الى بيت زقلط ثم لحق بهم اعوانهم المقربون . وذاع في الحارة ان امراً خطيراً يدبّر لآل حمدان ، فامتلأت النوافذ بالنساء وازدحم الطريق بالرجال . وكان جبل قد أعدّ خطته ، فاحتشد رجال حمدان في حوش الربع الأوسط مدججين بالنبابيت ومقاطف الطوب على حين توزعت النساء في الحجرات وفوق السطح . وكان لكل احد منهم عمله المرسوم ، غير ان اي خطأ في التنفيذ او انقلاب في التدبير لم يكن يعني الا هلاكهم الى الأبد . لذلك اتخذوا اماكنهم حول جبل وهم في غاية من التوتر والجزع . ولم تغب حالهم عن فطنة جبل فمضى يذكرهم بتأييد الواقف له ووعده للاقوياء بالنجاح ، فوجد منهم قلوباً مصدقة ، بعضها عن ايمان ، والبعض عن يأس . ومال الشاعر رضوان على اذن المعلم حمدان وقال له :

ــ اخاف الاّ تنجح خطتنا ، والأوفق عندي ان نحكم اغلاق البوابة ونضرب من السطح والنوافذ !

فهز حمدان منكبيه امتعاضاً وقال :

ــ اذن نقضي على انفسنا بالحصار حتّى نهلك جوعاً !

وقصد حمدان جبل وسأله :

ــ أليس الأفضل ان نترك البوابة مفتوحة ؟

فقال جبل :

ــ دعها كما هي والا شكّوا في الأمر .

وكانت ريح باردة تهب بشدة باعثة عواء ، وركضت السحب في السماء كأنها مطاردة ، فتساءلوا هل ينهل المطر ؟ وترامت ضجة المتجمهرين في الخـــارج حتى ابتلعت مواء القطط ونباح الكلاب . وهتفت تمرحنة محذرة : « جاء الشياطين ! » .

وحقاً غادر زقلط بيته وسط هالة من الفتوات ، يتبعهم الأعوان ، ومقابضهم على نبابيتهم . ساروا على مهل حتى البيت الكبير ، ثم عرجوا نحو حي حمدان فقابلهم المتجمهرون بالتهليل والهتاف . وكان المهللون الهاتفون احزاباً . منهم قلة تبتهج للعراك وتتسلى بمشاهدة الدم المسفوك . ومنهم من يحقد على آل حمدان لادلالهم بمكانة لم يعترف لهم بها احد . واكثرهم حـــانق على الفتونة والبغي فهو يبطن الكراهية ويظهر التأييد خوفـاً ونفاقـاً . ولم يلق زقلط الى احد منهم بالاً ، ومضى في مسيره حتى وقف امام ربع حمدان ، وصاح :

– ان كان فيكم رجل فليخرج الي !

فجاءه صوت تمرحنة من وراء النافذة :

– اعطنا كلمة شرف جديدة حتى لا يغدر بالخارج غادر !

فغضب زقلط لتعريضها بكلمة الشرف وصاح :

– أليس عندكم من مجيب غير هذه الزانية ؟

فصاحت تمرحنة :

– الله يرحم امك يا زقلط !

وصرخ زقلط آمراً رجاله بالهجـــوم على البوابة . هجم على البوابة رجال ، ورمى آخرون النوافذ بالطوب حتى لا يجرؤ احد على فتحها واستعمالها في الدفاع . وتكتل الهاجمون على البوابة وراحوا يدفعونهـــا بمناكبهم بقوة وعزيمة . وواصلوا الدفع بشدة حتى اخذ الباب في الاهتزاز . واشتدت عزيمتهم حتى ارتج الباب وتخلخل . وتراجعوا متحفزين ثم اندفعوا نحوه بقوة وصكوه صكة واحدة فانفتح على مصراعيه . وتراءى

من خلال الدهليز الطويل الممتد وراء باب الحوش وجبل ورجال حمدان وقد رفع الجميع نبابيتهم . ولوح زقلط بيده في حركة فاضحة واطلق ضحكة هازئة ، ثم اندفع الى الدهليز ورجاله خلفه . وما كادوا يتوسطون الدهليز حتى مادت ارضه بهم بغتـــة وهوت بمن عليها الى قاع حفرة عميقة . وفي سرعة مذهلة فتحت نوافذ الدور على جانبي الدهليز وانصبت المياه من الاكواز والحلل والطشوت والقرب ، وتقدم رجال حمدان دون تردد ورموا الحفرة بمقاطف الطوب ، ولأول مرة سمعت الحارة الصراخ يصدر عن فتواتها ، ورأت الدم ينفجر من رأس زقلط والنبابيت تتخطف رءوس حمودة وبركات والليثي وابو سريع وهم يتخبطون في المياه المطينة . ورأى الاعوان ما حل بفتواتهم فلاذوا بالفرار ، وترك الفتوات لمصيرهم دون معين . واشتد انصباب الماء ، والاحجار ، وتهاوت النبابيت بلا رحمـــة . وترامت الى الناس استغاثات ندت عن حناجر لم تألف طوال حياتها الا السب والقذف . وكان رضوان الشاعر يهتف بأعلى صوته :

— لا تبقوا منهم على احد .

واختلطت المياه المطينة بالدم ، وكان حمودة اول الهالكين ، وعلا صراخ الليثي وابو سريع ، وتشبثت يدا زقلط بجدار الحفرة يريد ان يثب وقد تجلى الحقد في عينيه ، وراح يغالب الاعياء والخور ، ويزفر انات كالخوار ، فانهالت عليه النبابيت حتى تهاوى الى الوراء وتراخت يداه عن الجـــدار فسقط في الماء وفي كل راحة من راحتيه قبضة من طين ! وساد الصمت الحفرة . لم تند عنها حركة ولا صوت واصطبغ سطحها بالطين والدم . ووقف رجال حمدان ينظرون وهم يلهثون . وتزاحم عند مدخل الدهليز المتجمهرون وهم يرددون في الحفرة نظرات ذاهلة . وصاح رضوان الشاعر :

— هذه عاقبة الظالمين .

وجرى الخبر في الحارة كالنار . وقال المتجمهرون ان جبل قد أهلك

الفتوات كما آهلك الثعابين ! وهتف له الجميع بأصوات كالرعد . ولفحهم الحماس فلم يبالوا بالريح الباردة . ونادوا به فتوة لحارة الجبلاوي . وطالبوا بجثث الفتوات ليمثلوا بها . وصفقت الايدي وراح قوم يرقصون . ولم ين جبل عن التفكير لحظة . وكان كل شيء مدبراً في رأسه . فصاح بأهله :

– هلموا الساعة الى بيت الناظر .

٤١

في الدقائق التي سبقت خروج جبل وأهله من الربع تفجرت الأنفس عن براكين حامية .

غادرت النسوة البيوت منضمات الى الرجال . وهاجم الجميع بيوت الفتوات فاعتدت الأيدي والأرجل على أهاليهم حتى فروا بأرواحهم وهم يتحسسون أقفيتهم وخدودهم مصعدين التأوهات سافحين الدموع . أما البيوت فقد نهب كل ما فيها من أثاث وطعام ولباس وحطم كل قابل للتحطيم من أخشابها وزجاجها حتى انقلبت خرابا يبابا . وانطلقت الجموع الغاضبة نحو بيت الناظر فتكتلت أمام بوابته المغلقة وراحت تهتف وراء مناد منها بأصوات كالرعود :

هاتوا الناظر ..

وان ما جاش ..

ثم يختمون الهتاف بالتهليل الساخر الهازيء . واتجه البعض الى البيت الكبير منادين جدهم الجبلاوي أن يخرج من عزلته ليعالج مـا فسد من امورهـم وامور حارتهم . وراح آخرون يدقون بوابة الناظر بأكفهم ويدفعونها بمناكبهم محرضين المترددين المهيبين على اقتحامها . وفي تلك

اللحظة المحرجة جاء جبل على رأس أهله نساء ورجالا ، يسيرون في قوة وعزم بما أحرزوا من فوز مبين . واوسعت الجموع لهم ، وتعالى الهتاف والزغاريد حتى أشار جبل لهم بالسكوت فأخذت أصواتهم تخفت رويداً رويداً حتى ساد الصمت ، وعاد عواء الريح يصك الآذان مرة أخرى .
ونظر جبل في الوجوه المتطلعة اليه وقال :

ـــ يا أهل حارتنا ، أحييكم وأشكركم .

فارتفعت الأصوات بالهتاف ثانية حتى رفع يده مطالباً بالسكوت ، ثم قال :

ـــ لن يتم عملنا حتى تتفرقوا في هدوء .

فترامى اليه من حناجر شتى .

ـــ نريد العدل يا سيد حارتنا .

فقال بصوت سمعه الجميع .

ـــ اذهبوا في هدوء ولسوف تتحقق إرادة الواقف .

وتعالى الهتاف للواقف ولابنه جبل . ووقف جبل يحث بنظراته الجموع على الذهاب . وكانوا يودون لو يبقون في أماكنهم ولكنهم لم يجدوا بدأً امام نظراته من التفرق فأخذوا يذهبون واحداً في اثر واحد حتى خلا المكان منهم . عند ذاك مضى جبل الى باب الناظر وطرقه صائحاً :

ـــ افتح يا عم حسنين .

فجاءه صوت الرجل المرتعد وهو يقول :

ـــ الناس .. الناس .

ـــ لا أحد هنا غيرنا .

وفتح الباب فدخل جبل ، ودخل وراءه أهله . واخترقوا الممر المعروش الى السلاملك فرأوا الهانم واقفة امام باب البهو في استسلام ، على حين بدا الافندي على عتبة الباب ، خافض الرأس شاحب الوجه كأنه ملثم بكفن أبيض . وندت عن الافواه لدى رؤيته دمدمة فقالت هدى

هانم متأوهة :

– انـي بحال سيئة يا جبل .

فأشار جبل نحو الافندي بازدراء وقال :

– لو نجحت مكيدة هذا الرجل الفاقـد الشرف لكنّا الآن جميعنا جثثاً ممزقة .

فأجابت الهانم بتنهدة مسموعة دون كلام . فحدج جبل الناظر بنظرة قاسية وقال :

– ها أنت ترى نفسك ذليلاً بلا حول ولا قوة ، لا فتوة يحميك، ولا شجاعة تؤيدك ، ولا مروءة تشفع لك ، ولو شئت أن اخلي بينك وبين أهل حارتنا لمزقوك إرباً ولداسوك بالاقدام .

ارتعدت فرائص الرجـل وبدا وكأنه تقوص وضؤل غير ان الهانم تقدمت من جبل خطوة وقالت برجاء :

– لا أحب أن اسمع منك غير ما عهدت من طيب الكلام ، ونحن في حال عصيبة تستحق من مروءتك الرحمة في المعاملة .

فقطب جبل ليداري تأثره وقال :

– لولا منزلتك عندي لجرت الأمور بغير ما جرت به .

– لا اشك في ذلك يا جبل ، انك رجل لا يخيب عنده الرجاء .

فقال جبل متأسفاً :

– ما كان أيسر أن يقوم العدل دون إراقة نقطة من الدم ..

فندت عن الافندي حركة غامضة فضحت تخاذله وازداد انكماشاً ، فقالت الهانم :

– قد كان ما كان ، ولن تلقى منا الا آذاناً صاغية !

وبدا ان الناظر يريد أن يخرج من صمته بأي ثمن فقال بصوت ضعيف :

– ثمة فرصة لاصلاح ما سلف من أخطاء .

أرهفت الآذان لسماع كلامه رغبة في الاطلاع على حال الجبار اذا

تخلى عنه جبروته وكانوا يرمقونه بتشفٍ قليل وانكار وحب استطلاع لا حد لها . وتشجع الافندي بتغلبه على الصمت فقال :
— تستطيع اليوم أن تحتل مكانة زقلط عن جدارة .
فتجهم وجه جبل وقال بازدراء :
— ليست الفتونة مطلبي ، فابحث لحمايتك عن غيري ، وما أريد الا حقوق آل حمدان كاملة .
— هي لكم دون نقصان ، ولك ادارة الوقف إن شئت .
فقالت هدى برجاء :
— كما كنت يا جبل من قبل .
وهنا صاح دعبس من بين آل حمدان :
— ولم لا يكون الوقف كله لنا ؟
وسرت همهمة في آل حمدان حتى اصفر وجه الناظر وزوجه حتى الموت ، غير ان جبل قال بقوة غاضبة :
— أمرني الواقف باسترداد حقكم لا باغتصاب حقوق الآخرين .
فتساءل دعبس :
— ومن أدراك أن الآخرين سيأخذون حقوقهم ؟
فصاح به جبل :
— لا شأن لي بذلك وانك لا تكره الظلم الا إن وقع عليك !
فقالت الهانم بتأثر :
— نعم الرجل الأمين أنت يا جبل ! ولشد ما ارجو ان تعود الى بيتي .
فقال جبل بتصميم :
— سأقيم في ربوع حمدان .
— انها لا تليق بمقامك .
— عندما يجري الخير بين أيدينا سنرفعها الى مقام البيت الكبير ،

وتلك رغبة جدنا الجبلاوي !

ورفع الناظر عينيه في شيء من التردد الى وجه جبل وقال :

ـ ان ما بدر اليوم من أهل الحارة يهدد أمننا ؟

فقال جبل باحتقار :

ـ لا شأن لي بما بينك وبينهم .

وإذا بدعبس يقول :

ـ وإذا احترمت عهدنا فلن يجرؤ أحد منهم على تحدّيك !

فقال الناظر بحماس :

ـ سيسجل حقكم على رءوس الاشهاد !

وهنا قالت هدى برجاء :

ـ ستتناول عشاءك معي الليلة ، هذه رغبة أم !

وفطن جبل الى ما ترمي اليه من اعلان المودة بينه وبين بيت الناظر ، ولم يكن في وسعه ان ينبذ رغبتها ، فقال :

ـ لك ما تشائين يا سيدتي .

٤٢

وابيضت الأيام التاليــة بأفراح آل حمدان أو آل جبل كما باتوا يُدعون . فتحت قهوتهم ابوابها وتربع رضوان الشاعر على الاريكة يلعب باوتار الرباب . وجرت البوظة انهاراً وانعقدت في سماء الحجرات سحب الحشيش . ورقصت تمرحنة حتى انحل وسطها . ولم يبالوا بأن يكشفوا عن قاتل قدره ، وصور لقاء الجبلاوي بجبل في هالات من نور الخيال . وكانت تلك الأيام بالنسبة لجبل وشفيقة أطيب الأيام . وقد قال لها :

ـ ما اجمل ان ندعو البلقيطي للاقامة معنا .

فقالت وهي تعاني متاعب المخاض الوشيك .

ـ نعم كي يستقبل حفيده ببركته .

فقال الرجل ممتناً :

ـ أنت قدم السعد يا شفيقة ، وستجد سيدة زوجـاً كفؤاً من آل حمدان .

ـ قل آل جبل كما يقولون فانك خير من عرف هذا الحي .

فقال باسماً :

ـ بل أدهم خيرنا جميعاً ، كم تمنى حياة النعيم حيث لا عمل للانسان الا الغناء ، وسوف يتحقق لنا حلمه الكبير .

وتراءى دعبس وهو سكران يرقص في جمع من آل جبل ، فلما رأى جبل مقبلاً لوح بنبوته جذلا وقال له :

ـ انك لا تبغي الفتونة ، سأكون أنا الفتوة .

فصاح به ليسمع الجميع :

ـ لا فتونة في حمدان ، ولكن ينبغي ان يكونوا فتوات جميعاً على من يطمع فيهم .

ومضى الرجل الى القهوة فتبعه الجميع وهـم يترنحون من السكر . وكان جبل سعيداً فقال لهم :

ـ انكم أحب أهل الحارة الى جدكم ، فانتم سادة الحارة دون منازع ، ولذلك ينبغي أن يسود بينكم الحب والعدل والاحترام ، ولن ترتكب جريمـة في حيكم أبدا ..

وترامى الطبـل والغناء من بيوت حمدان ، وأشرقت انوار الافراح في حيهم ، على حين غرقت الحارة في ظلمتها المألوفة ، وتجمع صغارها عند مشارف حي حمدان يتفرجون من بعيد . وإذا برجال من أهل الحارة يفدون على القهوة بوجوههـم الكالحـة . استقبلوا بالمجاملة ودعوا الى الجلوس وقدم لهم الشاي . وحدس جبل انهم لم يجيئوا لخالص التهنئة .

وصدق حدسه اذ قال له زناتي وكان اكبرهم سناً :

— يا جبل ، اننا أبناء حارة واحدة ، وجدّ واحد ، وأنت اليوم سيد الحارة ورجلها الأقوى ، وأنْ يسود العدل الاحياء جميعاً خير من ان يسود حيّ حمدان وحده .

لم يتكلم جبل ، وبدا الفتور في وجه آل جبـــل . ولكن الرجل قال بعزم :

— بيدك أن تجري العدل في الحارة كلها .

لم يهتم جبل بأهـل الحارة من أول الأمر ، ولم يكن يهتم بهم أحـد من آله . بل أنهم شعروا بالاستعلاء عليهم حتى في أيام محنتهم . وقال جبل برقة :

— وصاني جدّي بأهلي .

— ولكنه جد الجميع يا جبل .

فقال حمدان :

— في هذا الكلام موضع للنظر .

وتفرس في الوجوه ليتابع أثر قوله فرأى انقباضها يشتد فاستطرد :

— أما علاقتنا به فقد أكدها بنفسه في لقاء الخلاء !

وبدا زناتي لحظة وكأنه يود ان يقول : « في هذا الكـــلام موضع للنظر » ولكن غلبه الانكسار فقال مسائلاً جبل :

— أيرضيك ما نحن فيه من فقر وذل ؟

فقال جبل دون حماس :

— كلا ولكن لا شأن لنا بذلك .

فتساءل الرجل في إصرار :

— وكيف لا يكون لـكم شأن بذلك ؟

وساءل جبل نفسه بأي حق يكلمه ذلك الرجل على هـــذا النحو ؟ لكنه لم يغضب . وجد بنفسه جانباً يكاد ان يعطف على الرجل . غير

ان جانباً آخر منه استنكر ان يخوض متاعب جديدة من أجل الآخرين .
ومن هم هؤلاء الآخرون ؟ وجـاء الجواب على لسان دعبس حين صاح بالرجل :

– أنسيتم ما كنتم تعاملوننا به يوم محنتنا ؟

فغض الرجل من بصره ملياً ثم قال :

– منذا الذي كان يستطيع ان يجهر برأي أو يعلن عاطفـة في أيام الفتوات ؟ وهل كان الفتوات يعفون عن أحد يعامل النـاس بغير ما يرتضون ؟

فزم دعبس شفتيه في استعلاء وانكار وقال :

– كنتم وما زلتم تحسدوننا على مكانتنا في الحارة ، ولعلكم سبقتم الفتوات الى ذلك !

فأحنى زناتي رأسه في قنوط وقال :

– سامحك الله يا دعبس !

فصاح دعبس دون رحمة :

– اشكروا رجلنا لأنه لم يقبل ان يوجه لكم يد الانتقام !

وتوزعت الأفكار المتضاربة جبل فلاذ بالصمت . أشفق من أن يمد يد العون . ولم يرتح إلى الجهر بالرفض . ووجد الرجال أنفسهم حيال تأنيب قـارع من دعبس ، ونظرات باردة تعكسها أعين الآخرين ، وصمت لا أمل فيه عند جبـل ، فنهضوا خائبين ، وذهبوا من حيث أتوا . وصبر دعبس حتى اختفوا ثم حرك قبضة يمناه في بذاءة وهتف:

– إلى حيث القت يا أولاد الخنازير .

فصاح جبل :

– الشماتة ليست من شيم السادة !

٤٣

كان يوماً مشهوداً يوم تسلم جبل حصة آله من الوقف . واتخذ في حوش الربع – ربع النصر – مجلسه ودعا اليه آل حمدان . وأحصى ما في كل أسرة من أنفس ووزع الأموال بالتساوي فيما بينهم ، وحتى شخصه لم يخصه بامتياز . ولعل حمدان لم يرتح الى هـذه العدالة كل الارتياح ولكنه عبر عن مشاعره بطريقة غير مباشرة فخاطب جبل قائلاً :

– ليس العدل ان تظلم نفسك يا جبل !

فقطب جبل قائلاً :

– أخذت نصيب اثنين ، أنا وشفيقة .

– ولكنك رئيس هذا الحي .

فقال جبل بصوت سمعه الجميع :

– ما ينبغي لرئيس القوم ان يسرقهم .

وبدا دعبس وهو ينتظر المحاورة في قلق ، ثم قال :

– جبل غير حمدان ، وحمدان غير دعبس ، ودعبس غير كعبلها !

فقال جبل معارضاً في غضب :

– تريد ان تجعل من الأسرة الواحدة سادة وخدماً !

ولكن دعبس تشبث برأيه وقال :

– فينـا صاحب القهوة والبائع الجوال والمتسول فكيف تسوي بين هؤلاء ! وأنا كنت أول من خرج على الحصار حتى تعرضت لمطاردة قدره ، وأول من لاقاك في غربتك ، وأول من تحمس لرأيك بعـد ذلك والقوم مترددون !

واشتد الغضب بجبل فصاح به :

– مادح نفسه كـذاب ، والله ان أمثالك يستحقون الظلم الذي حاق بهم .

وأراد دعبس مواصلة الجدل ولكنه تبين في عيني جبل غضباً من نار فتراجع ، وغادر المجلس دون ان ينبس . وقصد عنـد المساء غرزة عتريس الأعمش ، وجلس في حلقة الجالسين يدخن مجتراً همومه . وأراد أن يتسلى فدعا كعبلها الى المقامرة ، فلعبا السيجة ، ولم تكد تمضي نصف ساعة حتى خسر نصيبه من ريع الوقف ! وضحك عتريس وهو يغير ماء الجوزة وقال :

– يا سوء بختك يا دعبس ! الفقر مكتوب عليك ولو رغم ارادة الواقف !

فغمغم دعبس بحقد وقد طير الخسران السطل من مخه :

– ليس بهذه السهولة تضيع الثروات !

فأخذ عتريس نفساً من الجوزة ليضبط كمية المياه بها ثم قال :

– لكنها ضاعت يا ابن والدي !

كان كعبلها يسوي الاوراق المالية بعناية ، ثم رفع يده بها ليدسها في صدره ، لكن دعبس منعه بيده وأشار بالأخرى اشارة خاصة ان يرد النقود ! وقطب كعبلها وقال :

– لم تعد نقودك ولا حق لك عليها !

فصاح دعبس :

– دع النقود يا ابن الزبالة !

ونظر عتريس نحوهما بقلق وقال :

– لا تتشاجرا في بيتي .

فصاح دعبس وهو يشد على يد كعبلها :

– لن يسرقني ابن الزانية !

– أترك يدي يا دعبس ، أنا لم أسرقك .

– يعني ربحتها في تجارة ؟

– لماذا قامرت ؟

فلطمه بشدة وهو يقول :

– نقودي ، قبل ان اكسر عظامك .

وننتش كعبلها يده فجأة فثار غضب دعبس لحد الجنون وضربه بسبابته في عينه اليمنى .

صرخ كعبلها صرخة عالية . وانتفض واقفاً ، ثم غطى عينيه بكفيه تاركاً الاوراق تتهاوى الى حجر دعبس ، وترنح من الألم ، ثم سقط وراح يتلوى ويئن أنيناً موجعاً . والتفت حوله الجالسون ، على حين جمع دعبس النقود واعادها الى صدره . وإذا بعتريس يقترب منه قائلاً في هلع :

– صفّيت عينه !

فارتاع دعبس ملياً ، ثم وقف فجأة وغادر المكان .

ووقف جبل في حوش النصر في جمع من رجال حمدان ، والغضب يتفجر من عينيه وشدقيه . وجلس كعبلها القرفصاء وقد شد على عينه رباطاً محكماً ، على حين وقف دعبس يتلقى ثورة جبل في صمت وخذلان. وأراد حمدان ان يهدىء من ثورة جبل فقال بلين :

– سيرد دعبس النقود الى كعبلها .

فصاح جبل بأعلى صوته :

– فليرد اليه بصره أولاً .

فبكى كعبلها وقال الشاعر رضوان متأوهاً :

– ليت في الامكان رد البصر .

فقال جبل وقد اظلم وجهه كالسماء الراعدة البارقة :

– ولكن في الامكان ان تؤخذ عين بعين !

وحملق دعبس في وجه جبل متوجساً ، واعطى النقود حمدان

وهو يقول :

– كنت فاقد العقل من الغضب ، وما قصدت ايذاءه .

فتفرس جبل وجهه بحنق طويلاً . ثم قال بصوت رهيب :

– عين بعين والباديء أظلم .

تبودلت نظرات الحيرة . لم يُر جبل أغضب منه اليوم . وقد برهنت الاحداث على قوة غضبه . كغضبته يوم ركل بيت النعيم . وكغضبته يوم قتل قدره . حقاً انه لشديد الغضب واذا غضب لم يردعه عن هدفه رادع . وهمّ حمدان بالكلام ولكنه بادره قائلاً :

– ان الواقف لم يؤثركم بحبه ليعتدي بعضكم على بعض ، فاما حياة تقوم على النظام وإما فوضى لن تبقي على أحد ، لذلك أصر على تصفية عينك يا دعبس .

وركب الرعب دعبس فصاح :

– لن تمسني يد ولو قاتلتكم جميعاً .

فانقض عليه جبل كالثور الهائج وضربه بجماع يده في وجهه ضربة هائلة سقط على أثرها دون حراك . واقامه وهو فاقد الوعي ، واحتضنه من الخلف شاداً ذراعيه حول جسمه ، والتفت نحو كعبلها قائلاً بلهجة آمرة :

– قم فخذ حقك .

وقام كعبلها ولكنه وقف متردداً ، على حين تعالى الصراخ من مسكن دعبس . وحدج جبل كعبلها بنظرة قاسية وصاح به :

– تقدم قبل ان ادفنك حياً .

واتجه كعبلها نحو دعبس ، وبسبابته ضرب عينه اليمنى حتى انفقأت عينه على مرأى من الجميع . واشتد الصراخ من بيت دعبس ، وبكى

بعض اصدقاء دعبس مثل عتريس وعلي فوانيس ، فصاح بهم جبل :

– يا لكم من جبناء وأشرار ، والله ما كرهتم الفتونـة الا لأنها كانت عليكم ، وما ان يأنس احدكم في نفسه قوة حتى يبادر الى الظلم والعدوان ، وما للشياطين المستترة في أعماقكم إلا الضرب بلا رحمة ولا هوادة ، فاما النظام واما الهلاك .

وترك دعبس بين ايدي اصحابه وذهب . وكان لذلك الحادث في النفوس أثر وأي أثر . كان جبل من قبل رئيساً محبوباً ، وكان يظنه آله فتوة لا يريد ان يتخذ لنفسه اسم الفتونة أو شعارها ، فاصبح من بعده مخوفاً مرهوباً . وتهامس أناس بقسوته وظلمه ولكن وجـد هؤلاء دائماً من يرد عليهم قولهم ويذكّر بالوجه الآخر لقسوته ، وهو الرحمة بالمعتدى عليهم ، والرغبة الصادقة في اقامة نظام يضمن العدل والنظام والاخاء في آل حمدان . ووجد هذا الرأي الأخير كل يوم ما يسنده في فعال الرجل وأقوالـه حتى آنس اليـه من استوحش ، وآمن من خاف ، ومال من جفا ، وحرص الجميع على النظام فلم يجاوز حدوده حد . وسادت الاستقامة والأمان في أيامه ، فلبث بينهم رمزاً للعدالة والنظام ، حتى غادر الدنيا دون ان يحيد عن مسلكه قيد أنملة .

* * *

هذه قصة جبل .

كان أول من ثار على الظلم في حارتنا . وأول من حظي بلقيـا الواقف بعد اعتزاله . وقد بلغ من القوة درجة لم ينازعه فيها منازع . ومع ذلك تعفف عن الفتونة والبلطجة والاثراء عن سبيل الاتاوة وتجارة المخدرات ، ولبث بين آله مثالاً للعدل والقوة والنظام . أجل لم يهتم

بالآخرين من ابناء حارتنا . ولعله كان يضمر لهم احتقاراً وازدراء كسائر أهله . لكنه لم يعتد منهم على أحد ولا تعرض له بسوء ، وضرب للجميع مثالاً جديراً بالاحتذاء .

ولولا ان آفة حارتنا النسيان ما انتكس بها مثال طيب .

لكن آفة حارتنا النسيان .



رفاعة



٤٤

أوشك الفجر ان يطلع . وآوى إلى المضاجع كل حي في الحارة حتى الفتوات والكلاب والقطط . واستقر الظلام بالأركان كأنــه لن يبرح أبداً . وفي رعاية الصمت الشامل فتح باب ربع النصر بحي آل جبل في حذر شديد ، فتسلل منه شبحان ، سارا في سكون نحو البيت الكبير ، ثم تابعا سوره العالي الى الخلاء . نقلا خطواتهما في حذر ، وجعــلا يتلفتان وراءهما من حين الى حين ليطمئنـــا الى ان أحداً لا يتبعهما ، وأوغلا في الخلاء مهتدين بنور النجوم المتناثرة ، حتى تبينا صخرة هند كقطعة من ظلام أشد كثافة مما حوله . كانا رجـــلا في اواسط العمر وامرأة شابة حبلى ، وكلاهما يحمل بقجة مكتظة . وعند الصخرة تنهدت المرأة وقالت باعياء :

– عم شافعي ، تعبت .

فتوقف الرجل عن المسير وهو يقول في غيظ :

– استريحي ، ربنا يتعب المتعب !

وضعت المرأة البقجة على الأرض وجلست عليها مفرجة مـــا بين فخذيها لتريح بطنها المنداحة ، ووقف الرجل لحظة ينظر فيما حوله ، ثم جلس على بقجة أيضاً . وهبت عليهما نسائم معبقة بأنفـــاس الفجر الرطيبة ، لكن المرأة لم تغفل عما يشغلها فتساءلت :

ـ أين سألد يا ترى ؟
فقال شافعي ساخطاً :
ـ أي مكان يا عبدة خير من حارتنا اللعينة .
ورفع عينيه الى شبح الجبـــل الممتد من أقصى الشمال الى اقصى الجنوب وقال :
ـ سنذهب الى سوق المقطم ، اليه قصد جبل أيام محنته ، وسأفتح دكان نجارة وأعمل كما كنت اعمل في الحارة ، لي يدان تدرّان الذهب، ومعي نقود للبدء لا بأس بها .
فشدت المرأة خمارها حول رأسها ومنكبيها وقالت بحزن :
ـ سنعيش في غربـــة كمن لا أهل له ، ونحن من آل جبـــل أسياد الحارة !
فبصق الرجل متأففاً وقال محتقاً :
ـ أسياد الحارة ! ما نحن إلا عبيد أذلاء يا عبدة ، ذهب جبل وعهده الحلو ، وجاء زنفل أجحمه الله ، فتوتنا وهو علينـــا لا لنا ، يلتهم أرزاقنا ويفتك بمن يشكو .
لم تنكر عبدة شيئاً من قوله . كأنها ما زالت تعيش في أيام المرارة وليالي الأحزان ، لكنها حين ضمنت الابتعـــاد عن مكاره الحارة حن قلبها الى ذكرياتها الطيبة فقالت متحسرة :
ـ لا توجد حارة كحارتنا لولا أشرارها ، أين تجد بيتـــاً كبيت جدنا ؟ او جيراناً كجيراننا ؟ أين تسمع حكايات أدهم وجبل وصخرة هند ؟ الا لعنة الله على الأشرار !
فقال الرجل بصوت مرير :
ـ والنبابيت تهوي لأتفه سبب ، وأصحاب الوجوه المستكبرة يختالون بيننا كالقضاء والقدر !
وذكر زنفل اللعين وكيف أخذ بتلابيبه ، وهزه بعنف حتى كاد

يقتلع ضلوعه ، ثم مرغه في التراب امام الخلق ، لا لشيء إلا لانــه جعل مرة من الوقف حديثه ! وضرب الأرض بقدمه واستطرد قائلاً :

ـ المجرم الملعون خطف وليد سيدهم بيــاع لحمة الراس ، ثم لم يسمع عن الوليد بعد ذلك أبداً ، لم تأخذه رحمة بطفل في شهره الأول ، وتتساءلين أين سألد ، ستلدين بين أناس لا يقتلون الاطفال .

فتنهدت عبدة وقالت برقة كأنما لتخفف من مضمون حديثها :

ـ ليتك رضيت بما رضي به الآخرون !

فقطب غاضباً وراء قناع الظلمة وقال :

ـ ماذا جنيت يا عبدة ؟ لا شيء ، كنت اتساءل اين جبل ، وعهد جبل ، أين القوة العادلة ؟ ماذا أرجع آل جبل الى الفاقة والذل ؟ فحطم دكاني وضربني وكاد يفتك بي لولا الجيران ، ولو بقينا ببيتنا حتى تلدي لانقض على الوليد كما فعل بوليد سيدهم .

فهزت رأسها في حزن وقالت :

ـ آه لو صبرت يا معلم شافعي ! ألم تسمعهم يقولون إن الجبلاوي لا بد ان يخرج يوماً من عزلته لينقذ أحفاده من الظلم والهوان ؟

فنفخ المعلم شافعي طويلاً وقال بسخرية :

ـ هكذا يقولون ! طالما سمعتهم مذ كنت غلاماً ، لكن الحقيقة ان جدنا في البيت اعتزل ، وان ناظر وقفه بريع الوقف استأثر ، الا ما يهب للفتوات نظير حمايته ، وزنفل فتوة آل جبل يتسلم نصيبهم ليدفنه في بطنه ، كأن جبل لم يظهر في هذه الحارة ، وكأنه لم يأخــذ عين صديقه دعبس بعين المسكين كعبلها .

وسكتت المرأة لتسبح في أمواج الظلام . سيطلع عليها الصباح بين قوم غرباء . سيكون الغرباء جيرانها الجدد . وتستقبل أيديهم وليدها . وينمو الوليد في أرض غريبة كغصن مقطوع من شجرة . وما كانت الا قانعة في آل جبل . تحمل الطعام الى زوجها في الدكان . وتجلس

في الليل وراء النافذة لتسمع رباب عم جواد الشاعر الضرير . ما أحلى الرباب وما احلى قصة جبل . ليلة التقى الجبلاوي في الظلام فقال له الا تخف . حياه بالعطف والتأييد حتّى انتصر . وعاد الى حارته بجبور الخاطر ، وما احلى العودة بعد الاغتراب .

وكان شافعي يقلب وجهه في السماء ، في النجوم الساهرة ، ويرنو الى طـلائع الضياء فوق الجبل كسحابة بيضاء في افق سماء مكفهرة . وقال محذراً :

– ينبغي ان نسير كي نبلغ السوق قبيل الشروق .

– ما زلت في حاجة الى الراحة .

– الله يتعب المتعب .

ما اجمل الحياة لولا وجود زنفل . الحياة عامرة بالخيرات والهواء النقي والسماء المرصعة بالنجـوم والمشاعر الطيبة ولكن فيها ايضاً ناظر الوقف ايهاب والفتوات بيومي وجابر وحندوسة وخالد وبطيخة وزنفل . وفي الامكان ان يصير كل ربع كالبيت الكبير وان ينقلب الأنين الحاناً ولكن المساكين يتمنون المحال كما تمناه ادهم من قبل . ومن هم المساكين ؟ نهم أقفية متورمة من الصفع وأدبار ملتهبة من الركل وأعين يرعاهـا الذباب ورؤوس يعشش فيها القمل .

– لماذا نسينا الجبلاوي ؟

غمغمت امرأة :

– الله يعلم بحاله .

فصاح الرجل في حسرة وغضب :

– يا جبلاوي !

فردد الصوت صوته . وقام وهو يقول :

– توكلي على الله .

قامت عبـــدة . تناول كفها في يده . وسارا نحو الجنوب ، نحو سوق المقطم .

٤٥

قالت عبدة بفرح تألق في عينيها وثغرها :

ــ ها هي حارتنا ، وها نحن نعود اليها بعد غربة ، فالحمد لله رب العالمين .

فابتسم عم شافعي وهو يجفف جبينه بـكم عباءته وقال برزانة :

ــ حقـاً ما ابهـج العودة !

وكان رفاعة يصغي الى والديه ، ووجهه الصافي الجميل يعكس دهشة ممزوجة بالحزن . فقال كالمحتج :

ــ وهل ينسى سوق المقطم وجيرانه ؟!

ابتسمت الأم وهي تحبك طرف الملاءة حول شعرها الذي وخطـــه المشيب . ادرك ان الفتى يحن الى مولده كما تحن هي الى مولدها ، وأنه بما جبل عليه من رقة ومودة لا يستطيع ان يسلو الصداقات . وأجابته :

ــ الأشياء الطيبة لا تنسى ابداً ، ولكن هذه هي حارتك الأصلية ، هنا أهلك ، سادة الحارة ، ستحبهم وسيحبونك ، ما اجمل حيّ جبل بعد وفاة زنفل .

فهتف عم شافعي محذراً :

ــ لن يكون خنفس خيراً من زنفل .

ــ لكن خنفس لا يضمر لك عداوة .

ــ عداوات الفتوات تنشأ بسرعة نشوء الطين عقب المطر .

فقالت عبدة برجاء :

ـ لا تفكّر هكذا يا معلم ، عدنا لنعيش في سلام ، ستفتح الدكان وسيجيء الرزق . ولا تنس انك عشت تحت سيطرة فتوة بسوق المقطم ، ففي كل مكان فتوة يخضع له الناس .

واصلت الأسرة مسيرهـا نحو الحارة ، يتقدمها عم شافعي حاملاً جوالاً ، وتبعه عبدة ورفاعة حاملاً بقجة ضخمة . وبدا رفاعة بقامته الطويلة وعوده النحيل ووجهه الوضاء فتى جذاب المنظر ينضح بالوداعة والرقة ، غريباً في الأرض الذي يسير فوقها . وتأملت عيناه ما حوله في شغف حتى انجذبتـا الى البيت الكبير الذي يقف عند رأس الحارة منفرداً ، ورءوس الاشجار تهتز من فوق سوره . رنا اليه طويلاً ثم تساءل :

ـ بيت جدنا ؟

فقالت عبدة بابتهاج :

ـ نعم ، أرأيت ما حدثتك عنه ؟ فيه جدك ، صاحب هذه الأرض كلها وما عليها ، الخير خيره والفضل فضله ، ولولا عزلتـه لملأ الحارة نوراً .

وأكمل عم شافعي ساخراً :

ـ وباسمه ينهب ناظر الوقف ايهاب حارتنا ، ويعتدي الفتوات علينا .

تقدموا نحو الحارة محاذين للسور الجنوبي للبيت الكبير . لم ترتد عينا رفاعة عن البيت المغلق . ثم تراءى لهم بيت ناظر الوقف ايهاب وبوابه المقتعد اريكة عند بابه المفتوح . وفي مقابله قام بيت فتوة الحارة بيومي الذي وقفت امامه عربة كارو محملة بمقاطف الارز وسلال الفاكهة وقد مضى الخدم يحملونها للداخل تباعاً . وبدت الحارة ملعباً للغلمان الحفاة ، على حين افترشت أسر الأرض او الحصر امام مداخل البيوت لينقـوا الفول او يخرطوا الملوخية ، وتبودلت احاديث ونكات ، وزجر ونهر ، وتعالت ضحكات وصرخات . مالت اسرة عم شافعي الى حي جبـل

فصادفها في عرض الطريق شيخ ضرير ، يتلمس طريقه بعصاه على مهل ، فأنزل عم شافعي الجوال من فوق ظهره ومضى نحوه منبسط الأسارير ، حتى وقف امامه وهو يهتف :

ــ عم جواد الشاعر ، السلام عليكم !

توقف الشاعر وهو يرهف أذنيه في انتبـاه ، ثم هز رأسه في حيرة قائلاً :

ــ وعليكم السلام ! صوت غير غريب عليّ !

ــ أنسيت صاحبك شافعي النجار ؟

فتهلل وجه الرجل وصاح :

ــ عم شافعي ورب السماوات .

وفتح ذراعيه فتعانق الرجلان بشوق وحنان حتى تطلعت اليهما انظار القريبين وحاكى عناقهما غلامان عابثان . وقال جواد وهو يشد على يد صاحبه :

ــ هجرتنا عشرين عاماً او يزيد ؛ يا له من عمر ، وكيف زوجك ؟

فقالت عبدة :

ــ بخير يا عم جواد سألت عليك العافية ، وها هو ابننا رفاعة ، قبّل يد عمك الشاعر .

واقترب رفاعة من الشاعر مبتهجاً فتناول يده فلثمها ، وربت الرجل كتفه ، وتحسس رأسه في استطلاع ، وقسمات وجهه ، وقال :

ــ بديع بديع ، ما اشبهك بجدك !

فنوّر الثناء وجه عبدة ، وضحك عم شافعي قائلاً :

ــ لو رأيت جسده النحيل ما قلت ذلك .

ــ حسبه ما أخذ ، ان الجبلاوي لا يتكرر ، ماذا يعمل الفتى ؟

ــ علمته النجارة ، لكنه ابن وحيد مدلل ، يمكث في دكاني قليلاً ويهيم على وجهه في الخلاء والجبل اكثر الوقت .

فقال الشاعر باسماً :
ـ لا يستقر الرجل حتى يتزوج ، وأين كنت يا معلم شافعي ؟
ـ في سوق المقطم .
فضحك الرجل ضحكة عالية وقال :
ـ كما فعل جبل ، لكنه عاد حاوياً وتعود نجاراً كما ذهبت ، على اي حال مات عدوك ولكن الخلف كالسلف .
فقالت عبدة بسرعة :
ـ كلهم كـــذلك ، وما نطمع في شيء الا ان نعيش كما يعيش المسالمون !
وعرف رجال شافعي فهرعوا اليه ، ودار العناق وارتفعت الأصوات ، وعاد رفاعة يتفحص ما حوله باهتمام وشغف ، وأنفاس قومه تتردد من حوله ، فتخفف كثـــيراً من وحشة القلب التي غشيته مذ فارق سوق المقطم . ومضت عيناه في التجول حتى وقفتا عند نافذة في الربع الأول ، تطل منها فتاة راحت تحملق في وجهه باهتمام ، فلما التقت عيناهما رفعت ناظريها الى الأفق . ولمح ذلك رجل من اصحاب والده فهمس قائلاً :
ـ عيشة بنت خنفس ، نظرة اليها تسبب مذبحة !
فتورد وجه رفاعة وقالت أمه :
ـ ليس هو من هؤلاء الشبان ولكنه يرى حارته لأول مرة .
ومن الربع الأول خرج في متانة الثور ، يرفل في جلباب فضفاض ، وينطلق من فوق فيـــه شارب متحرش في وجه كثير الندوب والبقع فتهامس الناس « خنفس .. خنفس » . وأخذ جواد عم شافعي من يده واتجه نحو الربع وهو يقول :
ـ سلام الله على فتوة آل جبل ، اليك أخانا المعلم شافعي النجار ، عاد الى حارته بعد غربة عشرين عاماً !
ألقى خنفس نظرة حافرة على وجه شافعي ، متجاهلاً يده الممدودة

ملياً ، ثم مد له يده دون ان يلين وجهه ، ثم تمتم في برود :

— أهلاً .

وتأمله رفاعة بامتعاض فهمست أمه في اذنه أن يذهب للسلام عليه ؛ وذهب رفاعة متضايقاً فمد له يده ، وقال عم شافعي :

— ابني رفاعة .

ونظر خنفس الى رفاعة نظرة استنكار وازدراء ، اوّلها الحاضرون بأنها احتقار لرقته غير المألوفة في الحارة . وصافحه بعــدم اكتراث ثم التفت الى أبيه متسائلاً :

— ترى هل نسيت في غربتك سنة الحياة في حارتنا ؟

فأدرك شافعي ما يرمي اليه ، وقال مدارياً ضيقه :

— نحن في الخدمة دائماً يا معلم .

فتفرس في وجهه بريبة وسأله :

— لماذا هاجرت من حارتك ؟

فصمت شافعي ريثما يجد جواباً مناسباً ، فقال خنفس :

— هرباً من زنفل ؟

فقال جواد الشاعر مبادراً :

— لم يكن ذلك لخطأ لا يغتفر .

فقال خنفس لشافعي محذراً :

— لن تجد مني مهرباً عند الغضب .

فقالت عبدة برجاء :

— ستجدنا يا معلم من أطيب الناس .

ومضى شافعي وأسرته وسط الاصحاب الى دهليز ربع النصر ليتسلم مسكناً خالياً دله عليه عم جواد . وتراءت في نافذة مطلة على الدهليز فتاة حسناء ذات جمال وقح ، وقفت تمشط شعرها أمام زجاج النافذة ، فلما رأت القادمين تساءلت في دلال :

— من القادم كالعريس في الزفة ؟
فتضاحك كثيرون وقال رجل :
— جار لك جديد يا ياسمينة سيقيم في الدهليز أمامك .
فهتفت ضاحكة :
— ربنا يزيد في الرجال !
ومرت عيناها بعبدة دون اكتراث ، لكنها وقفت على رفاعة باهتمام وإعجاب . ودهش رفاعة لنظرتها أكثر من دهشته لنظرة عيشة بنت خنفس . وتبع والديه الى باب المسكن المقابل لمسكن ياسمينة على الجانب الآخر للدهليز ، وصوت ياسمينة يغني :
آه من جماله يامّة .

٤٦

فتح عم شافعي دكان النجارة عند مدخل ربع النصر . ومع الصباح خرجت عبدة تتسوق ، ومضى عم شافعي وابنه رفاعة إلى الدكان . وجلسا على عتبة الدكان ينتظران الرزق . وكان في حوزة الرجل مال يكفيه شهراً أو يزيد فلم يطرقه القلق ، فراح ينظر الى الدهليز المسقوف بالمساكن ، المفضي الى الحوش الكبير ويقول :
— هذا هو الدهليز المبارك الذي أغرق فيه جبل أعداءنا .
فتأمله رفاعة بعينين حالمتين وثغر باسم ، فعاد الرجل يقول :
— وفي هذه البقعة أقام أدهم كوخه وحدثت الأحداث ، وفيها بارك الجبلاوي ابنه وعفا عنه .
فازداد الثغر الجميل ابتساماً وأغرقت العينان في الحلم . الذكريات الجميلة كلها ولدت في هذا المكان . لولا الزمن لبقيت آثار أقدام

الجبلاوي وأدهم ، ولردد الهواء أنفاسهم . ومن هذه النوافــذ انصبت المياه على الفتوات في الحفرة . من نافذة ياسمينة انصبت المياه على الأعداء . اليوم لا ينصب منها الا نظرات مرعبــة . ويعبث الزمان بكل جليل . أما جبل فانتظر داخل الحوش بين رجال ضعفاء . لكنه انتصر .

– انتصر جبل يا أبي ولكن ما جدوى النصر ؟

فتنهد الرجل قائلاً :

– تعاهدنا على ألا نفكر في ذلك ، أرأيت خنفس ؟

وعلا صوت غنج منادياً :

– يا عم يا نجار .

فتبادل الأب وابنه نظرة إنكار ، ونهض الأب رافعــاً رأسه فرأى ياسمينة تطل من النافذة ، وضفيرتاهــا الطويلتان تتدليان وتتأرجحان ، فهتف :

– يا نعم !

فقالت بصوت متهالك من العبث :

– ابعث صبيك ليأخذ ترابيزه لإصلاحها .

عاد الرجل الى مجلسه وهو يقول لابنه : « توكل على الله » . ووجد رفاعة باب المسكن مفتوحاً في انتظاره فغمغم قائلاً : « احم » فأذنت له بالدخول فدخل . وجدها في جلباب بني ذي كلفة بيضاء حول الطوق وفوق نهضة النهدين . وحافية وعارية الساقين وجدها أيضاً . ولبثت صامتة ملياً كأنما لتمتحن أثر منظرها في نفسه ، فلما رأت صفاء عينيه لا يتغير أشارت الى ترابيزة صغيرة قائمة على ثلاثة أرجل في ركن الصالة وقالت :

– الرجل الرابعة تحت الكنبة ، ركبها وحياتك وادهن الترابيزة من جديد .

فقال بصوت ذي موقع عذب :

– في الخدمة يا ست .

– والثمن ؟

– سأسأل أبي .

فشهقت متسائلة :

– وأنت ؟ الا تعرف الثمن ؟

– هو الذي يخاطب فيه .

فتفرست في وجهه بقوة وسألته :

– ومن يصلحها ؟

– أنا ، ولكن باشرافه ومعاونته .

فضحكت دون مبالاة وقالت :

– بطيخة أصغر فتواتنا دونك في السن لكنه يستطيع أن يدوخ زفة برمتها ، وأنت لا تستطيع ان تركب رجل ترابيزة بمفردك ! ..

فقال رفاعة بصوت من يروم انهاء الكلام :

– المهم انها ستعود اليك كأحسن ما يكون .

وتناول الرجـــل الرابعة من تحت الكنبة ، وحمل الترابيزة على كتفه واتجه نحو الباب قائلاً :

– فتك بعافية .

ولما وضعها أمام أبيه في الدكان قال الرجل بامتعاض وهو يتفحص الترابيزة :

– أقول الحق اني كنت أفضل ان يجيء أول رزق من ناحية أنظف .

فقال رفاعة في سذاجة :

– ليست قذرة بحال يا أبي ، لكنها وحيدة فيما يبدو .

– ليس أخطر من امرأة وحيدة !

– لعلها في حاجة الى هداية !

فقال عم شافعي ساخراً :

– حرفتنا النجارة لا الهداية ، هات الغرا .

وعند المساء ذهب عم شافعي ورفاعة الى قهوة جبل . كان الشاعر جواد متربعاً على أريكته يحسو قهوته . وجلس شلضم صاحب القهوة عند المدخل ، على حين احتل خنفس مكان الصدارة وسط هالة من المعجبين . وقصد شافعي وابنه الفتوة ليؤديا اليه تحية الخضوع ثم اتخـذا مكاناً خالياً جنب شلضم . وما لبث أن تناول عم شافعي الجوزة ، وقدم لابنه قدح قرفة بالبندق . وبدا جو القهوة ناعساً ، تنعقد في سمائه سحب الدخان ، وتنتشر في هوائه الساكن روائح المعسل والنعناع والقرنفل ، أما الوجوه ذات الشوارب المستنفرة فلاحت شاحبة ثقيلة الاجفان ، وتلاقى السعال والنحنحة بالضحكات الغليظة والنكات الفاجرة ، وترامى من بطن الحارة هتاف غلمان يترنمون :

ياولاد حارتنا توت توت
انتو نصاره ولا يهود
تاكلو ايه ناكل عجوة
تشربوا ايه نشرب قهوة

وكانت عند مدخل القهوة هرة تتربص ، فانقضت نحو اسفل اريكة ، وندّت وسوسة ، ثم ظهرت راكضة نحو الحارة قابضة بأسنانها على فأرة . وردّ رفاعة عن فيه قدح القرنفل متقززاً ، ورفع عينيه فوقعتا على خنفس وهو يبصق . وصاح خنفس مخاطباً الشاعر جواد :

— متى تبدأ يا راس الدواهي ؟

فابتسم جواد وهو يهز رأسه ، ثم تناول الربابة ، وبعث من اوتارها انغام الافتتاح . وبدأ بتحية للناظر ايهاب ، فتحية ثانيـة لبيومي فتوة الحارة ، والثالثة توجت خليفة جبل الفتوة خنفس ، ومضى يقول : « وجلس أدهم في ادارة الوقف يستقبل مستأجري الاحكار الجدد ، وكان ينظر في الدفتر حينما جاءه صوت الرجل الأخير يقول معلناً عن اسمه :

— ادريس الجبلاوي .

فرفع أدهم رأسه في فزع فرأى أخاه واقفاً أمامه .. »

وواصل الشاعر الحكاية في جو من الانصات . وتابعه رفاعة بشغف . هذا هو الشاعر وهذه هي الحكايات . كم سمع أمه وهي تقول : « حارتنا حارة الحكايات » . وحقاً كانت جديرة بالحب هذه الحكايات . لعل فيها عزاء عن ملاعب سوق المقطم وخلواته . وراحة لقلبه المحترق بهيام غامض . غامض كهذا البيت الكبير المغلق . لا أثر فيه لحياة الا رءوس اشجار الجميز والتوت والنخيل . وأي دليـــل على حياة الجبلاوي الا الاشجار والحكايات ؟ وأي دليل على انه حفيده سوى الشبه الذي لمسه الشاعر جواد بيديه ؟ وكان الليل يتقدم ، وعم شافعي يدخن جوزة ثالثة ، واختفت من الحارة نداءات الباعة وهتافات الغلمان ، ولم يعد يبقى سوى انغام الرباب ودقة دربكة آتية من بعيد . وصراخ امرأة ينهال عليهـــا زوجها ضرباً . أما أدهم فقد جره ادريس الى مصيره . الى الخلاء تتبعه أميمة الباكية . كما خرجت أمي من الحارة وأنا في بطنها أضطرب . اللعنة على الفتوات . وعلى القطط حين تلفظ الفئران انفاسها بين أسنانها . وعلى كل نظرة ساخرة أو ضحكة باردة . وعلى من يستقبل أخاه العائد *بقوله لا مهرب مني عند الغضب . وعلى صانعي الرعب وخالقي النفاق . اما أدهم فلم يبق له إلا الخلاء . وها هو الشاعر يغني أغنية من أغاني* ادريس المخمورة . ومال الى أذن أبيه وقال :

– أريد ان ازور المقاهي الأخرى .

فقال عم شافعي متعجباً :

– قهوتنا خير قهوة في الحارة .

– ماذا يقول الشعراء هنالك ؟

– الحكايات نفسها ولكنك تسمعها هنالك وكأنها غير الحكايات .

وترامى التهامس الى شلضم فمال نحو رفاعة قائلاً :

– ليس أكذب من أهل حارتنا ، والشعراء أكذب الكاذبين ، ستسمع في القهوة التالية ان جبل قال إنه ابن الحارة ، ووالله ما قال الا انه

ابن حمدان .

فقال عم شافعي :

– الشاعر يريد ارضاء السامعين بأي ثمن .

فقال شلضم همساً :

– بل يريد ارضاء الفتوة !

وغادر الأب والابن القهوة عند منتصف الليل . وكانت الظلمة كثيفة تكاد ان تتجسد . وهناك اصوات رجال كأنما تصدر عن لا شيء . وسيجارة تتوهج في يد غير مرئية كأنها نجم تهاوى نحو الأرض . وتساءل الأب :

– اعجبتك الحكاية ؟

– نعم ، ما اجمل الحكايات .

فضحك الأب قائلاً :

– عم جواد يحبك ، ماذا قال لك في الاستراحة ؟

– دعاني الى زيارته في بيته .

– ما اسرع أن تُحب ، ولكنك صبي بطيء التعلم .

فقال معتذراً :

– لديّ عمر كامل للتجارة ، ولكن يهمني الآن ان ازور المقاهي جميعاً .

وتلمسا طريقهما الى الدهليز فترامت اليهما من بيت ياسمينة ضجة مخمورة ، وصوت يغني :

يا بو الطاقية الشبيكة قل مين شغلها لك

شبكت قلبي الهـي ينشغل بالك

فهمس رفاعة في أذن أبيه :

– ليست وحيدة كما ظننت .

فتنهد الأب قائلاً :

ـ ما اكثر ما ضيعت من عمر في الخلوات !
وراحا يرقيان في السلم على مهل وحذر ، واذا برفاعة يقول :
ـ أبي ، سأزور عم جواد الشاعر .

٤٧

طرق رفاعة باب جواد الشاعر بالربع الثالث بحي جبل . وكان يتصاعد ن الحوش سباب حاد تتبادله نسوة ممن اجتمعن للغسل والطهي فأطل من فوق درابزين الطرقة المستديرة المشرفة على فناء الربع . وكانت المعركة الأساسية تدور بين امرأتين ، وقفت اولادهما وراء طشت غسيل تلوح بيدين مغطاتين برغوة الصابون ، ووقفت الأخرى عند مدخل الدهليز مشمرة عن ساعديها ترد السب بأفظع منه وترقّص وسطها استهزاء . أما النساء الأخريات فانقسمن الى فرقتين ، وتلاطمت الأصوات حتّى تجاوبت جدران الربع بالشتائم المقذعة والقذف العاهر . وسرعان ما جفل مما يرى ويسمع فتحول عن موقفه الى باب الشاعر متقززاً . حتّى النساء ، حتّى القطط ، ودعك من الفتوات . في كل يد مخلب وفي كل لسان سم ، وفي القلوب الخوف والضغائن . أما الهواء النقي ففي خلاء المقطم أو في البيت الكبير حيث ينعم الواقف بالسلام وحـــده ! وفتح الباب عن وجه الضرير المستطلع فحياه فابتسمت أسارير الرجل ، وأوسع له وهو يقول :
ـ أهلاً بابن أخي .

وتلقى رفاعة أول ما دخل شذى بخور نافذ كأنه أنفاس ملاك . ومضى وراء الرجل الى حجرة صغيرة مربعة ، اصطفت باضلاعهـــا الشلت ، وانبسطت فوق أرضها حصيرة مزركشة ، وبدا جوها خلف خصاص النوافذ المغلقة في سمرة الأصيل ، وقد زين سقفها حول الفانوس المدلى

بصور العصافير والحمام . تربع الشاعر على شلتة فجلس رفاعة الى جانبه ، وقال الرجل :

– كنا نعد القهوة .

ونادى زوجته فجاءت امرأة حاملة صينية القهوة فقال جواد :

– تعالي يا أم بخاطرها ، هذا رفاعة ابن عم شافعي .

فجلست المرأة الى جانب زوجها من الناحية الأخرى ، وراحت تصب القهوة في الفناجيل وهي تقول :

– اهلاً بك يا ابني .

بدت في منتصف الحلقة السادسة ، مستقيمة العود ، قوية البنية ، تلفت النظر بعينين نافذتين ووشم فوق الذقن . وأشار جواد ناحية الضيف وقال :

– انه سميع يا ام بخاطرها ، شغوف بالحكايات ، وبمثله يتحمس الشاعر ويرضى ، أما الآخرون فسرعان ما يغلبهم نعاس المتزول والحشيش .

فقالت المرأة بدعابة :

– حكاياتك جديدة عليه ، معادة عليهم .

فقال الشاعر بغيظ :

– هذا صوت عفريت من عفاريتك .. (ثم موجهاً الخطاب إلى رفاعة) .. الولية كودية زار ..

فتطلع رفاعة نحو المرأة باهتمام فالتقت عيناهما وهي تمد له يدها بفنجال القهوة . كم كانت تجذبه دقة الزار في سوق المقطم . وكان قلبه يتابعها راقصاً ، فيقف في الطريق رافعاً رأسه نحو النوافذ ، متطلعاً الى البخور السابح في الفضاء والرءوس المترنحة . وسأله الشاعر :

– ألم تعرف في غربتك شيئاً عن حارتنا ؟

– حدثني أبي عنها كما حدثتني أمي ، ولكن قلبي كان هنالك ، فلم اكترث كثيراً للوقف ومشاكله ، وعجبت من كثرة ضحاياه ، فلت

الى رأي أمي في ايثارها الحب والسلام .

فتساءل جواد وهو يهز رأسه في حزن :

– وكيف يتسنى للحب والسلام ان يعيشا بين الفقر ونبابيت الفتوات !

فلم يجبه رفاعة . لا لأنه لم يكن ثمة جواب . ولكن لأن عينيه رأتا لأول مرة صورة غريبة فوق الجدار الأيمن للحجرة . صورة مرسومة بالزيت على الجدار كالصور التي تزين جدران المقاهي . وتمثل رجلاً هائلاً تبدو الى جانبه ربوع الحارة ضئيلة كلعب الأطفال . فتساءل الشاب :

– من صاحب هذه الصورة ؟

فأجابت أم بخاطرها :

– الجبلاوي .

– هل رآه أحد ؟

فقال جواد :

– كلا ، لم يره أحد من جيلنا ، حتى جبل لم يتبينه في ظلمة الخلاء ، ولكن المبيّض رسمه على مثال ما يرد من أوصافه في الحكايات .

فتساءل رفاعة متنهداً :

– لماذا أغلق أبوابه في وجه أحفاده ؟

– يقولون الكبر ، من يدري كيف تمضي به الأيام ! والله لو فتح أبوابه ما بقي أحد من أهل حارتنا في داره القذرة .

– ألا تستطيع أن ..

ولكن أم بخاطرها قاطعته قائلة :

– لا تشغل بـه نفسك ، فان اهل حارتنا اذا بدأوا بالكلام عن الواقف جرهم الكلام الى الوقف ثم تقع المصائب اشكالاً وألواناً .

فهز رأسه في حيرة متسائلاً :

– وكيف لا تشغل النفس بمثل هذا الجد العجيب ؟ !

ـ لنفعل مثله ، فانه لا يشغل بنا نفسه .
فرفع رفاعة بصره الى الصورة ثم قال :
ـ لكنه قابل جبل وكلمه .
ـ نعم ، ولما مات جبل جاء زنفل ثم خنفس ، وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا .
فضحك جواد وقال لامرأته :
ـ ان الحارة في حاجة الى من يخلصهـا من شياطينها كما تخلصين الممسوسين من عفاريتهم .
فابتسم رفاعة وقال :
ـ يا عمّي ان العفاريت حقاً هم اولئك الناس ، لو رأيت كيف كانت مقابلة خنفس لأبي !
ـ لا شأن لي بأولئك ، عفاريتي الآخـرون يذعنون لي كما كانت تذعن الثعابين لجبل ، وعندي لهم جميع مـا يحبون من بخور سوداني وتعاويذ حبشية واغان سلطانية .
فسألها رفاعة باهتمام :
ـ ومن أين أتتك هذه القدرة على العفاريت ؟
فحدجته بنظرة حذرة وقالت :
ـ هي حرفتي كما ان النجارة حرفة أبيك ، جاءتني من وهاب المفن !
فافرغ رفاعة ثمالة الفنجان في فيه وهمّ بالكلام ، غير ان صوت عم شافعي تصاعد من الحارة صائحاً :
ـ يا رفاعة ، يا ولد يا كسول .
فقام رفاعة الى النافذة ففتحها وأطل منهـا حتى التقت عيناه عيني أبيه وهتف :
ـ أمهلني نصف ساعة يا أبي .
فرفع الرجل منكبيه فيما يشبه اليأس ورجع الى دكانه . وعندما أخذ

رفاعة يغلق النافذة رأى عيشة في موقفها بالنافذة كما رآها أول مرة ، ترنو اليه باهتمام . خيل اليه انها ابتسمت . او ان عينها تكلمت . وتردد لحظة ، لكنه اغلق النافذة وعاد الى مجلسه . وإذا بجواد يضحك قائلاً :

– أبوك يريد لك النجارة ، ولكن فيم ترغب أنت ؟

فتفكر رفاعة ملياً ثم قال :

– عليّ ان اكون نجاراً كأبي ، ولكني أحب الحكايات ، وهذه الأسرار حول العفاريت ، فحدثيني عنها يا عمتي .

فابتسمت المرأة وبدت كأنها سمحت بأن تهبه « قليلاً » من علمها فقالت :

– لكل انسان عفريت هو سيده ، ولكن ليس كل عفريت بشر يجب ان يخرج .

– وكيف نميز بين هذا وذاك ؟

– عمله يدل عليه ، انت مثلاً ولد طيب فما يستحق سيدك الا الجميل ، وليس هكذا عفاريت بيومي وخنفس وبطيخه !

فقال ببراءة :

– وعفريت ياسمينة هل يجب ان يخرج ؟

فضحكت أم بخاطرها وقالت :

– جارتكم ؟ لكن رجال جبل يريدونها كما هي .

فقال باهتمام جدي :

– أريد ان اعرف هذه الأشياء فلا تبخلي علي .

فقال جواد :

– منذا الذي يبخل على الابن الطيب ؟

وقالت أم بخاطرها :

– جميل ان تلازمني كلما سمح الوقت ، ولكن على شرط الا يغضب

أبوك ، وسيتساءل الناس ما لهذا الولد الطيب والعفاريت ، ولكن اعلم الا داء للناس الا العفاريت .

وكان رفاعة يستمع وهو يرنو الى صورة الجبلاوي .

٤٨

النجارة مهنته ومستقبله ، لا مهرب منها فيما يبدو . إن تكن نفسه لا ترتاح إليها فأي شيء ترتاح اليه نفسه ؟ انهـا أفضل من السعي الكادح وراء عربات اليد ، أو من حمل المقاطف والسلال ، أما المهن الأخرى كالبلطجة والفتونة فما أبغضها وأمقتها . أم بخاطرها أثارت خياله كما لم يثره شيء من قبل اللهم الا صورة الواقف المرسومة على جدار الحجرة في بيت جواد الشاعر . وحض أباه يوماً على رسم صورة مثلها في بيتهم او في الدكان فقال له الرجل نحن أولى بنفقاتها ، وهي خيال وما قيمة الخيـال ؟ فما كان منه الا ان قال له بودي لو أراه ! فضحك الرجـل ضحكة عالية وقال له معاتباً اليس الأفضل ان ترى عملك ! لن أعيش لك الى الأبد ، وعليك ان تتأهب ليوم تحمل فيه وحدك اعباء أمك وزوجك وأطفالك . لكنه لم يكن يفكر في شيء كما كان يفكر فيما تقول او تفعل أم بخاطرهـا . بدت له أحاديثهـا عن العفاريت غاية في الأهمية . ولم تزايل وعيه حتى في الأوقات السعيدة التي تردد فيها على مقاهي الحارة واحدة بعد أخرى . حتى الحكايات نفسها لم ترسب في نفسه كما رسبت أحاديث أم بخاطرها . لكل انسان عفريت هو سيده ، وكما يكون السيد يكون العبد .. هكذا تردد أم بخاطرها . وكم من ليلة قضاها في حضرة الست ، يتابع دقات الزار ويشهد ترويض العفاريت . ومن المرضى من يساق الى البيت في حال خمود وإعياء ،

ومنهم من يحمل مقيداً في الاغلال اتقاء لشره. ويُحرق البخور المناسب اذ لكل حال بخورها، وتدق الدقة المطلوبة اذ لكل عفريت دقة يطلبها، ثم تحدث الأعاجيب. اذن عرفنا لكل عفريت دواءه ولكن ما دواء ناظر الوقف وفتواته ؟! هؤلاء الاشرار يسخرون من الزار ولعله لم يخلق الا لهم! القتل هو الوسيلة الى الخلاص منهم اما العفريت فيستكين بالبخـــور الزكي والنغمة الطيبة. كيف يؤخذ العفريت الشرير بالجميل الطيب ؟! الا ما اجل ما نتعلمه من الزار والعفاريت! وقال لأم بخاطرها انه يرغب من اعماق قلبه في تلقي اسرار الزار، فسألته أتطمع في المال الكثير ؟ فاجابها بأنه في تطهير الحارة يرغب لا في المال الكثير. وضحكت المرأة قائلة انه اول رجل يرغب في هذا العمل فماذا استهواه فيه ؟ فأكد قائلاً ان احكم ما في عملك انك تهزمين الشر بالطيب الجميل. ولما مضت تبيح له اسرارها طاب نفساً. وإعراباً عن مسرته كان يصعد الى سطح الربع في نشوة الفجر ليشهد يقظة النور، ولكن يستأثر البيت الكبير بلبه دون النجوم والسكون وصياح الديكة، ويرنو الى البيت الراقد بين الاشجار طويلاً، ثم يتساءل: اين انت يا جدي ؟ لماذا لا تظهر ولو لحظة! لماذا لا تخرج ولا مرة ؟ لماذا لا تتكلم ولو كلمة ؟ الا تدري ان كلمة منك تغير حارتنا من حال الى حال ؟ أم يرضيك ما يجري بها ؟ وما اجمل الأشجار حول بيتك! اني احبها لأنك تحبها، وأنظر اليها لألتقي نظراتك المطبوعة عليها. وكلما أفضى بخواطره الى ابيه سمع عتاباً وقال له: «وعملك يا كسلان! ان امثالك من الشبان يجوبون الاحياء سعياً وراء الرزق او يهزون الحارة اذا رفعوا النبابيت!» ويوماً كانت الأسرة مجتمعة عقب الغداء اذا بعبدة تقول لزوجها باسمة:

— قل له يا معلم.

ادرك رفاعة انه المقصود بالكلام فنظر الى ابيه مستطلعاً لكن الرجل خاطب زوجته قائلاً:

ــ حدّثيه انت بما عندك أولاً .
فنظرت عبدة الى ابنها باعجاب وقالت :
ــ خبر سعيد يا رفاعة ، زارتني ست زكية زوجة فتوتنا خنفس ! ورددت لها الزيارة بطبيعة الحال فاستقبلتني بحفاوة وقدمت اليّ ابنتها عيشة ، بنت جميلة كالقمر ، ثم زارتني مرة اخرى ومعها عيشة .
ولحظ عم شافعي ابنه بطرف خفي وهو يرفع فنجال القهوة الى فيه ليرى اثر الحكاية في نفسه ، ثم هز رأسه هزة من قدر الصعوبة التي تنتظره ، وقال بتفخيم :
ــ هذا شرف لم يحظ بمثله بيت في حيّ جبل ، تصور ان زوجة خنفس وابنته يزوران بيتنا هذا !
رفع رفاعة عينيه الى أمه حائراً فقالت بحماس :
ــ ما افخم مسكنهم ، المقاعد الوثيرة ، السجاد الفاخر ، حتى الستائر تنسدل فوق النوافذ والأبواب .
فقال رفاعة ممتعضاً :
ــ كل هذا الخير من أموال آل جبل المغتصبة !
فدارى عم شافعي ابتسامة وهو يقول :
ــ تعاهدنا على ألاّ نتكلم في هذا الموضوع .
وقالت عبدة باهتمام :
ــ فلنذكر فقط ان خنفس سيد آل جبل وان صداقة اهله دعاء مستجاب .
فقال رفاعة في ضجر :
ــ مباركة عليك هذه الصداقة !
فتبادلت الأم مع زوجها نظرة ذات معنى ، قالت على اثرها :
ــ ان مجيء عيشة مع أمها حدث له معنى !
فتساءل رفاعة وهو يشعر بانقباض :

ـ ما معناه يا أمي ؟

فضحك شافعي وهو يلوح بيده يائساً وقال مخاطباً عبدة :

ـ كان ينبغي ان نقصّ عليه كيف تم زواجنا !

فهتف رفاعة بضيق :

ـ كلا ! كلا يا ابي .

ـ ماذا تعني ؟ ومالك تبدو كالعذراء ؟

وقالت عبدة باغراء ورجاء :

ـ أنت الذي بيدك أن تدخلنا نظارة وقف آل جبل ، سيرحبون بك اذا تقدمت،حتى خنفس سيرحب بك،اذ لولا ثقة المرأة في مكانتها عنده ما أقدمت على تلك الخطوة ، امامك جاه ستحسدك الحارة عليه من أولها الى آخرها .

وقال الأب ضاحكاً :

ـ من يدري فلعلنا نراك يوماً ناظراً لوقف جبل او ترى انت احد ابنائك فيه .

ـ أنت الذي تقول ذلك يا أبي ؟! أنسيت لماذا هاجرت من الحارة منذ عشرين عاماً ؟

فرمش عم شافعي في شيء من الارتباك وقال :

ـ نحن نعيش اليوم كما يعيش غيرنا ، فلا يجوز أن نهمل انتهـاز فرصة تجيء بنفسها الينا .

وتمتم رفاعة وكأنه يحادث نفسه :

ـ كيف أصهر الى عفريت وأنا لا همّ لي اليوم الا مطاردة العفاريت !

فصاح شافعي محتداً :

ـ ما طمعت يوماً في أن أجعل منك اكثر من نجار ، ولكن الحظ يعرض عليك درجة مرموقة في حارتنا ، ولكنك تريد أن تكون كودية زار ، يا للعار ، أي عين أصابتك ؟

قل انك ستتزوجها ودعنا من الهزر :

– لن أتزوجها يا أبـي .

فقال شافعي دون مبالاة :

– سأزور خنفس لأطلب القرب منه .

فهتف رفاعة بحرارة :

– لا تفعل يا أبـي .

فسأله ابوه في جزع :

– خبّرني ما شأنك يا ولد ؟!

وتوسلت عبدة الى زوجها قائلة :

– لا تشتد عليه ، أنت أعلم بحاله .

– يا سوء ما أعلم ، حارتنا تعيرنا برقته .

– ترفق به حتّى يفكر في الأمر .

– أقرانه آباء ، والأرض تهتز عند وقع أقدامهم .

وحدجه بنظرة مغيظة ثم استطرد محتداً :

– لماذا يهرب الدم من وجهك ؟ انك من صلب رجال !

وتنهد رفاعة . الصدر منقبض لحد البكاء . وشائج الأبوة يمزقها الغضب . والبيت يقسو حيناً فيرتد سجناً كئيباً . ومرادك ليس في هذا المكان ولا بين هؤلاء الناس . وقال بصوت مبحوح :

– لا تعذبني يا أبـي .

– أنت الذي تعذبني ، كما عذبتني منذ ولدت .

وأحنى رفاعة رأسه حتّى اختفى وجهه عن والديه ، وأخفض الرجل من صوته وسكّن ما استطاع غضبه ، ثم سأله :

– هل تخاف الزواج ؟ الا تحب ان تتزوج ؟ صارحني بما في نفسك ، أم اذهب الى أم بخاطرها فلعلها تعرف عنك ما لا نعرف !

فهتف بحدة :

– كلا ..

وقام فجأة فغادر الحجرة .

٤٩

ونزل عم شافعي ليفتح الدكان فلم يجد رفاعة هناك كما توقع . لكنه لم يناد عليه وقال لنفسه : إنه من الحكمة أن يتظاهر بالبرود لغيابه . ومضى النهار يزحف رويداً وضوء الشمس ينحسر عن أرض الحـــارة والنشارة تتكاثف حول قدمي شافعي دون ان يظهر رفاعة . وأتى المساء فأغلق الرجل الدكان وهو في غاية من الضيق والغضب . وقصد كعادته قهوة شلضم واتخذ مجلسه ، ولما رأى جواد الشاعر قادماً وحـــده تولاه العجب وسأله :

– إذن أين رفاعة ؟

فأجابه الرجل وهو يتلمس طريقه الى اريكته :

– لم أره منذ أمس .

فقال شافعي بقلق :

– لم أره منذ تركنا بعد الغداء .

رفع جواد حاجبيه الأشيبين ثم تساءل وهو يتربع على الأريكة ويضع الرباب الى جانبه :

– هل وقع بينكما شيء ؟

ولم يجبه شافعي ، وقام فجأة فغـــادر القهوة . وتعجب شلضم لقلق شافعي وقال ساخراً :

– هذه طراوة لم تعرفها حارتنا مذ اقام ادريس كوخه في الخلاء ، كنت اتغيب في صغري عن الحارة أياماً فلا يسأل عني أحـــد ، وعند

عودتي يصيح بي أبي الله يرحمه : « ما الذي عاد بك يا ابن اللئيمة» ؟
فعلق خنفس على كلامه من صدر القهوة قائلاً :
ـ أصله لم يكن على يقين من انك ابنه .
وضجت القهوة بالضحك ، وهنأ كثيرون خنفس على جميل دعابته !
أما عم شافعي فمضى الى بيته وسأل عبدة : هل عاد رفاعة فاستحوذ القلق على المرأة ؟ وقالت : انها كانت تظنه بالدكان كعادته . واشتد قلقها حين أخبرها انه لم يذهب كذلك الى بيت جواد الشاعر ، وراحت المرأة تتساءل في قلق :
ـ اذن اين ذهب ؟
وترامى اليهما صوت ياسمينة وهي تزعق منادية على بياع تين فنظرت عبدة الى شافعي نظرة مريبة فهز الرجل رأسه برماً واطلق ضحكة جافة مقتضبة ساخرة ولكن المرأة قالت :
ـ فتاة مثلها تحل العُقَد !
وذهب الرجل الى بيت ياسمينة مدفوعاً باليأس وحده . طرق الباب ففتحت ياسمينة بنفسها ، ولما عرفته تراجع رأسها في دهش مقرون بالظفر وقالت :
ـ أنت ! ياما تحت الساهي دواهي !
فغض الرجل بصره امام شفافية قميصها وقال بانكسار :
ـ رفاعة عندك ؟
فازدادت دهشة وقالت :
ـ رفاعة ! لمه ؟
فعلا الرجل الارتباك ، فأشارت الى الداخل وهي تقول :
ـ ابحث عنه بنفسك .
لكن الرجل استدار ليذهب فسألته ساخرة :
ـ هل أدركه البلوغ اليوم ؟

وسمعها تخاطب شخصا في الداخل قائلة :

ـ في هذا الزمان الفتى يخشى عليه اكثر من الفتاة .

ووجد عم شافعي عبدة تنتظره في الدهليز ، فقالت له :

ـ سنذهب معاً الى سوق المقطم .

فصاح الرجل بغضب :

ـ الله يتعبه ، أهذا جزائي بعد يوم عمل شاق !

واستقلا عربة كارو الى سوق المقطم ، وسألا عنه عند جيرانهما الاقدمين ، وعند المعارف فلم يعثرا له على أثر . أجل كان يتغيب ساعات في العصارى او الاصائل في الخلوات او الجبل ، ولكن لا يتصور احد ان يلبث حتى هذه الساعة من الليل في الخلاء . وعادا الى الحارة كما ذهبا ولكن على حال من الجزع أشد . ولاكت الألسن اختفاءه خاصة بعد ان مضت عليه أيام . صار دعابة في القهوة وبيت ياسمينة وفي حي جبل . تندّر الجميع بفزع والديه . ولعل أم بخاطرها وعم جواد كانا الوحيدين اللذين شاركا والديه في حزنهما . وقال عم جواد: « أين ذهب الفتى ؟ ليس هو من أولئك الشبان ، لو كان على شاكلتهم ما جزعنا ! » وصاح بطيخة مرة وهو سكران : « جدع تايه يا أولاد الحلال » كأنما ينادي على طفل تائه ؛ فضحكت الحارة وراح الغلمان يرددونها . ومرضت عبدة من الحزن . وعمل شافعي في دكانه بعقل شارد وعينين محمرتين من الأرق . أما زكية زوجة خنفس فقد انقطعت عن زيارة عبدة وتجاهلتها في الطريق . ويوماً كان شافعي مكباً على نشر قطعة من الخشب اذ صاحت به ياسمينة وهي عائدة من مشوار :

ـ عم شافعي .. انظر .

وجدها تشير الى نهاية الحارة عند الخلاء فغادر الدكان والمنشار في يده ليرى ما تشير اليه فرأى ابنه رفاعة يتقدم نحو الربع في استحياء . وترك الرجل المنشار امام الدكان وهرع نحو ابنه وهو يتفحصه بدهشة ،

ثم قبض على عضديه هاتفاً :

ــ رفاعة ! أين كنت ؟ ألا تدري ما يعني غيابك لنا ؟ لأمك المسكينة التي تكاد ان تموت جزعاً ؟

ولم ينبس الشاب ، ووضح للأب هزاله فسأله :

ــ هل كنت مريضاً ؟

فأجاب في ارتباك :

ــ كلا ، دعني أرى أمي .

واقتربت ياسمينة منها وسألت الشاب في ارتياب :

ــ ولكن أين كنت ؟

فلم ينظر نحوها . وتجمّع حوله الغلمان . فسار به ابوه الى البيت . وسرعان ما تبعهما عم جواد وأم بخاطرها . ولما رأته أمه وثبت من الفراش وضمته الى صدرها وهي تقول بصوت ضعيف :

ــ سامحك الله .. كيف هانت عليك أمك ؟

فتناول راحتها بين يديه وأجلسها على الفراش وجلس الى جانبها وهو يقول :

ــ اني آسف ..

فرفع ابوه وجهاً متجهماً نقيض الارتياح الساري في اعماقه كالغمامة السوداء المظلّة لوجه القمر وقال بعتاب :

ــ ليس الا اننا قصدنا اسعادك !

فتساءلت عبدة بعينين مغرورقتين :

ــ توهمت اننا نجبرك على الزواج !

فقال بحزن :

ــ اني متعب .

فسأله اكثر من صوت :

ــ أين كنت ؟

فتنهد قائلاً :

ــ ضقت بحياتي فذهبت الى الخلاء ، شعرت برغبة في الوحــدة والخلاء . ولم اكن أتركه الا لشراء الطعام .

فضرب الأب جبهته بيده وصاح :

ــ ما هكذا يفعل العقلاء !

واذا بأم بخاطرها تقول في اشفاق :

ــ دعوه ، انــا خبيرة بهذه الاحوال ، ولا يصح ان يُفرض علي مثله شيء يأباه .

فقالت عبدة وهي تشد على يده :

ــ كانت سعادته أملنا ، ولكن ما قدر كان ، كم ضمرت يا بني !

وتساءل عم شافعي في غيظ :

ــ دلوني على شيء كهذا حصل من قبل في حارتنا !

فقالت أم بخاطرها في لوم :

ــ ليس حاله بالغريب عليّ يا عم شافعي ، صدّقني ، انه شاب نادر المثال !

فغمغم عم شافعي في حزن :

ــ صرنا احدوثة في الحارة .

فقالت أم بخاطرها غاضبة :

ــ ليس في الحارة كلها فتى مثله .

فقال عم شافعي :

ــ هذا موضع الأسى .

فصاحت أم بخاطرها :

ــ وحّد الله يا رجل ، أنت لا تدري ماذا تقول ولا تفهم ما يقال.

٥٠

أصبح للدكان منظر يوحي بالنشاط والنجاح . فعند طرف الطاولة وقف عم شافعي ينشر الخشب ، وعند طرفها الآخر قبض رفاعة على القدوم وراح يدق المسامير ، أما أسفل الطاولة فبدا اناء الغراء مغروساً في ركام النشارة حتى منتصفه . واسندت الى الجدران ضلفات نوافذ ومصاريع أبواب ، يتوسطها صف عمودي من الصناديق الجديدة بلون الخشب الباهت المصقول لا ينقصها إلا الدهان . وامتلأ الجو برائحة خشبية وأصوات النشر والدق والحك وقرقرة الجوز يدخنها اربعة زبائن جلسوا عند مدخل الدكان يتحادثون . وقال حجازي مخاطباً عم شافعي:

– سأجرب مهارتك في هذه الكنبة وان شاء الله سيكون العمل القادم جهاز البنت (ثم مخاطباً أصحابه) .. وأعود فأقول لكم إننا نعيش في ايام لو عاد اليها جبل لجُنّ.

فهزوا رءوسهم في أسى وهم يدخنون ، اما برهوم الترابي فسأل عم شافعي باسماً :

– لماذا لا تريد ان تصنع لي تابوتاً ؟ أليس كل شيء بثمنه ؟

فكف عم شافعي يده عن المنشار لحظة وقال ضاحكاً :

– يفتح الله ، وجود التابوت في الدكان يهرّب الزبائن .

فقال فرحات مؤمّناً على قوله :

– صدقت ، قطع الموت وسيرته .

فعاد حجازي يقول :

– عيبكم أنكم تخافون الموت اكثر مما ينبغي : لذلك سيطر عليكم خنفس ، وتسلطن بيومي ، وصادر ايهاب أرزاقكم .

ـــ وأنت ألا تخاف الموت مثلنا ؟

فبصق ثم قال :

ـــ العيب عيبنا جميعاً ، كان جبل قوياً ، وبالقوة والعنف استخلص لنا حقنا الذي اضاعه الجبن .

وإذا برفاعة يتوقف عن الدق فيخرج المسامير من فيه ويقول :

ـــ اراد جبـــل استخلاص حقنا بالحسنى . ولم يعمد الى القوة الا دفاعاً عن نفسه .

فضحك حجازي استهزاء وقال متسائلاً :

ـــ خبرني يا ابني هل تستطيع دق المسامير الا بالقوة ؟

فقال رفاعة باهتمام جدي :

ـــ ليس الانسان كالخشب يا معلم .

وحدجه أبوه بنظرة فعاد الى عمله . واستطرد حجازي قائلاً :

ـــ الحق ان جبل كان فتوة من اشد الفتوات الذين عرفتهم حارتنا ، وكم حث آل جبل على الفتونة .

فقال فرحات مصححاً :

ـــ أراد منهم ان يكونوا فتوات على الحارة لا على آل جبل .

ـــ وما هم اليوم الا فئران او أرانب .

وتساءل عم شافعي وهو يجفف أنفه بظهر يده :

ـــ وأي الالوان تفضل يا عم حجازي ؟

ـــ اختر لوناً لا يتوسخ بسرعة ، فهذا أضمن للنظافة .

وواصل حديثه للاصحاب قال :

ـــ ويوم فقأ دعبس عين كعبلها فقأ جبل عينه ، فبالجبروت اقام العدل ..

وتنهد رفاعة بصوت مسموع وقال :

ـــ لا يعوزنا الجـــبروت ، كل ساعة من نهار او ليل نرى اناساً يضربون ويجرحون ويقتلون ، حتى النساء ينشبن الاظافر حتى تسيل

الدماء ، ولكن أين العدل ؟ الا ما اقبح هذا كله ! .

ووجم الجميع لحظة ثم قال حنورة ، وكان يتكلم لأول مرة :

ـ هذا المعلم الصغير يحتقر حارتنا ! انه رقيق اكثر من اللازم وأنت السبب يا معلم شافعي .

ـ أنا ؟!

ـ نعم ، انه شاب مدلّع .

والتفت حجازي نحو رفاعة وقال ضاحكاً :

ـ خير من هذا ان تجد لنفسك عروساً !

وتعالى الضحك ، فقطب عم شافعي ، وتورد وجه رفاعة ، وعاد حجازي يقول مؤكداً :

ـ القوة .. القوة ، بغيرها لا يسود العدل !

فقال رفاعة باصرار رغم نظرات ابيه اليه :

ـ الحق ان حارتنا في حاجة الى الرحمة .

فضحك برهوم الترابي قائلاً :

ـ أتريد أن تخرب بيتي ؟

وضجوا بالضحك . وأعقب ذلك نوبات سعال ، حتى قال حجازي وقد صارت عيناه في لون الغرا :

ـ قديماً ذهب جبل الى الافندي يسأله العدل والرحمة ، فارسل اليه زقلط ورجاله ولولا النبابيت ـ لا الرحمة ـ لهلك جبل وآله .

وهتف عم شافعي محذراً :

ـ يا هوه ! للحيطان آذان ، لو سمعوكم ما وجدتم من يسمّي عليكم .

فقال حنورة :

ـ صدق الرجل ، ما انتم الا حشاشون لا خير فيكم ، ولو مرّ امامكم الآن خنفس لسجدتم بين يديه .

ثم وهو يلتفت نحو رفاعة :

لا تؤاخذنا يا بني ، فليس على الحشاش حــرج ، ألم تجرب الحشيش يا رفاعة ؟

فقال عم شافعي ضاحكاً :

ــ لا يميل الى مجالسه ، وان زاد على نفسين لهث او نام .

فقال فرحات :

ــ ما الطف هذا الشاب ، يظنه البعض كودية زار لملازمتــه لأم بخاطرها ويظنه آخرون شاعراً لتعلقه بالحكايات .

فقال حجازي ضاحكاً :

ــ ويكره مجالس الحشيش كما يكره الزواج !

ونادى برهوم صبي القهوة ليأخذ الجوز ، ثم قاموا مسلّمين فانفضّ المجلس . وترك عم شافعي المنشار لينظر الى ابيه في عتاب ثم قال :

ــ لا تحشر نفسك في احاديث اولئك الناس .

وجاء غلمان ليلعبوا أمام الدكان فدار رفاعة حول الطاولة حتى وقف أمام أبيه ، ثم تناول يده وتراجع به الى ركن الدكان بعيداً عن الآذان . بــدا منفعلاً قلقاً لكن تطابقت شفتاه في تصميم . وشع من عينيه نور عجيب حتى تساءلت عينا الرجل واذا برفاعة يقول :

ــ لن أستطيع السكوت بعد اليوم .

فتضايق الأب . يا له من متعب هذا الابن العزيز . ينفق وقته الغالي في بيت أم بخاطرها . ويخلو الساعات الطوال الى نفسه عند صخرة هند . واذا مكث في الدكان ساعةً أثار المشاكل بمناقشاته .

ــ هل تجد تعباً ؟

فقال بهدوء غريب حل محل القلق :

ــ لا يجوز ان أخفي عليك ما في نفسي .

ــ ماذا عندك ؟

فاقترب منه اكثر وقال :

ـ أمس عقب خروجي من بيت الشاعر عند منتصف الليل شعرت برغبة في الانطلاق فقصدت الخلاء ، مشيت في الظلام حتى تعبت ، ثم اخترت مكاناً اسفل سور البيت الكبير المشرف على الخلاء فجلست مسنداً ظهري الى السور .

فبدا الاهتمام في عيني الرجل ، وحثه بنظرة على متابعة الحديث فقال :

ـ سمعت صوتاً غريباً يتكلم ، كأنما كان يحدث نفسه في الظلام ، فدهمني شعور مشرق بأنه صوت جدنا الجبلاوي .

فحملق الرجل في وجه ابنه وتمتم في ذهول :

ـ صوت الجبلاوي ؟ ما الذي حملك على هذا الظن ؟

فقال رفاعة بحرارة :

ـ ليس ظناً يا أبي ، سيجيئك الدليل ، وقد قمت حال سماعي الصوت فاستدرت نحو البيت وتراجعت الى الوراء لأتمكن من رؤيته ولكني لم أرَ إلاّ ظلاماً .

ـ الحمد لله !

ـ صبراً يا أبي ، سمعت الصوت وهو يقول: « أما جبل فقد قام بمهمته وكان عند حسن الظن به ، ولكن الأمور ارتدّت الى أقبح مما كانت عليه » !

شعر شافعي بصدره يحترق وتفصّد جبينه عرقاً ، وقال بصوت متهدج :

ـ ما اكثر الذين جلسوا مجلسك تحت السور فلم يسمعوا شيئاً .

ـ لكني أنا سمعت يا أبي .

ـ لعله أحد كان راقداً في الظلام !

فهز رأسه بعزم وقال :

ـ بل جاء الصوت من البيت !

ـ كيف عرفت هذا ؟

ـ هتفت قائلاً : « يا جدي ، جبل مات ، وخلفه آخرون ، فمدّ

الينا يدك .

فقال شافعي باضطراب :

– الله أسأل ألا يكون أحد سمعك .

فقال رفاعة بعينين مضيئتين :

– جدي سمعني ، وجاءني صوته قائلاً : « ما أقبح ان يطالب شاب جده العجوز بالعمل ، والابن الحبيب من يعمل .. » فسألته : « وما حيلتي حيال اولئك الفتوات انا الضعيف ؟ » فأجابني : « الضعيف هو الغبي الذي لا يعرف سر قوته وانا لا أحب الأغبياء » .

فتساءل عم شافعي في فزع :

– أتظن ان هذا الكلام دار بينك وبين الجبلاوي ؟

– نعم ورب السماوات !

فند عن الرجل أنين ، وقال متوجعاً :

– يا للاوهام خلاقة المصائب !

– صدقني يا أبي ، ليس فيما أقول شك .

فقال الرجل متحسراً :

– لا تقطع أملي في أن نجد فيه شكاً .

فقال رفاعة بوجه يتألق نشوة كالنغمة الحلوة :

– وأعرف الآن ما يراد مني .

فضرب الرجل جبينه بغيظ وصاح متسائلاً :

– وهل أيضاً يراد منك شيء ؟

– نعم ، اني ضعيف ولكني لست غبياً ، والابن الحبيب من يعمل !

فهتف شافعي وهو يشعر كأن المنشار ينشر صدره :

– سيكون عملك أسود ، وسوف تهلك وتجرنا معك الى الهلاك !

فقال رفاعة باسماً :

– انهم لا يقتلون الا من يتطلع الى الوقف !

– وهل تتطلع الى شيء غير الوقف ؟

فقال رفاعة بصوت مليء بالثقة :

– كان أدهم ينشد الحياة الصافية الغنّاء ، كذلك جبل وهو لم يطالب بحقه في الوقف إلا سعياً وراء الحياة الصافية الغناء ، لكن غلب علينا الظن بأن هذه الحياة لن تتيسر لأحد الا اذا توزع الوقف على الجميع فنال كلٌ حقه واستثمره حتى يغنيه عن الكد فتخلص له الحياة الصافية الغناء ، ولكن ما أتفه الوقف ان امكن بلوغ هذه الحياة بدونه ، وهو أمر ممكن لمن يشاء ، وبوسعنا ان نغني منذ الساعة !

فتنهد عم شافعي في شيء من الارتياح ، وتساءل :

– هل قال لك جدك ذلك ؟

– قال إنه لا يحب الغباء ، وقال إن الغبي هو الذي لا يعرف سر قوته ، واني آخر من يدعو الى قتال في سبيل الوقف ، الوقف لا شيء يا أبي ، وسعادة الحياة الغنّاء هي كل شيء ، ولا يحول بيننا وبين السعادة الا العفاريت الكامنة في أعماقنا ، ولم يكن عبثاً ان أشغف بطب العفاريت وان أحسنه ، لعلها إرادة رب السماوات هي التي دفعتني اليه .

ارتاح شافعي بعد عذاب ، ولكن بعد ان استنفد العذاب قواه ، فانحط على النشارة ، ماداً ساقيه ، مسنداً ظهره الى ضلفة نافذة منتظرة دورها في الاصلاح ، ثم ساءل ابنه في شيء من السخرية :

– وكيف لم نبلغ الحياة الغناء وفينا أم بخاطرها من قبل ان تولد أنت ؟

فقال رفاعة بالصوت المليء بالثقة :

– لأنها تنتظر حتى يجيء اليها المرضى الموسرون ولا تذهب بنفسها الى المساكن .

فنظر عم شافعي في اركان دكانه وقال بارتياب :

– انظر الى اقبال الرزق علينا فماذا يخبيء لنا الغد من تحت رأسك ؟

فقال رفاعة بابتهاج :

– كل خير يا أبي ، ان شفاء المرضى لن يقلق إلا العفاريت .

وتوهج ضياء في الدكان منبعثاً من مرآة صوان قرب الباب ، عاكساً شعاع الشمس المائلة .

٥١

وانتقل القلق ليلاً الى بيت عم شافعي . ومع ان الحديث تناهى الى عبدة في اطار من الطمأنينة ، ومع أنها لم تعلم سوى ان رفاعة سمع صوت جده وهو يتكلم وانـــه قرر بعد ذلك ان يزور المساكين ليطرد عنهـــم العفاريت ، الا ان القلق اجتاح نفسهـــا ولبثت تقلب وجوه العواقب . كان رفاعة في الخارج . وكان في أقصى الحارة – بعيداً عن حي جبل – عرس تترامى منـــه أصوات طبل وزمر وزغاريد . وارادت المرأة ان تواجه الحقيقه فقالت بحزن :

– رفاعة لا يكذب .

فقال شافعي بامتعاض :

– ولكن قد تخدعه الأوهام : كلنا عرضة لذلك .

– وماذا ترى فيما سمع ؟

– كيف لي بأن أجزم !

– لا محال في الأمر ما دام جدنا حياً .

– الويل لنا لو عرف الخبر .

فقالت برجاء :

– فلنكتم الخبر ، ولنحمد الله على أنه ركز اهتمامـــه بالنفوس لا بالوقف ، وما دام لا يؤذي أحداً فلن يؤذيه أحد .

فقال شافعي بفتور :

ـ ما اكثر الذين يُؤذَون في حارتنا دون ان يؤذوا أحداً !

واختفت أنغام العرس وراء ضجة انفجرت في الدهليز . وأطلا من النافذة فرأيا الدهليز مزدحماً بالرجال ، وتبيّنا على ضوء مصباح في يد احدهم وجوه حجازي وبرهوم وفرحات وحفورة وآخرين ، وكان كل لسان يتكلم او يصرخ فاختلطت الأصوات وعمت الضوضاء . وعلا صوت هاتفاً : « شرف آل جبل في الميزان ، ولن نسمح لأحد بتلويثه » .

وهمست عبدة في أذن زوجها وهي ترتعد :

ـ سر ابننا انكشف !

فتراجع شافعي عن النافذة متأوهاً وهو يقول :

ـ لم يكذبني قلبي قط .

واندفع الرجل خارج بيته غير مبال بالخطر فتبعته زوجه على الأثر . وشق الرجل في الزحام سبيلاً متسائلاً بصوت مرتفع :

ـ رفاعة ! .. أين انت يا رفاعة ؟

ولم يرَ الرجل ابنه في مجال ضوء المصباح ، ولم يسمع صوته ولكن حجازي اقترب منه وسأله بصوت مرتفع ليُسمعه رغم الضوضاء :

ـ هل تاه ابنك مرة أخرى ؟

وصاح به فرحات :

ـ تعال اسمع ما يقال وانظر كيف يعبث العابثون بآل جبل على آخر الزمان !

فهتفت عبدة جزعاً :

ـ وحدوا الله ، والمسامح كريم .

فتعالت اصوات الغضب، يهتف بعضها : « هذه المرأة مجنونة ! » ويهتف آخرون : « انها لا تعرف معنى الشرف ! » وامتلأ قلب شافعي رعباً وسأل حجازي مستعطفاً :

ـ أين الولد ؟
فشق حجازي سبيله حتى الباب وصاح بأعلى صوته :
ـ يا رفاعة .. تعال يا ولد كلم عم شافعي .
فاختلط الأمر على عم شافعي الذي كان يظن ابنه مقبوضاً عليه في ركن الدهليز ، واذا برفاعة يظهر في مجال الضوء فيجذبــه ابوه من ذراعه ويتقهقر به الى موقف عبدة . وسرعان ما تراءى فانوس في يد شلضم يسير به بين يدي خنفس الذي تقبّض وجهه حنقاً وتجهماً . واتجهت الانظار نحو الفتوة وساد الصمت . وتساءل خنفس بصوت غليظ :
ـ ماذا وراءكم ؟
فاجابه اكثر من صوت في آن :
ـ ياسمينة لوثتنا !
فقال خنفس :
ـ فليتكلم الشاهد منكم !
فتقدم زيتونة ـ سائق عربة كارو ـ حتى وقف امام خنفس وقال :
ـ منذ قليل رأيتها خارجة من باب بيت بيومي الخلفي ، تبعتها الى هنا ثم سألتها عما كانت تفعل في بيت الفتوة فتبين لي سكرها ، كانت رائحة الخمر تخرج من فيهــا فتملأ الدهليز ، افلتت مني واغاقت على نفسها الباب ، والآن سلوا أنفسكم عما يمكن ان تفعله امرأة سكرانة في بيت فتوة .
استرخت اعصاب شافعي وعبدة من ناحية ، وتوترت أعصاب خنفس من ناحية أخرى . أدرك الرجل ان فتونته تتعرض لامتحان قاس . فلو تهاون في معاقبة ياسمينة سيفقد كرامته امام آل جبل ، ولو ترك الغاضبين ليعتدوا عليها فسيدفع بنفسه الى موقف التحدي امام بيومي فتوة الحارة كلها . مــا العمل ؟ وكان رجــال جبل يتوافدون من الربوع ، ويحتشدون في الحوش ، وفي الحارة امام ربع النصر فازداد مركز خنفس

حرجاً . وتتابعت الأصوات في غضب :
– اطردوها من حي جبل .
– يجب ان تُجلد قبل طردها .
– اقتلوها قتلاً .
وترامت صرخة ياسمينة التي كانت تنصت في الظلام وراء النافذة .
واحدقت الأعين بخنفس لكن رفاعة سمع وهو يسأل أباه :
– أليس الأولى بهم يا أبي أن يصبّوا غضبهم على بيومي المعتدي؟
وغضب كثيرون من بينهم زيتونة الذي أجابه قائلاً :
– هي التي ذهبت الى بيته بنفسها .
وصاح به آخر :
– وإذا لم يكن عندك كرامة فمن الخير ان تسكت .
وزجره ابوه بنظرة لكن رفاعة قال باصرار :
– لم يفعل بيومي الا مثلما تفعلون .
فصرخ فيه زيتونة بجنون :
– هي من آل جبل فليست للآخرين .
– هذا الولد سفيه وبلا كرامة .
فلكزه عم شافعي كي يسكت على حين صاح برهوم :
– الكلمة الآن للمعلم !
وغلى الغيظ في قلب خنفس حتى كاد ان يختنق . وصرخت ياسمينة صرخات استغاثة . وانتشر الغضب فاتجهت الانظار نحو بيت الفتاة وتوثب فيها الهجوم . وتتابعت صرخات ياسمينة حتى تقطع قلب رفاعة ولم يعد في وسعه الاحتمال ، فأفلت من يد أبيه وشق طريقه الى بيت ياسمينة وهتف برجاء :
– رحمة بضعفها وذعرها .
فصاح به زيتونة :

ـ انت مرة !

وناداه شافعي بحرارة لكنه لم يباله وأجاب زيتونة :

ـ الله يسامحك (ثم للجميع) ارحموها افعلوا بـي ما تشاءون ، ألا تحرك الاستغاثات قلوبكم ؟ !

فعاد زيتونة يصيح :

ـ لا تلتفتوا لهــذا الرقيع (ثم مخاطبــاً خنفس) الكلمة كلمتك يا معلم !

فتساءل رفاعة :

ـ هل يرضيكم ان اتزوج منها ؟

فاختلط صراخ الغضب بصيحات الاستهزاء ، وقال زيتونة :

ـ لا يهمنا الا ان تنال جزاءها .

فاستقتل رفاعة قائلاً :

ـ سيكون العقاب من شأني أنا .

ـ بل هو من شأن الجميع .

ووجد خنفس في اقتراح رفاعة منقذاً له من ورطتــه . لم يكن في قلبه مقتنعاً به ولكن لم يكن عنده خير منه . وغالى في تجهمه مداريــاً ضعفه ، وقال :

ـ الولد ارتبط امامنا بزواجها فله ما يطلب .

زاغ بصر زيتونة وأعماه الغضب فصاح :

ـ ضيّع الجبن الشرف !

وإذا بقبضة خنفس تحطم أرنبة أنفه ، فتراجع مولولاً والدم يسيل من منخريه بغزارة . وأدرك الجميع ان خنفس سيغطي على موقفه الضعيف بارهاب من يخالفه . وقلب عينيه في الوجوه التي كشف ضوء الفانوس عن خوفها فلم تند من احد منهم حركة عطف على محطم الأنف . بل وبخ فرحات زيتونة قائلاً : « عيبك في لسانك » . وقال برهوم لخنفس

« لولاك ما اهتدينا الى حل ! » . وقال له حنورة : « زعلك بالدنيا يا معلم » . وأخذوا في التفرق فلم يبق في النهاية إلا خنفس وشلضم وشافعي وعبدة ورفاعة . ومضى عم شافعي الى خنفس ليحييه فمد له يده ولكن الآخر استشاط غضباً وضرب يده بظاهر كفه فتأوه الرجل مقهقراً . وهرع اليه ابنه وزوجته على حين غادر خنفس الدهليز وهو يسب الرجال والنساء وآل جبل بل وجبل نفسه . ونسي عم شافعي في ألمه الورطة التي عثر فيها ابنه . ونقع الرجل يده في ماء ساخن وراحت عبدة تدلكها وهي تقول :

– ترى هل اوغرت زكية صدر زوجها علينا ؟!

فقال عم شافعي متوجعاً :

– نسي الجبان ان ابننا الأحمق هو الذي انقذه من نبوت بيومي ..

٥٢

كان رفاعة معقد آمال والديه فشد ما خابت الآمال . بزواجه من ياسمينة سينتهي الشاب الى لا شيء ، أما الأسرة فصارت مضغة للأفواه ولما يتم الزواج . وبكت عبدة خفية حتى أضر بها البكاء . وتجهم وجه شافعي اذ تجهمته الدنيا . لكنهما حيال الشاب انطويا على نفسيهما وتجنبا المغاضبة . ولعل ياسمينة هونت من الخطب بسلوكها عقب المظاهرة اذ هرعت الى بيت عم شافعي وجثت امام الرجل وزوجه باكية وسكبت على قدميها بعض ما فاض به قلبها من الامتنان ، ثم أعلنت في حرارة وجد توبتها . ولم يكن من الممكن العدول عن الزواج بعد أن ارتبط به الشاب جهاراً أمام آل جبل ، فسلم عم شافعي وزوجه بالأمر ووطنا النفس على تقبله . وتنازع قلبي الوالدين رغبتان ، واحدة تود ان ترعى

التقاليد في الاحتفــال بعرس رفاعة وموكب زفّته ، والأخرى ترى الاقتصار على حفل بيتي حتى لا يتعرض الموكب بسخرية آل جبل الذين باتوا يعرّضون بالزواج في كل ناد . وقالت عبدة في حسرة معربة عن عواطفها المكبوتة :

– طالما منّيت نفسي برؤية زفّة رفاعة ، ابني الوحيد ، وهي تجوب الأحياء !

فقال عم شافعي بامتعاض :

– لن يرضى بالاشتراك فيها أحد من آل جبل .

فقطبت عبدة قائلة :

– العودة الى سوق المقطم خير من البقاء بين اناس لا يحبوننا !

فقال رفاعة وهو يمد ساقيه تحت النافذة المفتوحة متشمساً :

– لن نغادر الحارة يا أمي .

فصاح شافعي بحدة :

– ليتنا لم نعد ! (ثم مخاطباً ابنه) .. الم تكن حزيناً يوم عدنا ؟

فابتسم رفاعة قائلاً :

– اليوم غير الأمس ، اذا ذهبنا فمنذا الذي يخلّص آل جبل من العفاريت ؟

فقال شافعي محتداً :

– فلتركبهم العفاريت الى الأبد !

ثم بعد تردد :

– انت نفسك ستجيء الى بيتنا بـ ..

وقاطعه رفاعة :

– لن اجيء الى بيتنا بأحد ، سأذهب انا الى المسكن الآخر .

فهتفت الأم :

– لا يعني أبوك ذلك !

ــ لكنني أعنيه يا أمي ، ليس البيت الجديد بالبعيد ، وفي وسعنا ان نتصافح كل صباح من النافذة !

ورغم أحزان عم شافعي قرر الاحتفال بيوم الزفاف ولو في أضيق الحدود . أقام الزينات بالدهليز وفوق بابـي المسكنين ، وجاء بمغن وطباخ . ودعا جميع المعارف والأصدقاء ، ولكن لم يلب الدعوة الا عم جواد وأم بخاطرها وعم حجازي واسرته وبعض الفقراء الذين حرصوا على الطعام . وكان رفاعة أول فتى يتزوج بلا زفّة . وانتقلت الاسرة عبر الدهليز الى بيت العروس . وغنى المطرب بفتور لقلة المدعوين . وفي اثناء تناول الطعام اثنى جواد الشاعر على شهامة رفاعة وخلقه وقال انه فتى زكي حكيم صافي السريرة ولكنه في حارة لا تقيم لغير البلطجة والنبابيت وزناً . واذا بغلمان يقفون امام الربع ويغنون معاً :

يا رفاعة يا وش القمله مين قلّك تعمل دي العمله

ويختمون بالتهليل والعربدة . ونظر رفاعة في الأرض على حين اصفر وجه شافعي . وغضب عم حجازي وقال :

ــ الكلاب اولاد الكلاب !

ولكن عم جواد قال :

ــ ما اكثر القاذورات في حارتنا ولكن الطيب لا ينسى فيها ابداً ، كم من فتوة استكبر فيها ؟ لكنها لا تذكر بالجميل الا أدهم وجبل .

ثم حث المطرب على الغنــاء ليغطي غناءه على الأصوات المعربدة . ومضى الحفل في مغالبة للوجوم حتى انصرف الجميع . ولم يبق في البيت الا رفاعة وياسمينة . بدت الفتاة في ثوب العرس آية في الجمال ، والى جانبها جلس رفاعة في جلباب حريري مهفهف ، وعلى الرأس لاسة مزركشة ، وفي القدمين مركوب فاقع الاصفرار . جلسا على كنبة ، يقابلها في الناحية الأخرى الفراش المورد . وقد لاحت في مرآة الصوان

صورة الطست والابريق تحت الفراش . والظاهر انهـا كانت تتوقع من جانبه هجوماً ، أو في الأقل تمهيداً للهجوم المنتظر . ولكنه لبث يردد البصر بين الفانوس المدلى من السقف والحصيرة الملونة . ولما طال الانتظار ارادت ان تبدد كثافة الصمت المخيم فقالت برقة :

– لن أنسى فضلك ؛ اني مدينة لك بحياتي .

فنظر نحوها في مودة وقال بصوت من لا يود الرجوع الى هذا الحديث:

– كلنا مدينون بحياتنا لغيرنا .

ما أطيبه ! ليلة الحادث أبى أن يبيح لها يديه تقبلهما . وهو الآن لا يود تذكيره بالجميل الذي صنع . ليس كمثل طيبتـه الا صبره . لكن فيم يفكر يا ترى ؟ هل ساءه أن تدفعه طيبته الى الزواج من مثلها ؟

– لست شريرة بالدرجة التي يظنها الناس ، أما هم فقد أحبوني واحتقروني لشيء واحد .

فقال مواسياً :

– أعرف ذلك ، ما اكثر الأخطاء بحارتنا .

فقالت بحنق :

– يفاخرون دائماً بأنهم من صلب أدهم ، وفي نفس الوقت يباهون بالكبائر ..

فقال في يقين :

– ما دام التخلص من العفاريت ميسوراً فما أقربنا من السعادة .

ولم تدرك مرماه ولكنها استشعرت فجأة مدى السخرية التي تحيط بها في مجلسها فقالت ضاحكة :

– ما أعجبه من حديث في ليلة الزفاف !

ورفعت رأسها في شيء من الكبرياء فبدا انها تناست حال الامتنان ، وأزاحت عن منكبيها الوشاح ، ونظرت نحوه نظرة مفعمة بالدلال ، فقال برجاء :

ـ ستكونين أول من يسعد حارتنا .
فقالت ياسمينة :
ـ حقاً ؟ ! عندي شراب !
ـ شربت قليلاً مع العشاء ، وفيه الكفاية .
فتفكرت قليلاً في حيرة ثم قالت :
ـ عندي حشيش طيب !
ـ جرّبته فوجدتني لا أطيقه .
فقالت في ارتياح :
ـ أبوك حشاش قارح ، رأيته مرة خارجاً من غرزة شلضم وهو لا يميز بين الليل والنهار !
فابتسم دون أن ينبس ، فردّت عنه طرفها في انكسار ، وتميزت غيظاً . وقامت فمضت حتى الباب ثم استدارت عائدة حتى وقفت تحت الفانوس . وشف ثوبها الرقيق عن جسدها البارع . وجعلت تنظر في عينيه الهادئتين حتى داخلها اليأس . وتساءلت :
ـ لماذا انقذتني ؟
ـ لا أطيق ان يتعذب إنسان .
فغلبها الغيظ ، وقالت في حدة :
ـ من أجل هذا تزوجتني ، من أجل هذا وحده !
فقال برجاء :
ـ لا تعودي الى أيام الغضب !
فعضت شفتها فيما يشبه الندم وقالت بصوت منخفض :
ـ ظننتك احببتني .
فقال في صدق وبساطة :
ـ اني أحبك يا ياسمينة .
فلاح التعجب في عينيها وغمغمت :
ـ حقاً ؟ !

— نعم ، ما من مخلوق في حارتنا إلا وأحبه !
فتنهدت في خيبة ، ورمقته بريبة قائلة :
— فهمتك ، ستبقى الى جانبي أشهراً ثم تطلقني .
فاتسعت عيناه وتمتم :
— لا تعودي الى الافكار الماضية !
— حيرتني ! ماذا عندك لي ؟
— السعادة الحقيقية .
فقالت بامتعاض :
— عرفتها احياناً من قبل أن أراك !
— لا سعادة بلا كرامة !
فقالت وهي تضحك على رغمها :
— ولكننا لا نسعد بالكرامة وحدها .
فقال بصوت حزين :
— لم يعرف أحد من حينا السعادة الحقيقية .
اتجهت بخطوات ثقيلة نحو الفراش ، وجلست على حافته في فتور .
ودنا اليها بحنان وقال :
— انك كجميع أهل حينا لا تفكرين الا في الوقف الضائع !
فلاح في وجهها السخط وقالت :
— ربنا يقدرني على حل ألغازك .
— ستحل نفسها بنفسها عندما تتخلصين من عفريتك .
فهتفت بحدة :
— اني راضية عن نفسي كما هي .
فقال رفاعة بأسى :
— هكذا يقول خنفس والآخرون !
ونفخت في ضيق وتساءلت :

ــ هل نتكلم على هذا النحو حتى الصباح ؟
ــ نامي ، أسعد الله احلامك !
وتزحزحت الى الوراء ثم استلقت على ظهرها ، ورددت عينيها بين الفراغ جنبها وبين عينيه ، فقال :
ــ خذي راحتك ، سأنام أنا على الكنبة .
وانتابتها نوبة ضحك ، لكنها لم تستسلم لها طويلاً ، وقالت ساخرة :
ــ أخاف ان تزورنا امك غداً لتحذرك من الافراط !
ونظرت نحوه لتتشفى برؤية الخجل في وجهه ولكنه طالعها بعينين هادئتين صافيتين ، وقال :
ــ أود أن أخلصك من عفريتك !
فصاحت غاضبة :
ــ دع اعمال النساء للنساء .
وأدارت وجهها للحائط . وكان صدرها يحترق غيظاً وقلقاً . وقام رفاعة الى الفانوس وأخفض ذبالته ثم نفخه فانطفأ وساد الظلام .

٥٣

وشهدت الأيام التالية للزواج حركة دائبة في حياة رفاعة . انقطع عن الدكان أو كاد، ولولا حب أبيه وعطفه لما وجدما يمسك به حياته. ومضى يدعو من يصادفه من آل جبل الى ان يثق به كي يخلصه من عفريته فيحقق بذلك سعادة صافية لم يحلم بها من قبل . وتهامس آل جبل بان رفاعة ابن شافعي قد خف عقله وامسى من زمرة المجذوبين، وعلل البعض ذلك بما عرف عنه من غرابة أطوار ، كما علله آخرون بزواجه من امرأة مثل ياسمينة ، ودارت الاحاديث عن ذلك في القهوة

والبيوت وحول عربات اليد وفي الغرز . وشد ما دهشت أم بخاطرها حين مال رفاعة على أذنها وقال برقته المعهودة :

ــ هلا سمحت لي بأن أطهّرك ؟

فضربت المرأة صدرها بيدها وقالت :

ــ من أدراك بأن علي عفريتاً شريراً ؟ ! أهذا هو رأيك عن المرأة التي أحبتك كابنها ؟ !

فقال جاداً :

ــ أنا لا أعرض خدماتي إلا على الذين أحبهم وأحترمهم ، وأنت مصدر خــير وبركة ولكنك لا تخلين من طمع يحملك على الاتجــار بالمرضى ، فلو تخلصت من سيدك لوهبت الخير بلا ثمن !

ولم تتمالك المرأة من الضحك وهي تقول :

ــ أتود خراب بيتي ! الله يسامحك يا رفاعة .

وتناقل الناس حديث أم بخاطرها ضاحكين ، حتى عم شافعي ضحك ضحكة بلا مسرة ولكن رفاعة قال له :

ــ أنت نفسك يا أبي في حاجة إلي ، ومن البر أن أبدأ بك .

فهز الرجل رأسه في كمد ، وراح يدق المسامير بين يديه بقوة وشت بانفعاله ، ثم قال :

ــ ربنا يصبرني .

وحاول الشاب اقناعه فتساءل الرجل متألماً :

ــ أما كفاك أن جعلتنا أحدوثة الحي ؟ !

وانزوى رفاعة في ركن الدكان مكتئباً فرمقه الرجل بريبة وسأله :

ــ أحقاً دعوت زوجك إلى ما تدعونا اليه ؟

فقال بأسف :

ــ وهي مثلكم لا ترغب في السعادة .

ومضى رفاعة الى غرزة شلضم في الخرابة وراء القهوة فوجد حول

المحجرة شلضم وحجازي وبرهوم وفرحات وحنورة وزيتونة . تطلعوا اليه بغرابة وقال شلضم :
— أهلاً بابن عم شافعي ، ترى هل أقنعك الزواج بفائدة الغرز ؟!
فوضع رفاعة على الطبلية لفة كنافة وقال وهو يتخذ مجلسه :
— جئتكم بهذه تحية للمجلس .
فقال شلضم وهو يدير الجوزة :
— مرحباً بالكرم .
لكن برهوم ضحك فجأة وقال بلا هوادة :
— وسوف يعرض علينا بعد ذلك أن يقيم لنا حفلة زار ليطهرنا من العفاريت !
وهتف زيتونة حانقاً بصوته الأخنف وهو يلتهمه بنظرة حاقدة :
— على زوجتك عفريت اسمه بيومي فخلّصها منه إن استطعت .
وبهت الرجال ووضح في وجوههم الحرج فقال زيتونة وهو يشير الى انفه المحطم :
— بسببه فقدت أنفي .
وبدا أن رفاعة لم يغضب ، فنظر فرحات نحوه بأسى وقال :
— أبوك رجل طيب ونجار ماهر ، ولكنك بسلوكك هذا تجر عليه المتاعب والسخرية ، لم يكد الرجل يفيق من زواجك حتى هجرت دكانه لتخلص الناس من العفاريت ! شفاك الله يا بني .
— لست مريضاً ولكني أود لكم السعادة .
فشد زيتونة نفساً طويلاً وهو يرمقه بقسوة ثم نفث الدخان متسائلاً :
— ومن أخبرك بأننا غير سعداء ؟ !
فقال الشاب :
— أراد جدنا لنا غير ما نحن عليه .
فقال فرحات ضاحكاً :

ـ دع جدك في حاله ، من أدراك انه لم ينسنا !

وحدجه زيتونة بنظرة حانقة حاقدة ولكن حجازي لكزه قائلاً في تحذير :

ـ ينبغي ان تحترم المجلس فلا تفكر في الاعتداء !

وأراد الرجل ان يغير الجو فهز رأسه وأشار الى أصحابه اشارة خاصة فراحوا يغنون :

مركب حبيبي في الميه جايه
راخية شعورها على الميه

وغادر المكان وبعضهم ينظر نحوه في رثاء . وعاد الى بيته بفؤاد كسير فاستقبلته ياسمينة بابتسامة هادئة . وكانت تلومه أول الأمر على سلوكه الذي جعل منه ـ ومنها بالتالي ـ نادرة . لكنها كفت عن لومه يائسة . وصبرت على تلك الحياة التي لم تدر على أي وجه ستنتهي ، بل وعاملته بلطف ورقة . ودق الباب ، وإذا بالقادم خنفس فتوة آل جبل. دخل الرجل دون استئذان فقام له رفاعة مرحباً فقبض الفتوة على منكبه بيد شديدة كأنها فكا كلب غاضب . وسأله دون مقدمات :

ـ ماذا قلت عن الوقف في غرزة شلضم ؟

ارتاعت ياسمينة حتى هرب دمها لكن رفاعة قال بهدوء رغم انه بدا كعصفور بين مخالب نسر :

ـ قلت إن جدنا يود لنا السعادة !

فهزه هزة عنيفة وسأله :

ـ من أدراك بذلك ؟

ـ ورد ذلك ضمن أقواله لجبل .

فازدادت يده شدة على منكبه وقال :

ـ انه كلم جبل عن الوقف .

فقال رفاعة وقد انهكه تحمل الألم :

ـ لا يعنيني الوقف في شيء ، السعادة التي لم استطع ان أحققهـا ! بعد لأحد شيء غير الوقف ، وغير الخمر ، وغير الحشيش ، قلت ذلك في كل مكان بحي جبل ، وسمعني الجميع وأنا أقوله .

فهزه مرة أخرى وقال :

ـ كان ابوك عاصياً ثم تاب ، إحذر ان تعيد سيرته والا هرستك كما تهرس البقة ..

ودفعه فهوى على ظهره فوق الكنبة ، ثم ذهب . وهرعت ياسمينة اليه لتواسيه وتدلك منكبه الذي مال عليه رأسه من الوجع . وبدا في شبه غيبوبة ، وغمغم كأنما يحادث نفسه :

ـ انه صوت جدي الذي سمعته :

ونظرت في وجهه باشفاق وذعر . وتساءلت هل ضاع عقله حقاً ؟! ولم تعد عليه ما قال وساورها قلق لم تشعر به من قبل . ويومـا غادر الربع فاعترضت سبيله امرأة من غير آل جبل ، وقالت له باستعطاف :

ـ صباح الخير يا معلم رفاعة .

ودهش لرنة الاحترام في صوتها وللقب الذي قرنته باسمه فسألها :

ـ ماذا تريدين ؟

فقالت بضراعة :

ـ لي ابن ممسوس أرجو ان تخلصه !

وكان كآل جبل جميعاً يحتقر أهل الحارة فاستنكف ان يضع نفسه في خدمة المرأة فيضاعف من ازدراء آله له ، فقال لها :

ـ الا توجد كودية في الحارة ؟

فقالت المرأة بصوت باك :

ـ بلى ولكني امرأة فقيرة .

ورق لها قلبه كما أسره لجوؤها اليه هو الذي لم يلق من آله الا الهزء والاحتقار . ونظر اليها في تصميم وهو يقول :

ـ اني طوع أمرك .

٥٤

كانت ياسمينة تطل من النافذة على الحارة متسلية بالمنظر الجديد . وكان في أسفل الربع غلمان يلعبون ، وبائعة دوم تنادي ، على حين أمسك بطيخة بتلابيب رجل وراح يضرب وجهه بكفه والآخر يستعطفه دون جدوى . وسألها رفاعة وهو جالس على الكنبة يقص أظافر قدميه :

– هل يعجبك بيتنا الجديد ؟

فالتفتت نحوه قائلة :

– هنا تحتنا الحارة ، أما هنالك فلم نكن نرى الا الدهليز المعتم .

فقال رفاعة بأسى :

– ليت الدهليز بقي لنا ، إنه دهليز مبارك ، اذ فيه تقرر النصر لجبل على اعدائه ، ولكن لم يكن في الامكان مواصلة الاقامة بين اناس يستهزئون بنا في كل خطوة ، أما هنا فالفقراء طيبون ، والطيب هو السيد لا آل جبل .

فقالت ياسمينة باستهانة :

– وأنا كرهتهم مذ عزموا على طردي .

فسألها باسماً :

– لماذا إذن تقولين للجيران إنك من آل جبل !

فضحكت ضحكة كشفت عن اسنانها اللؤلؤية وقالت في مباهاة :

– ليعلموا انني فوقهم جميعاً .

فوضع المقص على الكنبة وطرح ساقيه على الحصيرة وهو يقول :

– ستكونين اجمل وافضل عندما تقهرين الغرور ، ليس آل جبل بخير حارتنا ، خير الناس أطيبهم ، وكنت مخطئاً مثلك فخصصت آل

جبل باهتمامي ، ولكن السعادة لا يستحقها الا من ينشدهـا مخلصاً ، انظري الى الطيبين كيف يقبلون عليّ وكيف يبرأون من العفاريت !

فقالت باحتجاج :

– لكن كل أحد هنا يعمل بأجر إلا أنت !

– لولاي ما وجد الفقراء من يشفيهم ، انهم يقدرون الشفاء لكنهم لا يملكون ثمنه ، وانا ما عرفت الأصدقاء حتى عرفتهم .

وامسكت عن الجدل بوجه ممتعض فقال رفاعة :

– آه لو تدعنين لي كما يذعنون ! اذن لخلصتك مما يعكر صفو الحيـاة .

فتساءلت غاضبة :

– أتجدني مزعجة لهذا الحد ؟

– من الناس من يعشق عفريته وهو لا يدري .

فهتفت بحدة :

– ما أبغض هذا الحديث إليّ !

فقال باسماً :

– انك من آل جبـل ، وكلهم أبى ان يسلم لدوائي ، حتى أبي نفسه !

وعندما دق الباب أدركا ان زبوناً جديداً قد قدم فتهيأ رفاعـة لاستقباله .

والحق ان رفاعة لم يلق من عمره اسعد من هذه الأيام . كان يدعى في الحي الجديد بالمعلم رفاعة ، وكانوا يدعونه بها في اخلاص ومحبة . وعرف بأنه يخلص من العفاريت ويهب الصحة والسعادة لوجه الله وحده . وهذا سلوك نقي لم يعرف عن أحد قبله ، فلذلك أحبه الفقراء كما لم يحبوا احداً قط . وطبيعي ان بطيخة فتوة الحي الجديد لم يحبه ، لسلوكه الطيب من ناحيته ولأنه لم يكن من القادرين على اداء أيـة اتاوة من

ناحية أخرى ، ولكنه في الوقت نفسه لم يجد مسوغاً للاعتداء عليه . أما الذين برئوا على يديه فكأن لكل منهم قصة يرددهـا . فأم داود كانت اذا ركبتها النوبة العصبية عضت وليدها ، وهي اليوم مثال للهدوء والاتزان . وسنارة الذي لم يكن له من هواية إلا الشجار والنقار أصبح وديعاً حليماً كأنه تحية سلام . وطلبة النشال تاب توبة صادقة واشتغل صبي مبيض نحاس . وعويس تزوج بعد الذي كان . واصطفى رفاعة من مرضاه أربعة وهم زكي وحسين وعلي وكريم ، اصطفاهم لصداقته فصاروا إخوة . لم يعرف أحد منهم الصداقة ولا الحب قبل ان يعرفه . كان زكي برمجياً ، وكان حسين مدمن أفيون لا يفيق ، وعلي يتدرب على الفتونة ، وكريم قواداً ، فانقلبوا رجالاً ذوي قلوب كبيرة . وكانوا يجتمعون عند صخرة هند حيث الخلاء والهواء النقي ، فيتبادلون أحاديث المودة والصفاء ، ويتطلعون إلى طبيبهم بأعين تفيض بالحب والاخلاص ، ويحلمون جميعاً بسعادة ستظل الحارة بأجنحتها البيضاء . ويومـاً تساءل رفاعة وهم بمجلسهم ينظرون الى حمرة الشفق في هدوء المغيب :

ـ لماذا نحن سعداء ؟

فأجاب حسين بحماس :

ـ أنتَ أنتَ سر سعادتنا .

فابتسم ابتسامة شكر وقال :

ـ بل لأننا تخلصنا من العفاريت فتطهرنا من الحقد والطمع والكراهية وسائر الشرور التي تفتك بأهل حارتنا .

فقال علي مؤمناً على قوله :

ـ سعداء بالرغم من أننـا فقراء ضعفاء لا حظ لنـا في الوقف او الفتونة .

فهز رفاعة رأسه اسفاً وقال :

ـ كم يتعذب الناس من أجل الوقف الضائع والقوة العميـاء فالعنوا

معي الوقف والفتونة .

فاستبقوا الى لعنها ، وتناول علي طوبة فرماها بأقصى قوته صوب الجبل . وعاد رفاعة يقول :

ـ ومذ قال الشعراء إن الجبلاوي حث جبل على أن يجعل من ربوع آل جبل بيوتاً تضارع البيت الكبير في جلاله وجماله طمح النـــاس الى قوة الجبلاوي وجاهه ، وتناسوا مزايـاه الأخريات ، لذلك لم يستطع جبل ان يغير النفوس بنيله حقه في الوقف ، ولما رحل عن الدنيا انقلب الاقوياء مغتصبين والضعفاء حاقدين وأطبق الشقاء على الجميع ، أما أنا فأفتح أبواب السعادة بلا وقف ولا قوة ولا جاه .

وهوى كريم بوجهه إليه فقبله ، فمضى يقول :

ـ وغداً عندما يلمس الأقوياء سعادة الضعفاء سيدركون ان قوتهم وجاههم واموالهم المغتصبة لا شيء .

وصدرت عن الاصدقاء كلمات الثناء والحب . وحمل الهواء غناء راع في أقصى الخلاء .

وتجلى في السماء نجم واحد . ونظر رفاعة في وجوه الأصحاب وقال:

ـ ولكني لا أكفي وحدي لعلاج أهل حارتنا ، آن لـكم ان تعملوا بأنفسكم ، وان تتعلموا الأسرار لتخلصوا المرضى من العفاريت .

فبدت الغبطة في الوجوه وهتف زكي :

ـ ذلك أعز أمانينا .

فابتسم اليهم قائلاً :

ـ ستكونون مفاتيح السعادة في حارتنا .

ولما عادوا إلى حيهم وجدوه يضيء بأنوار عرس في أحد الربوع . ورأى كثيرون رفاعة فأقبلوا عليه مصافحين . وتغيظ بطيخة فقـــام من مجلسه بالقهوة وهو يسب ويلعن ، ويصفع هـــذا وذاك ، ثم تحول الى رفاعة متسائلاً في قحة :

– ماذا ترى في نفسك يا ولد ؟
فقال رفاعة برقة :
– صديق المساكين يا معلم .
فصاح الرجل :
– اذن امشِ كما يمشي المساكين لا كعريس الزفة ، أنسيت انك طريد حيّ وزوج ياسمينة وكودية زار ؟!
وبصق في تحرش . وتباعد الناس . وساد الوجوم . لكن زغاريد الفرح غطت على كل شيء .

٥٥

وقف بيومي فتوة الحارة وراء باب حديقته الخلفي الذي يفتح على الخلاء . كان الليل في أوله وكان الرحل ينتظر وهو يتصنت . وعندما طرق اصبع الباب بخفة فتح الباب فتسللت الى داخل الحديقة امرأة كأنها بملاءتها ونقابها قطعة من الليل . تناول يديها وسار بها في مماشي الحديقة متجنباً الاقتراب من البيت حتى بلغ المنظرة فدفع الباب ودخل ، وهي في أثره . وأشعل شمعة فأقامها على حافة نافذة ، فبدت المنظرة في شبه مغيب ، والكنبات مصطفة باضلعها ، وفي الوسط صينية كبيرة محملة بالجوزة ولوازمها في دائرة من الشلت . ونزعت المرأة عنها ملاءتها والنقاب ، فضمها بيومي اليه بقوة نفذت الى عظامها حتى رمقته بنظرة استرحام . وتخلصت منه برشاقة فضحك ضحكة خافتة وجلس على شلته . وراح يعبث بأصبعه في رماد المجمرة حتى تكشف عن جمر يومض . وجلست الى جانبه وقبلت أذنه ثم اشارت الى المجمرة وهي تقول :

ـ كدت أنسى رائحته .

فراح يمطر خدها وعنقها بالقبل ثم قال وهو يرمي قطعة في حجرها:

ـ هذا الصنف لا يدخنه في حارتنا إلا الناظر والعبد لله !

وترامى من الحارة صوت معركة تحتدم ، سبّ وارتطام عصي ، وتحطم زجاج ، ووقع أقدام جارية ، وصوات امرأة ، ثم نباح كلب..

ولاح تساؤل منزعج في عيني المرأة ولكن الرجل راح يقطّع الصنف في غير مبالاة ، فقالت المرأة :

ـ كم يشق عليّ المجيء ! فلكي آمن العيون اسير من الحـــارة الى الجمالية ، ومن الجماليـــة الى الدراسة ، ومن الدراسة الى الخلاء حتّى بابك الخلفي .

فمال نحوهـــا دون ان تكف أصابعـــه عن العمل وتشمم ابطها في تلذذ وقال :

ـ لن أبالي ان ازورك في بيتك .

فابتسمت قائلة :

ـ لو فعلت ما تعرض لك احد من الجبناء ، حتّى بطيخة سيفرش لك الرمل ، ثم يصبون غضبهم عليّ وحدي .

وعبثت بشاربه الغليظ وقالت في دعابة :

ـ لكنك تسللت الى المنظرة في بيتك خوفاً من زوجتك .

فترك القطعة وطوقها بذراعـــه فضمها اليـــه بعنف حتّى أنّت ، ثم همست :

ـ اللهم احفظنا من عشق الفتوات .

فأطلقها وهو يرفع رأسه ويبرز صدره كالديك الرومي وقال :

ـ لا يوجد الا فتوة واحد ، اما الآخرون فصبيانه .

فلاعبت شعر صدره المحور عنه طوق جلبابه وقالت :

ـ فتوة على الناس لا عليّ أنا .

فقرصها في صدرها بخفة وقال :

– أنت تاج رأس الفتوة .

ومد يده الى ما وراء الصينية فتناول ابريقاً وهو يقول :

– بوطة عجيبة !

فقالت آسفة :

– لها رائحة قوية قد يشمها زوجي العزيز !

فتجرع من الابريق حتى روي ، ومضى يرص الحجر وهو يقول مقطباً :

– يا له من زوج ! لمحته مرات وهو يهيم على وجهه كالمجنون ، أول كودية زار من جنس الرجال في هذه الحارة العجيبة !

فتابعته وهو يدخن وقالت :

– اني مدينة له بحياتي ، لذلك أتصبر على معاشرته ، ولا ضرر منه اذ ليس أيسر من خداعه .

وقدم اليها الجوزة فالتقمت فوهتها بشوق وشدت انفاساً بشراهة ثم زفرت الدخان مغمضة العينين ثملة الحواس . وراح بدوره يدخن ، فيأخذ انفاساً منقطعة وبين كل نفس وآخر يتكلم قائلاً :

– تتركينه ... يعبث ... بك ... عبث ... الاطفال ..

فهزت منكبيها هازئة وقالت :

– لا عمل لزوجي في هذه الدنيا الا تخليص الفقراء من العفاريت ..

– وانتِ ألا تخلصينه من شيء ؟

– مظلومة وحياتك ! نظرة واحدة الى وجهه تغني عن الكلام .

– ولا مرة كل شهر !

– ولا كل سنة ، انه مشغول عن زوجته بعفاريت الناس !

– فلتركبه العفاريت ! وأي فائدة يجنيها من وراء ذلك ؟

فهزت رأسها في حيرة وقالت :

ـ لا يجني شيئاً ، ولولا ابوه لهلكنا جوعاً ، وهو يعتقد بأنه مكلف باسعاد الفقراء وتطهيرهم .

ـ ومن الذي كلفه ؟

ـ يقول إن هذا ما يريده الواقف لأبنائه .

وتجلى الاهتمام في عيني بيومي الضيقتين فوضع الجوزة في الكوز وسألها :

ـ أقال إن الواقف يريد ذلك ؟

ـ نعم ..

ـ ومن أدراه بما يريد الواقف ؟

وشعرت المرأة بضيق وانزعاج ، وخافت ان يفسد الجو ، او أن تحدث أمور خطيرة ، فقالت :

ـ هكذا يؤول أقواله التي يتغنى بها الشعراء .

ومضى يرص حجراً جديداً وهو يقول :

ـ حارة بنت كلب ، وحيّ جبل أنجها ، فيهم ظهر أكبر دجال ، وينشرون الاخبار الغريبة عن الوقف والشروط العشرة ، كأن الواقف جدهم وحدهم ؛ وبالأمس جاء دجالهم جبل بكذبة سرق بها الوقف ، واليوم يؤول هذا المعتوه كلاماً لا يقبل التأويل ، وسيزعم انه سمعه من الجبلاوي نفسه .

فقالت بقلق :

ـ انه لا ينشد سوى تخليص الفقراء من العفاريت .

فشخر الفتوة هازئاً ثم تساءل :

ـ ومن يدرينا فلعل في الوقف عفريتاً !

ثم بصوت ارتفع لدرجة لا تتفق وسرية الاجتماع :

ـ الواقف ميت او في حكم ذلك يا اولاد الكلب .

وانزعجت ياسمينة . خافت ان تفلت الفرصة المتاحة وان يتعكر الجو ، ومدت يدها الى الفستان لتنتزعه رويداً . وانبسطت اسارير الرجل بعد

تجهم ورنا اليها بعينين متوثبتين .

٥٦

بدا الناظر في عباءته ضئيلاً . وكان الاهتمام بارزاً في وجهه الأبيض المستدير بروز الذبول الذي اعتور جفنيه والشيخوخة المبكرة الواضحة في نظرة عينيه وفي التجاعيد المرسومة تحتهما من اثر التهالك في الشهوات . أما وجه بيومي الممتلىء فلم يش بالارتياح الباطني الذي سرى فيه نتيجة لقلق سيده ، ذلك القلق الذي يدل على خطورة الأنباء التي نقلها اليه ، فيدل بالتـــالي على خطورة الدور الذي يؤديه للناظر وللوقف . وكان يقول للناظر :

– على رغمي أزعجك بهذه الأخبار ، ولكن لم يكن في وسعي أن أتصرف دون الرجوع اليك في أمر يتعلق بالوقف ، ومن ناحية أخرى فهذا المشاغب المعتوه من آل جبل ، وعلينا عهد بألا يتعدى أحد منا على أحد منهم الا بعد اذنك .

وتساءل الناظر ايهاب بوجه مكفهر :

– وهل زعم حقاً انه اتصل بالواقف ؟

– تأكد لديّ ذلك من اكثر من مصدر ، ان مرضاه يؤمنون بذلك ولو انهم يتكتمون الأمر بحرص شديد .

– لعله مجنون ، كما كان جبل دجالاً ، ولكن هذه الحارة القذرة تحب المجانين والدجالين . ماذا يريد آل جبل بعدما نهبوا الوقف بلا حق ؟ لماذا لا يتصل الواقف بأحد غيرهم ؟ لماذا لا يتصل بي وأنا اقرب الناس اليه ؟ انه قعيد حجرته ، ولا يُفتح باب بيته الا عنـــدما تحمل اليه حوائجه ، لا يراه أحد ولا يرى هو الا جاريته ، ولكن ما

أيسر ان يقابله آل جبل او ان يسمعوه .

فقال بيومي بحنق :

– لن يرتاح لهم بال حتى يستولوا على الوقف كله .

فاصفر وجه الناظر غضباً ، وتوثب لاصدار الأوامر ، ولكنه تراجع متسائلاً :

– أقال عن الوقف شيئاً أم قصر نشاطه على اخراج العفاريت .؟

فقال بيومي بحنق :

– مثل جبل كان نشاطه قاصراً على اخراج الثعابين .

ثم في تهكم :

– ما للواقف والعفاريت ؟!

فوقف ايهاب وهو يقول بحدة :

– لا اريد ان تصيبني اللعنة التي أصابت الأفندي .

ودعا بيومي جابر وحندوسة وخالد وبطيخة الى غرزته وقال لهم ان عليهم ان يجدوا علاجاً لجنون رفاعة ابن شافعي النجار . وتساءل بطيخة في انزعاج :

– أمن اجل هذا دعوتنا يا معلم ؟

فهز بيومي رأسه بالايجاب فضرب بطيخة كفاً على كف وهتف :

– يا هوه ! فتوات الحارة تجتمع من اجل مخلوق لا هو ذكر ولا هو انثى !

فرماه بيومي بنظرة ازدراء وقال :

– مارس نشاطه تحت سمعك وبصرك فلم تدرك له خطراً ، وطبعاً لم تسمع عن مزاعمه عن الاتصال بالواقف .

وتبادلوا نظرات نارية من خلال الدخان المنتشر وقال بطيخة بذهول :

– ابن الهرمة ! ما للواقف والعفاريت ! هل كان جدنا كودية زار ؟

وشرعوا في الضحك ولكن سرعان ما عدلوا عنه لتجهم بيومي

الذي قال :

- انت شمام يا بطيخة ، الفتوة يسكر ويحشش ولكن لايليق به الشم !

فقال بطيخة مدافعاً عن نفسه :

- يا معلم انا في زفّة عنتر كنت الهدف لنبابيت عشرين رجلاً فغطى الدم وجهي وعنقي ولكن نبوتي لم يسقط من يدي .

وهنا قال حندوسة في رجاء :

- فلندع له الأمر يعالجه بما يرى ، والا فقد هيبته ، وليته يجد طريقة غير الاعتداء على المعتوه ، فان الاعتداء على مثله مهين للفتوة !

ونامت الحارة ولا احد يدري بما بيت في غرزة بيومي . وفي صباح اليوم التالي غادر رفاعة الربع فرأى بطيخة في طريقه فحياه قائلاً :

- صباح الخير يا معلم بطيخة .

فرماه الرجل بنظرة مقت وصاح :

- صباح القطران يا ابن القديمة ، عد الى بيتك ولا تخرج منه والا كسرت رأسك .

فتساءل رفاعة في دهش :

- ماذا أغضب فتوتنا ؟

فصاح مزمجراً :

- أنت تكلم الآن بطيخة لا الواقف فاذهب بلا تردد .

وهمّ رفاعة بالكلام فلطمه الفتوة لطمة دفعته الى جدار الربع مترنحاً . ورأت امرأة الموقعة فصوّتت حتى ملأ صوتها الحارة ، وتبعها نسوة اخريات . وارتفعت اصوات استغاثة من اجل رفاعة . وفي لمح البصر جرى نحو المكان كثيرون ، من بينهم زكي وعلي وحسين وكريم ، ثم جاء عم شافعي ، كما جاء جواد الشاعر متلمساً طريقه بعصاه ، وما لبث ان ازدحم الموقع بمحبي رفاعة من الرجال والنساء . ودهش بطيخة الذي لم يتوقع شيئاً مما حدث ، ورفع يده وهوى بها على وجه رفاعة

فتلقاها هذا دون دفاع ولكن الواقفين تصايحوا في انزعاج ، واعتراهم انفعال شديد ، فتـــوسل البعض الى بطيخة ان يتركه ، وعدد آخرون حسنات رفاعة ومزاياه ، وتساءل كثيرون عن اسباب الاعتداء ، وتعالت احتجاجات ، فاستشاط بطيخة غضباً وصاح :

ـ أنسيتم من اكون ؟

والحق ان حب المتجمعين لرفاعة الذي دفعهم بغير وعي الى التجمع هو الذي شجعهم على الرد على انذار بطيخة ، فقال احد الواقفين في الصف الأول :

ـ فتوتنا وتاج رأسنا ، وما جئنا الا لنسألك العفو عن الرجل الطيب.

وصاح رجل من وسط المظاهرة متشجعاً بالزحام وبمكانه فيه :

ـ فتوتنا على العين والراس ، ولكن ماذا فعل رفاعة ؟

وصاح ثالث في آخر المظاهرة مطمئناً الى تواريه عن متنـــاول عين الفتوة :

ـ رفاعة بريء والويل لمن يمد له يداً بسوء !

وثار غضب بطيخة فرفع نبوته فوق رأسه وهو يصيح :

ـ يا نسوان ، ساجعلكم عبرة .

واذا بصوات النساء يرتفع من الأركان حتى انقلب الحي مأتمـــاً ، وقذفت الأفواه الغاضبة بالانذارات الدموية ، وأخذ الطوب يتساقط امام بطيخة ليمنعه من التقدم . ووجد الرجل نفسه في مركز حرج لم يقع له ولا في الكابوس . كان الموت أهون عليه من الاستنجاد بأحد من الفتوات ، وكان الهجوم يهدد بالقضاء عليه تحت وابل الطوب ، وكان في السكوت الاجهاز على فتونته . وتطاير الشرر من عينيه ، واستمر تساقط الطوب ، وتمادى القوم في تحديهم ، ولم يكن حدث شيء كهذا لأحد من الفتوات من قبل .

واندفع رفاعـــة فجأة حتى وقف أمام بطيخة ، ولوح للناس بيديه

حتى ساد السكوت ، وهتف بصوت قوي :

– لم يخطىء فتوتنا وأنا الملوم !

لاحت نظرات الإنكار في الوجوه ولكن أحداً لم ينبس بكلمة فقال رفاعة :

– تفرقوا قبل ان تتعرضوا لغضبه .

وفهم اناس انه يريد ان ينقذ كرامة الفتوة حلاً للأزمة فتفرقوا ، وتبعهم آخرون وهم في حيرة من الأمر ، ثم سارع الباقون بالتفرق خشية ان ينفرد بطيخة بأحد منهم ، فأقفر الحي ..

٥٧

اشتد التوتر بالحارة بعد تلك الواقعة . وكان أخوف ما يخاف الناظر ان تعتقد الحارة بأن في تضامنها قوة تكفل الصمود امام الفتوات . لذلك وجب – في نظره – القضاء على رفاعة ومن تحدثهم انفسهم بالوقوف الى جانبه على ان يتم ذلك بالاتفاق مع خنفس فتوة آل جبل تجنباً لنشوب عراك شامل في الحارة . وقال الناظر لبيومي : « ليس رفاعة بالدرجة التي تظنها من الضعف ، فوراءه محبون استطاعوا انقاذه رغم انف الفتوة ، فماذا يكون من أمره لو تعلقت به الحارة كما تعلق به حيه ؟ هنالك سيدع العفاريت جانباً ويجاهر بأن الوقف غايته ! » . وصب بيومي غضبه على بطيخة ، فهزه من منكبيه بعنف وقال له : « تركنا الأمر لك وحدك فماذا فعلت يا شين الفتوات ! » . وعض بطيخة على نواجذه بحنق وقال : « سأريحكم منه ولو بقتله » فصاح به بيومي : « خير ما تفعل ان تختفي من الحارة الى الأبد » . وأرسل الى خنفس من يدعوه الى مقابلته . ولكن عم شافعي اعترض سبيل خنفس وهو في حال من

الفزع لم تسبق له من قبل . وكان قد حاول اقنـاع ابنه بالعودة الى الدكان والاقلاع عن العمل الذي يجر عليه المتاعب ولكنه فشل في مسعاه وعاد خائباً . ولما علم باستدعاء خنفس الى مقابلة بيومي اعترض سبيله وقال له : « يا معلم خنفس ، أنت فتوتنا وحامينا ، وانهم يطلبونك لتتخلى عن رفاعة فلا تتخلَّ عنه ، تعهّد لهم بما يشاءون ولكن لا تتخلَّ عنه ، مرني فأهجر الحـارة مصطحباً إياه ولو بالقوة ولكن لا تتخلَّ عنه ! » فقال خنفس في حذر واحتياط : « اني اعلم الناس بما يجب علي وبما تقتضيه مصالح آل جبل » . والحق ان خنفس توجس خيفة من ناحية رفاعة مذ علم بوقعة بطيخة ، وقال لنفسه إنه هو الذي ينبغي له ان يحذر لا الناظر ولا بيومي .

ومضى الى بيت بيومي فاجتمع به في المنظرة . وصارحه الفتوة بانه دعاه بصفته فتوة آل جبل ليتفقا على رأي في مشكلة رفاعة . قال :

ـ لا تستهن بشأنه فان الاحداث تقطع بخطورة اثره .

ووافق خنفس على ذلك ولكنه قال برجاء :

ـ أرجو الاَّ يعتدى عليه أمامي .

فقال بيومي :

ـ نحن رجال يا معلم ، ومصالحنا واحدة ، ولا نعتدي على أحد في بيوتنا ، وسيجيء هذا الولد الآن لأستجوبه على مسمع منك .

وجاء رفاعة بوجهه المشرق فحيا الرجلين ، وجلس حيث اشار له بيومي ان يجلس على شلته أمامها . وتفرس بيومي في وجهـه الجميل المطمئن وهو يعجب كيف امسى هذا الطفل الوديع مصدراً للقلاقـل المفزعة . وسأله بصوت غليظ :

ـ لماذا هجرت حيك وأهلك ؟

فقال ببساطة :

ـ لم يستجب لي منهم أحد !

ـ ماذا كنت تريد منهم ؟
ـ أن أخلصهم من العفاريت الّتي تفسد عليهم سعادتهم !
فوشى صوت بيومي بغيظه وهو يسأله :
ـ وهل أنت مسئول عن سعادة الناس ؟
فقال رفاعة بصراحة وبراءة :
ـ نعم ما دمت قادراً على تحقيقها .
فتجهم وجه بيومي وهو يقول :
ـ سمعوك وأنت تحتقر الجاه والقوة ؟
ـ لكي ابرهن لهم على ان السعادة ليست فيما يتوهمون ولكن فيما أفعل .
فتساءل خنفس غاضباً :
ـ أليس في ذلك تحقير لأصحاب القوة والجاه ؟
فقال دون ان يضطرب لغضب الرجل :
ـ كلا يا معلم ولكن فيه تنبيه بأن السعادة غير ما يملكون من قوة وجاه .
وتفحصه بيومي بنظرة نافذة وهو يسأله :
ـ وسمعوك أيضاً وأنت تؤكد ان ذلك ما يريده لهم الواقف .
فتجلى الاهتمام في العينين الصافيتين وقال :
ـ هم يقولون ذلك !
ـ وماذا تقول أنت ؟
فقال بعد تردد لأول مرة :
ـ على قدر فهمي أتكلم .
فقال خنفس متهكماً :
ـ المصائب تجيء من العقل الزنخ .
وقال بيومي وهو يضيق عينيه :
ـ لكنهم يقولون إنك تعيد عليهم ما سمعته من الجبلاوي نفسه !
فبدت الحيرة في عينيه ، وتردد للمرة الثانية ، ثم قال :

ـ هكذا فهمت اقواله لأدهم وجبل !
فصاح خنفس غاضباً :
ـ اقواله لجبل لا تحتمل التأويل .
واشتد الحنق ببيومي ، وقال لنفسه : « كلكم كذابون ، وجبل أول كذاب فيكم يا لصوص » وقال :
ـ أنت تقول إنك سمعت الجبلاوي ، وتقول هذا ما يريده الجبلاوي، وليس لأحد ان يتكلم باسم الجبلاوي الا ناظر وقفه ووريثه ، ولو أراد الجبلاوي أن يقول شيئاً لقاله له ، هو الأمين على وقفه ومنفذ شروطه العشرة ، يا معتوه كيف تحقر القوة والجاه والثراء باسم الجبلاوي وهي مزاياه وصفاته ؟ !
فنمت الاسارير الصافية عن ألم وقال :
ـ اني اخاطب أهل حارتنا لا الجبلاوي ، هم الذين تركبهم العفاريت ، وهم الذين تعذبهم المطالب .
فصاح به بيومي :
ـ ما أنت الا عاجز عن القوة والجاه : فلذلك تلعنهما ، ولترفع مكانتك الحقيرة في نظر الأغبياء من أهل حارتنا فوق مكانة السادة ، وعندما تجدهم طوع يديك تنهب بهم القوة والجاه !
فاتسعت عينا رفاعة دهشة وتساءل :
ـ لا غاية لي الا سعادة أهل حارتنا .
فصاح بيومي :
ـ يا ابن الماكرة ، انت توهم الناس بأنهم مرضى ، باننا جميعاً مرضى ، فلا صحيح غيرك في هذه الحارة !
ـ لماذا تكرهون السعادة وهي بين ايديكم ؟
ـ يا ابن الماكرة ! ملعونة السعادة التي تجيء من مثلك !
فتساءل رفاعة متنهداً :

– لماذا يكرهني أناس وأنا ما كرهت أحداً قط ؟ !
فصرخ فيه بيومي :
– لا تخدعنا بما تخدع به الأغبياء . وأقلع عن خداعك ، وافهم ان أمري لا يخالف ، واحمد الله على انك في بيتي والا ما خرجت سالماً.
وقف رفاعة يائساً ، فحياهما وانصرف . وقال خنفس :
– دعه لي .
لكن بيومي قال :
– للمعتوه محبون كثيرون ، ونحن لا نريد مذبحة .

٥٨

خرج رفاعة من بيت بيومي قاصداً بيته . كانت السماء متلفعة بأردية الخريف وفي الجو نسيم معتدل . وازدحمت الحارة حول مقاطف الليمون كأنما تحتفل بموسم التخليل . وترامت الأحاديث والضحكات . على حين اشتبك غلمان في معركة يتقاذفون بالتراب . وتلقى رفاعة تحيات الكثيرين وأصابه رشاش تراب فمضى الى بيتـه وهو ينفضه عن كتفه ولاسته . ووجد زكي وعلي وحسين وكريم في انتظاره فتعانقوا كما يتعانقون عند كل لقاء ، ثم قص عليهم – وعلى زوجته التي انضمت الى المجلس – ما دار بينه وبين بيومي وخنفس . تابعوه باهتمام وقلق ، فلما فرغ من قصته تجهمت الوجوه . وساءلت ياسمينة نفسها ترى عم يتمخض هذا الموقف الدقيق ؟ وأليس هناك حل يقي الرجل الطيب من الهلاك دون أن يهدد سعادتها ؟ وبدا التساؤل في الأعين جميعاً ، أما رفاعة فأسند رأسه الى الحائط في شيء من الاعياء . وقالت ياسمينة :
– لا يجوز الاستهانة بأمر بيومي .

وكان علي أحدّهم طبعاً فقال :

ـ لرفاعة أصدقاء هزموا بطيخة فاختفى من الحارة .

فقالت ياسمينة مقطبة :

ـ بطيخة لا بيومي ! اذا تحديتم بيومي فقل عليكم السلام !

فالتفت حسين الى رفاعة قائلاً :

ـ فلنستمع أولاً الى المعلم !

فقال رفاعة وهو شبه مغمض العينين :

ـ لا تفكروا في العراك فإن الذي يشقى لاسعاد الناس لا يهون عليه سفك دمائهم .

وتهلل وجه ياسمينة . كانت تكره فكرة الترمل خشية ان تحدق بها الأعين فلا تجد منفذاً الى رجلها الرهيب ، وقالت :

ـ خير ما تفعل ان ترحم نفسك من ذلك العناء .

فقال زكي محتجاً :

ـ لن نترك هذا العمل ولكن نترك الحارة .

فخفق قلب ياسمينة جزعاً لتخيل البعد عن حارة رجلها وقالت بحدة :

ـ لن نعيش غرباء ضائعين بعيداً عن حارتنا .

وتركزت الأعين في وجه رفاعة فاعتدل رأسه رويداً وقال :

ـ لا أحب أن أهجر حارتنا .

وهنا دق الباب دقات متتابعة في لهفة فذهبت ياسمينة تفتحه ، وسمع الجالسون صوتي عم شافعي وعبدة وهما يسألان عن ابنهما . وقام رفاعة فتلقى والديه بالعناق . وجلسوا وشافعي وزوجته يلهثان ، ووجهاهما ينطقان بما يحملان من انباء مزعجة . وسرعان ما قال الأب :

ـ يا بني ، تخلى عنك خنفس ، فحياتك في خطر ، واخبرني اصحابي بأن اعوان الفتوات يحومون حول بيتك .

وجففت عبدة عينين حمراوين وقالت :

– ليتنا ما عدنا الى هذه الحارة التي تباع فيها الأرواح بلا ثمن .

فقال علي متحمساً :

– لا تخافي يا سيدتي ، فحيّنا كله أصدقاء يحبوننا .

وقال رفاعة متأوهاً :

– ماذا فعلنا مما نستحق عليه العقاب ؟ !

فهتف عم شافعي جزعاً :

– أنت من حي جبل المكروه لديهم ، وكم توجس قلبي خيفة مـنذ جاء ذكر الواقف على لسانك !

فقال رفاعة متعجباً :

– بالأمس حاربوا جبل لمطالبته بالوقف واليوم يحاربونني لاحتقاري الوقف !

فلوح شافعي بيده جزعاً وقال :

– قل فيهم ما تشاء فلن يغير هذا منهم شيئاً ، ولكن اعـلم انك ها لك ان غادرت بيتك ، ولست آمن عليك ان بقيت فيه .

تسرب الخوف الى قلب كريم أول ما تسرب لكنه داراه بارادة قوية وقال مخاطباً رفاعة :

– انهم يتربصون لك في الخارج ، وإذا لبثت هنا فسيجيئون اليك ، هؤلاء هم فتوات حارتنـا كما عرفناهم ، فلنهرب الى بيتي من فوق الأسطح وهناك نفكر فيما ينبغي عمله .

فصاح شافعي :

– ومن هناك تهربون من الحارة ليلاً .

فتأوه رفاعة متسائلاً :

– وأترك بنائي يتهدم ؟

فتوسلت اليه أمه باكية :

– افعل ما يشير به عليك وارحم أمك !

فقال الأب محتداً :
- واستأنف عملك فيما وراء الخلاء اذا شئت .
وقام كريم في اهتمام وقال :
- فلنتدبر أمرنا ، سيبقى المعلم شافعي وحرمه قليلاً ثم يذهبان الى ربع النصر كأنهما راجعان بعد زيارة عادية ، وتخرج ست ياسمينة الى الجمالية كأنما لتتسوق، وعند عودتها تتسلل إلى مسكني وهذا أيسر لها من الهرب عبر الأسطح .
ارتاح شافعي الى الخطة فقال كريم :
- لا ينبغي ان نضيع دقيقة سدى ، سأذهب لاستكشف الأسطح .
وغادر الحجرة . وقام شافعي آخذاً رفاعة في يده . وأمرت عبدة ياسمينة بأن تجمع الثياب في بقجة .
وأخذت ياسمينة في جمع الثياب القليلة بصدر مختنق وقلب مكلوم ، وثورة من الحنق في باطنها تتجمع . واقبلت عبدة على ابنها تقبله وترقيه بأعين باكية . ومضى رفاعة يفكر في حاله بقلب حزين ،كم أحب الناس بكل قلبه وكم شقي لاسعادهم وكيف يعاني من بغضائهم وهل يسلم الجبلاوي بالفشل ؟ ! ورجع كريم وهو يقول لرفاعة وصحبه :
- اتبعوني .
وقالت عبدة وهي تفحم في البكاء :
- سنلحق بك ولو بعد حين .
وقال له شافعي وهو يضغط على مخارج الدمع :
- فلتصحبك السلامة يا رفاعة .
عانق رفاعة والديه ثم التفت الى ياسمينة قائلاً :
- احبكي الملاءة والبرقع كيلا يعرفك أحد .
ثم وهو يميل الى اذنها :
- لا أطيق أن تمتد لك يد بسوء .

٥٩

غادرت ياسمينة الربع ملتفة في السواد وكلمات عبدة تتردد في أذنيها حين قالت لها وهي تودعها : « مع السلامــة يا بنتي ، ربنا يحفظك ويصونك ، رفاعة عهدتك ، سأدعو لكما في النهار والليل » . كانت طلائع الليل تزحف ، وفوانيس المقاهي تشتعل ، والغلمان يلعبون حول الأنوار المنبعثة من مصابيح عربات اليد ، على حين احتدم عراك القطط والكلاب — كشأنه في ذلك الوقت من اليوم — حول اكوام الزبالة . مضت ياسمينة نحو الجمالية وليس في قلبها العاشق مكان للرحمة . لم يساورها التردد ولكن ملأها الخوف فخيل اليها أن أعيناً كثيرة ترقبها . ولم تشعر بشيء من الاطمئنان حتى عرجت من الدراسة الى الخلاء ، لكنها لم تجد الاطمئنان الحقيقي الا في المنظرة بين يدي بيومي . ولمــا نزعت النقاب عن وجهها تفحصها باهتمام وتساءل :

— خائفة ؟

فأجابت وهي تلهث :

— نعم .

— كلا ، الجبن ليس من صفاتك ، خبريني ماذا وراءك ؟

قالت بصوت لا يكاد يسمع :

— هربوا من فوق الأسطح الى بيت كريم ، وسيغادرون الحارة عند الفجر .

فغمغم بيومي ساخراً :

— عند الفجر يا أولاد الحرمة !

— أقنعوه بالذهاب فلماذا لا تدعه يذهب ؟

فابتسم ساخراً وقال :

— قديماً ذهب جبل ثم عاد ، هذه الحشرات لا تستحق الحياة .

فقالت وهي شاردة اللب :

— انه ينكر الحياة ولكنه لا يستحق الموت .

فتقلص فوه اشمئزازاً وقال :

— في الحارة كفايتها من المجانين .

فنظرت اليه في استعطاف ثم غضت بصرها وهمست وكأنما تحدث نفسها :

— انقذني يوماً من الهلاك .

فضحك في سخرية غليظة وقال :

— وها أنت تسلمينه للهلاك ، واحدة بواحدة والبادي أظلم !

فشعرت بقلق موجع كالمرض ، ورمقته بعتاب وهي تقول :

— فعلت ما فعلت لأنك أغلى من حياتي .

فربّت خدها برقة وقال :

— سيخلو لنا الجو ، وإذا ضايقتك الظروف فلك في هذا البيت مكان.

فارتفعت روحها من هبوطها درجات وقالت :

— لو عرضوا علي بيت الواقف من دونك ما قبلته .

— أنت بنت مخلصة .

وشكتها « مخلصة » فعاودها القلق الذي هو كالمرض . وتساءلت ترى هل يسخر منها الرجل ؟ ولم يكن ثمة وقت لمزيد من الكلام فقامت وقام ليودعها ، حتى تسللت من الباب الخلفي . ووجدت زوجها وأصحابه في انتظارها ، فجلست الى جانب زوجها وهي تقول لرفاعة :

— بيتنا مراقب ، ومن الحكمة ان املك تركت المصباح مشتعلاً وراء النافذة ، وسيكون الهرب ميسوراً عند الفجر .

فقال لها زكي وهو يلحظ رفاعة في حزن :

ــ لكنه حزين ، أليس المرضى في كل مكان وأليسوا هم في حاجة كذلك الى الشفاء ؟

فقال رفاعة :

ــ تشتد الحاجة الى الدواء حيث يستفحل المرض .

ونظرت ياسمينة نحوه في رثاء . وقالت لنفسها ان من الظلم قتله . وتمنت لو كان فيه جانب واحد يستحق العقاب . وذكرت انه الوحيد في هذه الدنيا الذي احسن اليها وان جزاءه على ذلك سيكون القتل . ولعنت في سرها هذه الأفكار وقالت ليفعل الخير من يجد في حياته الخير . ولما رأته يبادلها النظر قالت كالمشفقة :

ــ حياتك أغلى من حارتنا اللعينة .

فقال رفاعة باسماً :

ــ هذا ما يقوله لسانك غير اني اقرأ الحزن في عينيك !

وارتعدت . وقالت لنفسها يا ويلي لو كانت قدرته على قراءة العين كقدرته على اخراج العفاريت . وقالت له :

ــ ليس ما بي حزن ولكنه الخوف عليك !

وقام كريم وهو يقول :

ــ سأعد العشاء .

ورجع حاملاً الطبلية فدعاهم الى الجلوس فجلسوا حولها . وكان العشاء مكوناً من الخبز والجبن والمش والخيار والفجل ، وثمة ابريق من البوظة . وملأ كريم الاكواب وهو يقول :

ــ ليلتنا تحتاج الى التدفئة والتشجيع .

وشربوا ، ثم قال رفاعة باسماً :

ــ الخمر توقظ العفاريت ولكنها تنعش من تخلّص من عفريته .

ونظر نحو ياسمينة الى جانبه فادركت مغزى نظرته وقالت :

ــ ستخلصني من عفريتي غداً ان مدّ الله في العمر .

فتهلل وجه رفاعة سروراً وتبادل الأصدقاء التهاني . ومضوا يتناولون العشاء . قطعت الأرغفة . وتلاقت الايدي فوق الاطباق ، وبدأوا وكأنهم تناسوا الموت المحيط بهم ، واذا برفاعة يقول :

– اراد صاحب الوقف لابنائه ان يكونوا مثله ، ولكنهم ابوا الا ان يكونوا مثل العفاريت ، انهم اغبياء : وهو لا يحب الغباء كما قال لي .

فهز كريم رأسه أسفاً ، وبلع لقمته ثم قال :

– لو كان علي شيء من قوته الأولى لسارت الأمور كما يشاء .

فقال علي حانقاً :

– لو .. لو .. لو ، ماذا أفدنا من لو ! علينا ان نعمل .

فقال رفاعة بقوة :

– ما قصرنا قط ، حاربنا العفاريت دون هوادة ، وكلما ترك عفريت فراغاً ملأه الحب ، وليس وراء ذلك من غاية .

فقال زكي متحسراً :

– ولو تركونا نعمل لملأنا الحارة صحة وحباً وسلاماً .

فقال علي معترضاً :

– اني أعجب كيف تفكر في الهرب على كثرة ما لنا من اصدقاء !

فقال رفاعة باسماً :

– ان عرق عفريتك ما زال لاصقاً بجوفك ، فلا تنس ان غايتنا الشفاء لا القتل ، والخير للانسان ان يُقتل من ان يَقتل .

والتفت رفاعة الى ياسمينة فجأة وقال :

– انك لا تأكلين ولا تصغين !

فتقلص قلبها خوفاً ، بيد انها تغلبت على انفعالها وقالت :

– اني اعجب لكم كيف تتحادثون في مرح كأنكم في عرس !

– ستألفين البهجة عندما تتخلصين من عفريتك غداً .

ثم نظر الى اخوانه وقال :

— بعضكم يخجل من المسالمة ، فنحن ابناء حارة لا تحترم الا الفتونة ؛ ولكن الفتــونة ليست قاصرة على الارهاب ، فمصارعة العفاريت اشق عشرات المرات من الاعتداء على الضعفاء أو منازلة الفتوات .

فهز علي رأسه أسفاً وقال :

— وكان جزاء الاحسان هذا الموقف التعيس الذي وجدنا انفسنا فيه !

فقال رفاعة بيقين :

— لن تنتهي المعركة كما يتوهمون ، ولسنا ضعفاء كما يتصورون ! انما نقلنا المعركة من ميدان الى ميدان ، وميداننا يتطلب شجاعة اسمى وقوة اشد .

وواصلوا العشاء وهم يفكرون فيما سمعوا . وبدا لأعينهم هادئاً مطمئناً قوياً بقدر ما بدا جميلاً وديعاً . وفي فترة الصمت تجلى صوت شاعر الحيّ وهو يحكي قائلاً : « ومرة جلس أدهم في حارة الوطاويط عند الظهر ليستريح فنعس . واستيقظ على حركة فرأى غلماناً يسرقون عربته فنهض مهدداً . ورآه غلام فنبه اقرانه بصفير ودفع العربة ليشغله بهـا عن مطاردتهم فاندلق الخيار على الأرض على حين تفرق الغلمان مسرعين كالجراد . وغضب ادهم غضباً شديداً حتى قذف فوه المهذب بسيل من أقذع الشتائم ، ثم انكب على الأرض يجمع الخيار الذي لوث بالطين . وتضاعف غضبه دون ان يجـد له متنفساً فراح يقول بتأثر وانفعال : « لماذا كان غضبك كالنار تحرق بلا رحمة ؟ لماذا كانت كبرياؤك احب اليك من لحمك ودمك ؟ وكيف تنعم بالحياة الرغيدة وأنت تعلم أننا نداس بالأقدام كالحشرات ؟ والعفو واللين والتسامح ما شأنها في بيتك الكبير ايها الجبار ! » وقبض على يد العربة وهمّ بدفعها بعيداً عن الحارة اللعينة واذا بصوت يقول متهكماً :

— بكم الخيار يا عم ؟

رأى ادريس واقفاً يبتسم ابتسامة ساخرة .. » واذا بصوت امرأة يرتفع مغطياً على صوت الشاعر وهي تصرخ « ولد تائه يا اولاد الحلال ! » .

٦٠

مضى الوقت والاخوان في سمر وياسمينة في عذاب . أراد حسين أن يلقي على الحارة، نظرة ولكن كريم اعترضه ان يلمحه احد فيشك في الأمر . وتساءل زكي ترى هل هاجموا بيت رفاعة فقال رفاعة انهم لا يسمعون الا نواح الرباب وتهليل الغلمان . كانت الحارة تحيا حياتها فليس ثمة ما يشي بسر جريمة تدبّر . ودارت بياسمينة دوامة الفكر حتى خافت ان تفضحها عيناها . وتمنت ان ينتهي عذابها على أي وجه وبأي ثمن ، وتمنت ان تملأ جوفها بالخمر حتى تذهل عما حولها . وقالت لنفسها انها ليست أول امرأة في حياة بيومي ولن تكون اخراهن ، وانه حول اكوام الزبالة تكثر الكلاب الضالة ، ولكن فلينته هذا العذاب بأي ثمن . وبتقدم الوقت أخذ الصمت يبتلع الضوضاء رويداً رويداً ، فسكتت أصوات الأطفال ونداءات الباعة ، ولم يبق الا نواح الرباب . ودهمتها كراهية مفاجئة لهؤلاء الرجال ، لا لشيء الا لأنهم على نحوٍ ما يعذبونها .

وتساءل كريم :

– هل أعد المجمرة ؟

فقال رفاعة بحزم :

– نحن في حاجة الى وعينا !

– ظننت ان به نستعين على تحمل الوقت .

– أنت خائف اكثر مما ينبغي .

فنفى التهمة عن نفسه قائلاً :

ـ يبدو الا داعي هناك للخوف !

أجل لم يقع حادث ولم يُهاجم بيت رفاعة . وسكتت الانغام وذهب الشعراء . وترامت اصوات الأبواب وهي تغلق ، وأحاديث العائدين الى البيوت ، وضحكات وسعلات ، ثم ساد الصمت . واستمر الانتظار والترقب حتى صاح اول ديك . وقام زكي الى النافذة ينظر الى الطريق ثم التفت اليهم قائلاً :

ـ صمت وخلاء ، الحارة كما كانت يوم طرد اليها ادريس .

فقال كريم :

ـ آن لنا ان نذهب .

وركب الجزع ياسمينة فتساءلت في نفسها ماذا يكون من أمرها لو تأخر بيومي عن موعده او لو عدل عنه ؟ وقام الرجال وكل يحمل بقجة . وقال حسين :

ـ الوداع يا حارتنا الجهنمية !

سار في المقدمة . ودفع برقة رفاعة ياسمينة امامه وتبعها واضعاً يده على منكبها كأنما يخشى ان يفقدها في الظلام ، ثم جاء كريم فحسين ثم زكي . تسللوا من باب الشقة واحداً في اثر آخر ، ورقوا في السلم مهتدين بالدرابزين في الظلمة الحالكة . وبدا السطح أرق ظلمة رغم انه لم يبد في السماء نجم واحد . ونضحت سحابة بنور القمر المتواري خلفها فسجلت لوحتها ركض السحب . وقال علي :

ـ اسوار الاسطح شبه متلاصقة وسنساعد الست ان لزم الأمر .

تتابعوا داخلين . ولما دخل زكي ـ وهو آخرهم ـ احس حركة وراءه فالتفت نحو باب السطح فرأى اربعة اشباح ، فتساءل مذعوراً :

ـ من هناك ؟

تسمر الجميع والتفتوا . وجاء صوت بيومي وهو يقول :

ـ قفوا يا اولاد الزنا .

وانتشر عن يمينه وعن يساره جابر وخالد وحندوسة . وندت عن ياسمينة آهة . وأفلتت من يد رفاعة ثم جرت نحو باب السطح فلم يعترضها أحد من الفتوات ، حتى قال علي مخاطباً رفاعة في ذهول :

ــ خانتك المرأة .

وفي لحظة أحاطوا بهم . وراح بيومي يتفحصهم عن قرب واحداً بعد آخر متسائلاً :

ــ أين كودية الزار ؟

حتى تبينه فقبض على منكبه بيد من حديد وهو يسأله متهكماً :

ــ اين انت ذاهب يا نديم العفاريت ؟

فقال رفاعة في وجوم :

ــ ضايقكم وجودنا فآثرنا الرحيل .

فأطلق ضحكة قصيرة ساخرة ثم التفت الى كريم وقال :

ــ وأنت هل أجدى اخفاؤك لهم في بيتك ؟

فازدرد كريم ريقه الجاف وقال وفرائصه ترتعد :

ــ لم أكن أعلم بشيء مما بينك وبينهم !

فلطمه بيده الأخرى على وجهه فسقط على الأرض ، ولكن سرعان ما وثب قائماً وركض في رعب نحو سطح الربع الملاصق . وفجأة جرى وراءه حسين وزكي . وانقض حندوسة على علي فركله في بطنه فتهاوى على الأرض وهو يئن من أعماقه . وفي ذات الوقت هم جابر وخالد باللحاق بالهاربين ولكن بيومي قال باستهانة :

ــ لا خوف من هؤلاء فلن ينبس أحدهم بكلمة وإلا هلك .

وقال رفاعة وقد انحنى رأسه نحو قبضة بيومي لشدة ضغطها :

ــ لم يفعلوا شيئاً يستحق العقاب .

فهوى بيومي بكفه على وجهه وهو يقول متهكماً :

ــ خبرني ألم يسمعوا الجبلاوي كما سمعته ؟

ثم دفعه أمامه وهو يقول :

— سر أمامي ولا تفتح فاك .

سار مستسلماً للمقادر . هبط السلم المظلم محاذراً ووقع الاقدام الثقيلة يتبعه . وغشيه الظلام والحيرة والشر الذي يتهدده فلم يكد يفكر فيمن هرب ولا فيمن خان . وران عليه حزن شامل عميق فغطى حتى على مخاوفه . وخيل اليه ان ذلك الظلام سيمس صفة الدنيا الملازمة . وانتهوا الى الحارة فقطعوا الحي الذي لم يبق فيه مريض بفضله . وتقدمهم حندوسة نحو حي جبل فمروا تحت ربع النصر المغلق حتى خيل اليه انه يسمع تردد أنفاس والديه . وساءل نفسه لحظة عنهما فخيل اليه انه يسمع نحيب عبدة في الليل الصامت ولكن سرعان ما استرده الظلام والحيرة والشر الذي يتهدده . وبدا حي جبل هياكل اشباح عمالقة غارقة في الظلام ، ما أشد الظلام وما أعمق النوم ، أما وقع أقدام الجلادين في الظلمة الحالكة وأطيط نعالهم فكأنه ضحكات شياطين تعبث في الليل . ومضى حندوسة نحو الخلاء بحذاء سور البيت الكبير فرفع رفاعة عينيه الى البيت لكنه رآه مظلماً كالسماء . ولاح شبح في نهاية السور فتساءل حندوسة :

— المعلم خنفس ؟

فأجابه الرجل :

— نعم .

وانضم الى الرجال دون كلام . وظلت عينا رفاعة مرفوعتين نحو البيت . ترى هل يدري جده بحاله ؟ إن كلمة منه تستطيع ان تنقذه من مخالب هؤلاء الجبارين وترد عنه كيدهم . إنه قادر على ان يسمعهم صوته كما أسمعه اياه في هذا المكان . وجبل وجد نفسه في مأزق مثل مأزقه ثم نجا وانتصر . لكنه جاوز السور دون ان يسمع شيئاً سوى وقع اقدام الجبارين وتردد أنفاسهم . وأوغلوا في الخلاء فثقلت خطواتهم فوق الرمال . وشعر رفاعة بالغربة في الخلاء وذكر ان المرأة خانته وأن الاصحاب لاذوا بالفرار . أراد ان يلتفت الى الوراء صوب البيت ولكن

يد بيومي دفعته في ظهره بغتة فسقط على وجهه . ورفـع بيومي نبوته وهتف :

– معلم خنفس ؟

فرفع الرجل نبوته قائلاً :

– معك إلى النهاية يا معلم .

وتساءل رفاعة في يأس :

– لماذا تبغون قتلي ؟

فهوى بيومي بنبوته على رأسه بشدة فصرخ رفاعة صرخة عاليـة وهتف من أعماقه : « يا جبلاوي ! » .

وفي اللحظة التالية كان نبوت خنفس يصيب عنقـه ، واستبقت النبابيت .

وساد صمت لم تسمع خلاله إلا حشرجة .

وأخذت الأيدي تحفر الأرض بقوة في الظلام .

٦١

غادر القتلة المكان متجهين نحو الحارة فسرعان ما ذابوا في الظلام . وإذا بأربعة أشباح تنهض قائمة من موضع غير بعيد من موقع الجريمة . وندت عنهم تنهدات واصوات بكاء مكتوم حتى صاح أحدهم :

– يا جبناء ، أمسكتم بي وكتمتم انفاسي فقتل دون دفاع .

فقال له آخر :

– لو أطعناك لهلكنا جميعاً دون ان ننقذه .

فعاد علي يقول غاضباً :

– يا جبناء ! ما أنتم إلا جبناء .

فقال كريم بصوت باكٍ :

ـ لا تضيعوا الوقت في الكلام ، أمامنـا عمل شاق يجب ان ننجزه قبل الصباح .

ورفع حسين رأسه إلى السماء يقلب فيها عينيه الدامعتين وتمتم بجزع :

ـ الفجر قريب فلنسرع .

فهتف زكي متأوهاً :

ـ يا له من وقت قصير كالحلم لكننا فقدنا فيه أعز من عرفنـا في الحياة !

واتجه علي نحو موقع الجريمة وهو يصر على أسنانه مغمغماً :

ـ يا جبناء .

فمضوا خلفه ، ثم جلسوا جميعاً على ركبهم في هيئـة نصف دائرة وراحوا يتحسسون الأرض مفتشين .

وبغتة صرخ كريم كالملدوغ :

ـ هنا !

وتشمم يده وهو يقول :

ـ ان هذا هو دمه !

وفي ذات الوقت صاح زكي :

ـ وهذا الموضع الهش مدفنه .

وتجمعوا حوله وأخذوا يزيلون الرمال براحاتهم ، لم يكن في الأرض من هو أتعس منهم ، لضياع العزيز ، ولموقف العجز الذي وقفوه عند مصرعه . وعبرت كريم لحظة جنون فقال في بلاهة :

ـ لعلنا نجده حياً !

فقال علي بازدراء ويداه لا تكفان عن العمل :

ـ اسمعوا أوهام الجبناء !

وامتلأت خياشيمهم برائحة التراب والدم . وترامى من ناحية الجبل

عواء . وهتف علي باشفاق :

– تمهلوا ، فهذا جسده .

فانخلعت قلوبهم ، ورقت أيديهم ، وتلمسوا أطراف ثوبه بجزع ، ثم ارتفعت اصواتهم بالبكاء ، وتعاونوا على استخلاص الجثة من الرمال وقاموا بها في رفق ، وكان صياح الديكة يترامى من الحارات والأزقة . وحث البعض على الأسراع ولكن لفتهم علي الى وجوب ردم الحفرة ، فخلع كريم جلبابه وفرشه على الأرض فطرحوا الجثة عليه ، وتعاونوا مرة أخرى على ردم الحفرة . وخلع حسين جلبابه فغطى به الجثة ثم حملوها ، وساروا نحو باب النصر . وأخذ الظلام يخف فوق الجبل ويشف عن السحاب ، وتساقط الندى فوق الجباه والدموع . وكان حسين يدلهم على طريق مقبرته حتى بلغوها . وانهمكوا في فتح القبر صامتين ، والضياء ينتشر رويداً ، حتى تراءى للأعين الجثمان المسجى ، وايديهم الملطخة بالدم ، وأعينهم المحمرة من البكاء . وحملوا الجثة وهبطوا بها الى جوف القبر . وقفوا حولها خاشعين وهم يضغطون جفونهم ليزيلوا الدموع التي تحول دون رؤيتها . وهمس كريم والعبرات تخنقه :

– كانت حياتك حلماً قصيراً ، لكنها ملأت قلوبنا بالحب والنقاء . وما كنا نتصور ان تغادرنا بهذه السرعة فضلاً عن ان تقتل بيد أحد من الناس ، أحد من أبناء حارتنا الجاحدة التي داويتها وأحببتها ، حارتنا التي أبت إلا ان تقتل الحب والرحمة والشفاء ممثلة في شخصك فقضت على نفسها باللعنة حتى آخر الزمن .

وتساءل زكي منتحباً :

– لماذا يذهب الطيبون ؟ لماذا يبقى المجرمون ؟

وتأوه حسين قائلاً :

– لولا حبك الباقي في قلوبنا لمقتنا الناس إلى الأبد !

عند ذاك قال علي :

– لن يرتاح لنا بال حتى نكفّر عن جبننا .

وعندما غادروا المقبرة متجهين نحو الخلاء كان النور يصبغ الآفاق بمثل ذوب الورد الأحمر .

٦٢

لم يعد أحد من الصحاب الأربعة يظهر في حارة الجبلاوي . وظن ذووهم أنهم غادروا الحارة خفية وراء رفاعة اتقاء لتحرش الفتوات . وعاش الرفاق في أطراف الخلاء في حـــال نفسية متوترة ، يصارعون بكل قواهم وطأة الألم وحز الندم . كان فراق رفاعة أشد من الذبح على قلوبهم ، وكان تخليهم عنه معذّباً قاتلاً ، لم يبق لهم من أمل في الحياة إلا ان يتحدّوا موته باحياء رسالته ، وان ينزلوا العقاب بقاتليه كما صمم علي . أجل لم يكن في وسعهم العودة الى الحارة ولكن كان في مأمولهم ان يقابلوا من يشاءون خارجها . وذات صباح استيقظ ربع النصر على صوات عبدة فهرع الجيران إليها يستطلعون الخبر فصاحت بصوت مبحوح :

– قتل ابني رفاعة .

ووجم الجيران وتطلعوا الى عم شافعي الذي كان يجفف عينيــه فقال الرجل :

– قتله الفتوات في الخلاء .

وعادت عبدة تنوح هاتفة :

– ابني الذي لم يؤذِ أحداً في دنياه .

فتساءل البعض :

— وهل علم بذلك فتوتنا خنفس ؟

فقال شافعي غاضبا :

— كان خنفس ضمن القاتلين .

وقالت عبدة باكية :

— وخانته ياسمينة فدلت بيومي عليه !

فلاح الاستنكار في الوجوه وقال صوت :

— لذلك فهي تقيم في بيته بعد ان هجرته زوجته .

وانتشر الخبر في حي جبل فجاء خنفس الى بيت شافعي وصاح به :

— اجننت يا رجل ؟ ماذا قلت عنى ؟

فوقف شافعي أمامه دون مبالاة وقال بشدة :

— انك اشتركت في قتله وأنت فتوته وحاميه !

فتظاهر خنفس بالغضب وصاح :

— أنت مجنون يا شافعي ، لا تدري عما تقول شيئاً ، ولن أبقى حتى لا أضطر إلى تأديبك .

وغادر الربع وهو يرغي ويزبد . وانتقل الخبر إلى حي رفاعة الذي أقام فيه عقب مغادرته لحي جبل فذهل الناس له ، وارتفعت الأصوات بالسخط والبكاء ، ولكن الفتوات خرجوا الى الحارة يقطعونها ذهاباً واياباً ، النبابيت في أيديهم والشر يتقد في نظراتهم . ثم سرى نبأ يقول: إن الرمال غربي صخرة هند وجدت ملطخة بدم رفاعة . وذهب عم شافعي وخاصة اصحابه للبحث عن الجثة هنالك ، ففتشوا وحفروا ولكنهم لم يعثروا على شيء . ولغط الناس بالخبر وتبلبلت الأفكار وتوقع كثيرون ان تحدث في الحارة أمور . وراح الناس في حي رفاعة يتساءلون ماذا فعل رفاعة حتى يقضى عليه بالقتل ؟ وقال آل جبل : رفاعة قتل وياسمينة مقيمة في بيت بيومي . وتسلل الفتوات بليل الى المكان الذي قتل فيه رفاعة ، وحفروا مدفنه على ضوء مشعل ، ولكنهم لم يعثروا

الجثة على أثر . وتساءل بيومي :
– هل أخذها شافعي ؟
ولكن خنفس أجابه :
– كلا ، لم يعثر على شيء كما أخبرتني العيون .
فضرب بيومي الأرض بقدمه وصاح :
– إنهم أصحابه ، لقد أخطأنا بتركهم يفلتون ، وها هم يحاربوننا من وراء وراء .
وعند عودتهم مال خنفس على اذن بيومي وهمس قائلاً :
– ان احتفاظ المعلم بياسمينة لما يسبب لنا المتاعب .
فقال بيومي ساخطاً :
– بل اعترف انك فتوة ضعيف في حيك !
وودعه خنفس ساخطاً . واشتد التوتر بحي جبل ورفاعة ، وتكرر اعتداء الفتوات على الساخطين . وساد الارهاب في الحارة حتى كره أهلها الخروج إليها إلا لضرورة . وفي ليلة من الليالي – وكان بيومي في قهوة شلضم – تسلل اهل زوجته الى بيته بقصد الاعتداء على ياسمينة ، فشعرت بهم ، وفرت بجلبابها الى الخلاء وهم يطاردونها . وظلت تعدو في الظلام كالمجنونة ، حتى بعد ان كف المطاردون عن مطاردتها . وظلت تعدو حتى أوشكت أنفاسها ان تنقطع فاضطرت الى التوقف وهي تلهث بعنف وقد طرحت رأسها الى الوراء وأغمضت عينيها. ولبثت كذلك حتى استردت انفاسها . ونظرت وراءها فلم تر شيئاً ولكنها جفلت من فكرة العودة الى الحارة ليلاً . ونظرت أمامها فرأت عن بعد نوراً ضئيلاً لعله ينبعث من كوخ فسارت نحوه آملة ان تجد عنده مأوى يؤويها حتى الصباح . وطال بها المسير قبل ان تبلغه . وكان كما إظنت كوخاً فاقتربت من بابه وهي تنادي أهله . وبغتة وجدت نفسها امام أصدقاء زوجها الحميمين : علي وزكي وحسين وكريم .

٦٣

تسمرت ياسمينة بالأرض وهي تقلّب في وجوههم بصراً زائغــاً . تراءوا لها كجدار يعترض مُطــارداً في كابوس . كانوا يحدقون فيها باشمئزاز ، وبدا الاشمئزاز في عيني علي في اطار حديدي من القسوة . وهتفت بلا وعي :

— اني بريئة ، ورب السماوات بريئة ، ذهبت معكم حتى هاجمونا فهربت كما هربتم !

وكلحت الوجوه . وتساءل علي حانقاً :

— ومن ادراك باننا هربنا ؟

فقالت بصوت متهدج :

— لولا الهرب ما بقتم على قيد الحياة ؛ لكني بريئة ، وما فعلت شيئاً إلا اني هربت !

فقال علي وهو يعض اسنانه :

— هربتِ الى سيدك بيومي .

— ابداً ، دعوني اذهب .. أنا بريئة .

فصاح بها علي :

— ستذهبين الى جوف الأرض !

فهمّت بالهرب لكنه وثب عليها فقبض على منكبيها بشدة فصرخت:

— أعتقني إكراماً له فانه لم يكن يحب القتل ولا القاتلين !

فقبض على عنقها بيديه ، حتى قال كريم جزعاً :

— انتظر حتى نفكر في الأمر .

فصاح به :

ـ اصمتوا يا جبناء !

وشد على عنقها بكل ما يعتلج في صدره من حنق وحقد وألم وندم. حاولت التخلص من قبضته عبثاً ، قبضت على ساعديه ، ركلتـــه ، هزت رأسها ، كان كل مجهود عبثا ضائعا فخارت قواها ، وجحظت عيناها ، ثم نفث انفها دماً ، وارتج جسدهـــا بعنف ، وسكتت الى الأبد ، وتركها فسقطت جثة تحت قدميه .

وفي صباح اليوم التالي وجدت جثة ياسمينة ملقاة امام بيت بيومي . وانتشر الخبر كغبار الخماسين فجرى الناس نساء ورجالا نحو بيت الفتوة. وارتفعت الضوضاء ، واختلطت التعليقـــات ، وداری الجميع مشاعرهم الحقيقية . وفتح باب بيت بيومي ، واندفع منه الرجل كالثور الهائج ، وراح يضرب بنبوته كل من يصادفه فركض الجميع في فزع ، ولاذوا بالدور والمقاهي ، ووقف الرجل في الحارة الخاليـــة يسب ويلعن ويهدد ويتوعد ، ويضرب الهواء والجدران وأديم الأرض .

وفي اليوم نفسه هجر عم شافعي وزوجته الحارة ، وبدا ان اي اثر لرفاعة قد اختفى .

ولكن ثمة اشياء كانت تذكر بـــه على الدوام ، كبيت عم شافعي بربع النصر ودكان النجارة ومسكن رفاعة في الحي الذي أطلقوا عليـــه دار الشفاء ، ومصرعه غربـي صخرة هند ، وفوق كل أولئك اصحابه المخلصون الذين واصلوا اتصالاتهم بمحبيه ، ولقنوهم اسرار علمـــه بتخليص الأنفس من العفاريت ليزاولوها في مداواة المرضى ، اقتنعوا انهم بذلك يعيدون رفاعة الى الحياة . اما علي فـــلم يكن ليهدأ له بال حتى يقضي على المجرمين . وقد قال له حسين معاتباً :

ـ انك لست من رفاعة في شيء !

فقال علي بقوة :

— اني أعرف رفاعة اكثر مما تعرفونه ، قضى حياته القصيرة في قتال عنيف مع العفاريت .

فقال كريم :

— انك تريد العودة الى الفتونة وما كان أبغضها اليه .

فهتف علي بحماس :

— كان فتوة ولا كل الفتوات ولكن خدعتكم رقته .

وتوثب كل فريق للعمل على رأيه بايمان صادق . وتناقلت الحارة قصة رفاعة على حقيقتها التي كان يجهلها الاكثرون ، وتنوقل أيضاً ان جثته ظلت ملقاة في الخلاء حتى حملها الجبلاوي بنفسه فواراها التراب في حديقته الغناء . وكادت الأحـــداث الخطيرة تتلاشى عند ذلك لولا ان اختفى الفتوة حندوسه اختفاء مريبـــاً . وإذا بجثته تكتشف ذات صباح ملقاة مشوهة أمام بيت الناظر إيهاب. وتزلزل بيت الناظر كما تزلزل بيت بيومي. ومرت بالحارة فترة رهيبة من الرعب . انصب الاعتداء كالمطر على كل من له صلة أو شبهة صلة برفاعة او بأحد من رجاله . انهالت النبابيت على الرءوس ، وهرست الأقدام البطون ، وحفرت الكلمات الصدور ، والهبت الأيدي الأقفية ، حتى حبس نفسه في الدور من حبس ، وهجر الحارة من هجر ، وقتل في الخلاء من استهان بالخطر ، فضجت الحارة بالصوات والعويل ، وغشيها السواد والظلام ، وفاحت منهـــا رائحة الدم . ومن عجب ان ذلك كله لم يقض على عمل العاملين ، فقد قتل الفتوة خالد وهو خارج من بيت بيومي قبيل الفجر . واشتد غضب الارهاب حتى بلغ الجنون . لكن حارتنا استيقظت في الهزيع الاخير من الليل على حريق هائل التهم بيت الفتوة جابر وأهلك أسرته . وصاح بيومي :

— ان مجانين رفاعة منتشرون كالبق ، والله ليقتلن ولو في بيوتهم!

ذاع في الحارة ان البيوت ستهاجم بليل فركب الفزع الناس حتى

جُنّوا . وخرجوا من الربوع في ثورة هوجاء يحملون العصي والمقاعد وأغطية الحلل والسكاكين والقباقيب والطوب . وصمم بيومي على ان يضرب قبل أن يستفحل الأمر فرفع نبوته وخرج من بيته في هالة من الأعوان .

وظهر عليّ لأول مرة ومعه رجال اشداء على رأس الثائرين . وما ان رأى بيومي قادماً حتى أمر بقذف الطوب فأرسل الهائجون اسراب الطوب كالجراد فانصبت على ببومي ورجاله وتفجرت الدماء . وهجم بيومي بجنون وهو يصرخ كالوحش ولكن حجراً اصاب أعلى رأسه فتوقف رغم الغضب ورغم القوة ورغم الفتونة، ثم ترنح وسقط مقنّعاً بدمه. وسرعان ما فر الأعوان ، واكتسحت امواج الغاضبين بيت الفتوة حتى ترامت أصوات الكسر والتحطيم الى مثوى الناظر في بيته . واستطار الشر ، وانقض العقاب على من بقي من الفتوات وأعوانهم ، وخربت بيوتهم، واستفحل الخطر ، وأوشك ان يفلت الزمام . عند ذاك أرسل الناظر في طلب علي فذهب علي لمقابلته . وكف رجال علي عن الانتقام والتخريب انتظاراً لما تسفر عنه المقابلة فهدأت الأحوال وسكنت الخواطر .

وتمخضت المقابلة عن عهد جديد في الحارة . فقد اعترف بالرفاعيين كحي جديد مثل حي جبل فيما له من حقوق وامتيازات ، ونصب علي ناظراً على وقفهم ، وبمعنى فتوة لهم ، يتسلم نصيبهم في الوقف ويوزعه عليهم على أساس المساواة الشاملة . وعاد الى الحي الجديد جميع المهاجرين الذين فروا من الحارة في فترات الارهاب ، وعلى رأسهم عم شافعي وزوجته وزكي وحسين وكريم . وحظي رفاعة في موته بما لم يكن ليحلم به في حياته من التكريم والاجلال والحب حتى سار قصة باهرة يرددها كل لسان ، وتتغنى بها الرباب ، وبخاصة رفع الجبلاوي لجثته ودفنها في حديقته الغناء . وقد أجمع الرفاعيون على ذلك ، كما أجمعوا على الولاء والتقديس لوالديه . لكنهم اختلفوا فيما عدا ذلك فأصر كريم وحسين وزكي على ان رسالة رفاعة يجب ان تقتصر على مداواة المرضى واحتقار الجاه

والقوة ، فساروا ومن تبعهم في الحياة مساره ، وغالى منهم قوم فتجنبوا الزواج حباً في محاكاته واستعادة لسيرته ، أما علي فتمسك بكافة حقوقه في الوقف وتزوج ودعا الى تجديد حي رفاعة . لم يكره الوقف لذاته ولكن ليبرهن على ان السعادة الحقة متاحة بدونه ، وليقضي على الشرور التي يستثيرها الطمع ، فاذا وزّع الريع بالعدل ، ووُجِّه للبناء والخير ، فهو الخير كل الخير .

وعلى أي حال استبشر الناس خيراً ، واستقبلوا الحياة بوجوه مشرقة ، وقالوا بثقة واطمئنان ان اليوم خير من الأمس ، وإن الغد خير من اليوم.

فلماذا كانت آفة حارتنا النسيان ؟ !



قاسم

٦٤

لم يكد يتغير شيء في الحارة . الأقدام ما زالت عارية تطبع آثارها الغليظة على التراب . والذباب ما زال يلهو بين الزبالة والأعين . والوجوه ما زالت ذابلة مهزولة، والثياب مرقعة، والشتائم تتبادل كالتحيات ،والنفاق يصم الآذان . والبيت الكبير ما زال قابعاً وراء أسواره غارقاً في الصمت والذكريات ، والى اليمين بيت الناظر ، والى اليسار بيت الفتوة ، ثم يجيء حي جبل ، ويليه حي رفاعة في وسط الحارة ، أما بقية الحارة وهي الناحية المنحدرة الى الجمالية فكانت مقام من لا صفة لهم ولا نسب ، او الجرابيع كما كانوا يدعونهم ، وهم أتعس أهل الحارة وأضيعهم . وفي هذا العهد ولي النظارة السيد رفعت ، وكان كسابقيه من النظار . وكان فتوتها لهيطة وهو رجل قصير دقيق لا يوحي مظهره بالقوة لكنه ينقلب عند المعركة لساناً من نار في سرعته وحدته وتدميره ، وقد نال الفتونة بعد سلسلة من المعارك سالت لها الدماء في جميع الأحياء . أما فتوة جبل فكان يدعى جلطة ، وما زال حيه معتداً بنفسه مباهياً بقرابته للواقف وبأنه خير حي ، وأن رجلهم جبل كان أول وآخر من كلمه الجبلاوي وفضله ، ولذلك قل أن أحبهم أحد . وكان حجاج فتوة آل رفاعة ، لكنه لم يحتذ مثال علي في نظارته وانما سار على درب خنفس وجلطة وغيرهما من المغتصبين . كان يستأثر

بالريع ويضرب المتذمرين ويحث آله على اتباع سنة رفاعة في احتقار الجاه والثراء ! وحتى الجرابيع كان لهم فتوتهم ، ويدعى سوارس ، لكنه لم يكن طبعاً بناظر وقف . على هذا النحو استقرت الأوضاع ، وأكد حملة النبابيت وشعراء الرباب انه نظام عادل ، جرت به شروط الواقف العشرة وسهر على تنفيـذه ورعايته الناظر والفتوات . وفي حي الجرابيع عرف عم زكريا بياع البطاطة بالطيبة ، وامتاز بين الناس بقرابته البعيدة للمعلم سوارس فتوة الحي. كان يطوف بأحياء الحارة سائقاً عربته منادياً على البطاطة ، وفي وسط العربة تقوم الفرن نافثة دخاناً معبقـاً برائحة شهية ، تجذب غلمان رفاعة وجبل ، كما تجذب الغلمان بالجمالية والعطوف والدراسة وكفر الزغارى وبيت القاضي . وكانت قد مضت فترة غير قصيرة من حياة عم زكريا الزوجية دون أن يرزق بمولود ، ولكن آنس وحشته في تلك الفترة صغـير يتيم هو قاسم — ابن شقيق زكريا — عقب وفاة والديه . ولم يجد الرجل في الصغير عبئاً يؤوده ، اذ أن الحياة وخاصة في هـذا الحي من الحارة لم تكن تعلو كثيراً عن حياة الكلاب والقطط والذباب التي تعثر على رزقها في النفايات واكوام الزبالة . وأحب زكريا قاسم كما كان يحب أباه من قبل ، ولما حملت زوجته عقب انضمام الصغير للأسرة تفاءل به خيراً وازداد عليه عطفاً ، ولم يقل عطفه عندما رزق بابنه حسن . ونشأ قاسم شبه وحيد ، إذ كان اليوم يمضي وعمه بعيد عن الحارة وزوجة عمه مشغولة بدارها ووليدها ، ثم اتسع عالمه بنموه فأخذ يلعب في حوش الربع أو في الحارة ، وصادق أقرانه في حيه وحي رفاعة وجبل ، وذهب الى الخـلاء فلعب حول صخرة هند ، وشرق في الصحراء وغرب ، ورقي في الجبل . وكان يتطلع مع الصغار الى البيت الكبير مفاخراً بجده ومقام جده ، ولكنه لم يكن يجد ما يقوله إذا تكلم البعض عن جبل والبعض الآخر عن رفاعة ، كما لم يكن يجد ما يفعله اذا انقلب الكلام تشاتماً وتماسكاً وعراكاً . وكم

نظر الى بيت الناظر بدهش واعجاب ، وكم رمق الثمار فوق الأشجار برغبة واشتهاء . ويوماً رأى البواب ناعساً فتسلل الى الحديقة بخفة ، دون ان يرى احداً او يراه احد ، وراح يقطع المماشي في بهجة وسرور ، ويلتقط ثمار الجوافة من فوق الحشائش ويأكلها بلذة ، حتى وجد نفسه أمام الفسقية ، وعلقت عيناه بعمود الماء المتصاعد من النافورة . استخفه الفرح فخلع جلبابه ونزل الى الماء ومضى يخوض فيه ويضرب سطحه بيديه ويدلك به جسده وقد ذهل عمـــا حوله . وما يدري الا وصوت حاد يصيح بغضب : « يا عثمان يا ابن الكلب ، تعال يا أعمى يا ابن الأعمى » التفت رأسه نحو مصدر الصوت فرأى على السلاملك رجلاً متلفعاً بعباءة حمراء ، يشير نحوه بأصبعه المرتجف ، والغضب يشتعل في وجهه ، فاندفع نحو حافة الفسقية وصعد الى ارض الحديقة مرتكزاً على مرفقيه ، وعند ذاك لمح البواب قادماً مهرولاً ، فجرى نحو عريشة الياسمين الملاصقة للسور ، ناسياً جلبابه حيث خلعه ، وركض نحو الباب ، فمرق الى الحارة . عدا بكل قواه ، ورآه اطفال فتبعوه مهللين ، فنبحت كلاب ، ثم خرج عثمان البـــواب الى الحارة وراح يجري وراءه حتى ادركه في منتصف حيه ، فقبض على ذراعه وتوقف وهو يلهث ، وعلا صراخ قاسم حتى ملأ الحي . وسرعان ما جاءت زوجة عمه حاملة وليدها ، وخرج المعلم سوارس من القهوة . دهشت زوجه عمه لمنظره ، وامسكت بيده وهي تقول للبواب :

— وحّد الله يا عم عثمان ، أرعبت الولد . ماذا فعل وأين جلبابه ؟

فصاح البواب في تكبّر :

— رآه حضرة الناظر وهو يستحم في الفسقية ، هذا العفريت يجب جلده ، دخل الملعون وانا نائم . لماذا لا تريحوننا من عفاريتكم !

فقالت المرأة برجاء :

— السماح يا عم عثمان ، الولد يتيم ، وحقك عليّ .

واستنقذته من يده قائلة :
— سأضربه عنك ولكن وحياة شيبتك الا ما اعدت له جلبابه الوحيد .
فلوح البواب بيده متسخطاً وولاها ظهره راجعاً وهو يقول :
— بسبب هذه الحشرة لعنت وسببت ، أولاد عفاريت وحارة بنت كلب !
وعادت المرأة الى الربع ، متوركة حسن ، جارّةً قاسم من يده وهو يشهق باكياً .

٦٥

وقال عم زكريا لقاسم وهو يرمقه باعجاب :
— لم تعد طفلاً يا قاسم ، فأنت تقارب العاشرة وآن لك ان تعمل !
فالتمعت عينا قاسم السوداوان ابتهاجاً وقال :
— طالما رجوتك ان تأخذني معك يا عمي .
فضحك الرجل قائلاً :
— كان غرضك اللعب لا العمل، اما اليوم فأنت ولد عاقل وتستطيع ان تعاونني .
فهرع الغلام الى العربة محاولاً دفعها لكن عم زكريا منعه ، وقالت زوجة عمه :
— حاسب ان تنزلق البطاطة فنموت جوعاً .
وقبض زكريا على يدي العربة وهو يقول له :
— سر امام العربة وناد : « بطاطة العمدة .. بطاطة الفرن » وخذ بالك من كل ما اقول أو أعمل ، وستصعد بالبطاطة الى الزبائن بالادوار العليا ، وعلى العموم فتّح عينك .

فقال قاسم وهو ينظر الى العربة بحسرة :

ـ لكني قادر على دفعها :

وساق الرجل العربة وهو يقول :

ـ أفعل كما أمرتك ولا تكن عنيداً ، كان ابوك ألطف الناس .

انحدرت العربة نحو الجمالية وقاسم يصيح بصوت رفيع كالصفير : « بطاطة العمدة ، بطاطة الفرن » : لم يكن كمثل فرحه شيء وهو ينطلق الى الأحياء الغريبة ويعمل كالرجال . ولما بلغت العربة حارة الوطاويط نظر قاسم فيما حوله وقال لعمه :

ـ هنا اعترض ادريس سبيل ادهم !

فهز زكريا رأسه بلا اكتراث فعاد الغلام يقول ضاحكاً :

ـ كان ادهم يسوق عربته مثلك يا عمي .

ومضت العربة في تجوالها اليومي ، من الحسين الى بيت القاضي ، ومن بيت القاضي الى الدراسة ، وقاسم يتطلع بدهش الى العابرين والدكاكين والجوامع حتى انتهت الى ميدان صغير قال العم انه سوق المقطم ، فتأمله الغلام باعجاب وقال :

ـ أهذا سوق المقطم حقاً ؟ الى هنا هرب جبل ، وهنا ولد رفاعة !

فقال زكريا بلا حماس :

ـ نعم ، لا لنا في هذا ولا ذاك !

فقال قاسم :

ـ لكننا جميعاً اولاد الجبلاوي فلماذا لا نكون مثلهم ؟

فضحك الرجل وقال ساخراً :

ـ على الأقل جميعنا في الفقر سواء !

ووجه الرجل عربته نحو اطراف السوق المشرفة على الخلاء ، وبخاصة نحو كوخ من الصفائح على هيئة دكان لبيع المسابح والبخور والأحجبة ، جلس امامه على فروة عجوز ذو لحية بيضاء .

أوقف زكريا العربة امام الكوخ وصافح العجوز بحرارة ، فقال الرجل :
– عندي اليوم كفايتي من البطاطة .
فجلس زكريا الى جانبه وهو يقول :
– مجالستك خير عندي من الربح .
ونظر العجوز نحو الغلام مستطلعاً فصاح به زكريا :
– تعال يا قاسم وقبّل يد المعلم يحيى .
فاقترب الغـلام من العجوز وتناول يده المعروقة فلثمها في أدب .
وراح يحيى يداعب قُصة قاسم ويتأمل وجهه الوسيم ثم تساءل :
– من الغلام يا زكريا ؟
فقال زكريا وهو يمد ساقيه في الشمس :
– ابن المرحوم أخي .
فأجلسه الى جانبه على الفروة وهو يسأله :
– هل تذكر أباك يا بني ؟
فهز قاسم رأسه قائلاً :
– كلا يا عمي .
– كان أبوك صديقاً لي ، وكان لطيفاً .
ورفع قاسم عينيه الى البضائع يتأمل الوانها فمد يحيى يده الى رف قريب وتناول حجاباً ، ثم علقه بعنق الغلام وهو يقول :
– احتفظ به فيحفظك من كل سوء .
واذا بعم زكريا يقول لقاسم :
– المعلم يحيى كان من حارتنا ، ومن حي رفاعة .
فنظر قاسم الى يحيى وتساءل :
– لماذا تركت حارتنا يا عمي ؟
فأجاب زكريا قائلاً :
– غضب عليه فتوة رفاعة منذ عهد بعيد فآثر الهجرة .

فقال قاسم بدهش :
— فعلت كما فعل عم شافعي والد رفاعة .
فضحك يحيي عن فم فارغ طويلاً ثم قال :
— أعرفت ذلك يا غلام ؟ ما أعرف أولاد حارتنا بالحكايات فما بالهم لا يعتبرون !

وجاء صبي قهوة حاملاً صينية شاي فوضعها امام يحيي ثم رجع واخرج يحيي من صدره لفافة صغيرة وجعل يفكها قائلاً برضى :
— لدي شيء ثمين ، مفعوله اكيد حتى الصباح .
فقال زكريا باهتمام :
— دعنا نجربه .
فقال يحيي ضاحكاً :
— ما سمعتك تقول لا قط .
— كيف أرفض النعمة يا عمي !

وتقاسما القطعة ، وراحا يلوكانها ، وقاسم يتابعهما بشغف حتى أضحك عمه . وأخذ العجوز يحسو الشاي ، ويسأل قاسم :
— هل تحلم بالفتونة كأهل حارتنا ؟
فقال قاسم مبتسماً :
— نعم .
فقهقه زكريا وقال كالمعتذر :
— اعذره يا معلم يحيي فأنت تعلم أنه في حارتنا اما أن يكون الرجل فتوة وأما أن يُعدّ قفاه للصفع .
فقال يحيي متأوهاً :
— ليرحمك الله يا رفاعة ، كيف نبتّ في حارتنا الجهنمية !
— لذلك كانت نهايته كما تعلم .

فقال يحيى مقطباً :

– رفاعة لم يمت يوم مصرعه ولكنه مات يوم انقلب خليفته فتوة !

فسأله قاسم باهتمام :

– أين دفن يا عمي ؟ أهله يقولون إن جدنا دفنه في حديقته ، ويقول آل جبل إن جثته ضاعت في الخلاء .

فصاح يحيى غاضباً :

– الملاعين الأشقياء ، ما زالوا يحقدون عليه حتى اليوم !

ثم مستدركاً في تساؤل :

– خبّرني يا قاسم هل تحب رفاعة ؟

فنظر الغلام نحو عمه في حذر ولكنه قال ببساطة :

– نعم يا عمي ، أحبه كثيراً .

– أيها أحب اليك أأن تكون مثله أم أن تكون فتوة ؟

فرفع اليه عينين تمتزج فيهما الحيرة والابتسام وتحركت شفتاه للكلام ولكنه لم ينبس ، فقال زكريا مقهقهاً :

– فليقنع مثلي ببيع البطاطة !

وساد الصمت بينهم على حين قامت ضجة في السوق حول حمار طرح أرضاً فمال بالكارو المربوطة به ، واخذت الراكبات يثبن منها ، اما السائق فقد انهال على الحمار ضرباً . ونهض زكريا وهو يقول :

– امامنا مشوار طويل ، سلام عليكم يا معلم .

فقال يحيى :

– احضر الغلام معك كلما جئت .

وصافح قاسم وهو يداعب قُصّته قائلاً :

– ما أظرفك !

٦٦

لم يكن في الخلاء من مكان يستظل به من وقدة الشمس الغاضبة الا صخرة هند . هنالك اقتعد قاسم الأرض ولا أنيس له الا الغنم . بدا في جلباب أزرق نظيف — نظيف بالقدر المتاح لراعٍ — متلفح الرأس بلاسة غليظة وقاية من الشمس ، ومنتعلاً مركوباً قديمـاً بالياً تهتكت اطرافه . وكان يخلو الى نفسه حيناً ويراقب النعاج والخرفـان والمعز والحداء حيناً آخر ، وعصاه مطروحة الى جانبه . ولاح المقطم من مجلسه القريب عالياً ضخماً متجهماً ، كأنه المخلوق الوحيد تحت القبة الصافية الذي يتحدى غضبه الشمس في عناء واصرار ، كما ترامى الخلاء حتى الآفاق مشمولاً بصمت ثقيل وهواء ساخن . وكان اذا أضنته أفكاره وأحلامه ونوازع شبابه الفائر سرح الطرف في الغنم ملاحظاً لهوها وعبثها، وتخاصمها وتوادها ، ونشاطها وكسلها ، وخاصة البهم والحملان منهـا التي تستدر عطفه ومحبته . وكانت تعجبه أعينها الكحلاوات وتهز فؤاده بنظراتها كأنما تخاطبه ، وكان بدوره يخاطبها فيقارن بين ما تلقى في رعايته من عطف وما يلقى اولاد حارته تحت غطرسة الفتوات من هوان . ولم تهمه نظرة الاستعلاء التي يلقيها أهل الحارة على الرعاة ، اذ آمن من بادىء الأمر بأن الراعي خير من البلطجي والبرمجي والمتسول ، وفضلاً عن ذلك فقد أحب الخلاء والهواء النقي وآنس الى المقطم وصخرة هند وقبة السماء ذات الأطوار العجيبة ، إلا أن الرعي كان يقوده دائماً إلى المعلم يحيى ! وتساءل المعلم يحيى أول ما رآه راعياً :

— من بائع بطاطة الى راعي غنم ؟ !

فقال قاسم دون حرج :

ــ ولم لا يا معلم ! انه عمل يحسدني عليه مئات من التعساء في حينا !

ــ ولماذا تركك عمّك ؟

ــ ابن عمي حسن كبر وهو أحقّ بمرافقة عمي في تجواله ، ورعي الغنم خير من التسول !

ولم يكن يمر يوم دون أن يزور معلمه . كان يحبه ويسعد بأحاديثه. ووجد فيه رجلاً محيطاً بأخبار حارته ، حاضرها وماضيها ، ويعرف ما يتغنى به شعراء الرباب وأكثر ، ويعرف ايضاً ما يتجاهلونه أحياناً . وكان يقول ليحيي : « اني أرعى أغناماً من كل حي ، عندي غنم لجبل واخرى لرفاعة وثالثة للموسرين من حينا ، ومن عجب أنها ترعى جميعاً في اخاء لا ينعم بمثله أصحابها القساة من أولاد حارتنا ! » . وقال له ايضاً : « كان همام راعياً ، ومن الذين يحتقرون الرعاة ! انهم متسولون وعاطلون وتعساء ، وهم في الوقت نفسه يحترمون الفتوات ، وما الفتوات إلا لصوص فجرة وسفاكو دماء ! سامحكم الله يا أولاد حارتنا ! » . ومرة قال له في دعابة :

ــ اني فقير قانع ، لم تمتد يدي بالأذى لإنسان ، حتى غنمي لا تلقى مني إلا المودة ، أفلا ترى أنني مثل رفاعة ؟

فرمقه الرجل باستنكار وقال :

ــ رفاعة ! أنت مثل رفاعة ! رفاعة قضى عمره في تخليص اخوانه من العفاريت كي تخلص لهم السعادة !

ثم ضحك العجوز واستدرك قائلاً :

ــ وانت شاب مولع بالنساء ، ترصد عند المغيب فتيات الخلاء !

فابتسم قاسم متسائلاً :

ــ وهل في ذلك من عيب يا معلمي ؟

ــ أنت وشأنك ، ولكن لا تقل إنك مثل رفاعة !

فتأمل قوله ملياً ، ثم قال :

– وجبل ألم يكن كرفاعة من أبناء حارتنا الطيبين ؟ كان كذلك يا معلمي ، وقد أحب وتزوج واستخلص حق آله في الوقف ووزعه بالعدل .

فقال يحيى بحدّة :

– لكنه جعل من الوقف غايته !

فتفكر الشاب قليلاً ثم قال بصراحة :

– بل حسن المعاشرة والعدل والنظام ايضاً كانت غاياته .

فتساءل يحيى في استياء :

– اذن فأنت تفضل جبل على رفاعة ؟

فامتلأت العينان السوداوان بالحيرة ، وتردد طويلا ، ثم قال :

– كلاهما كان رجلاً طيباً ، وما أقل الطيبين في حارتنا ، ادهم وهمام وجبل ورفاعة ، أولئك هم كلّ حظنا من الطيبة ، أما الفتوات فما اكثرهم !

فقال يحيى في أسى :

– وادهم مات كمداً ، وهمام قتل ، ورفاعة قتل !

أولئك هم الطيبون حقاً من أهل الحارة . سيرة عطرة ونهاية مؤسفة. هكذا كان يناجي نفسه وهو جالس في ظل الصخرة الكبيرة . وانبعثت من صدره رغبة حارة في أن يكون مثلهم . أما الفتوات فما أقبح فعالهم. وداخله حزن غامض وساوره قلق . وقال لنفسه ليهدهد خاطره : كم شهدت هذه الصخرة من أحداث وأناس ، كغرام قدري وهند ، ومقتل همام ، ولقاء جبل والجبلاوي ، وحديث رفاعة وجدّه ، ولكن أين الأحداث وأين الأناس ؟ إن الذكرى الطيبة تبقى وهي أثمن من قطعان المعز والضأن ! وشهدت أيضاً جدنا العظيم وهو يجوب هذه الآفاق وحده ، يمتلك ما يشاء ويُرهب الأشقياء . ترى كيف حاله في عزلته ؟

وعند الأصيل نهض ثم تمطى متثائباً . وتنــاول عصاه وهو يصفر صفيراً منغماً ، ثم لوّح بعصاه ونعق بالغنم فمضت تتجمع وتتحرك قافلتها نحو العمران . وبدأ يشعر بالجوع ولم يكن تناول في نهاره الا سردينة ورغيفاً ، ولكن عشاء طيباً ينتظره في بيت عمه . وحث السير حتى بدا له اول ما بدا من بعيد البيت الكبير بأسواره العالية ونوافذه المغلقــة ورءوس أشجاره . ترى ما شكل الحديقة التي يتغنى بها الشعراء والتي مات أدهم حسرة عليها ؟ ولدى اقترابه من الحارة ترامت الى مسامعه الضوضاء . ومضى بحذاء السور الكبير الى الداخــل والمغيب يضفي على الجو سمرته . وشق طريقه بين جماعــات من الغلمان يلعبون ويتقاذفون بالطين ، وملأت أذنيه نداءات الباعة وأحاديث النساء وسخريات الساخرين وشتائمهم ، واستغاثات المجذوبين وجرس عربة الناظر ، على حين افعم أنفه برائحة المعسّل النافذة ، والزبالة العطنة ، والتقلية المثيرة . وعرج الى الربوع بحيّ جبل يعيد اليها أغنامها ، كذلك فعل بحي رفاعة ، فلم يبقَ لديه الا نعجة واحدة ، تملكها ست قمر ، السيدة الوحيــدة التي تملك مالا في حي الجرابيع . وكانت تقيم في بيت مكوّن من دور واحد ذى حوش متوسط تتوسطه نخلة وفى ركنه الأقصى شجرة جوافــة . ودخل الحوش سائقاً أمامه « نعمة » فصادف في طريقه الجارية سكينة بشعرها المفلفل الذي وخطه المشيب ، فحيّاها فردت تحيته بابتسامة وسألته بصوت نحاسي :

— كيف حال نعمة ؟

فأعرب لها عن اعجابه بالنعجة ، وتركها لها ، ومضى في سبيله ، واذا بصاحبة البيت والنعجة تدخل الحوش عائدةً من الحارة . بـدت امامه في ملاءة لف حوت جسمها المليء ، وطالعته من برقعها عينان

سوداوان ينديان بالحنان . تنحّى جانباً وهو يغض بصره فقـالت له برقة مهذبة :
— مساء الخير .
— مساء الخير يا ستّي .
وتمهلت المرأة في سيرها وهي تتفحص نعمة ، ثم نظرت نحوه ، وقـالت :
— نعمة تسمن يوماً بعد يوم والفضل لك !
فقال متأثراً من نظرتها الحنونة قبل كلماتها الطيبة :
— الفضل للمولى ولرعايتك .
والتفتت ست قمر نحو سكينة وقالت :
— احضري له عشاء !
فرفع يديه بالشكر الى رأسه وقال :
— خيرك سابق يا ستّي .
وفاز بنظرة أخرى وهو يحييها مودعا ثم ذهب . ذهب شديد التأثر برقتها وعطفها ، كحاله كلما اسعده الحظ بلقائهـا . وذلك عطف لم يعرف مثله الا فيما يسمع أحياناً عن عطف الأمهات الذي لم يجربه . ولو امتد العمر بأمه لكانت اليوم في مثل عمر هذه السيدة الأربعينية . وكم بدا هذا العطف عجيباً في حارته التي تتباهى بالقوة والعنف . وليس اعجب منه الا جمالها المحتشم وما ينفحه في روحه من بهجة غامرة . ليست كذلك مغامرات الخلاء المحرقة ، بجوعها الملتهب الأعمى وشبعها الخامد المكتئب. وهرول نحو دار عمه ملقياً عصاه على كتفه ، لا يكاد يرى مـا بين يديه من شدة انفعاله . وجد أسرة عمه مجتمعة في الشرفـة المطلة على حوش الربع تنتظره . جلس مع ثلاثتهم حول الطبلية وقد اعد عليها عشاء من طعمية وكراث وبطيخ . وكان حسن في السادسة عشرة من عمره ، طويل القامة متين البناء حتى حلم عم زكريا بأن يراه يوماً فتوة

الجرابيع . ولما انتهى العشاء رفعت المرأة الطبلية وغادر عم زكريا الربع ، ولبث الصديقان في الشرفة حتّى ترامى اليهما صوت من الحوش ينادي :

— يا قاسم .

فقام الشابان وقاسم يجيبه :

— نحن قادمان يا صادق .

وتلقاهما صادق ببشر متألق ، وكان مقارباً لقاسم في سنه وطوله ولكنه انحل منه عوداً . وكان يعمل مساعداً لمبيِّض النحاس في اول دكان بحي الجرابيع فيما يلي الجمالية . مضى الاصدقاء الى قهوة دنجل ، وطالعهم لدى دخولهم الشاعر طازة متربعاً على اريكته في الصدر ، على حين جلس سوارس على كثب من مجلس دنجل عند المدخل ، فاتجهوا نحو الفتوة وصافحوه في خضوع رغم ما يعتز بـه قاسم وحسن من قرابته . واتخذوا مجلسهم على أريكة واحدة وسرعان ما جـاء لهم صبيّ القهوة بطلباتهم المألوفة ، وكان قاسم مغرمـاً بالجوزة والشاي المنعنـع . واذا بسوارس يتفحص قـاسم بنظرة ازدراء وتساءل بغلظـة :

— مالك يا ولد متأنقاً كالبنت ؟

فتورد وجه قاسم حياء وقال في نبرة المعتذر :

— ليس في النظافة ما يعيب يا معلم !

فقطب في استياء وقال :

— لكنها في مثل سنك قلة أدب !

وساد الصمت في القهوة كأن روادها وادواتها وجدرانهـا تنصت لكلمات الفتوة . ولحظ صادق صاحبه بعطف لما يعلم عن رقة مشاعره . اما حسن فأخفى وجهه في قدح الزنجبيل حتى لا يكتشف فيـه الفتوة الغضب . وتناول طازه الرباب ، فانبعثت من اوتارها الانغام ، وتتابعت التحيات لرفعت الناظر ولهيطة الفتوة وسوارس سيد الحي ، ومضى الشاعر

يقـــول :

« وخيّـل الى أدهم انه يسمع وقع اقدام . اقدام بطيئة وثقيلة استثارت ذكريات غامضة كرائحة زكية مؤثرة تستعصى على الادراك والتحديد . حول وجهه نحو مدخل الكوخ فرأى الباب يفتح ، ثم رآه يمتلىء بشيء كجسم هائل . حملق في دهش ، وأحدّ بصره في أمل يكتنفه يأس ، وندّت عنه آهة عميقة ، وغمغم متسائلاً :

– أبي ؟

وخيّل اليه انه يسمع الصوت القديم وهو يقول :

– مساء الخير يا أدهم .

فاغرورقت عيناه ، وهمّ بالقيام فلم يستطع ووجد غبطة وبهجة لم يجدهما منذ اكثر من عشرين عاماً » .

٦٧

قالت سكينة الجارية :

– انتظر يا قاسم ، عندي شيء لك .

فوقف قاسم حيث ربط النعجة بجذع النخلة ، ووقف ينتظر الجارية التي ذهبت الى الداخل ، وكان قلبه يخفق ، وحدثته نفسه بأن الخير الذي وعد به صوت الجارية انما يجيء من خير أنبل في قلب صاحبة الدار . ووجد تشوّقاً عميقاً الى ان يرى نظرتها او يسمع صوتها ليبرد بالبهجة جسده الذي احترق في الخلاء طيلة النهار . وعادت سكينة بلفافة فأعطته اياها وهي تقول :

– فطيرة بالهنا والشفا !

فتلقاها بيديه قائلا :

ـ اشكري عني السيدة الكريمة .

فجاءه صوتها من وراء النافذة وهي تقول برقة :

ـ الشكر للمولى يا ابن الطيبين .

فرفع بالشكر يده دون بصره ومضى . وردد قولها: «يا ابن الطيبين» في سعادة مخدرة . لم يسمع راعي الغنم قولا كهذا من قبل . ومن قائلته ؟ السيدة المحترمة في حيه البائس ! والقى نظرة وردية على الحارة المسربلة بالمغيب ، وقال لنفسه : « رغم تعاسة حارتنا فهي لا تخلو من اشياء تستطيع اذا شاءت ان تبعث السعادة في القلوب المتعبة » ! وانتبه من حلمه منزعجاً على صوت يصرخ « نقودي .. نقودي سرقت » ! رأى رجلاً معمماً يهرول في جلباب ابيض فضفاض نحو داخل الحارة قادماً من أول حيهم . وتحولت الحارة نحو الرجل الصارخ ، فجرى نحوه الصغار ، واشرأبت أعناق الباعة والجالسين بالأبواب ، واطلت الرءوس من النوافذ ، وارتفعت أوجه من تحت الأرض خلال كوات البدرومات وخرج رواد المقاهي ، وأحيط بالرجل من كل ناحية . ورأى قاسم رجلاً قريباً منه ، يحك ظهره بعود خشبي من طوق جلبابه ، ويتابع المنظر بعينين كليلتين ، فسأله عن الرجل قائلا :

ـ من الرجل ؟

فأجاب ويده لا تمسك عن الحك :

ـ نجاد كان يعمل في بيت الناظر !

واتجه نحو الرجل سوارس فتوة الجرابيع وحجاج فتوة رفاعة وجلطة فتوة جبل ، وسرعان ما امروا الناس بالابتعاد فتراجعوا خطوات بلا تردد . وقالت امرأة من نافذة ربع في حي رفاعة :

ـ عين أصابت الرجل !

فقالت امرأة اخرى من نافذة بأول ربوع جبل :

ـ صدقتِ ، ما من احد الا وحسده على ربحه المنتظر من تنجيد

فرش الناظر ، اللهم اكفنا شر العين .

فقالت امرأة ثالثة واقفة امام باب بيت وهي تفلي رأس غلام :

ــ وكان يا عيني يضحك وهو خارج من بيت الناظر ، لم يكن يدري انه سيصرخ ويبكي ، قطعت الفلوس وقرفها !

وكان الرجل يصيح بأعلى صوته :

ــ سرق كل ما كان معي من نقود ، اجرة عمل اسبوع ، واخرى كانت في جيبي ، نقود البيت والدكـــان والاولاد ، عشرون جنيهاً وقروش ، الله يخرب بيت اولاد الحرام !

وقال جلطة فتوة جبل :

ــ هس ، الكل يسكت ، اسكتـــوا يا غنم ، سمعة الحـــارة في الميزان ، وأي عيب في النهاية سيلبس الفتوات !

فقال حجاج فتوة رفاعة :

ــ وربك لن يقع عيب ، ولكن من ادرانا انه فقـــد نقوده في حارتنـــا ؟

فهتف النجاد بصوت مبحوح :

ــ عليّ الطلاق ما سرقت الا في حارتكم ، تسلمتهـــا من بواب حضرة الناظر ، وتحسست صدري في آخر الحارة فلم أجد لها أثراً .

وارتفعت الاصوات فصاح حجاج :

ــ اسكتوا يا مواشي ! واسمع يا رجل ، اين عرفت ان نقودك ضاعت ؟

فأشار الرجل الى آخر حيّ الجرابيع وقال :

ــ امام دكان مبيض النحاس ، لكني والحق يقال لم يقترب مني احد هناك .

فقال سوارس :

ــ اذن سرق قبل ان يدخل حيّنا !

فقال حجاج فتوة رفاعة :

– كنت في القهوة حين مروره فلم ار احد في حيّنا يقترب منه .

فصاح جلطة بحنق :

– ليس في آل جبل لص ، انهم اسياد هذه الحارة !

فأجابه حجاج غاضباً :

– حاسب يا معلم جلطة ، عيب قولك اسياد الحارة !

– لا ينكر ذلك الا مكابر !

فصاح حجاج بصوت كالرعد :

– لا توقظ عفاريتي ! ملعون دين قلة الذوق .

فصاح جلطة بنفس القوة :

– ألف لعنة ، الف لعنة على قلة الذوق التي لا توجد في حيّنا !

وهنا قال النجاد بصوت باك :

– يا رجال ! نقودي فقدت في حارتكم ، كلكم اسياد على العين والراس ، لكن اين نقودي ، يا خراب بيتك يا فنجري !

فقال حجاج بتحد :

– عليكم بالتفتيش ، فلنفتش كل جيب ، كل رجل ، كل مرة ، كل ولد ، كل ركن .

فقال جلطة بازدراء :

– فتشوا ، وستسودّ وجوه غير وجوهنا !

فقال حجاج :

– خرج الرجل من بيت الناظر فر أول ما مر بحيّ جبل فلنبدأ بالتفتيش في حي جبل !

فشخر جلطة وقال :

– لن يكون هذا وجلطة حيّ ، يا حجاج اذكر من تكون أنت ومن اكون انا .

ـ يا جلطة ، ان ندوب الطعنات في جسدي اكثر من شعره !
ـ أما انا فلا مكان للشعر في جسدي !
ـ اللهم ابعدك يا شيطان !
ـ اليّ يا شياطين الأرض جميعاً !
وعاد فنجري يصيح :
ـ يا هوه ، نقودي ، الا يسيئكم ان يقال اني سرقت في حارتكم ؟
وغضبت امرأة فصاحت به :
ـ غر يا وجه البومة ، ستهلك الحارة بسببك !
واذا بصوت يتساءل :
ـ ولماذا لا تكون النقـود قد سرقت في حيّ الجرابيع واكثرهم لصوص وشحاذون ؟
فصاح سوارس :
ـ لصوصنا لا يسرقون في حارتنا !
ـ ومن ادرانا بذلك ؟
فقال سوارس بعينين محمرتين من الغضب :
ـ لا حاجة بنـا الى مزيد من قلة الأدب ، سيكشف التفتيش عن اللص ، والا فقولوا على حارتنا السلام !
ونادى اكثر من صوت :
ـ ابدأوا بحيّ الجرابيع !
فصاح سوارس :
ـ اي خروج عن الترتيب الطبيعي للتفتيش سيلقى نبوتي في وجهه .
ورفع سوارس نبوته فانحاز اليه رجاله ، وفعل حجاج مثله ، وتراجع جلطة الى حيّه وفعل مثلها ، فلاذ النجاد بباب الربع وهو يبكي ، وكان الليل على وشك الهبوط . وتوقع الجميع ان تبدأ معركة دامية . واذا بقاسم يندفع الى وسط الحارة ، ويصيح بأعلى صوته :

ـ انتظروا ، لن يكشف الدم عن النقود المفقودة ، وسيقـال في الجمالية والدراسة والعطوف ان داخلَ حارة الجبلاوي مسروق ولو احتمى بناظرها وفتواتها !

فتساءل احد رجال جبل :

ـ ماذا يريد راعي الغنم ؟

فقال قاسم بسماحة :

ـ عندي حيلة ترد بها النقود الى صاحبها دون عراك !

فجرى النجاد نحوه هاتفاً : « انا في عرض دينك » . فقال قاسم يخاطب الجميع :

ـ سترد النقود الى صاحبها دون ان يفتضح أمر السارق .

وساد الصمت ، وتركزت الأعين في قاسم باهتمام شديد ، فعاد يقول :

ـ فلننتظر حتى يستحكم الظلام وهو قريب ، لن تضاء شمعة واحدة في الحـارة ، ثم نسير جميعاً من اول الحارة الى آخرها كيلا تنحصر الشبهة في حيٍّ دون آخر ، وفي اثناء ذلك سيجد حائز النقود فرصة للتخلص منها في الظلام من غير ان يفتضح امره ، فنعثر على النقود وتنجو الحارة من شر العراك .

وشدّ النجاد على ذراع قاسم في ضراعة يائس وهتف: « نعم الحل ، اقبلوه جبراً لخاطري » . وصاح صوت: « حل معقول يا جدعان ! » وصاح آخر : « هذه فرصة للسارق كي ينجو وينجّي الحارة » . وزغردت امرأة طويلاً . ونقل الناس اعينهم بين الفتوات الثلاثة وهم بين الرجاء والخوف . وأبى أيّ فتوة ان يكون البادىء باعلان القبول علواً واستكباراً فلبث اهل الحارة يتساءلون هل يغلب العقل او تتلاطم النبابيت وتسيل الدماء . واذا بصوت يعرفه الجميع يصيح :

ـ هوه !

فانجذبت الرءوس نحو مصدره ، حيث وقف لهيطة فتوة الحارة غير

بعيد من بيته . وساد الصمت وقد تعلقت بما سيقول القلوب جميعاً . وقال الرجل بازدراء :

– اقبلوا الحل يا غجر ، لولا غباوتكم ما كان منقذكم راعي غنم .

وسرت في القوم همهمة ارتياح . وتعالت زغاريد . فاشتد خفقان قلب قاسم . ولحظ دار قمر وهو موقن بأن عينيها السوداوين تراقبانه من وراء احد الشباكين المطلين على الحارة ، فداخله زهو سعيد ، وشعر بلذة فوز كبير لا عهد له به . وبدا الجميع وهم يترقبون الظلام ، فينظرون الى السماء تارة وينظرون صوب الخلاء تارة اخرى . وتابعوا هبوطه درجة فدرجة . ومضت المعالم تتوارى والوجوه تختفي والناس ينقلبون اشباحاً . اما الممران حول البيت الكبير المفضيان الى الخلاء فقد اغلقتهما الظلمة . ودبت الحركة بين الأشباح فمشوا نحو البيت الكبير ثم قطعوا الحارة مهرولين حتى الجمالية ، ثم تفرقوا كل الى حيه . عند ذاك صاح لهيطة بصوته الآمر :

– نوّروا !

وكان أول ما لاح من نور في دار قمر بحي الجرابيع ، ثم أضيئت مصابيح عربات اليد ، ثم كلوبات المقاهي ، فعادت الحارة الى الوجود. وراح قوم يتفحصون الأرض على ضوء كلوب ، حتى تعالى صوت قائلاً :

– ها هي المحفظة !

وجرى فنجرى من فوره نحو الضوء فتناول المحفظة ، وعدّ نقوده ، ثم هرول لا يلوي على شيء نحو الجمالية مخلفاً وراءه ضجة عالية من الضحكات والزغاريد . ووجد قاسم نفسه محط أنظار ، ومركز استقبال للتهاني والمزاح ، ومحور تعليقات شتى تساقطت عليه كالورد . وعندما ذهب قاسم وحسن وصادق الى قهوة الجرابيع ذلك المساء استقبله سوارس

بابتسامة ترحيب وقال :

– جوزة على الحساب لقاسم .

٦٨

مورّد الوجه ، متألق النظرات ، صافي القسمات ، مبتهــج القلب . دخل حوس قمر ليأخذ النعجة وهو يقول : « يا ساتر » . وراح يفك رباط النعجة في بئر السلم ، واذا بصرير باب الحريم يسمع وهو يفتح وصوت الست تقول :

– صباح الخير .

فقال بفؤاده ولسانه :

– صبحك المولى بالسعادة يا ستي .

– صنعت أمس خيراً كبيراً لحارتنا .

فقال وروحه ترقص طرباً :

– الله هو الهادي .

فقالت في نغم وشى باعجابها .

– علمتنا أن الحكمة أجلّ من الفتونة .

وعطفك أجل من الحكمة ، هكذا قال لنفسه ، ثم قال لها :

– ربنا يكرمك .

فنم صوتها على ابتسامة وهي تقول :

– رأيناك ترعى أولاد الحارة كما ترعى الغنم ، صحبتك السلامة .

ذهب بنعمة ، وكلما مر بربع انضم الى قافلتــه ماعز أو ماعزة أو جدي أو تيس . وكان يلقى بالترحاب ، حتى الفتوات ردوا على تحياته وكانوا يتجاهلونهـــا . واخترق الممر الملاصق لسور البيت الكبير وراء

طابور طويل من الأغنام في طريقه الى الخلاء . واستقبل شمساً لافحة تتربع فوق الجبل ، وجواً يزفر أنفاساً حارة في الصباح المشرق . وتراءى عند سفح الجبل بعض الرعاة ، ومر رجل مهلهل الثياب ينفـــخ في ناي ، وانطلقت في القبة الصافية حدآي مدومة . وفي كل نسمة استنشق صفاء نقياً ، وخال الجبل الضخم يحوي كنوزاً من الآمال الواعدة . وسرّح الطرف في الخلاء بارتياح عجيب حتّى استخفه طرب جواد فراح يغني :

يا حلو يا زين يا صعيدي   اسمك منجوش على إيدي

وجالت عيناه بين صخرة قدرى وهند وبين البقاع التي جرت بهـــا مصارع همام ورفاعة ، ولقاء الجبلاوي وجبل ! هنا الشمس والجبـــل والرمال والمجد والحب والموت ، وقلب ينبزغ فيه الحب لكنه يتساءل عن معنى هذا كله ، ما مضى منه وما هو آت ، عن الحارة ذات الأحيـــاء المتخاصمة والفتوات المتنابزين ، عن الحكايات التي تروى في كل مقهى على شكل .

وقبيل الظهيرة ساق أغنامه نحو سوق المقطم ثم مضى الى كوخ المعلم يحيي وجلس . وهتف به العجوز :

ـــ ما هذا الذي يقال عما فعلت أمس بحارتنا ؟

وداري قاسم حياءه باحتساء الشاي فعاد المعلم يقول :

ـــ كان الأفضل أن تتركهم يتطاحنون حتى يهلكوا جميعاً .

فقال دون أن يرفع عينيه :

ـــ ما تقول هذا الا بلسانك .

فقال يحيي محذراً :

ـــ تجنب المعجبين خشية أن تستفز الفتوات .

ـــ وهل يستفز الفتوات أمثالي ؟

فتنهد العجوز قائلاً :

ـــ ومن كان يتصور أن يغدر غادر برفاعة ؟

فقال قاسم بدهشة :

ـ وما وجه التشابه بين رفاعة العظيم وبيني أنا ؟

وعندما هم بالعودة ودعه العجوز قائلاً :

ـ احتفظ دائماً بحجابي .

وعند العصر كان يجلس في الظل المحدود وراء صخرة هند ، واذا به يسمع صوت سكينة وهي تنادي : « نعمة » فوثب قائماً ودار حول الصخرة فرأى الجارية واقفة عند رأس النعجة تداعب زلمتها . حياها بابتسامة فقالت بصوتها النحاسي :

ـ انا ذاهبة في مشوار في الدراسة فررت من هنا اختصاراً للطريق .

فقال قاسم :

ـ لكنه طريق شديد الحرارة .

فقالت ضاحكة :

ـ لذلك سأستريح قليلاً في ظل الصخرة .

وجلسا متقاربين في الظل حيث ترك عصاه . وقالت سكينة :

ـ عندما شهدت صنيعك بالأمس آمنت بأن امك دعت لك من قلبها قبل وفاتها .

فتساءل مبتسماً :

ـ وأنت الا تدعين لي ؟

فقالت وهي تداري نظرة ماكرة :

ـ لمثلك يدعى ببنت الحلال !

فقال ضاحكاً :

ـ ومنذا الذي يرضى براعي غنم !

ـ الحظ يصنع العجائب ، وأنت اليوم بمنزلة الفتوات دون حاجة الى سفك دماء !

– أقسم ان لسانك أحلى من الشهد !
فرمقته بنظرة من عينيها الذابلتين وقالت :
– هل أدلك على طريق عجيب ؟
فتولاه انفعال طارىء وهو يقول :
– نعم .
فقالت بصراحة زنجية :
– جرب بختك واخطب سيدة حيِّنا !
وبدا كل شيء غير نفسه . وتساءل :
– من تعنين يا سكينة ؟
– لا تتجاهل ما أعني ، فليس في حينا الا سيدة واحدة .
– ست قمر !
– دون غيرها !
فقال بصوت متهدج :
– كان زوجها من الأكابر ، ولست الا راعي غنم !
– لكن الحظ اذا ضحك ضحك معه كل شيء حتى الفقر .
وتساءل وكأنما يسأل نفسه :
– ألا يغضبها طلبي ؟
قامت سكينة وهي تقول :
– لا يدري أحد متى ترضى النساء ومتى تغضب، فتوكل على الله .
ثم وهي تمضي :
– فتك بعافية .
رفع رأسه نحو السماء وأغمض عينيه كأنما دهمه نعاس .

٩٦

حملق عم زكريا في وجه قاسم بذهول ؛ ومثله فعلت زوجته ، ومثلها فعل حسين ، وهم يستريحون في الدهليز امـــام شقتهم عقب العشاء . وقال العم :

ــ قل كلاماً غير هذا الكلام ، عرفتك مثال العقل والكرامة رغم فقرك ، رغم فقرنا ، فماذا انتاب عقلك ؟

وتجلى في عيني زوجة عمه نهم الاستطلاع فقال قاسم :

ــ لدي ما شجعني فجاريتها هي التي فتحت لي الباب !

ــ جاريتها !

ندت الكلمة عن زوجة عمه وصرخت عيناها بطلب المزيد . اما العم فانطلقت من فيه ضحكة مقتضبة اكدت حيرته ، ثم قال في ارتياب :

ــ لعلك أسأت فهمها !

فقال قاسم بهدوء يغطي به على انفعاله :

ــ كلا يا عمي .

فهتفت زوجة عمه :

ــ فهمت ! اذا قالت الجارية فقد قالت السيدة !

وقال حسن مدفوعاً بحبه لابن عمه الذي لا يخفى على أحد :

ــ وقاسم رجل ولا كل الرجال !

فهز عم زكريا رأسه وغمغم : « بطاطة العمدة .. بطاطة الفرن » ثم قال :

ــ لكنك لا تملك مليماً .

فقالت زوجته :

– انه يرعى نعجتها فهي لا تجهل ذلك .. (ثم وهي تضحك) انذر يا قاسم الا تذبح نعجة في حياتك اكراماً لنعمة !

وقال حسن في تفكير :

– عم عويس البقال هو عم ست قمر ، أغنى رجل في حينا ، سيكون نسيبنا ، كما كان سوارس قريبنا ، ما أجمل ذلك !

فقالت أمه :

– ست قمر على قرابة مع أمينة هانم حرم الناظر ، كان المرحوم زوجها قريباً للهانم .

فقال قاسم بقلق :

– هذا مما يزيد الأمر عسراً !

واذا بعم زكريا يقول بحماس طارىء كأنما قدر ما يعود عليهم من رفعة بالنسب المرتقب :

– تكلم كما تكلمت يوم واقعة النجاد ، انك شجاع حكيم ، وسنذهب معاً الى السيدة لنفاتحها في الأمر ثم نكلم عويس ، اذ اننا لو بدأنا بعويس لارسلنا الى مستشفى المجاذيب !

وجرت الأمور كما رسم زكريا . لذلك جلس عم عويس في حجرة الاستقبال بدار قمر ينتظر مجيئها وهو يعبث بشاربه الغزير مداراة لاضطراب خاطره . وجاءت قمر في ثوب محتشم مغطاة الرأس بمنديل بني فصافحته بأدب وجلست وفي عينيها نظرة جمعت بين الهدوء والتصميم . قال عويس :

– حيرتني يا بنتي ! بالأمس رفضت يد عم مرسي وكيل أعمالي بحجة انه غير كفء لك ، واليوم ترضين براعي غنم !

فأجابت ووجهها يتورد حياء :

– عمي ، انه رجل فقير حقاً ولكن ليس من أحد في حينا إلا ويشهد له ولأهله بالطيبة !

فقال عم عويس مقطباً :

— نعم ولكن على نحو ما نشهد لخادم بالامانة أو النظافة ، والكفاءة في الزواج شيء آخر .

فقالت قمر بأدب :

— دلني يا عمي على رجل مهذب مثله في حارتنا ، دلني ولو على رجل واحد لا يباهي بعمل من اعمال البلطجة أو الخسة أو الوحشية ؟!

وكاد الرجل ان ينفجر غاضباً لولا تذكره بأنه لا يخاطب ابنة اخيه فحسب ولكن المرأة التي تسهم في تجارته بمال غير قليل ، لذلك قال برجاء :

— قمر ، لو شئت زوجتك من أي فتوة في الحارة ، لهيطة نفسه يودك لو قبلت ان تقاسميه مع زوجاته .

— لا أحب هؤلاء الفتوات ! ولا هذا النوع من الرجال ، كان أبي رجلاً طيباً مثلك ، وكم قاسى من عنتهم حتى اورثني كراهتهم ، اما قاسم فهو رجل مهذب ، لا ينقصه الا المال وعندي منه الكفاية .

فتنهد عويس ، ثم نظر اليها طويلاً ، ثم قال برجاء أخير :

— اني مبلغك رسالة أمينة هانم حرم حضرة الناظر ، قالت لي قل لقمر ان تعقل ، وانها مقدمة على غلطة ستجعل منا احدوثة الحارة .

فقالت قمر بحدة :

— أنا لا تهمني أوامر الهانم ، ويبدو للأسف انها لا تعرف من هم الذين تجعلهم فعالهم أحدوثة في الحارة .

— يا بنت أخي انها تود لك الكرامة .

— يا عمي لا تصدق انها تهتم بنا أو حتى تذكرنا ، ومنذ وفاة المرحوم من عشرة أعوام لم أجر لها على خاطر .

فتردد الرجل ملياً في حرج ظاهر ثم قال في تأفف ظاهر :

— انها تقول أيضاً إنه ليس من العقل ان تتزوج امرأة من رجل

غير كفء لها خاصة اذا كان لظرف ما يتردد على بيتها !

فانطلقت قمر واقفة بوجه مصفر من الغضب وهتفت :

– قطع لسانها ، لقد ولدت ونشأت وتزوجت وترملت في هـذه الحارة ، الكل يعرفني ، وسيرتي كالعطر على كل لسان .

– طبعاً يا بنتي طبعاً ! ليس الا انها تشير الى ما قد يقال .

– عمي ، دعنا من الهائم فلا يجيء منها إلا وجع الدماغ ، اني اخبرك وأنت عمي بأنني قبلت الزواج من قاسم ، وسيكون ذلك برضاك وحضورك !

وصمت عويس متفكراً . لم يكن في الوسع منعها ، ولا من الهين اغضابها للحد الذي تسحب عنده أموالها من تجارته . وراح ينظر بين قدميه في ارتباك وحزن . وفتح فاه ليقول شيئاً ولكن لم تخرج منه غير غمغمة مبهمة . ولبثت قمر تنظر اليه في ثبات وصبر .

٧٠

وهب عم زكريا ابن أخيه بضعة جنيهات – اقترض اكثرها – ليصلح بها شأنه قبل الزواج . وقال العم :

– لو كنت قادراً لغطيتك بالمال يا قاسم، كان أبوك أخاً كريماً ، ولا أنسى فضله عليّ يوم زواجي .

وابتاع قاسم جلباباً ، وثياباً داخلية ، ولاسة مزركشة ومركوباً فاقع الاصفرار ، وعصا خيزران ، وحق نشوق . وذهب في أعقاب الفجر الى الحمام ، فاستسلم للبخار ، وغاص في المغطس، ثم مضى الى المدلّك،

ثم استحم ، ثم تبخر ، ثم تمدد في الخلوة يحتسي الشاي ويحلم بالهناء .

أما قمر فتكفلت بالفرح . أعدت سطح الدار لاستقبال المدعوات ، ودعت عالمة معروفة واستأجرت امهر طاه في المنطقة . وأقيم في الحوش سرادق للمدعوين والمطرب . وجاء أهل قاسم وأصحابه ورجـال الحي وعلى رأسهم المعـلم سوارس . ودارت أقداح البوظة وعشرون جوزة حتى غامت الكلوبات بالدخان وسطعت رائحة الحشيش المفتخر . وتجاوبت الاركان بالزغاريد والتهليل والقهقهة . وراح عم زكريا يقول في فخفخة من دارت الخمر برأسه :

— نحن أسرة كريمة أصلها عريق !

فكتم عم عويس غيظه وهو يجلس بين سوارس وزكريا وقال باقتضاب :

— حسبكم قرابتكم للمعلم سوارس !

فصاح زكريا بقسوة :

— المعلم سوارس ألف مرة !

فحيا التخت سوارس من فوره حتى جاء الرجل بابتسامة ولوح بيده . وكان الفتوة فيما مضى يضجر من تمسح زكريا بقرابته البعيدة منه ، ولكنه أخذ يغير من مشاعره مذ علم بزواج قاسم من قمر ، بل قرر فيما بينه وبين نفسه الا يعتق قاسم من الاتاوة . وعاد زكريا يقول ،

— وقاسم شاب محبوب ، من في حارتنا لا يحبه ؟

وكأنما قرأ شيئاً من الاستياء في نظرة سوارس فأردف يقول :

— لولا حكمته يوم السرقة ما وجدت رءوس رفاعة وجبل من يدفع عنها نبوت فتوتنا سوارس !

وانبسطت أسارير سوارس وصدق عويس على قول زكريا قائلاً :

— صدقت ورب السماوات والأرض .

وغنى المطرب : زمان الوصل قرب بالتهاني .

وازداد قاسم اضطراباً ففطن صادق الى حاله كشأنه دائماً فقدم اليه

اليه قدحاً جديداً من الشراب وما زال به حتى أفرغه في جوفـه حتى الثمالة ، وكانت الجوزة ما تزال في يده . وأفرط حسن في الشراب حتى تراقصت تهاويل السرادق امام عينيه . ولاحظ عم عويس ذلك فخاطب عم زكريا قائلاً :

– حسن يشرب اكثر مما يليق بسنه .

فوقف زكريا والقدح بيده وقال لابنه وكأنما ينصحه :

– يا حسن لا تشرب هكذا .

وترجم « هكذا » بافراغ القدح في جوفـه في ضجة من الضحك والانبساط فتلوى الغيظ في باطن عويس حتى قال لنفسه : « لولا حماقة ابنة أخي لكلفك ما شربت الليلة جميع ما تملك ! » .

وعند منتصف الليل دُعي قاسم للزفة فقصد المدعوون قهوة دنجل ، وعلى رأسهم سوارس سيد الزفة وحاميها . كان الحي خارج الدار مكتظاً بالغلمان والمتسولين والقطط التي تجمعت تلبية لرائحة المطبخ . وجلس قاسم بين حسن وصادق فحياهم دنجل قائلاً لصبيه :

– يا ليلة الهنا ، جوزة دنجل يا ولد للجدعان .

ثم ان كل موسر قدم جوزة على حسابه للجميع .

وجاء المنشدون يتقدمهم حاملو المزامير والطبول فوقف سوارس وقال بصوت آمر :

– لنبدأ الزفة .

تقدم كعبورة الزفة ، في جلباب على اللحم ، يرقص حافياً ومركزاً على قمة رأسه نبوتـاً . وخلفه سار المنشدون ، فسوارس ، ثم موكب العريس بين صاحبيه ، وأحاط بالجميع حملة المشاعل . وراح المنشد يغني بصوت مليح :

الاولى آه من عيني دي

والتانية آه من ايدي دي

والتالتة آه من رجلي دي

أصل اللي شبكتني مع المحبوب عيني دي

لما سلمت عليه سلمت بايدي دي

وادي اللي ودتني للمحبوب رجلي دي

وتعالت الآهات من الافواه المخمورة المخدرة والموكب يشق طريقه الى الجمالية فبيت القاضي فالحسين ثم الدراسة ، والليل ينطوي في غفلة من السعداء . وعادت الزفة كما ذهبت في بهجة وانشراح فكانت اول زفة في الحارة تمر بسلام ، فلا نبوت ارتفع ولا دم سال . وبلغ الطرب من زكريا منتهاه فتناول عصاه وراح يرقص . لعب بالعصا وتمايل في اختيال ، وهز الرأس مرة والصدر اخرى كما هز الوسط . وصور بحركاته المرنة هيأة القتال وهيأة الوصال . ثم دار حول نفسه مؤذناً بحسن الختام بين التهليل والتصفيق .

عند ذاك انتقل قاسم الى الحريم . رأى قمر جالسة عند ملتقى صفين من المدعوات فاتجه نحوها يخوض امواجاً من الزغاريد . وتناول يدها فقامت ، ثم سارا معاً تتقدمها راقصة كأنما تلقي عليهما الدرس الأخير ، حتى احتوتهما حجرة العرس . وباغلاق باب الحجرة انفصلا انفصالاً كلياً عن العالم الخارجي الذي سارع اليه الصمت عدا تهامس خفيف او وقع أقدام . وفي لمحة عين مر قاسم بالفراش الوردي والاريكة الوثيرة والسجادة المنمنمة ، اشياء لم تقع له في خيال ، ثم استقر بصره على المرأة التي جلست تنزع الزينة عن رأسها . بدت فخيمة مليئة بضة مليحة ذات بهاء . كانت الجدران تنظر اليه متلألئة بالضياء ، وكان يرى كل

شيء من خلال اضطراب وجيشان وهناء زاد عن حده . اقترب منهـا بجلبابـه الحريري وجسده ينفث حرارة ممزوجة بسطول حتّى وقف امامها ينظر من عل وهي غاضّة البصر فيما يشبه الانتظار . وتناول وجهها بين راحتيه ثم همّ بأن يقول شيئاً لكنه فيما بـدا عدل . وانحنى حتى اضطربت خصلات شعرها تحت انفاسه ، ثم لثم الجبين والخدين .

وسرت الى انفه رائحة بخور تسربت من عقب الباب ، وترامى الى سمعه صوت سكينة وهي تتلو رُقيةً مبهمة .

٧١

أيام وليال مرت في محبة ومودة وراحة بال ، فما أعذب السعادة في هذه الدنيا . لم يكن ليغادر الدار الا استحياء ان يقال انه لا يغادر — منذ تزوج — الدار . ارتوى قلبه من افانين المسرة حتّى ثمل ، وحظي بكل ما تمناه من الحنو والعطف والرعاية . كان يهوى النظافة فرأى منظراً مهندماً ، ووجد جواً معبقاً بالبخور ، وامرأة لا تطالعه الا آخذة زينتها ، مشرقة الوجه ، بادية الود . وقالت له يوماً وهما جالسان جنباً الى جنب في حجرة الجلوس :

— اراك كالحمل الوديع ، لا تطلب ولا تأمر ولا تزجر ، وجميع ما في الدار ملك يديك !

فداعب خصلة من شعرها المصبوغ بالحناء وقال :

— بلغت حالاً لا يطلب عندها شيء !

فشدت على يده بقوة وقالت :

— حدثني قلبي من بادىء الأمر بأنك خير الرجال في حيّنا لكنك لأدبك تبدو احياناً كالغريب في دارك ، ألا تدري أن ذلك يؤلمني ؟

– انك تخاطبين رجلاً نقله حظّه السعيد من الرمال المحرقة الى جنة هذا البيت السعيد .

فتظاهرت بالجد وإن غلبها الابتسام وقالت :

– لا تظن أنك ستلقى راحة في بيتي ، ستحل اليوم أو غــداً محل عمي في ادارة املاكي ، فهل تستثقل ذلك يا ترى ؟

فضحك قائلاً :

– انه اللهو بالقياس الى رعي الغنم .

وتولى ادارة املاكها الموزعة بين حي الجرابيع والجمالية . وكانت معاملة السكان الشرسين تتطلب لباقة لكلى مرونته عالجت الأمور بخير ما يمكن أن تعالج به . ولم يكن العمل يشغل من وقته إلا أياماً كل شهر ، وفيما عدا ذلك وجد فراغاً لم يألفه من قبل . ولعــل اكبر نصر احرزه في حياته الجديدة كان اكتسابه لثقة عويس عم زوجته . أولاه من بادىء الأمر احتراماً وعناية ، وتطوع لمعاونته في بعض أعمــاله ، حتى آنس الرجل اليه وبادله وداً بود واحتراماً باحترام . ولم يملك الرجل أن قال له يوماً في صراحة :

– حقاً ان بعض الظن اثم ! ألا تدري أنني كنت أظنك من برمجيّه حارتنا ؟ وانك ستستغل عاطفة ابنة أخي لتبتز أموالها فتبعثرها في ملذاتك أو تتزوج بها امرأة اخرى ! ولكنك اثبتّ انك رجل أمين حكيم ، وأنها أحسنت الاختيار .

وفي قهوة دنجل كان صادق يضحك في سرور ويقول له :

– قدم لنا جوزة على الحساب كما ينبغي للأعيان أمثالك !

وكان حسن يقول له :

– لماذا لا تذهب بنا الى الحانة ؟

لكنه اجابهما جاداً :

– لا مال لي الا ما أستحقه نظير ادارة املاك زوجتي أو مقابــل

خدمات أؤديها لعم عويس .

فتعجب صادق ثم قال ناصحاً :

ـ المرأة المحبة لعبة في يد الرجل !

فقال قاسم غاضباً :

ـ إلا إذا كان الرجل محباً مثلها !

ثم وهو يحدجه بنظرة عتاب :

ـ أنت يا صادق كأهل حارتنا لا يرون في الحب إلا وسيلة للاستغلال !

فابتسم صادق في حياء وقال كالمعتذر :

ـ هكذا يفكر الضعفاء ! لسنا في قوة حسن ، ولا حتى في مثل قوتك أنت ، فلا مطمع لي بمجال في الفتونة ، وفي حارتنا إما أن تكون ضارباً ، وإما أن تكون مضروباً !

فغير قاسم من حدة نبرته كأنما قبل عذره وقال :

ـ يا لها من حارة عجيبة ، صدقت يا صادق ، ان حال حارتنا يبعث على الأسى !

فقال حسن باسماً :

ـ آه لو كانت كما يشعر الناس نحوها في الخارج !

فقال صادق مصدقاً لقوله :

ـ يقولون حارة الجبلاوي ! حارة الفتوات المَجْدع !

فلاحت الكآبة في وجه قاسم ، واختلس نظرة الى مجلس سوارس في أول القهوة ليطمئن الى أنهم بمنجاة من سمعه ، وقال :

ـ كأنهم لا يسمعون عن تعاستنا !

ـ الناس يعبدون القوة حتى ضحاياها !

فتفكر قاسم ملياً ثم قال :

ـ العبرة بالقوة التي تصنع الخير ، كقوة جبل وقوة رفاعة ، لا قوة البلطجية والمجرمين !

وكان الشاعر طازه يواصل حكايته قائلا :

« وهتف به أدهم :

ـ احمل أخاك !

فقال قدري بصوت كالأنين :

ـ لا أستطيع .

ـ انك استطعت ان تقتله .

ـ لا أستطيع يا أبي .

ـ لا تقل « أبي » قاتل أخيه لا أب له ، لا أم له ، ولا أخ له .

ـ لا أستطيع .

فشد قبضته عليه وقال :

ـ على القاتل أن يحمل ضحيته . »

ثم تناول الشاعر الرباب وأخذ في الانشاد . وعند ذاك قال صادق مخاطباً قاسم :

ـ اليوم أنت تحيا الحياة التي كان بها يحلم أدهم !

فبان الاجتجاج في وجه قاسم وقال :

ـ لكن يصادفني عند كل خطوة سبب من أسباب الكدر وتنغيص الصفو ، وأدهم لم يحلم بالفراغ والرزق الموفور الا باعتبارهما طريق السعادة الصافية .

ولاذ ثلاثتهم بالصمت ملياً حتى قال حسن في براءة :

ـ هذه السعادة الصافية لا يمكن أن توجد أبداً !

فلاحت في عيني قاسم نظرة حالمة وقال :

ـ إلا إذا توفرت أسبابها للجميع !

وفكر في الأمر ، في انه يحظى بالمال والفراغ ، ولكن تعاسة الآخرين تفسد عليه سعادته . وها هو يؤدي الاتاوة لسوارس صاغراً . لذلك يود أن يشغل بالعمل فراغه ، كأنما ليهرب من نفسه ، أو يهرب من حارته

القاسية . ولعل ادهم لو نال ما تمنى وهو على مثل حاله هذه لضاق بالسعادة ذرعاً ، ولتاقت للعمل نفسه .

وفي تلك الأيام طرأت اعراض غريبة على قمر فقالت سكينة انها اعراض الوحم . ولم تكد تصدق قمر . كان أملها في الحبل حلماً من الأحلام . لذلك استخفها الفرح . وامتلأ قلب قاسم بالغبطة حتى اذاع الخبر في كل ركن له فيه حبيب فعلم به بيت عمه ودكان مبيض النحاس وبقالة عم عويس وكوخ المعلم يحيى . وغالت قمر في العناية بنفسها حتى قالت لقاسم بلهجة ذات معنى :

— ينبغي ان اتجنب أي مشقة .

فقال وهو يبتسم ابتسامة المدرك لما تعني :

— على سكينة ان تحمل عنك اعباء البيت، وعليّ ان اتجمل بالصبر !

فقبلته قائلة في جذل الأطفال :

— أود ان اقبّل الأرض شكراً !

وانطلق الى الخلاء ليزور المعلم يحيى لكنه توقف عند صخرة هند ، فمضى الى ظلها وجلس . ورأى على مرمى البصر راعياً يرعى غنماً فامتلأ قلبه بالعطف وتمنى لو يقول له : لا يسعد الانسان بالفتونة وحدها ، بل لا يسعد الانسان بالفتونة اطلاقاً . لكن أليس الأجدر ان يقول ذلك للفتوات من امثال لهيطة وسوارس ؟ ما اعطفه على اولاد حارته الذين يحلمون بالسعادة عبثاً ثم سرعان ما تلقي الأيام باحلامهم مع النفايات في اكوام الزبالة . لماذا لا ينعم بالسعادة المتاحة ويغمض العين عما حوله ؟ لعل هذا التساؤل حيّر يوماً جبل كما حير يوماً آخر رفاعة . كان في وسعهما ان ينعما بالراحة ويخلدا الى السكينة والسلام ، فما سر هذا العذاب الذي يطاردنا ؟ كان يتأمل وهو ينظر الى السماء فوق الجبل ، سماء صافية فيما عدا قطع صغيرة من السحب متفرقة كأوراق الورد الأبيض . وخفض رأسه فيما يشبه الاعياء فوقع بصره على شيء يتحرك ، وضح

انها عقرب تسرع نحو حجر . ورفع عصاه بسرعة وهوى بها عليهـــا فهرسها . وتفرس فيها ملياً بتقزز ، ثم قام ليواصل رحلته .

٧٢

استقبل بيت قاسم حياة جديدة ، شارك في فرحتها فقراء الحي . وسميت احسان كأمه التي لم يرها . وبمولدها ألف البيت ألواناً جديدة من البكاء والقذارة والأرق ، ولكنه ازداد بها غبطة ورضى . لكن لماذا يبدو الأب احياناً شارد اللب والنظرة كأن هموماً تتناوبه ؟ شدّ ما ساورها لذلك القلق حتى سألته مرة :

– أليست الصحة على ما يرام ؟

– بلى ..

– لكنك لست كعادتك !

فقال وهو يغض البصر :

– المولى ادرى بحالي .

تساءلت بعد تردد :

– هل بدا لك منا ما تكره ؟

فقال بقوة :

– ليس احب اليّ منك ولا حتى العزيزة الصغيرة .

فتنهدت قائلة :

– لعلها عين !

فقال باسماً :

– لعلها !

غرفته وبخرته وهي تدعو له من صميم قلبها . واستيقظت ذات ليلة على بكاء احسان فلم تجده الى جانبها . ظنت لأول وهلة انه لم يرجع بعد من سهرته في القهوة ، ولكن لما كفت الصغيرة عن البكاء تنبهت المرأة الى ان الحارة غارقة في صمت عميق لا يستحكم بها عادة الى بعد اغلاق المقاهي بفترة غير قصيرة ، فداخلها ارتياب ، فقامت الا النافذة وأطلت منها فرأت ظلاماً شاملاً يلف حارة مستغرقة في النوم . وعادت الى الصغيرة التي عاودت البكاء فألقمتها ثديها ، وراحت تتساءل عما أخّره الى هذا الوقت لأول مرة في حياتهما المشتركة . ونامت احسان فغادرت الفراش الى النافذة مرة اخرى ، ولما لم تسمع نأمة ، خرجت الى الصالة فايقظت سكينة . وجلست الجارية كالمسطولة ، ثم هبت واقفة في جزع ، فاخبرتها سيدتها بما دفعها الى الائتناس بها . وقررت الجارية من فورها ان تذهب الى عم زكريا لتسأل عن سيدها . وساءلت قمر نفسها عمـــا يبقيه في بيت عمه حتى هذا الوقت ، فجاء الجواب قاطعاً للأمل ، ولكنها مع ذلك لم تمنعها من الذهاب ، ربما جرياً وراء غير المنتظر ، او في الأقل استعانة بالعم على حيرتها . ولما ذهبت سكينـــة جعلت تتساءل مرة اخرى عما أخره . الذلك سبب بما طرأ على مزاجه من تغير ؟ أله علاقة بنزهاته في الخلاء التي يقوم بها في الأصائل والأماسي ؟

واستيقظ عم زكريا وحسن منزعجين على نداء سكينه . وقال حسن ان قاسم لم يشاركه سهرته الليلة . وسأل عم زكريا متى غادر ابن اخيه بيته فأجابت سكينة بأن ذلك كان قبيل العصر . وغادر ثلاثتهم الربع ، ومضى حسن الى الربع المجاور ثم عاد ومعه صادق الذي قال في نبرة قلقة :

— الفجر يوشك ان يطلع ! ترى اين ذهب ؟

فقال حسن :

ـ لعل النوم غلبه عند الصخره .

وأمر عم زكريا الجارية ان تعود الى سيدتها لتخبرها في انهم ذاهبون للبحث عنه في فطانة . ومضى ثلاثتهم صوب الخلاء . واستشعروا رطوبة ليل الخريف فحبكوا اللاسات فوق رءوسهم . وساروا على هدى هلال آخر الشهر وقد تجلى في رقعة مرصعة بالنجوم انحسرت عنها سماء متشحة بالسحب . وصاح حسن بصوت شق الفضاء كالشهاب : « قاسم .. يا قاسم ! » فارتد اليه الصدى من جانب المقطم مكرراً النداء . وحثّوا السير حتّى بلغوا صخرة هند . فداروا حولها متفحصين المكان ولكنهم لم يعثروا له على اثر . وتساءل عم زكريا بصوت غليظ :

ـ اين ذهب ؟ لا هو من اهل المجون ولا من ذوي العداوات !

فتمتم حسن في حيرة :

ـ ولا من سبب آخر يدعوه للهرب !

وتذكر صادق ان الخـلاء لا يخلو من قطاع طرق فغاص قلبه في صدره دون ان ينبس ، واذا بزكريا يتساءل في فتور :

ـ أيكون عند المعلم يحيى ؟

وهتف الشابان معاً فيما يشبه استغاثة يائس :

ـ المعلم يحيى !

لكن زكريا تساءل في نكد :

ـ وماذا دعاه للبقاء عنده ؟

ومضوا نحو اطراف الخلاء صامتين ، تتناوبهم الأفكار السود . وترامى الى مسامعهم من بعيد صياح الديكة ، لكن الظلام لم يخف لتكاثف السحب . وند عن صادق صوت كالزفرة وهو يقول : « اين انت يا قاسم ! » . وبدت الرحلة عقـيماً لكنهم واصلوا السير حتّى وقفوا امام كوخ يحيى الغارق في النوم . وتقدم زكريا يدق الباب بقبضته حتّى جاءه صوت المعلم وهو يتساءل :

– من بالباب ؟

وفتح الباب فبدا شبحه متوكئاً على عصاه فقال زكريا بأسف :

– عدم المؤاخذة ، جئنا نسأل عن قاسم .

فقال المعلم بهدوء :

– زيارة متوقعة !

فأحيا قوله نفوسهم لأول وهلة ، لكن سرعان ما ارتد اليهم القلق فتساءل زكريا :

– عندك اخبار عنه ؟

– هو نائم في الداخل !

– بخير ؟

– ان شاء الله !

ثم مردفاً في بساطة مقصودة :

– هو الآن بخير ، لكن بعض جيراني كانوا قادمين من العطوف فعثروا عليه عند صخرة هند وهو مغمى عليه ، فحملوه اليّ ، فرششت على وجهه عطراً حتى أفاق ، لكنه بدا متعباً فتركته لينام ، وما لبث ان استغرق في النوم .

فقال زكريا معاتباً :

– ليتك ابلغتنا الخبر !

فقال بالهدوء نفسه :

– جاءوا به عند منتصف الليل فلم اجد من ارسله اليك !

فقال صادق في قلق :

– انه مريض بلا شك .

فقال العجوز :

– سيصحو على احسن حال .

فقال حسن :

ـ فلنوقظه لنطمئن عليه .
ولكن يحيى قال بحزم :
ـ بل علينا ان ننتظر حتّى يستيقظ بنفسه .

٧٣

كان جالساً في الفراش ، مسند الظهر الى وسادة ، ساحباً الغطاء عليه حتّى أعلى الصدر ، تعكس عيناه نظرة متفكرة . وكانت قمر متّربعة عند قدميه ، حاملة على صدرها احسان ، وهذه تحرك يديها الصغيرتين دون توقف ، وتصدر اصواتاً رقيقة غريبة لا يدري احد عن سرها شيئاً . وتصاعد من مبخرة في وسط الحجرة خيط بخور ، يتلوى ، ثم ينكسر ، ثم ينتشر ، نافثاً عبقاً كأنما يبوح بسر لطيف . ومد الرجل يده الى خوان قرب الفراش فتناول قدح كراوية ، واحتسى منه قليلاً قليلاً ثم اعاده وليس به الا ثمالة ، والمرأة تناغي الطفلة وتداعبها ، ولكن نظراتها القلقة المسترّقة الى زوجها دلت على ان مناغاتها ومداعباتها ليست الا مداراة لمشاعرها . واخيراً سألته :

ـ كيف انت الآن ؟

فاتجه رأسه بحركة عفوية نحو باب الحجرة المغلق ، ثم أعاده اليها ، وقال بهدوء :

ـ ليس ما بي مرض !

فتجلت في عينيها نظرة حائرة وقالت :

ـ يسرني ان اسمع هذا ، ولكن خبرني بالله عما بك !

فبدا كالمتردد قليلاً ، ثم قال :

ـ لا ادري ! كلا فليس هذا ما ينبغي ان يقال ، اني ادري كل

شيء ، ولكن ... الحق اني اخشى ان تكون ايام الراحة قد ولت .
وبكت احسان فجأة ، فألقمتهــا ثديها في عجلة ، ثم نظرت اليه مستطلعة في قلق ، وتساءلت :
– لماذا ؟
تنهد ، واشار الى صدره قائلاً :
– لدي هنا سر كبير ، اكبر من ان أحمله وحدي !
فازدادت المرأة قلقاً وقالت بلهفة :
– خبرني عنه يا قاسم .
اعتدل في جلسته قليلاً ، وعكست عيناه جداً وتصميماً وقال :
– سأبوح به لأول مرة ، انت اول شخص يسمعه ، لكن ينبغي ان تصدقيني فما اقول الا الحــق ، ليلة امس حدث شيء عجيب ، هنالك تحت صخرة هند ، وأنا وحدي في الليل والخلاء .
وازدرد ريقه وهي تستحثه بنظرة حارة ، ثم قال :
– كنت جالساً اتابـع سير الهلال الذي سرعان ما وارته السحب ، وساد الظــلام حتى فكرت في القيام واذا بصوت قريب يقول بغته : « مساء الخير يا قاسم » فارتعدت من وقع المفاجأة التي لم يسبقها صوت او حركة ورفعت رأسي فرأيت شبح رجل واقفاً على بعد خطوة من مجلسي ، لم اتبين وجهه ولكني ميزت لاسته البيضاء والعباءة التي يتلفع بها ، وقلت له وأنا اداري غيظي : « مساء الخير ! من انت ؟» فأجابني : ولكن بم تظنينه اجاب ؟
فحركت قمر رأسها في جزع وقالت :
– تكلم فلم يعد لي صبر .
– قال لي : « أنا قنديل ! » فعجبت لشأنه وقلت له : « لا تؤاخذني فأنا ... » فقاطعني قائلاً : « انا قنديل خادم الجبلاوي ! » .
وهتفت المرأة :

— ماذا قال الرجل ؟

— قال أنا قنديل خادم الجبلاوي .

وكان الثدي قد افلت من ثغر احسان اثناء اضطراب الأم فتقلص وجهها ايذاناً بالبكاء ولكن المرأة اعادته اليها ، ثم قالت بوجه شاحب :

— قنديل خادم الواقف !؟ لا يدري احد عن خدم الواقف شيئاً ، حضرة الناظر هو الذي يتولى بنفسه اعداد لوازم البيت الكبير ، ثم يحملها خدمه الى البيت الكبير ليتسلمها بعض خدم الواقف في الحديقة .

— نعم ، هذ ما تعرفه حارتنا ، لكنه قال لي ذلك !

— وهل صدّقته ؟

— وقفت من فوري ، تأدباً من ناحية واستعداداً للدفاع عن نفسي ان لزم الأمر من ناحية اخرى ، وقلت له متسائلاً من ادراني انه صادق فيما يقول ، فقــال لي بهدوء مطمئن : « اتبعني اذا شئت حتى تراني وأنا أدخل البيت الكبير » ، فاطمأن قلبي ، وقلت لنفسي فلأصدقه حتى تبين لي أمره ، ولم اخف عنه فرحي بلقياه ، وسألته عن جدنا ، كيف حاله ، وماذا يفعل .

فقاطعه صوت قمر قائلاً في ذهول :

— كل ذلك دار بينك وبينه ؟

— نعم ، بالله انصتي ، قال لي ان جدنا بخير ، ولم يزد على ذلك شيئاً ، فسألته هل يدري بما يجري في حارتنا ؟ فأجاب بأنه يعلم كل شيء ، وبأن المقيم في البيت الكبير يستطيع ان يطلع على كل صغيرة وكبيرة مما يقع في حارتنا ، وانه لذلك ارسله اليّ .

— اليك انت !

فقطب قاسم فيما يشبه الاستياء وقال :

— هكذا قال ، وندّ عني ما يفصح عن دهشتي ولكنه لم يبــال بي ، وقال : « لعله اختارك لحكمتك يوم السرقة ولأمانتك في بيتك ،

وهو يبلغك بأن جميع اولاد الحارة أحفاده على السواء ، وان الوقف ميراثهم على قدم المساواة ، وان الفتـــونة شر يجب ان يذهب ، وان الحارة يجب ان تصير امتداداً للبيت الكبير » . وساد الصمت ، وكأنما فقدت القدرة على النطق ، ولمحت عيناي المرفوعتان الى هامته السحب وهي تنحسر عن الهلال في رقة صافية ، فسألته بأدب : « ولماذا يبلغني ذلك ؟ » فأجاب : « لكي تحققه بنفسك ! » .

ـــ أنت !

بذلك هتفت قمر ، فقال قاسم بصوت متهدج :

ـــ هكذا قال ، وهممت بأن استوضحه ، ولكنه حيّاني وذهب ، فتبعته حتى خيـــل اليّ انني رأيته يصعد الى أعلى السور المشرف على الخلاء على سلم خارق الطول او شيء شبيه بذلك ، فوقفت ذاهلاً ، ثم عدت الى مكاني السابق وفي نيتي ان اقصد المعلم يحيي ، لكني غبت عن الوجود ، ولم اعد إلى رشدي الا في كوخ المعلم .

وعاد الصمت يغشى الحجرة وقمر لا تحول عن وجهه عينيها الذاهلتين . وتسلل النوم الى اجفان احسان وهي ترضع فمال رأسها الى اسفل من فوق ساعد امها فأرقدتها برفق على الفراش ، وعادت تنظر الى زوجها بعين قلقة ووجه شاحب. وارتفع من الحارة صوت سوارس الأجش وهو يسب رجلاً ، وصراخ الرجل وتأوهاته التي وشت بما ينهال عليه من ضرب او صفع ، ثم صوت سوارس مرة اخرى وهو يبتعد منذراً متوعداً ، وصوت الرجل وهو يرتفع في نبرة حنق ويأس هاتفاً : « يا جبلاوي ! » . وساءل قاسم نفسه المرهقة بنظرات زوجته: ترى ماذا تظن بي ؟ وحادثت المرأة نفسها : انه صادق ، لم يكذبني قط ، فلماذا يختلق هذه الحكاية ؟ وهو امين لم يطمع في مالي مع ما في ذلك من أمان فكيف يطمع في مال الوقف على ما في ذلك من خطر ! وترى هل ولّت ايام الراحة

حقاً . وقالت :

— انا اول ما افضيت اليه بسرك ؟

فأحنى رأسه بالايجاب ، فعادت تقول :

— قاسم ، حياتنا واحدة ، وأنا لا تهمني نفسي بقدر ما تهمني أنت ، وسرك هذا شيء خطير ، وعواقبه لا تخفى عليك ، ولكن أعمل ذاكرتك جيداً وخبرني أكان واقعاً ما رأيت أم لعله كان حلماً ؟

فقال بتصميم وفي شيء من الامتعاض :

— كان واقعاً ملموساً ولم يكن حلماً !

— وجدوك مغمى عليك !؟

— كان ذلك بعد اللقاء !

فقالت باشفاق :

— ربما اختلط الأمر عليك !

فتنهد في عذاب لم تدر به وقال :

— لم يختلط شيء عليّ ، كان اللقاء واضحاً كالنهار المشمس !

فترددت قليلاً ثم تساءلت :

— من يدرينا أنه حقاً خادم الواقف ورسوله اليك ؟ ولماذا لا يكون مسطولاً من مساطيل حارتنا وما اكثرهم !

فقال في نبرة عناد :

— رأيته وهو يصعد الى سور البيت الكبير .

فتنهدت قائلة :

— ليس في حارتنا سلم يمكن ان يصل الى نصف ارتفاع السور !

— لكني رأيته !

بدت كفأر في مصيدة ، لكنها ابت ان تستسلم ، وقالت :

– لست الا انني أخاف عليك ، وأنت تعلم ما أعني ، أخاف عليك وعلى بيتنا وابنتنا وسعادتنا ، واني اسائل نفسي لماذا قصدك أنت بالذات ؟ ولماذا لا يحقق ارادته بنفسه وهو صاحب الوقف وسيد الجميع ؟

فتساءل بدوره :

– ولماذا قصد جبل ورفاعة ؟

اتسعت عيناها ، وتقلّص ركن فمها كالطفل الموشك على البكاء ، وغضت بصرها في جفول ، فقال :

– أنتِ لا تصدقينني وأنا لا أطالبك بتصديقي .

فأجهشت في البكاء ، واسترسلت فيه كأنما لتهرب من أفكارها ، فمال قاسم نحوها ، ثم مد يده الى يدها فجذبها نحوه ، وسألها في رقة:

– لماذا تبكين ؟

فنظرت اليه خلال دموعها ، وقالت وهي تشهق شهقات متقطعة :

– لأنني أصدقك ، نعم أصدقك ، أخشى ان تكون أيام الراحة قد ولت .

ثم في صوت خافت مشفق :

– ماذا أنت فاعل ؟

٧٤

شُحن جو الحجرة بالقلق والتوتر . بدا عم زكريا مفكراً مقطباً ، وراح عم عويس يعبث بشاربه ، وكأن حسن كان يحادث نفسه ، أما صادق فلم يحول ناظريه عن وجه صديقه قاسم ، على حين انزوت

قمر في ركن حجرة الاستقبـــال وهي تدعو الله ان يهدي الجميع إلى السداد والرشاد . وكانت فناجيل القهوة قد فرغت وأخـــذت ذبابتان تحومان حولها فنادت قمر سكينة لتأخذ الصينية فجاءت الجارية وحملتها ثم ذهبت وأغلقت الباب وراءها كما كان . وقال عويس وهو ينفخ :

ـ يا له من سرّ يهد الأعصاب هداً !

وعوى كلب في الحارة كأنما أصيب بطوبـــة او عصا ، وارتفع صوت بياع ينادي مترنماً بالبلح ، وامرأة عجوز هتفت في أسى : « يا ربّ خلصنا من عيشتنا » . والتفت زكريا الى عويس قائلاً :

ـ يا معلم عويس ، انك اكبرنا مقاماً وجاهاً ، فصارحنا برأيك !

فنقل الرجل عينيه بين زكريا وقاسم وقال :

ـ أقول الحق إن قاسم رجل ولا كل الرجال ، ولكن حديثـــه أدار رأسي !

فقال صادق بعد توثب طويل للكلام :

ـ انه رجل صادق ، أتحدى اي مخلوق ان يذكرنا بكذبة صدرت عنه ، فهو عندي مصدق ، واقسم لكم على ذلك بتربة أمي !

وقال حسن بحماس :

ـ وأنا كذلك ، وسيجدني دائماً الى جانبه .

وابتسم قاسم لأول مرة في امتنان وهو يرمق جسم ابن عمه القوي باعجاب ، لكن زكريا القى على ابنه نظرة انتقاد وقال :

ـ ليس الأمر لعباً ، فكروا في حياتنا وسلامتنا .

فأمّن عويس على قوله باحناءة من رأسه وقال :

ـ صدقت ، لم يسمع أحد من قبل مثل ما سمعنا اليوم .

فقال قاسم :

ـ بل سمعوا مثله واكثر عن جبل ورفاعة !

فدهش عويس وحدجه بانكار متسائلاً :

– أتظن انك مثل جبل ورفاعة ؟

وغض قاسم بصره متألماً وقمر تراقبه باشفاق ، ثم قالت :

– عمي ! من يدري كيف تقع هذه الأمور !

فعاد الرجل يعبث بشاربه ، وقال زكريا :

– وأي خير في ان يظن نفسه كجبل أو رفاعة ؟ قتل رفاعة شر قتلة ، وكاد جبل ان يقتل لولا انضمام أهله اليه ، ومن لك انت يا قاسم ؟ انسيت انهم يدعون حيّنا بحي الجرابيع ، وان اكثره مـا بين متسوّل وتعيس ؟

فقال صادق بقوة :

– لا تنسوا ان الجبلاوي اختاره من دون الجميع بما فيهم الفتوات ، ولا أظنه يتخلى عنه عند الشدة !

فقال زكريا ممتعضاً :

– هكذا قيل عن رفاعة في أيامه ، ولقد قتل رفاعة على بعد أذرع من بيت الجبلاوي !

وقالت قمر محذرة :

– لا ترفعوا أصواتكم :

واسترق عويس إلى قاسم النظر وهو يفكر . ما أعجب ما يسمع وما يقال . هذا الراعي الذي جعلت منه ابنـة أخي سيداً ! أقرّ له بالصدق والأمانة ولكن هل يكفي هذا ليجعل منه جبل أو رفاعـة ؟ وهل يجيء الرجال الكبار بهذه البساطة ؟ ومـاذا يحدث لو صدقت الأحلام ! وقال عويس :

– يبدو أن قاسم لا يتأثر بتحذيراتنا ، ترى ماذا يريد الفتى ؟ هل عز عليه ان يبقى حيّنا وحده الذي لا نصيب له في الوقف ؟ أتريد يا قاسم ان تكون فتوة وناظراً لحيّنا ؟

فبان الاحتداد في وجه قاسم وقال :

– لم يبلغني ذلك ، وانما قال : إن جميع اولاد الحارة احفاده ، وان الوقف لهم على قدم المساواة ، وان الفتونة شر !

برق الحماس في عيني صادق وحسن ، وذهل عويس ، اما زكريا فتساءل :

– أتعرف ماذا يعني هذا ؟

فقال عويس بغضب :

– قل له !

– أن تتحدى قوة الناظر ونبابيت لهيطة وجلطة وحجاج وسوارس !

فامتقع وجه قمر ، اما قاسم فقال بهدوء كالحزن :

– هو ذلك !

فندت عن عويس ضحكة انعكس صداها استيــاء في وجوه قاسم وصادق وحسن ، ولم يحفل زكريا بذلك ومضى يقول :

– سيقضى علينا جميعاً بالهلاك ، سنوطأ بالأقــدام كالنمل ، ولن يصدقك أحد ، انهم لم يصدقوا من قابل الواقف ولا من سمع صوتــه وحاوره فكيف يصدقون من أرسل اليه خادماً من خدمه ؟

وقال عويس بنبرة جديدة :

– دعونا مما تقول الحكايات ، لم يشهد أحد لقاء الجبلاوي وجبل ، ولا الجبلاوي ورفاعة ، تلك الاخبار تروى عادة ولكن لم يشهدها أحد ، غير انها عادت بالخير على أصحابها ، فصار لحي جبل كيانه المحترم ، كذلك حي رفاعة ، ومن حق حيّنا ان يكون مثلهما ، لِمَ لا ؟ كلنا من صلب ذلك الرجل المعتكف في بيته الكبير ، ولكن علينا ان نأخذ الأمر بالحكمة والحذر ، فاهتمّ يا قاسم بحيلك ، دعك من الاحفــاد والمساواة وما هو خير وما هو شر ، ومن اليسير ان نضم سوارس الينا وهو قريبك ، ويمكن الاتفاق معه على ان يترك لنا نصيباً في الريع .

وقطب قاسم غاضباً ، وقال :

– يا معلم عويس ، أنت في وادٍ ونحن في واد ، أنا لا أروم مساومة ولا نصيباً في الريع ولكني عقدت العزم على تحقيق ارادة جدنا كما أبلغتها .

وتأوه زكريا قائلاً :

– يا ساتر يا رب !

لم يزل قاسم مقطباً . ذكر اشجانه وخلواته وأحاديث معلمه يحيى . وكيف جاءه الفرج على يد خادم لم يعرفه من قبل . وكيف تلوح الخطوب في الأفق . وكيف ان زكريا لا يفكر إلا في السلامة وان عويس لا يفكر إلا في الريع . وكيف ان الحياة لن تطيب الا بمواجهة الأفق المليء بالخطوب . وتنهد قائلاً :

– عمي ، كان يجب ان ابدأ بمشاورتكم ولكني لن اطالبكم بشيء !

فشد صادق على يده قائلاً :

– اني معك .

وكوّر حسن قبضته قائلاً :

– وأنا معك ، في الخير والشر معك .

فقال زكريا في ضجر :

– لا تغترّ بكلام العيال ! عندما ترتفع النبابيت تمتلىء الجحور بامثالكم ، وفي سبيل مَن تعرِّض نفسك للهلاك ؟ ليس في حارتنا الا حيوان او حشرة ، ولديك من الأسباب ما يضمن لك حياة رغيدة طيبة فاعقل وتمتّع بحياتك .

وساءل قاسم نفسه ماذا يقول الرجل ؟ كأنما يستمع لبعض هواتف نفسه . عندما تقول له ، ابنتك ، زوجتك ، بيتك ، نفسك . لكنك اخترت كما اختير جبل ورفاعة فليكن جوابك كما كان جوابهما . قال :

– فكرت يا عمي طويلاً ثم اخترت سبيلي .

فضرب عويس كفاً بكف وقال :

ــ لا حول ولا قوة الا بالله !

وقال عويس محذراً :

ــ سيقتلك الأقوياء ويهزأ بك الضعفاء !

وقلبت قمر عينيها بين عمها وبين عم زوجها في حيرة ، مشفقة من خذلان زوجها وفي الوقت نفسه خائفة عليه عواقب التمادي في رأيه . وقالت مخاطبة عمها :

ــ عمي ، انت سيد الأعيان ، وبوسعك ان تؤيده بنفوذك !

فسألها عويس مستهجناً :

ــ فيم تطمعين يا قمر ؟ لك مال وابنة وزوج فماذا يعنيك ُوزّع الوقف على الجميع أم استأثر به الفتوات ؟ اننا نعدّ الطامح الى الفتونة مجنوناً فما بالك بمن يطمح الى نظارة الحارة جميعاً !

غهبّ قاسم واقفاً في تألم شديد وقال :

ــ لست طامحاً الى شيء من هذا ، انما أريد الخير الذي أراده جدنا .

فاسترضاه عويس بابتسامة متكلفة وقال :

ــ أين هو جدنا ؟ فليخرج الى الحارة ولو محمولاً على اعناق خدمه ثم فليحقق شروط وقفه كما يشاء ، أتحسب ان احداً في الحارة مهما بلغت قوته يستطيع اذا تكلم الواقف ان يرفع نحوه عيناً او أصبعاً ؟

وقال زكريا مكملاً :

ــ وهل هو إذا وثب الفتوات لذبحنا سيحرّك ساكناً أو يكترث لما يصيبنا ؟

فقال قاسم في وجوم شديد :

ــ لن أطالب أحداً بتصديقي او بتأييدي .

فقام زكريا اليه ووضع يده على منكبه بعطف وقال :

ــ يا قاسم ، أصابتك عين ، انا اعلم بهذه الشرور ، طالما تحدثوا

عن عقلك وسعيد حظك ، حتّى أصابتك العين ، استعذ من الشيطـان بالله ، واعلم انك اليوم من وجهاء حيّنـا ، وبوسعك اذا شئت ان تتاجر ببعض مال زوجتك فتحظى بالثراء الوفير ، فأقلع عما في رأسك وارض بما وهبك الله من خير ونعمة .

فأطرق قاسم محزوناً ، ثم رفع رأسه الى عمه ، وقـال بتصميم عجيب :

– لن أقلع عما في رأسي ولو مُلّكت الوقف كله وحدي .

٧٥

ماذا أنت فاعل . وحتام تفكر وتنتظر . وماذا تنتظر . ومـا دام القريب لم يصدقك فمنذا الذي يصدقك . وما فائدة الحزن . وما جدوى الانفراد تحت صخرة هند ؟ النجوم لا تجيب ولا الظلام ولا يجيب القمر كأنك تأمل في لقيا الخادم مرة أخرى ولكن أي جديد عنده ترتقب ؟ وتجوس في الظلام حول البقعة التي قيل إن جدك قابل فيها جبـل . وتقف طويلاً وراء السور الكبير في الموضع الذي قيل إنه خاطب عنده رفاعة . لكن لا شخصه رأيت ولا صوته سمعت ولا خادمـه رجع . ماذا أنت فاعل ؟ سيطاردك هذا السؤال كما تطارد الشمس في الخلاء راعي الغنم . وسيقتلعك دواماً من راحة البال ومن طيبات النعم . وجبل كان مثلك وحيداً لكنه انتصر . ورفاعة عرف سبيله ومضى فيه حتى قتل ثم انتصر . ماذا أنت فاعل ؟

وقالت له قمر معاتبة :

– شد ما تهمل طفلتك الجميلة ، تبكي فـلا ترحمها ، وتلعب فلا تلاعبها .

فابتسم الى الوجه الصغير مستروحاً نسمة منه لسعير فكره ، وغمغم :
– ما ألطفها !
– حتى الساعة التي تجالسنا فيها تغيب عنا كأننا لم نعد من أهل دنياك .
فاقترب منها على الكنبة التي تجمعها ولثم خدها ، ثم قبل وجه الطفلة في اكثر من موضع وقال :
– ألا ترين أنني بحاجة إلى عطفك ؟
– ولك قلبي كله بما فيه من عطف وحب ومودة ، ولكن ينبغي ان ترحم نفسك .
وناولته الطفلة فاحتضنها وراح يهدهدها برفق وحنان مصغياً الى انغامها السماوية . وبغتة قال :
– اذا نصرني المولى فلن أحرم النساء من ريع الوقف .
فقالت قمر بدهشة :
– لكن الوقف للذكور دون الاناث .
فرنا الى العينين السوداوين في وجه الصغيرة وقال :
– قال جدي على لسان خادمه إن الوقف للجميع ، والنساء نصف كيان حارتنا ، ومن عجب ان حارتنا لا تحترم النساء ، ولكنها ستحترمهن يوم تحترم معاني العدالة والرحمة .

وتجلى الحب والاشفاق في عيني قمر . وقالت لنفسها : انه يذكر النصر ، فأين منا هذا النصر ؟ وكم ودت ان تنصحه بما فيه الأمن والسلامة ولكن خانتها شجاعتها . وساءلت نفسها عما يخبيء لهم الغد . ترى أيكون لها حظ شفيقة زوجة جبل أم تصاب بما أصيبت به عبدة أم رفاعة ! واقشعر بدنها فنظرت بعيداً حتى لا يقرأ في عينيها ما يريبه.
وعندما جاءه صادق وحسن ليذهبوا جميعاً الى القهوة عرض عليهما ان يزوروا المعلم يحيى ليقدمها اليه . ولما بلغوا كوخه وجدوه يدخن

الجوزة ورائحة الحشيش الغنائية تعبق الجو . وقدّم اليه صاحبيه ، وجلسوا جميعاً في دهليز الكوخ والبدر من كوة يلوح كأنه السعادة . وكان يحيي ينظر الى وجوه الثلاثة بعجب وكأنه يتساءل أهؤلاء حقاً هم الذين سيقلبون الحارة رأساً على عقب ! ومضى يعيد على مسامع قاسم ما سبق ان ردده له ، قال :

— احذر ان يعلم أحد بسرك قبل ان تستعد .

ودارت الجوزة دورة مليحة ، وكان ضوء القمر النافذ من الكوة يتوج رأس قاسم وينطرح على الكتف من صادق ، على حين توهجت جمرات الموقد في ظلمة الدهليز . وتساءل قاسم :

— وكيف استعد ؟

فضحك العجوز قائلاً في دعابة :

— ليس من حق من اختاره الجبلاوي ان يستعين برأي عجوز مثلي!

وأخلى الصمت لقرقرة الجوزة حتّى قطعه العجوز قائلاً :

— لديك عمك وعم زوجتك ، أما عمك فلا فائدة منه ولا ضرر، وأما الآخر فبوسعك ان تكسبه الى جانبك لو منّيته بشيء !

— بماذا أمنّيه ؟

— عده بنظارة الجرابيع !

فقال صادق باخلاص :

— لن يميّز أحد بشيء من ريع الوقف ، هو ميراث الجميع على قدم المساواة كما قال الجبلاوي .

فضحك يحيي قائلاً :

— ما أعجب جدنا ، كان قوّة في جبل ، ورحمة في رفاعة ، واليوم له شأن آخر !

فقال قاسم :

— انه صاحب الوقف ، ومن حقه ان يغير ويبدل في الشروط العشرة !

– لكن مهمتك شاقة يا بني ، انها تخص الحارة كلها لا حيّاً من الأحياء .

– هكذا أراد الواقف .

وسعل يحيي سعالاً متواصلا تركه كالقتيل فتطوع حسن لخدمة الجوزة محله . ومد الرجل ساقيه وهو يتنهد بعمق . ثم تساءل :

– ترى أتعمد الى القوة كجبل أم تؤثر الحب كرفاعة ؟

فجاست يد قاسم خلال لاسته ، ثم قال :

– القوة عند الضرورة والحب في جميع الأحوال .

فهز يحيي رأسه ، وجعل يبتسم ، ثم قال :

– لا عيب فيك إلا اهتمامك بالوقف ، وسوف يسوقك ذلك الى متاعب لا حصر لها .

– كيف يعيش الناس بغير الوقف ؟

فقال العجوز في مباهاة :

– كما عاش رفاعة .

فقال قاسم بجد وأدب :

– عاش بمعونة أبيه ومحبيه ، وخلف أصدقاء لم يستطع أحدهم أن يحذو حذوه ، والحق ان حارتنا التعيسة في حاجة الى النظافة والكرامة .

– ألا يجيء ذلك إلا بالوقف ؟

– بلى يا معلم ، بالوقف وبالقضاء على الفتونة ، هناك تتحقق الكرامة التي أهداها جبل الى حيه ، والحب الذي دعا اليه رفاعة ، بل والسعادة التي حلم بها أدهم .

فضحك يحيي متسائلاً :

– ماذا أبقيت لمن يجيء بعدك ؟

فتفكر ملياً ، ثم قال :

– اذا نصرني المولى فلن تجد الحارة حاجة الى أحد بعدي .

ودارت الجوزة كملاك في حلم ، وغنى المـــاء في القنينة . وتثاءب الانسجام . ثم تساءل :

– ماذا يبقى لأحدكم اذا وزع الريع بالتساوي ؟

فقال صادق :

– انما نريد الوقف لنستغله وبذلك تصير الحارة امتداداً للبيت الكبير !

– وماذا أعددتم من عمل ؟

واختفى ضياء القمر وراء سحابة عابرة فساد الدهليز الظلام ، ولكن لم تمض دقيقة حتى انهل الضياء . ونظر يحيي الى جسم حسن المفتول وتساءل :

– هل يستطيع ابن عمك ان يهزم الفتوات ؟

وإذا بقاسم يقول :

– اني أفكر جاداً في مشاورة محام شرعي !

فصاح يحيي :

– أي محام يقبل ان يتحدى الناظر رفعت وفتواته ؟

واختلط ذهول الكيف بوجوم الفكر . ورجع الأصدقاء الثلاثـــة فيما يشبه القنوط . وعانى قاسم في خلواته من العذاب ، وركبه الهم والكدر حتى قالت له قمر ذات يوم :

– ما ينبغي ان نهتم بسعادة الناس الى حد إشقاء انفسنا !

فقال بحدة :

– ينبغي ان اكون عند حسن الظن الذي وضع فيّ .

ماذا أنت فاعل . لماذا لا تتزحرح عن حافة الهاوية . هاوية اليأس المليئة بالصمت والركود . مقبرة الأحلام المغطاة بالرماد . ذئب الذكريات الجميلة والانغام المطربة . طارحة الغد في كفن الأمس .

لكنه دعا يوماً صادق وحسن اليه وقال لهما :

– آن لنا أن نبدأ !

فتهلل وجهاهما وقال حسن :

ـ هات ما عندك .

فقال بصوت دبت فيه الحياة :

ـ انتهيت من تفكيري الى قرار ، وهو ان ننشيء نادياً للرياضة البدنية !

وعقدت الدهشة لسانيهما فابتسم وهو يقول :

ـ سنجعله في حوش بيتي ، والرياضة هواية منتشرة في اكثر الأحياء .

ـ وما علاقة ذلك بعملنا ؟

وتساءل صادق بدوره :

ـ نادٍ لرفع الاثقال مثلاً ! ما علاقة ذلك بالوقف ؟ !

فقال قاسم وعيناه تبرقان :

ـ سيجيء الينا الشبان ، حباً في القوة واللعب ، وسيقع الاختيار على من هم أهل للثقة والاستعداد .

فاتسعت الاعين ، وهتف حسن :

ـ سنكون عصبة وأي عصبة !

ـ نعم ، وسيجيء إلينا شبان من جبل وآخرون من رفاعة .

وشملتهم فرحة غناء ، وبدا قاسم في مشيته وكأنه يرقص .

٧٦

جلس قاسم لصق النافذة بحيث يشاهد الحارة في يوم العيد . ومـا أبهج العيد في حارتنا .

لقد رش السقاءون الأرض بالقرب . وزينت أعناق الحمير وأذيالها بالورود الاصطناعية . ورقص الفراغ بالألوان الفاقعة يرتديها الصغـار

وتنطلق بها البالونات . وركزت في عربات اليد الأعلام الصغيرة . واختلط الصياح والهتـاف والتهليل بأصوات الزمامير . وتمايلت العربات الكارو بالراقصات والراقصين . وأغلقت الدكاكين واكتظت المقاهي والحانات والغرز . وعند كل ركن بزغت البشاشة وقال قائل : « كل عام وانتم بخير » . وجلس قاسم في ثوب جديد واحسان واقفة في حجره متأبطة راحتيه ، تجوس بيديها الصغيرتين في قسماته او تنشب اظافرها في خديه . وارتفع صوت تحت النافذة يغني :

أصل اللي شبكتني مع المحبوب عيني دي

فذكر لتوه زفته السعيدة حتى رق قلبه . وهو رجل يحب الغنـاء والطرب . وكم تمنى أدهم أن يتفرغ للغناء في الحديقة الغناء . وماذا يغني الرجل في العيد ؟ أصل اللي شبكتني مع المحبوب عيني دي ؟ صدق الرجل . فمنذ ارتفعت عيناه في الظلام الى قنديل سُلب قلبه وعقله وارادته . وها هو حوش بيته يستحيل نادياً لتقوية الأبدان وتطهير الأرواح . وهو مثلهم يرفع الأثقال ويتعلم التحطيب . وصادق امتلأت عضلات ذراعيه كما امتلأت من قبل – بفضل عمله في تبييض النحاس – عضلات ساقيه . أما حسن فيا له من مارد عملاق . والآخرون ما أبهر حماستهم . وكان صادق حكيماً يوم نصحه بدعوة المتعطلين والمتسولين الى ناديه وسرعان ما تحمسوا لألعابه كما تحمسوا لأقواله . أجل انهم قلة ولكنهم لطموحهم اذا وزنوا بأضعاف أضعافهم رجحوا بهم . وهتفت احسان : « آد .. آد .. » فقبلها كثيراً ، وكان طرف جلبابه الجديد مبتلاً تحتهـا . وترامى اليه من المطبـخ دق الهاون وصوتا قمر وسكينة ونواء القطة . ومرت عربة كارو تحت الشباك وهي تنشد مصفقة :

الفاتحة للعسكري قلع الطربوش وعمل و لي

وابتسم قاسم فتذكرا ليلة غنّى المعلم يحيى هذه الانشودة وهو في تمام السطول . آه لو تستقيم الأمور فلا يبقى لك الا الغناء يا حارتنا ! غداً يمتلىء النادي بالأعوان الأقوياء والصادقين . غداً أتحدى بهم النـاظر والفتوات وجميع العقبات . كي لا يبقى في الحارة الا جد رحيم وأحفاد بررة . ويمحق الفقر والقـذارة والتسول والطغيان . وتختفي الحشرات والذباب والنبابيت . وتسود الطمأنينة في ظل الحدائق والغناء . واستيقظ من أحلامه على صوت قمر وهي تنهر سكينة في غضبة داهمة . انصت متعجباً ثم نادى زوجته ، وسرعان ما فتح الباب وجاءت قمر وهي تدفع الجارية امامها وتقول :

— أنظر الى هذه المرأة ! ولدت في بيتنا كما ولدت أمها من قبل ، ولا تتعفف عن التجسس علينا !

فنظر الى سكينة بانكار حتى هتفت بصوتها النحاسي :

— لست خائنة يا سيدي ولكن ستي لا ترحم !

وقالت قمر وفي عينيها فزع أخفقت في مداراته :

— رأيتهـا تبتسم وتقول لي : « سيجيء العيد القادم ان شاء الله وسيدي قاسم سيد الحارة كلها كما كان جبل في حي حمدان » .. سلها عما تعني بذلك ؟

وقطب قاسم مهتماً ، وسألها :

— ماذا تعنين يا سكينة ؟

فقالت الجارية بجرأة غير غريبة عليها :

— أعني ما قلت ، لست خادمة كالخادمات ، أعمل اليوم هنا وغداً هناك ، اني ربيبة هذا البيت ، وما كان يجوز ان يخفى عني سر .

فتبادل الرجل نظرة سريعة مع زوجته ، واشار الى الطفلة فجاءت وتلقتها منه ، وأمر الجارية ان تجلس فجلست عند قدميه وهي تقول :

— أيصح أن يعلم بسرك غرباء عن البيت وأظل أجهله أنا ؟!

– أي سر تقصدين ؟
فقالت الجارية بنفس الجرأة :
– حديث قنديل اليك عند صخرة هند !
ندت عن قمر آهة ولكن قاسم اشار الى الجارية ان تستمر فقالت :
– كما حدث لجبل ورفاعة من قبل ، لست دونهما يا سيدي ، أنت سيد ، حتى على عهد الرعي كنت سيداً ، وكنتُ الوسيط الذي جمع بينكما الا تذكر ؟ كان يجب أن اعلم قبل الآخرين ، كيف تأمن الغرباء ولا تأمن جاريتك ! سامحكما الله ، لكني أدعو لك بالنصر ، نعم أدعو لك بالنصر على الناظر والفتوات ، منذا الذي لا يدعو لك بذلك ؟
فصاحت قمر وهي تهدهد الطفلة بحركة عصبية :
– ما كان يجوز أن تتجسسي علينا ، وسيظل العيب لاصقاً بذقنك .
فقالت سكينة في حرارة صادقة :
– لم أقصد التجسس وربي شهيد ، ولكن نفذ اليّ من الباب كلام لم يسعني الا متابعته ، وما كان في وسع انسان ان يغلق اذنيه دونه ، ان ما يقطّع قلبي يا ستّي هو انك لا تطمئنين اليّ ، لست خائنة ، أنت آخر ما أخون ، ولحساب من أخونك ؟ سامحك الله يا ستّي .
كان قاسم يتفحصها بعناية ، بعينيه وبقلبه ، فلما انتهت قال بهدوء :
– أنت مخلصة يا سكينة ، لا شك في اخلاصك .
فحدجته بنظرة مستطلعة مؤملة ، وتمتمت :
– عشت يا سيدي ، انا والله كذلك .
فقال بصوت خفيض :
– أنا أعرف المخلصين ، ولن تنبت الخيانة في بيتي كما نبتت في بيت أخي رفاعة ، يا قمر .. هذه المرأة مخلصة مثلك فلا تسيئي اليها بالظن ، هي منا كما نحن منها ، ولن أنسى انها كانت رسول السعادة اليّ .
فقالت قمر بصوت نم على بعض الارتياح :

– لكنها استرقت السمع !

فقال قاسم باسماً :

– لم تسترق السمع ، ولكن الصوت نفذ اليها بمشيئة المولى ، كما سمع رفاعة صوت جده دون تدبير منه ، مباركة أنت يا سكينة !

فخطفت الجارية يده وانهالت عليها لثماً وتقبيلاً وهي تقول :

– روحي فداؤك يا سيدي ، والله لتنتصرن على اعدائك واعدائنا حتى تسود الحارة كلها .

– ليست السيادة مطلبنا يا سكينة !

فبسطت يديها داعية :

– اللهم حقق مطالبه !

– آمين ..

ثم نظر اليها باسماً وهو يقول :

– وستكونين رسولي اذا احتجت الى رسول ، وبذلك تشتركين في عملنا !

فتهلل وجه المرأة بشراً ، ونطقت عيناها بالعزة ، فأردف قائلاً :

– اذا اذنت الأقدار بأن يوزع الوقف كما نريد فلن تحرم منه امرأة ، سيدة كانت أم خادمة !

عقدت الدهشة لسان المرأة ، فعاد يقول :

– قال الواقف ان الوقف للجميع ، وأنت يا سكينة حفيدة الواقف مثل قمر سواء بسواء .

واكتسى وجه المرأة بالبهجة ورنت الى سيدها بامتنان . وترامت من الحارة انغام مزمار راقصة . وصاح صائح : « لهطة .. الف مرة » فتحول قاسم نحو الطريق فرأى موكب الفتوات وهم يخطرون على الجياد المزينة ، والناس تستقبلهم بالهتاف والاتاوات ، ثم مضوا نحو الخلاء ليتنافسوا كعادتهم في الأعياد في مضمار السباق والتحطيب .. وما ان اختفى موكبهم حتى ظهر عجرمة في الحارة وهو

يترنح سكرا . ابتسم قاسم لدى ظهور الشاب الذي يعد من اصدق شباب النادي وتابعه بعينيه حتى وقف في مركز الوسط من حي الجرابيع وصاح :

— انا جدع ..

فهبط عليه صوت ساخر من اول ربع في حي رفاعة قائلاً :

— يا زين الجرابيع !

فرفع عجرمة نحو النافذة عينين حمراوين وصاح بصوت مخمور :

— جاء دورنا يا غجر !

والتف حوله غلمان وسكارى ومساطيل في ضجة عالية من الغناء والزغاريد والطبل والزمر ، واذا بصوت يصيح :

— اسمعوا .. جاء دور الجرابيع .. الا تريدون ان تسمعوا !

فهتف عجرمة وهو يترنح :

— جد واحد للجميع ، وقف واحد للجميع . والسلام على الفتونة .

ثم غاب في الزحام . وسرعان ما وثب قاسم واقفاً فتناول عباءته ، وغادر الحجرة مسرعاً وهو يقول :

— الله يلعن الخمرة وزمانها !

٧٧

— تجنبوا الظهور بين الناس وأنتم سكارى .

قال قاسم ذلك جاداً مقطباً وهو جالس تحت صخرة هند يقلب عينيه في وجوه أصحابه المقربين من اعضاء النادي : صادق وحسن وعجرمة وشعبان وأبو فصادة وحمروش . كان الجبل يلوح من ورائهم شامخاً وهو يتلقى طلائع الليل الهابطة ، ولم يكن في الخلاء الا راعي غنم يقف معتمداً على عصاه في أقصى الجنوب . وبدا عجرمة مطرقاً أسيفاً

وهو يقول :

– ليتني متّ قبل ذلك .

فقال قاسم في فتور :

– من الأخطاء ما لا يجدي معه الاعتذار ، المهم عندي الآن ان أعرف مدى أثر هذيانك في أعدائنا !

فقال صادق :

– من المؤكد انه سمع على نطاق واسع .

وقال حسن متجهماً :

– لمست ذلك بنفسي في قهــوة جبل حيث دعاني صديق من آل جبل الى مجالسته ، فسمعت رجلاً يحكي بصوت مرتفع ما كان من أمر عجرمة ، أجل كان يحكي وهو يضحك هازئاً ولكني لا استبعد ان تثير حكايته ريبة في بعض النفوس ، كما اخشى انتقالها من فم الى فم حتى تبلغ أحد الفتوات .

فقال عجرمة متنهداً :

– لا تبالغ يا حسن .

فقال صادق :

– المبالغة خير من التهاون والا أخذنا من حيث لا نتوقع !

فقال عجرمة :

– أقسمنا ألا نخاف الموت !

فقال صادق محتداً :

– كما أقسمنا ان نحفظ السر !

فقال قاسم :

– واذا هلكنا اليوم تبددت الآمال الكبار .

واشتد الوجوم مع الظلام الزاحف حتى عاد قاسم الى الكلام قائلا :

– ينبغي أن نتدبر الأمر :

فقال حسن :

ـ فلندبر أمرنا على افتراض أسوأ الاحتمالات .

فقال قاسم بصوت كئيب :

ـ هذا معناه القتال .

وتحركت الرءوس تتبادل النظرات في الظلام ، ومن فوقها انبثقت النجوم تباعاً ، وهب هواء يطوي في تضاعيفه بقايا من حر النهار كالنوايا السيئة . ثم قال حمروش :

ـ سنقاتل حتى الموت .

فقال قاسم ممتعضاً :

ـ ويستمر الحال كما كان !

فقال صادق :

ـ ما أسرع ما يقضون علينا .

فقال أبو فصاده مخاطباً قاسم :

ـ من حسن الحظ أن هناك أسباب قربى تجمع بينك وبين سوارس، كما تجمع بين حرملك وحرم الناظر ، وفضلاً عن هذا وذاك كان لهيطة من اصدقاء أبيك في شبابه .

فقال قاسم بفتور :

ـ ربما أجّل هذا القضاء ولكنه لن يمنع وقوعه .

فسأل صادق برجاء :

ـ ألا تذكر انك فكرت يوماً في الالتجاء الى محام شرعي ؟

ـ وقيل لنا إنه لن يجرؤ محام على تحدي الناظر والفتوات .

فقال عجرمة محاولاً التخفف من ذنبه :

ـ هناك محام في بيت القاضي معروف بالجرأة .

ولكن صادق عاد يقول متراجعاً :

ـ أخشى ما أخشاه أن نجهـــر بالعداوة عن طريق القضية وتكون

تخاوفنا من عواقب كلام عجرمة سابقة لأوانها .

فقال عجرمه :

— فلنشاور المحامي في الأمر ، ولنتفق معه على تأجيل رفع الدعوى حتّى تدفعنا الضرورة الى ذلك ، وسنجد من يواليها منا ولو من خارج الحارة .

ووافق قاسم والآخرون على هذا الرأي كاجراء احتياطي . وقاموا من فورهم فذهبوا الى مكتب الشنافيري المحامي الشرعي ببيت القاضي . وقابلهم الشيخ فشرح له قاسم قضيتهم، وأخبره عن نيتهم في تأجيل رفع الدعوى الى حين ، على أن يستعد هو للأمر بدراسة الموضوع والتأهب لاتخاذ كافة الاجراءات . وعلى خلاف ظن اكثرهم قبل المحامي القضية ، وقبض مقدم الأتعاب ، فانصرفوا من لدنه مغتبطين . وتفرقوا ، فعاد الصحاب الى الحارة ومضى قاسم الى المعلم يحيي . وجالسه في دهليز الكوخ يدخنان ويتبادلان الرأي . وبدا المعلم آسفاً على ما وقع ووصى قاسم باليقظة والحذر .

وعاد قاسم بعد ذلك الى داره ، ولما فتحت له قمر رأى في وجهها ما أزعجه فسألها عما وراءها فقالت :

— أرسل حضرة الناظر في طلبك !

فخفق قلب قاسم ، وتساءل :

— متى ؟

— آخر مرة منذ عشر دقائق !

— آخر مرة !

— أرسل اليك ثلاث مرات في ظرف ساعة .

واغرورقت عيناها وهي تتكلم ، فقال :

— ليس هذا ما انتظره منك .

فانتحبت قائلة :

ــ لا تذهب .

فقال وهو يتظاهر بالهدوء :

ــ الذهاب آمــن من التخلف ، ولا تنسي أن هؤلاء اللصوص لا يعتدون على أحد في بيوتهم .

وبكت احسان في الداخل فهرعت اليها سكينة ، وقالت قمر :

ــ أجّل ذهابك حتى أقابل أمينة هانم .

فقال بحزم :

ــ هــذا لا يليق بنا ، سأذهب من فوري ، ولا داعي للخوف فلا أحد منهم يعرف عني شيئاً .

فتشبثت به قائلة :

ــ دعاك أنت لا عجرمة ، أخشى أن يكون بعضهم قد وشى بك.

فتخلص منها برفق وهو يقول :

ــ قلت لك منذ اللحظة الأولى إن أيام الراحة ولت ، وجميعنا يعلم بأننا سنواجه الشر عاجلاً أو آجلاً ، فلا تجزعي هكذا ، وابقي بخير حتى أرجع .

٧٨

عاد البواب من داخل بيت الناظر وقال لقاسم في فتور وجفاء :

ــ أدخل .

ومضى أمامه فتبعه قاسم باذلاً جهده للسيطرة على مشاعره ، وسطعته رائحة الحديقة الزكية دون أن يلتفت اليها حتى وجد نفسه أمام مدخل البهو . وتنحى البواب عن طريقه فدخل ثابت الجنان بدرجة لم يكتشفها في نفسه من قبل . ونظر أمامه فرأى في أقصى البهو الناظر جالساً على

ديوان ، وكان هناك شخصان ، يجلس احدهما على معقد الى يمين الناظر والآخر الى يساره ، لكنه لم يتبينهما أو يُعنْ بالالتفات الى أحدهما ، واقترب من مجلس الناظر حتى وقف على بعد أذرع منه ، فرفع يده بالتحية وقال بأدب :

– مساء الخير يا حضرة الناظر .

ولمح دون قصد الجالس الى يمينه فإذا به لهيطة ، ولحظ الآخر لكن عينيه حملقتا فيه بلا وعي منه ؛ وتلقى صدمة كادت أن تهيضه . لم يكن الرجل الا الشيخ الشنافيري المحامي الشرعي ! أدرك خطورة الموقف ، أن سره انكشف ، إن المحامي النذل خان الأمانة ، وأنه وقع . التحم في قلبه اليأس بالغيظ والغضب . وعرف انه لن ينجيه المكر أو الدهاء فصمم على الصمود والتحدي . ولم يكن في الوسع أن يتراجع خطوة فكان عليه ان يتقدم او يثبت على الأقل . وقد ذكر موقفه هذا فيما تبع من أيام ، وكان يؤرخ به مولد شخص جديد في ذاتـه لم يكن يتصور وجوده . وانتزعه من دوامته صوت الناظر الجاف وهو يتساءل :

– أنت قاسم ؟

فأجاب بصوت طبيعي :

– نعم يا سيدي !

فسأله دون ان يأذن له بالجلوس :

– هل أدهشك وجود الأستاذ ؟

فأجاب بنفس النبرة :

– كلا يا سيدي .

فتساءل بازدراء :

– أأنت راعي الغنم ؟

– انقطعت عن رعي الغنم منذ اكثر من عامين .

– وماذا تعمل الآن ؟

– وكيلاً لزوجتي في أملاكها .

فندت عن الناظر هزة رأس ساخرة ، ثم أشار الى المحامي آذناً له بالكلام فقال الشيخ مخاطباً قاسم :

– لعلك تعجب من موقفي باعتباري محاميك ، ولكن لحضرة الناظر مكانة تعلو على هذه الاعتبارات جميعاً . وسيفسح تصرفي لك مجالاً للتوبة هو خير من التورط في عداوة كانت ستؤدي بك الى الهلاك ، وقد أذن لي حضرة الناظر في أن أخبرك بأنني تشفعت لك عنده بالعفو إذا أعلنت التوبة ، فأرجو ان تقدر حسن نيتي ، وهاك مقدم الأتعاب أرده اليك .

فرمقه قاسم بنظرة قاسية وتساءل :

– لماذا لم تنصحني بالحق وأنا في مكتبك ؟

فأخذ المحامي بجرأته : ولكن الناظر أسعفه بقوله !

– أنت هنا لتُسأل لا لتسأل :

ونهض المحامي مستأذناً بالانصراف ، ثم مضى وهو يحبك جبته مداراة لارتباكه . وعند ذاك تفحص الناظر قاسم بنظرة قاسية وقال بنبرة كالسب :

– كيف سولت لك نفسك الشروع في رفع دعوى عليّ ؟

وجد نفسه محاصراً ، فاما القتال واما القتل ، ولكنه لم يدر ماذا يقول ، فقال الآخر :

– انطق ، خبرني عما وراءك ، هل أنت مجنون ؟

فقال قاسم في وجوم :

– أنا عاقل بحمد الله .

– لا يبدو هذا مؤكداً ، لماذا أقدمت على فعلتك المنكرة ؟ لم تعد فقيراً منذ رضيتك المجنونة زوجاً لها ، فماذا أردت من فعلتك ؟

فزجر قاسم كأنما ليأمن الغضب وقال :

ـ لا أريد شيئاً لنفسي .
فنظر الناظر نحو لهيطة كأنما يشهده على غرائب ما يسمع ، ثم أعاد عينيه الى قاسم فيما يشبه الثورة ، وصاح :
ـ إذن لماذا فعلت ما فعلت ؟ !
فأجاب قاسم :
ـ ما أردت إلا العدل .
فضيّق الرجل عينيه في حقد وتساءل :
ـ أتحسب ان علاقة زوجتك بالهانم قادرة على حمايتك ؟
فغض بصره وهو يقول :
ـ كلا يا سيدي .
ـ هل أنت فتوة قادر على تحدي فتوات الحارة جميعاً ؟
ـ كلا يا سيدي .
فصرخ الرجل :
ـ قل انك مجنون وأرحني .
ـ أنا عاقل والحمد لله .
ـ لماذا شرعت في رفع دعوى عليّ ؟
ـ أردت العدل .
ـ لمن ؟
فارتسم التفكير في عينيه وهو يقول :
ـ للجميع .
فتفرس في وجهه مرتاباً في عقله ، وتساءل :
ـ وما شأنك أنت ؟
فقال قاسم وكأنه ثمل بشجاعته :
ـ بذلك تتحقق شروط الواقف !
فصرخ الناظر :

– أنت يا جربوع تتكلم عن شروط الواقف ؟ !
فقال قاسم بهدوء :
– انه جدنا جميعاً .
فهبّ الناظر واقفاً في غضب وهوى بشعر منشّته على وجه قاسم بأقصى قوته وصاح :
– جدنا ! ليس فيكم من يعرف أباه ولكنكم تقولون بكل وقاحة جدنا : يا لصوص يا جرابيع يا سفلة ، انما تمادى في وقاحتك استناداً الى حماية هذا البيت لك ولزوجتك ، ولكن كلب البيت يفقد حمايته اذا عض يد المحسنين اليه .
ووقف لهيطة ليسكن من ثورة الناظر فقال :
– عد الى مجلسك مطمئناً فلا يصح ان تكدر صفوك ذبابة .
فجلس رفعت وشفتاه ترتعشان من الغضب ، وصاح :
– حتى الجرابيع يطمعون في الوقف ويقولون بكل وقاحة جدّنا .
وعاد لهيطة الى مجلسه وهو يقول :
– الظاهر ان ما تناقله الناس عن الجرابيع صحيح ، ومن سوء حظ حارتنا انها تسعى الى الهلاك باقدامها .
والتفت الى قاسم وقال :
– كان أبوك من أعواني الأوائل فلا ترغمني على قتلك .
فصاح الناظر :
– انه يستحق ما هو أفظع من القتل جزاء فعلته ، ولولا الهانم لكان الساعة في الهالكين !
وواصل لهيطة استجواب قاسم قائلاً :
– اصغ اليّ يا بني ، وخبرني عمّن وراءك ؟
فتساءل قاسم وهو ما زال يستشعر الألم عند موقع المنشة من وجهه :
– من تقصد يا سيدي ؟

ــ من دفعك الى رفع الدعوى ؟
ــ لا أحد سوى نفسي .
ــ كنت راعي غنم ثم ابتسم لك الحظ ففيم تطمع أكثر من ذلك ؟
ــ العدل ، العدل يا معلم .
فصرّ الناظر على أسنانه وهتف :
ــ العدل ! يا كلاب يا أراذل ، هذه كلمة السر عندكم إذا اعتزمتم النهب والسرقة .
ثم ملتفتاً نحو لهيطة :
ــ قرّره حتى يقر !
فعاد لهيطة يقول بصوت تتجمع في نبراته نذر الوعيد :
ــ خبرني عمن وراءك !
فقال قاسم بتحدٍ خفي :
ــ جدنا ..
ــ جدنا !
ــ نعم ، اطلعْ على شروط وقفه وستعلم أنه هو الذي دفعني .
وهب رفعت واقفاً مرة أخرى وهو يصيح :
ــ أبعده عن وجهي .. إرمه خارجاً .
وقام لهيطة فأخذ قاسم من ذراعه ، ومضى به نحو الباب ، وشد على ذراعه بقبضة من حديد تحمّلها الآخر متصبراً ، ثم همس في أذنه :
ــ اعقل اكراماً لنفسك ، ولا تضطرني إلى ان أشرب من دمك .

٧٩

دخل قاسم داره فوجد بها زكريا وعويس وحسن وصادق وعجرمة

وشعبان وابو فصادة وحمروش . تطلعوا اليه في اشفاق وصمت ، ولما جلس الى جانب زوجته قال عويس :

– ألم أنصحك ؟

فقالت قمر في عتاب :

– مهلاً يا عمي حتى يستريح .

فهتف الرجل :

– شر المتاعب ما تجيء صاحبها من نفسه !

وجعل زكريا يتفحص وجه قاسم بعناية ثم قال :

– أهانوك يا ابن أخي ، اني أعرفك كما أعرف نفسي ، ما كان أغناك عن هذا كله .

وقال عويس :

– لولا أمينة هانم ما رجعت الينا سالماً .

وقلب قاسم عينيه في وجوه صحبه وقال :

– خانني المحامي اللئيم !

فتصلبت وجوههم ، وتبادلوا النظرات في انزعاج ، فسبقهم عويس الى الكلام قائلاً :

– انفضّوا بسلام ، وليحمد كل منكم الله على نجاته .

وسأله حسن :

– ما قولك يا ابن عمي ؟

فتفكر قاسم قليلاً ثم قال :

– لا أخفي عنكم أن الموت يتهددنا ، واني أعفي من معاونتي من يشاء .

فقال زكريا :

– فلينته الأمر عند هذا الحد .

فقال قاسم بهدوء وتصميم :

– لن أتخلى عن الأمر مهما تكن العواقب ، ولن أكون دون جبلي أو رفاعة براً بجدي وأهل حارتنا .

فقام عويس غاضباً وغادر حجرة الحلوس وهو يقول :

– هذا الرجل مجنون ، وكان الله في عونك يا بنت أخي .

أما صادق فوثب الى قاسم وقبّل جبينه وهو يقول :

– رددت إليّ روحي بما قلت .

وقال حسن متحمساً :

– الناس في حارتنا يقتلون بسبب مليم ، وبلا سبب ، فلماذا نخاف الموت عندما نجد له سبباً حقاً ؟ !

وارتفع صوت سوارس من الحارة منادياً زكريا فأطل الرجل من النافذة ودعاه الى الدخول ، وما لبث ان دخل الحجرة وجلس وهو مقطب متجهم . ثم نظر الى قاسم وقال :

– لم اكن أدري ان في حينا فتوة سواي !

فقال زكريا مشفقاً :

– ليس الأمر كما قيل لك .

– ما قيل لي أدهى وأمر .

فقال زكريا متأوهاً :

– عبث الشيطان بعقول أولادنا .

فقال سوارس بجفاء :

– أسمعني لهيطة كلاماً ثقيلاً بسبب ابن أخيك ، كنت أحسبه فتى عاقلاً فإذا بجنونه يفوق كل جنون . اسمعوا جيداً ، إذا تهاونت معكم جاء لهيطة ليؤدبكم بنفسه ، ولكني لن أسمح لأحد بأنه يعرّض كرامتي للمهانة ، فالزموا حدودكم ، والويل لمن تحدثه نفسه بالعناد .

وراح سوارس يراقب أعوان قاسم فلم يسمح لأحد منهم بالاقتراب من بيته ، وفي سبيل ذلك أهان صادق ولكم ابو فصادة ، وطلب الى

زكريا ان ينصح قاسم بالتزام داره حتى تنسى الزوبعة . ووجد قاسم نفسه سجيناً في بيته ، لا يزوره أحد سوى ابن عمه حسن . ولكن ما من قوة تستطيع ان تسجن الأخبار في الحارة . فقد تسللت الى حي رفاعة وجبل همسات عما يضطرب في حي الجرابيع ، عن دعوى كادت ان ترفع على الناظر ، وعن مزاعم خاصة بالشروط العشرة ، بل عن اتصال وقع بين قنديل خادم الجبلاوي وبين قاسم . وثارت النفوس بشتى الانفعالات ، وتطايرت التهم والسخريات . وقال حسن يوماً لقاسم :

— الحارة تتهامس بالخبر ، وفي كل غرزة لا حديث إلا عنك .

فرفع قاسم إليه وجها غائماً بالهم والفكر كشأنه في الأيام الأخيرة وقال :

— انقلبنا سجناء ، والأيام تمر بلا عمل .

فقالت قمر باشفاق :

— لا يطالب مخلوق بما فوق طاقة البشر .

وقال حسن :

— اخواننا على أشد ما يكون من الحماس .

فسأله قاسم :

— أحق أن آل جبل ورفاعة يرمونني بالكذب والجنون ؟ !

فغض حسن بصره متألماً وقال :

— الجبن أفسد الرجال !

فهز قاسم رأسه في حيرة وتساءل :

— لماذا يكذبني آل جبل ورفاعة ومنهم من قابله الجبلاوي أو حادثه ؟ لماذا يكذبونني وهم أولى الناس بتصديقي وتأييدي ؟ !

— ان داء حارتنا الجبن ولذلك فهم ينافقون فتواتهم !

وارتفع من الطريق صوت سوارس كالخوار وهو يسب ويلعن فأطلت الأسرة من الشباك فرأوا سوارس ممسكاً بتلابيب شعبله وهو يصرخ فيه :

— ماذا جاء بك هنا يا ابن الزانية ؟

وعبثاً حاول الشاب التخلص من قبضته ، وإذا بسوارس يقبض على عنقه بيسراه وينهال باليمنى ضرباً على وجهه ورأسه . وغضب قاسم غضباً شديداً فتراجع عن الشباك وهرع نحو الباب غير مبال بتوسلات قمر . وفي أقل من دقيقة كان يقف امام سوارس ويقول له بحزم وتصميم :

— اتركه يا معلم سوارس .

فلم يكف الرجل عن تكييل الضربات لفريسته وصاح بقاسم :

— احترم نفسك وإلا أبكيت عليك عدوك .

وقبض قاسم على يده الضاربة وشد عليها بقوة هاتفاً بغضب :

— لن أدعك تقتله وافعل ما تشاء .

وترك سوارس شعبان فانهار على الأرض في غيبوبة ، وخطف مقطف تراب من فوق رأس امرأة عابرة وألبسه رأس قاسم . وهمّ حسن بالوثوب عليه لولا ان طوقه زكريا بذراعه في الوقت المناسب الذي وصل فيه . ورفع قاسم المقطف عن رأسه فبدا وجهه كالمختنق وانسال التراب على رأسه وثوبه حتى غطاه ، وسرعان ما تملكته نوبة سعال . وصرخت قمر وصوتت سكينة ، وجاء عويس مهرولاً ، وانطلق النساء والرجال والصغار من الأبواب نحو الموقعة فعلا اللغو والضوضاء . وكان زكريا يشد على ذراع ابنه حسن بكل قواه وينظر في عينيه الجاحظتين بتوسل وتحذير . واقترب عويس من سوارس قائلاً :

— امسح العيب في وجهي أنا يا معلم سوارس .

وهتف اكثر من صوت : « شفاعة الله يا معلم ! » .. حتى صرخ سوارس قائلاً :

— هذا قريب وذاك شفيع ، وبين هذا وذاك ضاع سوارس وانقلب مَرة بعد ما كان فتوة !

فصاح زكريا :

— استغفر الله يا معلم ، انت سيدنا وتاج راسنا .

ومضى سوارس إلى القهوة ، فرفع رجال شعبان، وراح حسن ينفض التراب عن وجه قاسم وثوبه ، واستطاع المتجمعون — بعد اختفاء سوارس — أن يبدوا عن أسفهم .

٨٠

وفي مساء ذلك اليوم ضج أحد الربوع بحي الجرابيع بالصوت ينعي ميتاً . أطلقته حنجرة متهالكة وسرعان ما رددته عشرات الحناجر في الربع . وأطل قاسم من النافذة فسأل فطين بياع اللب فأجابه الرجل : « تعيش أنت ، شعبان مات ! » . وغادر الرجل داره فزعاً فقصد ربع شعبان على مبعدة ربعين من داره . وهنالك وجد الحوش مظلماً ومكتظاً بسكان الشقق التحتانية الذين راحوا يتبادلون كلمات الرثاء والحزن والسخط على حين تجاوبت دهاليز الادوار الفوقانية بالصوت . وسمع امرأة تقول بعنف :

— لم يمت ولكن قتله سوارس .

— الهي يخرب بيتك يا سوارس !

فاعترضت ثالثة تقول :

— ما قتله إلا قاسم ! يفتري الأكاذيب ورجالنا تقتل .

فانقبض قلب قاسم حزناً ، وشق طريقه في الظلام حتى صعد الى أول دور حيث توجد شقة القتيل . ورأى على ضوء سراج مثبت في حائط الدهليز أمام الشقة أصحابه حسن وصادق وعجرمة وابو فصاده وحروش وآخرين ، فأقبل صادق نحوه وهو يبكي فعانقه دون أن ينبس . وقال حسن وقد بدا وجهه مروعاً تحت الضوء الشاحب :

ـ لن يذهب دمه هدرا .
واقترب عجرمة من قاسم وهمس في أذنه :
ـ زوجته في حالة سيئة حتى انها حمّلتنا مقتله .
فهمس قاسم له :
ـ كان الله في عونها .
وقال حسن في نبرة انتقامية :
ـ القاتل لا بد ان يقتل .
فقال أبو فصادة بغيظ :
ـ منذا الذي يشهد عليه في حارتنا ؟
فقال حسن :
ـ لكننا نستطيع ان نقتل كالآخرين .
فلكزه قاسم ليسكته وقال :
ـ من الحكمة الا تسيروا في جنازته ولكننا سنجتمع في القرافة .
واتجه قاسم نحو شقة الفقيد فاعترضه صادق ليمنعه ولكنه نحاه جانباً ودخل . ونادى زوجته فجاءت متعجبة تطالعه بعينين دامعتين ، ثم تحجرت نظراتها وسألته :
ـ ماذا تريد ؟
فقال بحزن :
ـ جئت أعزيك .
فقالت بحدة :
ـ أنت قتلته ، ما كان أغنانا عن الوقف ، وأحوجنا اليه هو .
فقال برقة :
ـ ربنا يصبرك ، ويهلك المجرمين ، ونحن أهلك كلما احتجت الى أهلك ، ولن يضيع دمه .
رمقته شزراً واستدارت راجعة . وبرجوعها انفجر النواح والعويل ،

فغادر المسكن كئيباً مغتماً .

وعندما طلع الصباح رأى الناس سوارس جالساً عند مدخل قهوة دنجل يقلب في المارّين وجهاً مدمّغاً بالتحدي والاحرام . وحيّاه الناس مضاعفين له التودد مداراة لسخطهم . وتجنبوا الاشتراك في العزاء فلبثوا في دكاكينهم او وراء عرباتهم او فوق التراب . وخرج النعش محمولاً عند الضحى، واقتصر المشيعون على الأهل والأقارب ولكن قاسم انضم اليهم غير مبال بنظرات الفتوة المحرقة . وغضب صهر القتيل فقال لقاسم محتداً :

– تقتل القتيل وتمشي في جنازته !

فلاذ بالصمت والصبر حتى سأله آخر بخشونة :

– لماذا جئت ؟

فقال باصرار :

– لأقاتل كما قاتل صديقي رحمه الله ، كان شجاعاً ، ولستم كما كان ، وتعرفون القاتل وتصمّون غضبكم عليّ .

فوجم اكثرهم . وتجمهرت النساء وراء الرجال ، حافيات يهرولن بالسواد ، يسفن التراب فوق رءوسهن ويلطمن الخدود . واخترقت الجنازة الجمالية نحو باب النصر . ولما تمت مراسم الدفن تفرق المشيعون الا قاسم ، فقد تباطأ في السير حتى تخلف عنهم ، ورجع الى القبر فوجد اصحابه في الانتظار . واغرورقت عيناه بالدموع فأجهشوا جميعاً بالبكاء . وجفف عينيه براحته وقال :

– من يريد السلامة فليذهب .

فقال حروش :

– لو كنا نريد السلامة ما وجدتنا حولك .

فقال وهو يطرح يده على شاهد القبر :

– عز علي فقده ، كان شجاعاً متحمساً ، وذهب غدراً ونحن في أشد الحاجة اليه .

فقال صادق :

— قتله فتوة غادر ، وسوف يبقى منا بعض ليشهدوا مصرع آخر فتوة في حارتنا .

فقال حمروش .

— ولكن لا ينبغي أن نضيع غدراً كما ضاع فقيدنا ، فكروا في الغد وكيف نحقق النصر !

— وكيف نجتمع لنتبادل الرأي .

فقال قاسم :

— لم يكن لي من أنيس في سجني الا التفكير في هذا ، واهتديت الى رأي ، ليس باليسير ولكن لا محيد عنه .

فاستطلعوه متسائلين فأردف :

— أهجروا حارتنا ، فليدبر كل شأنه وليهاجر ، سنهاجر كما هاجر جبل قديماً وكما هاجر المعلم يحيى بالأمس ، ولنُقِم نادينا في مكان آمن بالخلاء حتى يشتد ساعدنا ويكثر عددنا .

فهتف صادق :

— نعم الرأي .

— لن نطهر حارتنا من الفتونة الا بالقوة ، ولن نحقق شروط الواقف إلا بالقوة ، ولن يسود العدل والرحمة والسلام إلا بالقوة ، وستكون قوتنا أول قوة عادلة غير باغية .

استمعوا بقلوب واعية . وتطلعوا الى قاسم ، والى القبر وراء ظهره ، فخيل اليهم ان شعبان يشاركهم الاستماع ويباركه . وقال عجرمة متأثراً :

— نعم فبالقوة تحل المشاكل ، القوة العادلة غير الباغية ، كان شعبان يقصدك عندما اعترضه سوارس ، لو كنا معه لاعترض الفتوة قوة لا يسهل قهرها ، لعنة الله على الخوف والتفرق .

استروح قاسم لأول مرة نسمة ارتياح وابتهاج فقال :

ـ لقد وضع جدنا ثقته بين ايدينا وهو عن يقين يؤمن بأن في ابنائه من هم أهل لحملها .

٨١

ورجع قاسم الى بيته عند منتصف الليل ، لكنه وجد قمر مستيقظة تنتظره. وبالغت اكثر من عادتها في العناية به والحنو عليه ، وكان يؤلمه بقاؤها مستيقظة حتى تلك الساعة ، ثم تبين له ذبول في عينيها واحمرار يخلفه البكاء كما تخلف الشمس الشفق ، فتساءل في كآبة :

ـ هل كنت تبكين ؟

لم تجبه كأنما شغلت عنه بكوب اللبن الدافىء الذي تعده له ، فعاد يقول :

ـ موت شعبان أحزننا جميعاً ، رحمه الله .

فبادرته قائلة :

ـ بكيت على شعبان قبل ذلك ، لكنني كنت أبكي كلما تذكرت اعتداء الرجل عليك ، أنت آخر رجل يستحق ان يهال التراب على رأسه ووجهه .

فقال محزوناً :

ـ ما أخف هذا بالقياس الى ما أصاب صاحبنا المسكين .

فجلست الى جانبه وهي تقدم له الكوب وتمتمت :

ـ وكم يضايقني ما يقال عنك .

فابتسم متظاهراً بالاستهانة ورفع الكوب الى فيه ، فأردفت مغيظة :

ـ ان جلطة يؤكد لآل جبل انك طامع في الوقف لتستأثر به وحدك ، وهكذا يقول حجاج في آل رفاعــة ، ويشيعان عنك انك تنتقص من

جبل ورفاعة .

فقال دون ان يخفي ضيقه :

— أعرف ذلك ، كما أعرف انه لولاك لما كنت حتى اليوم حياً .

فربتت كتفه بحنان . وإذا بها تتذكر الأيام الماضية لغير ما سبب . أيام لم تكن لأحاديثها نهاية ولا لسعادتهما غاية . وأفراح الليالي المضيئة بعد مولد احسان . هي اليوم لا تملك منه شيئاً ولا يملك هو من نفسه شيئاً . حتى آلام المرض التي تنتابها أحياناً تخفيها عنه . انه لا يفكر في نفسه فكيف تشغله بنفسها . وهي تخجل ان تثقل عليـــه حتى لا تعين اعداءه بغير قصد عليه . منذا الذي يطمئنها عليه وأيام العمر تولي كما ولت أيام الراحة . ساحمك الله يا حارتنا . وعاد قاسم يقول :

— لا يغيب عني الأمل ولو في الظلام ، وما اكثر الأصدقاء الصادقين وان بدوت وحيداً ، تحدى أحدهم سوارس فمن كان يجرؤ على ذلك من قبل ، والآخرون مثله ، والشجاعة أخطر ما يلزم حارتنا كي لا تقضي العمر تحت الأقدام ، فلا تنصحيني بالسلامة ، ان الذي قُتل ، قُتـــل وهو في طريقه الى داري ، وأنت لا ترضين لزوجك بمذلة الجبن .

ابتسمت قمر وهي تسترد الكوب فارغاً ، وقالت :

— ان زوجات الفتوات يزغردن عند المعارك وهي شر ، فكيف أرضى بأن أكون دونهن للخير ؟

وأدرك أن حزنها اخطر مما تبديه فربت خدها بحب وقال معزياً :

— أنت كل شيء لي في دنياي ، أنت خير رفيق في الحياة .

فابتسمت استدعاء للسكينة التي يجب ان تسبق النوم .

وعجب عم شنطح مبيض النحاس من اختفاء صادق ، وكان سعى اليه في داره فلم يجد له ولا لأحد من ذويه أثراً . وعبد الفتاح الفسخاني كذلك لم يجد لعامله عجرمة أثراً في الحارة . ولم يعـــد ابو فصاده الى مقلى حمدون ولم ينذره بغيابه . وأين حمروش ؟ قال حسونة الفران انـه

اختفى كأن نيران الفرن التهمته . وآخرون ذهبوا بلا عودة . وانتشر الخبر في حي الجرابيع وامتدت منــه أصداء الى بقية الحارة حتّى قال الناس في حيّي جبل ورفاعة هازئين إن الجرابيع يهاجرون وأن سوارس لن يجد مع الأيام من يحصّل منه الاتاوة . واستدعى سوارس زكريا الى قهوة دنجل وقال له منذراً :

– ابن أخيك خير من يدلنا على سر الهاربين .

فقال زكريا :

– يا معلم سوارس لا تظلمه ، مضت أيام وأسابيع وأشهر والرجل لا يغادر داره .

فقال الفتوة مزمجراً :

– ألاعيب أطفال ، لكني استدعيتك لأحذرك مما قــد يصيب ابن أخيك .

– قاسم من دمك ، ولا تُشمِت بنا العدو !

– هو عدو نفسه وعدوي ، انه يتوهم نفسه جبل هذا الزمان ، وهذه اللعنة هي أقرب سبيل الى باب النصر .

فقال زكريا في جزع :

– حلمك يا معلم سوارس ، نحن جميعاً في حمايتك !

ولما رجع زكريا الى مسكنه صادف حسن راجعــاً من بيت قاسم فأفرغ فيه الحنق الذي ملأه به سوارس ، غير ان حسن قاطعه قائلاً :

– صبرك يا أبي ، قمر مريضة ، مريضة جداً يا أبي .

وعلمت الحارة بمرض قمر حتّى بيت الناظر . ولازمها قاسم وهو في غاية من الكآبة والحزن . وكان يهز رأسه في حيرة ويقول :

– في لحظة واحدة ترقدين بلا حول !

فقالت المرأة بصوت ضعيف :

– كنت أخفي عنك حالي رحمة بقلبك المثقل بالمتاعب .

فقال في حزن شديد :

– كان ينبغي ان اشاركك ألمك من أول الأمر .

فانفرجت شفتاها الشاحبتان عن ابتسامة كالزهرة الذابلة في عود ناضب ، وقالت :

– ستعود الصحة الى سابق عهدها .

بذلك دعا قلبه . لكن ما هذا الغيم يغشى العين . وما هذا الجفاف يسري في الوجه . وما تلك القدرة على اخفاء الألم ؟ ذلك كله من اجلك أنت . يا الهي احفظها برحمتك . وابقها لي ، واعطف على بكاء الطفل الذي لا ينقطع .

– سماحك معي جعلني لا أسامح نفسي .

فابتسمت مرة أخرى فيما يشبه العتاب . وجيء بأم سالم لتبخرها ، وأم عطية لتعدّ لها بعض المعاجين ، وابراهيم الحلاق ليحجنها ، ولكن أم احسان استعصت فيما بدا على الشفاء . وقال لها قاسم :

– وددت لو افتديك من ألمك .

فأجابت بصوت واهن كالصمت :

– لا أصابك سوء .

ثم مردفة :

– يا أحب الناس الى قلبي .

وقال لنفسه : « لمنظرها تسودّ الدنيا في عيني ! » وقالت هي :

– العاقل مثلك آخر من يعز عليه العزاء .

وجاء زائرون وزائرات ولكنه ضاق بالمكان ففر الى سطح البيت . كانت أصوات النساء ترتفع من نوافذ الربوع ، واللعنات تختلط بنداءات الباعة في الطريق ، وبكاء طفل حسبه لأول وهلة صوت احسان حتى رأى صاحبه وهو يتمرغ في تراب سطح مجاور . وكان الظلام يهبط وئيداً ، وسرب من الحمام يعود الى برجه ، ونجمة وحيدة تومض في

الأفق . وتساءل عن معنى النظرة الغريبة التي تلوح في عين قمر ، كأنها لا ترى ، وعن اهتزازات جانب فمها غير الارادية ، وعن الزرقة التي تصبغ شفتيها ، وعن شعوره البالغ بالانقباض . ولبث ساعات ثم نزل، فقابل سكينة في الصالة حاملة احسان بين يديها فقالت له همساً :

– ادخل على مهل كيلا توقظها .

واستلقى على الكنبة المواجهة للفراش في ضوء خافت ينبعث من مصباح فوق أرضية الشباك . ولم يكن ثمة صوت في الحي إلا نواح الرباب ، ثم تلاه طاظا الشاعر قائلاً : « فقال الجد بهدوء :

– رأيت ان اعطيك فرصة لم تتح لأحد ممن في الخارج ، وهي ان تعيش في هذا البيت ، وأن تتزوج به ، وان تبدأ حياة جديدة فيه .

فتتابعت دقات قلب همام في نشوة من الأفراح ، وقال :

– الشكر لك على نعمتك .

– انك تستحقها .

واختلج نظر الشاب بين جده وبين السجادة ثم تساءل في اشفاق :

– وأسرتي ؟

فقال الجبلاوي في عتاب :

– قلت ما أريد بوضوح .

فقال همام باستعطاف :

– انهم يستحقون رحمتك وعفوك . »

وندّت عن النائمة حركة لا تخلو من عنف فوثب فوق الكنبة اليها . رأى في عينيها بريقاً جديداً حل محل الغيم ، فسألها عما بها فهتفت بصوت قوي :

– احسان ! أين احسان !

غادر الحجرة مسرعاً ، ثم عاد وفي اثره سكينة حاملة الصغيرة النائمة . وأشارت قمر نحو احسان فقربتها سكينة اليها حتى لثمت خدها،

على حين جلس قاسم على حافة الفراش . ومالت عيناها اليه ، ثم همست :
ـ ما بي أعظم !
فمال نحوها متسائلاً :
ـ ماذا تعنين ؟
ـ آلمتك كثيراً ولكن ما بي اعظم .
فعض شفته ثم قال :
ـ قمر ، انا حزين لأني عاجز عن تخفيف ألمك !
فقالت باشفاق :
ـ أخاف عليك من بعدي .
فقال في حزن شديد :
ـ لا تتحدثي عني .
ـ قاسم ، ارحل ، الحق باصحابك ، سيقتلونك ان بقيت .
ـ نرحل معاً .
فقالت بمشقة :
ـ ليس الطريق واحداً .
ـ لا تريدين ان ترحميني كما عودتني .
ـ آه ، كان ذلك في الأيام الماضية .
وبدت كأنها تقاوم ضغطاً شديداً فلوحت بيدها . واشتد ميله نحوها حتى امتلأ بانفاسها . وتلوت ، وامتدت رقبتها كالمستغيثة ، وانطلق صدرها في عنف ، وزفر حشرجة قاسية ، فصاحت سكينة :
ـ اجلسها ، تريد ان تجلس .
فأحاطها بذراعيه ليجلسها ولكن ندت عنها شهقة كأنها وداع أبكم ، وانهار رأسها على صدره . وهرولت سكينة بالطفلة الى الخارج .
ومن الخارج دوى صوتها يمزق الصمت .

٨٢

وفي الصباح ازدحم بيت قاسم والطريق امامه بالمعزين . ان لصلات القربى في الحارة احتراماً متأصلاً لا تحظى بجزء منه شتى الفضائل مجتمعة . فلم يكن بد من ان يجيء سوارس معزياً وما أسرع ان اقبل وراءه الجرابيع . ولم يكن بد من ان يجيء الناظر رفعت معزياً فتبعه على الأثر لهيطة وجلطة وحجاج وما أسرع ان اقبل وراءهم كل من هب ودب ، فانتظمت الجنازة جموعاً غفيرة لم تشهد لها الحارة مثيلاً من قبل إلا في جنازات الفتوات . وتحلى قاسم بصبر الرجل الحكيم رغم آلامه الدفينة . وحتى في ساعة الدفن بكت جميع حواسه وجوارحه إلا عينيه . وانصرف المعزون حتى لم يبق في المدفن إلا قاسم وزكريا وعويس وحسن ، وعند ذاك ربت زكريا عضد قاسم وقال بأسى :

— شد حيلك يا ابن أخي ، كان الله في عونك .

فانحنى عوده قليلاً وهو يزفر من الأعماق ، وغمغم :

— قلبي دفن في التراب يا عمي .

فتقلص وجه حسن تأثراً ، وساد صمت المدفن كأشد ما يكون الصمت. وانتقل زكريا خطوة وهو يقول :

— آن لنا ان نذهب .

لكن قاسم تشبث بموقفه وهو يقول في استياء :

— ما الذي جاء بهم ؟

ففطن زكريا الى من يعني بقوله فقال :

— لهم الشكر على أي حال .

فتشجع عويس قائلاً :

ـ ابدأ معهم من جديد ، فهذه الخطوة منهم تتطلب منك خطوات ، ومن حسن الحظ أن ما يقال عنك خارج حينا لا يؤخذ مأخذ الجد !

فآثر أن يغوص في الصمت والحزن على مجادلته . واذا بجماعة تقبل على رأسها صادق وكأنما كانوا يرصدون اختقاء المعزين . كانوا كثرة وليس فيهم غريب فعانقوا قاسم حتى دمعت عيناه . وقلب عويس عينيه فيهم بامتعاض ولكن أحداً لم يباله ، وقال صادق مخاطباً قاسم :

ـ لم يعد ثمة ما يبقيك في الحارة .

لكن زكريا قال معترضاً في حدة :

ـ ابنته وداره واملاكه هناك .

وقال قاسم بلهجة ذات مغزى :

ـ كان بقائي في الحارة ضرورياً فبفضله ازددتم مع الايام عدداً !

ونظر الى الوجوه المتطلعة اليه كأنما يستشهد بكثرتها على صدق قوله . فاكثرهم ممن اغـــراهم بالهجرة واللحاق بأصحابه حينما كان يتسلل من داره كل ليلة عقب نوم الحارة فيقصد من يأنس فيهم مودة وحسن استعداد للاقتناع بكلامه . وسأله عجرمة :

ـ هل يطول بنا الانتظار ؟

ـ حتى يتجمع عندكم عدد كاف .

وانتحى به جانباً فقبله وهمس له :

ـ قلبي يتقطع حزناً لك فاني ادرى الناس بقسوة فجيعتك .

فعاوده التأثر ، وهمس :

ـ صدقت ، ما أقسى الألم .

ورمقه باشفاق ثم قال :

ـ عجل باللحاق بنا فانك اليوم وحيد .

ـ كل شيء رهن بوقته .

وقال عويس بصوت مرتفع :

– ينبغي ان نعود .

وتعانق الصحاب مودعين ، وعاد قاسم ورفاقه . ومضت الايام وهو في داره وحيد كئيب حتى خافت عليه سكينة عواقب الحزن . ولكنه واصل جولاته الليلية الخفية بهمة لا تعرف الوهن . ومضى عدد المختفين في النمو وأخذ الناس يتساءلون حيارى . واشتدت السخرية بحي الجرابيع وفتوتهم في بقية الحارة ، وقالوا ان نوبة سوارس في الهرب ستجيء اليوم أو غداً . وقال له عم زكريا ذات يوم محذراً :

– هذه حال تدعو الى أشد القلق ، وتخشى عواقبها .

ولكن لم يكن من الانتظار بد . وكانت أياماً مليئة بالعمل والخطر ، وكانت احسان البسمة الوحيدة في وجهها المتجهم . وكانت تتعلم الوقوف معتمدة على أطراف المقاعد ثم تتطلع اليه بوجهها الصافي وتحدثه بلغة العصافير والبلابل . وكان ينعم النظر في وجهها بحنان ويقول لنفسه : ستكون طفلة جميلة ولكن اهم عندي أن تكون كأمها طيبة وحناناً . وسره أن تطالعه بعينيه السوداوين في وجه قمر المستدير لتظل رمزاً باقياً للعلاقة المحبوبة التي مزقها الدهر . وترى هل يمتد به العمر حتى يراها عروساً في الحسان أو كتب عليها ألا تجني من دار مولدها الا أليم الذكريات ؟

ويوماً طرق باب الدار طارق فذهبت سكينة تتساءل من القادم فجاءها صوت يافع قائلاً :

– افتحي يا سكينة .

فتحت الباب فرأت فتاة في الثانية عشرة أو تزيد ، ملفوفة على غير المألوف في ملاءة وعلى الوجه حجاب . دهشت سكينة وسألتها عما تريد ولكنها سارعت الى حجرة قاسم وهي تقول بلهوجة :

– مساء الخير يا عمي .

ونزعت النقاب فبدا وجه بدري قمحي بديع القسمات ، يقطر خفة

فقال قاسم متعجباً :

– اهلاً بك ، اجلسي ، اهلاً وسهلاً .

قالت وهي تجلس على حافة الكنبة :

– أنا بدرية ، وارسلني اليك أخي صادق .

فقال قاسم باهتمام :

– صادق !

– نعم .

ورنا اليها مستطلعاً ، ثم قال :

– ماذا دفعه الى هذه المخاطرة ؟

فقالت باهتمام زادها ملاحة :

– لا يمكن أن يعرفني أحد في الملاءة .

وادرك ان جسمها اكبر من سنها فهز رأسه كالمطمئن فأردفت في مزيد من الاهتمام :

– انه يقول لك أن غادر الحارة فوراً ، فان لهيطة وجلطة وحجاج وسوارس تآمروا على قتلك الليلة .

قطب كالمنزعج على حين شهقت سكينة ، وسألها :

– كيف علم بذلك ؟

– أخبره المعلم يحيى .

– ولكن كيف عرف يحيى ذلك ؟

– أفشى سكران السر في حانة كان بها صديق للمعلم يحيى ، هذا ما قاله أخي .

وجعل ينظر اليها صامتاً حتى قامت واخذت تحبك الملاءة حول جسدها الغض ، فقام بدوره وهو يقول :

– اشكرك يا بدرية ، تخفّي جيداً ، وبلّغي تحيـاتي الى اخيك ، واذهبي بسلام .

فأسدلت النقاب على وجهها وتساءلت :
ـــ ماذا أقول له ؟
ـــ خبّريه بأننا سنلتقي قبل الصباح .
فصافحته ثم ذهبت .

٨٣

اصفر وجه سكينة ونطق بعينيها الذعر ، وهتفت قائلة :
ـــ فلنغادر البيت دون ابطاء .
وتوثبت للتحرك فقال لها :
ـــ لفّي احسان واخفيها في شملتك واخرجي كأنك ذاهبة لبعض شأنك ثم اقصدي مدفن المرحومة وانتظري هنالك .
ـــ وأنت يا سيدي !
ـــ سألحق بك في الوقت المناسب .
فترددت عيناها بين الحيرة والجزع فقال بنبرة مطمئنة :
ـــ سيذهب بكما حسن الى المكان الذي سنقيم فيه .
وفي ثوان تأهبت للرحيل فلثم احسان مرات ، ثم قالت له المرأة وهي تمضي نحو الباب :
ـــ استودعتك الحي الذي لا يموت .
ووقف وراء الخصاص يراقب الطريق فرأى الجارية وهي تسير نحو الجمالية حتى غيبها المنعطف. وجعل قلبه يخفق وهو يرنو الى ثنية ذراعها حول الحمـــل الثمين . وأجال بصره في الحي فرأى رجالاً من أعوان الفتوات ، بعضهم يجلس بقهوة دنجل والبعض يتسكع هنا وهناك ، وتكاد معالمهم تذوب في الظلام الزاحف . الدلائل تقطع بأنهم يتأهبون . ولكن

هل يتربصون به حتى يخرج لجولته الليلية ان كان سرّها انكشف لهم ؟ أو سيطبقــون على داره في آخر الليل ؟ انهم ينتشرون منذ الآن على سبيل الحيطة ان يكون سر مؤامرتهم انكشف . وها هم يدبون في الظلام كالحشرات تفوح من أنفاسهم رائحة الجريمة ، فهل يلقى مصير جبل أو مصير رفاعة ؟ هكذا وجد رفاعة نفسه في ليلة من الليالي المظلمة . وتوارى في داره بقلب مفعم بالنوايا الطيبة وأسفل الدار تدب اقدام غليظة تنضح جلود اصحابها بشهوة الدم . متى تكفين عن سفك الدماء يا حارتنـــا التعيسة ؟ ومضى يتمشى في الحجرة ذهاباً وجيئة حتى طرق الباب وترامى اليه صوت حسن وهو يناديه . وجاء حسن بجسمه الضخم وعيناه تعكسان نظرة قلقة ، فقال :

– في الحي حركة غريبة .. مريبة ..

فسأله دون اكتراث لملاحظته :

– هل عاد عمي من تجواله ؟

– كلا ، لكني اقول انه توجد في حينا حركة مريبة ، انظر من شيش الشباك .

– رأيت ما ازعجك وعرفت ما وراءه ، حذّرني صادق في الوقت لمنـــاسب بارسال اخته الصغيرة اليّ ، واذا صدقت رسالته فالفتوات سيحاولون قتلي الليلة ، لذلك هرّبت احسان مع سكينة وهما ينتظرانك في مدفن المرحومة فاذهب اليها وسيروا جميعاً الى مقر اخواننا .

– وأنت ؟

– سوف أهرب بدوري والحق بكم .

فقال حسن بعزم :

– لن اتركك وحدك .

فقال برجاء لم يخل من استياء :

– افعل ما قلت لك دون تردد ، سأهرب بالحيلة لا بالقوة ، ولن تنفعني قوتك اذا الجأتنا الظروف الى المقاومة ، ولكن ذهابك سيحمي

ابنتي ، ويمكنك من ان تضع بعض رجالنا على رءوس الطرق من الجمالية حتى الجبل لعلهم يهبون الى مساعدتي ان احتجت لهم عند الهرب .

اذعن حسن لارادته ، فصافحه بقوة وقال :

— ليس كمثل عقلك شيء ، فلعلك اعددت للأمر عدته .

فأجابه بابتسامة مطمئنـــة ، وذهب حسن بوجه عابس . ولم يمض طويل وقت حتى جاء عم زكريا وهو يلهث فأيقن انه عائد من عند المعلم يحيي بالخبر فبادره قائلاً :

-- أرسل الى صادق بالخبر .

فقال الرجل باضطراب ظاهر :

— علمت به منذ قليل لدى مروري بالمعلم فخشيت الا يكون بلغك .

فأجلسه قاسم وهو يقول كالمعتذر :

— أعف عما أسبب لك من متاعب .

— كنت أتوقع هذا من زمن ، ووجدت من سوارس تغيراً في المعاملة فرحت اكذب نفسي ، ورأيت اليوم الشياطين منتشرين كالجراد ، وأنت وحيد ويتعذر عليك الهرب .

فاشتد عوده في تصميم وهو يقول :

— سأحاول ، واذا فشلت فهناك في الجبل رجال لا يغلبون .

فقال زكريا في ضجر :

— ما قيمة هذا كله بالنسبة لحياتك أو طفلتك !

فقال قاسم معاتباً :

— اني اعجب كيف لم تكن على رأس اعواني !

فقال وكأنه لم يسمع قوله :

— تعال معي الى سوارس نساومه ونتعهد له بما يشاء !

فضحك قاسم ضحكة مقتضبة ، سخرت من اقتراح عمه دون كلام ، والتفت زكريا الى الشيش يطالع من خلاله الطريق فبدا مظلماً مخيفاً .

وانتبه على صوت قاسم وهو يتساءل :
ــ لماذا اختاروا الليلة بالذات ؟
فأجاب زكريا :
ــ أول أمس جهر رجل من جبل بأن قضيتك كانت لخير الجميع ، وقيل مثل ذلك عن رجل من رفاعة ، فلعلّ ذلك مــا دفعهم الى التعجيل .
فتهلل وجه قاسم وقال :
ــ أرأيت يا عمي ؟ أنا عدو الناظر والفتوات ولكني صديق حارتنا ، وسيعلم الجميع ذلك .
ــ فكّر الآن بما ينتظرك .
فقال قاسم باهتمام :
ــ أليك خطتي ، سأهرب عبر الأسطح حتى بيتك تاركاً مصباحي مضاء للتضليل .
ــ قد يراك أحد .
ــ لن أشرع في الهرب حتى تخلو الأسطح من السمار .
ــ واذا سبقوا بالهجوم على دارك ؟
ــ لن يقع هذا حتى تنام الحارة .
ــ قد يبلغ بهم الاستهتار حداً لا تتصوره .
فقال باسماً :
ــ في هذه الحال أموت ، ومنذا يدفع الأجل ؟
فرفع الرجل اليه وجهاً ينطق بالرجاء لكنه طالع ابتسامة هادئة ثابتة كأنها التصميم مجسداً فقال يائساً :
ــ قد يفتشون داري .
ــ من حسن الحظ أنهم لا يعلمون بتسرب مؤامراتهم الينا ، ولذلك سأسبقهم الى الهرب ان شاء الله .

وتبادلا نظرة طويلة ، أفصح من الدمع ، ثم تعانقا . ولما وجد نفسه وحيداً تغلّب على تأثره واقترب من النافذة يراقب الطريق . بدا الحي في حياته المألوفة . فالصغار يلعبون حول مصابيح العربات ، والقهوة تعج بالسمار ، والاسطح تضج بأحاديث النساء ؛ وسعـــال المدخنين يتخلله الفحش والسباب ، ونواح الرباب ، يرتفع ، وهـــذا سوارس رابض على عتبة القهوة ، ورسل الموت تحتل الاركان . يا سلالة الخيانة ويا لصوص البشر . منذ اطلق ادريس ضحكته الباردة وانتم تتوارثون الجريمة وتغرقون الحارة في بحر من الظلمات . الم يئن للطير الحبيس ان ينطلق ؟ ومضى الوقت وئيداً ثقيلاً ، ولكنه حمل ليل السمار الى غايته . صمتت الأسطح ، وخلا الطريق من العربات والصغار ، وأقفرت المقاهي ، وعلت الى حين أصوات الأشباح العائدة ، ورجع من الجمالية السكارى وهم يهلوسون ، حتّى الغرز اطفأت المجامر ، ولم يبق في الظلام الا ندامى الموت . وقال لنفسه : « حان وقت العمل » . وسارع الى السلم فرقاه الى السطح . ومضى الى السور الفاصل بين سطحه والسطح الملاصق فعبره دون عناء وهمّ بالجري واذا بشبح يعترضه قائلاً : « قف » ، فأدرك ان الأسطح محتلة بالقتلة وان حصاره أُحكم . واستـــدار ليرجع ولكن الآخر وثب نحوه واحاطه بذراعين قويّتين . واستدعى قوته التي ضاعفها الخوف وفاجأه بضربة في بطنه ففك حصار ذراعيـــه ، وثنى بركلة في بطنه ايضاً فسقط وهو يشهق ثم لم يقم ، وجاءت سعلة مكتومة من السطح الثالث او الرابع جعلته يعدل عن التقدم فتراجع مضطرباً الى سطحه . وقف عند السلم يتصنت فسمع وقع اقدام صاعدة ! وتكتـــل الصاعدون امام باب شقته . وخبطوا الباب خبطة شديدة فانفتح وهو يكاد يقتلع ، ثم تدافعوا الى الداخل . وهبط مسرعاً دون ان يضيّع ثانية حتّى انتهى الى الحوش . وسارع إلى الباب . ولمح خارج الدار شبحاً يتحرك فانقض عليه قابضاً على عنقه ، ثم نطحه برأسه ، وطعن

بطنه بركبته ، ودفعه فاستلقى على ظهره دون حراك . واندفــع نحو الجمالية وضربات قلبه تتلاحق . الآن تبين لهم خلو الدار ، ولعل بعضهم بصعد الى السطح ليعثر على صاحبهم الملقى ، ولعلّ الآخرين يهبطون في اعقابه . مر بربع عمه دون ان يتوقف ، ولما اقترب من نهاية الحارة أطلق ساقيه . وعند اتصال الحارة بالجمالية وثب شبح في طريقه وصاح بصوت كالرعد لينبه الآخرين : « قف يا ابن اللئيمة » . ورفع نبوته قبل ان يحيد قاسم عن طريقه . ولكن شبحاً آخر ظهر من زاوية المنعطف وضرب الشبح الأول بهراوته على رأسه فهوى صارخاً ، ثم قال لقاسم:

— فلنجرِ بكل ما فينا من قوة .

وانطلق قاسم وحسن يجريان في الظلام دون مبالاة بما قد يعترضهما من حجر أو نقرة .

٨٤

عند مدخل حارة الوطاويط انضم صادق اليهما . وعند نهايتها وجدوا عجرمة وأبو فصادة وحمروش حول عربة كارو ذات اربع عجلات ، فاستقلوها مبادرين وانطلق الجواد بها يلهبــه سوط الحوذي . انطلقت العربة بسرعة رغم الظلام ، محدثة في سكون الليل صوتاً مزعجاً كالفرقعة المتواصلة ، وهم يتلفتون الى الوراء من خشية وتوجس . وقال صادق جلباً للطمأنينة :

— سيجرون نحو باب النصر ظناً بأنك تلوذ بالخلاء حول المقابر .

فقال قاسم بارتياب :

— لكنهم يعلمون أنكم لا تقيمون عند المقابر .

غير ان سرعة العربة بدت حاسمة ، وبفضلهــا غلب شعور بأنهم

يبتعدون حقاً عن الخطر . وعاد قاسم يقول في شيء من الارتياح :
ـ أحسنتم التنظيم والتدبير ، وشكراً لك يا صادق فلولا تحذيرك لكنت الساعة في الهالكين .

فشدّ صادق على يده في صمت . وتواصل اندفاع العربة حتى لاح سوق المقطم على ضوء النجوم ، يلفّه الظلام والوحشة عدا نور مصباح ينبعث من كوخ المعلم يحيى . وعن حذر اوقفوا العربة وسط الميدان ، ثم تركوها متجهين نحو الكوخ . وما لبث ان جاءهم صوت المعلم متسائلاً عن القادمين فأجابه قاسم ، فارتفع صوته مرة أخرى بالحمد . وتعانق الرجلان عناقاً حاراً ، وقال له قاسم :

ـ اني مدين لك بالحياة .

فقال العجوز ضاحكاً :

ـ انها الصدفة وحدها ! لكنها وقعت لتنقذ رجلاً هو أول من يستحق الحياة ، أسرعوا الى الجبل ، فالجبل خير حصن لكم .

وشد قاسم على يده ، ونظر على ضوء المصباح إلى وجهه في مودة وامتنان ، فعاد العجوز يقول :

ـ اليوم أنت كرفاعة أو كجبل ، وسوف أعود الى حارتنا عندما يقيض لك النصر .

ابتعدوا عن الكوخ شرقاً يوغلون في الخلاء نحو الجبل . وتقدمهم صادق إذ كان أخبرهم بالطريق . وكانت ثمة رقة تمازج الظلام مبشرة بالفجر . والسماء تقطر ندى رطيباً . وترامى من بعيد صياح الديكة كصرخة المخاض لمولد يوم جديد . وبلغوا السفح فساروا بحذائه نحو الجنوب حتى عثروا على الممر الضيّق الذي يصعد الى مقامهم الجديد فوق الجبل . وصعدوا وراء صادق في طابور فرداً فرداً لضيق الممشى. وقال صادق لقاسم :

ـ اعددنا لك داراً وسط ديارنا ، وفيها الآن تنام احسان .

فقال عجرمة :

— بيوتنا من الصفائح والخيش .

فقال حسن في مرح :

— ليست اسوأ كثيراً من بيوتنا في الحارة !

فقال قاسم :

— حسبنا ألا نجد بيننا ناظراً أو فتوة .

وهبطت اليهم أصوات فقال صادق :

— حارتنا الجديدة مستيقظة تنتظرك .

ورفعوا الرءوس فرأوا خيوط الضياء الأولى تطارد فلول الظلام . وصاح صادق بأعلى صوته : « هُوه » فأطلت رءوس رجال ونساء ، وتعالى الهتاف والزغاريد ، وانطلقت الحناجر تنشد :

يا محني ديل العصفورة

فاستخف قاسم الابتهاج وقال باكبار :

— ما اكثرهم !

فقال صادق بفخار :

— حارة جديدة فوق الجبل ، سكانها يتزايدون مع الأيام ، وقد انضم الينا بارشاد المعلم يحيى جميع المهاجرين من حارتنا .

وقال حمروش :

— لا يتعبنا الا اننا نسعى الى ارزاقنا في الاحياء البعيدة خشية ان يعثر علينا أحد من حارتنا .

ولما صعد قاسم الى السطح تلقاه الرجال بالعناق ، وصافحته النساء، وارتفعت الاصوات بالتحيات والتهليل والتكبير ، وكانت سكينة بين المستقبلين فأخبرته بأن إحسان نائمة في الكوخ الذي أعـد لهم داراً . وساروا جميعاً نحو الحارة الجديدة التي أقيمت على هيأة مربـع من الاكواخ فوق مسطح من الجبل ، وهم يهللون وينشدون ، وقد ابتهج

الافق بالنور المتدفق كأنه بحيرة من الورد الأبيض . وهتف رجل :
— أهلاً بفتوتنا قاسم .
فتغيَّر وجه قاسم وصاح مغضباً :
— ألا لعنة الله على الفتوات جميعاً ، فلا سلام ولا أمان حيث يوجدون .
وتطلعت اليه الوجوه الجديدة فقال :
— سنرفع النبابيت كما رفعها جبل ، ولكن في سبيل الرحمة التي نادى بها رفاعة ، ثم نستغل الوقف لخير الجميع حتى نحقق حلم أدهم، هذه هي مهمتنا لا الفتونة .
ودفعه حسن برفق نحو الكوخ الذي أعدّ له وهو يقول مخاطباً الجميع :
— مضى الليل دون ان يغمض له جفن فدعوه الآن ليأخذ بعض حقه من الراحة .

استلقى قاسم على خيشة جنب ابنته وسرعان ما استغرق في النوم . واستيقظ فيما بين الظهيرة والعصر برأس مثقل وجسد متعب . وجاءته سكينة باحسان فوضعها في حجره وراح يلثمها في حنان . وقدمت له المرأة كوز ماء وهي تقول :
— هذا الماء يُحمل الينا من الحنفية العمومية كما كانت تحمله زوجة جبل !

فابتسم الرجل ، وكان يحب كل ما يربطه بذكريات جبل أو رفاعة . والقى نظرة على داره الجديدة فرأى جدراناً مغطاة بالخيش ولا شيء بعد ذلك ، فضم احسان الى صدره بحنان اكثر . ونهض قائماً فأعطى سكينة ابنته وغادر الكوخ ليجد صادق وحسن في انتظاره ، فجلس بينهما وهم يتبادلون تحية الصباح . والقى نظرة على الحارة فلم تقع عينه الا على امرأة او طفل ، فقال صادق موضحاً :
— ذهب الرجال الى السيدة وزينهم سعياً وراء الأرزاق وتخلفنا نحن

حتى نطمئن عليك .

وتابعت عيناه النسوة العاملات في الطهي او الغسل امام الاكواخ ، والاطفال اللاهين هنا وهناك ثم تساءل :

— ترى هل هن راضيات ؟

فقال صادق :

— انهن يحلمن بامتلاك الوقف والنعيم الذي تهنأ به أمينة هانم حرم الناظر !

فابتسم ابتسامة عريضة ثم ردد بصره بينهما في بطء وتساءل :

— ماذا يدور في رأسيكما عن الخطوة التالية ؟

فرفع حسن رأسه فوق منكبيه العريضين وقال :

— نحن على بيّنة مما نريد .

— ولكن كيف ؟

— ننتهز غفلة ثم نهجم .

لكن صادق قال معترضاً :

— بل نصبر حتى نضم الينا اكبر عدد من أهل حارتنا ثم نهجم فنضمن النصر من ناحية وقلة الضحايا من ناحية أخرى .

فهتف قاسم واساريره تنبسط :

— أحسنت !

وشملتهم طمأنينة حالمة ، واذا بصوت يقول في استحياء :

— الطعام !

فرفع قاسم عينيه فرأى بدرية حاملة اناء فول وارغفة وهي ترنو اليه بعينين باسمتين فما ملك ان ابتسم قائلاً :

— أهلاً برسول الحياة إليّ .

فوضعت الاناء بين يديه وهي تقول :

— أطال الله عمرك .

وذهبت الى كوخ صادق فيما يلي كوخه . وداخلت نفسه رقة ورضى فتناول طعامه بشهية . وفي اثناء ذلك قال :

– لدي قدر من المال لا بأس به سينفعنا عند الحاجة .

ثم مردفاً بعد قليل :

– علينا ان نصطاد كل من نأنس فيه استعداداً الى مشاركتنا من أهل حارتنا ، وما اكثر المظلومين الذين يتمنون لنا النصر ولا يقعدهم إلا الخوف .

وما لبث ان ذهب الرجلان الى حيث سبقهم الآخرون فوجد نفسه وحده . وقام فمضى يتجول في المكان كأنما يتفقده . مر بأطفال لاعبين فلم يلتفت اليه أحد منهم . أما النساء فكن يحيينه بالدعاء . واستوقفت نظره عجوز بالغة في الكبر ، ذات رأس مكلل بالبياض الناصع ، وعينين تغشاهما سحابة الهرم ، وذقن متقلقل كأنهـا تزدرد لحييها ، فاقترب منها محيياً فردت التحية بالدعاء فسألها :

– من أمي ؟

فأجابت بصوت كخشخشة الأوراق الجافة :

– أم حمروش .

– أهلاً بأمنا جميعاً ، كيف هان عليك ان تهجري حارتنا ؟

– أطيب المكان ما يوجد فيه ابني .

ثم كالمستدركة :

– والبعد عن الفتوات غنيمة .

ثم تشجعت بابتسامته فقالت :

– رأيت رفاعة وأنا شابة !

فسألها باهتمام :

– حقاً ؟

– نعم وحياتك ، كان لطيفاً جميلاً ، ولكن لم يجر لي في خاطر

انه سيكون عنوان حي وحكاية من حكايات الرباب .

فسألها باهتمام متزايد :

– الم تقصديه كالآخرين ؟

– كلا ، لم يكن يدري بنا في حينا أحد ، ولا كنا ندري بأنفسنا ، ولولاك ما جرى ذكر للجرابيع على لسان .

وتفحصها بغرابة . وتساءل ترى كيف يكون جدّنا اليوم ! لكنــه ظل يبتسم لها برقة فدعت له طويلاً حتى ذهب . وواصل المشي حتى وقف عند رأس الممشى على حافة الجبل . القى نظرة على الخلاء أسفل ثم مد البصر نحو الأفق . تراءت على البعد القباب والاسطح كأنها ملامح متباعدة في كائن واحد . وقال إنه ما ينبغي ان تكون إلا شيئاً واحداً. وهذا الشيء ما أصغره من علٍ . فــلا معنى للناظر رفعت ولا للفتوة لهيطة . ولا فرق هنا بين رفعت وعمه زكريا . ومن العسير ان تهتدي من موقفك الى الحارة المثيرة المتاعب . لولا بيت الواقف الذي يبدو انه يميز من أي موقع . بيت جدنا بسوره العجيب وأشجاره العالية . لكنه طعن في السن وخفت خشيته كهذه الشمس المائلة نحو الأفق . أين أنت وكيف أنت ولِمَ تبدو وكأنك لم تعد أنت . المزيفون لوصيتك على بعد أذرع من منزلك . وهؤلاء النسوة والصغار المبعدون في الجبل أليسوا أقرب الناس الى قلبك ؟ ستعود الى مكانتك عندما تنفذ شروط وقفيتك دون اغتيال ناظر او اعتداء فتوة . كعودة الشمس غــداً الى كبد السماء . ولولاك ما كان لنا أب او حارة او وقف او أمل .

وأيقظه من تهويمته صوت عذب يقول :

– القهوة يا معلم قاسم .

التفت وراءه فرأى بدرية باسطة راحتها بالفنجال فتناوله قائلاً :

– لِمَ التعب ؟

– تعبك راحة يا سيدي .

وترحّم على قمر . وراح يحسو القهوة في رفق . وبين الحسوة والحسوة تلتقي عيناهما في ابتسامة . ما ألذ القهوة عند طرف الجبل فوق الخلاء.

– ما عمرك يا بدرية ؟

فثنت شفتيها داخل فيها ثم غمغمت :

– لا أدري .

– لكنك تدرين بما جاء بنا الى الجبل ؟

فترددت في استحياء ثم قالت :

– أنت !

– أنا ؟ !

– تريد ان تضرب الناظر والفتوات وتجعل الوقف لنا ، هذا ما يقول أبي .

فابتسم . وانتبه الى انه أتى على ما في الفنجال لكنه سها عن ردّه ، فرده اليها وهو يقول :

– ليت عندي من الشكر بعض ما تستحقين .

فاستدارت باسمة موردة وجرت ، فتمتم قائلاً :

– تصحبك السلامة .

٨٥

وكان وقت الأصيل هو وقت التحطيب فينبري الرجال لممارسة التمرينات الشاقة بالنبابيت . ويبدأ ذلك عقب عودتهم بنقود قليلة وطعام بسيط بعد يوم شاق كادح ينقضي سعياً وراء الرزق ، هكذا يعودون نساء ورجالاً . وكان قاسم أول المتبارين . وكم سره ان يرى حماسة رجاله وتوثبهم لليوم العصيب . أشداء بين الرجال ولكنهم يكنّون له من الحب ما لم

تعرفه حارتهم الممزقة بالبغضاء . وترتفـع النبابيت وتتهاوى وتتلاقى في ارتطامات شديدة ، ويتفرج الغلمان ويقلدون ، على حين تخلد النساء الى الراحة او يعددن العشاء . وصف الأكواخ يمتد طولاً بما ينضم الى الحارة الجديدة من رجال جدد . وأثبت صادق وحسن وأبو فصادة انهم صيادون مهرة . كانوا يرصدون رجالاً من الحارة في مظانهم وما يزالون بهـم حتى يقنعوهم بالانضمام اليهم فيهجروا الحارة خفية وراء آمال لم تشتعل من قبل في صدورهم . وكان صادق يقول لقاسم :

– لا اضمن مع هذا النشاط الا يهتدي اعداؤنا الى مقرنا .

فيقول له :

– لا سبيل الينا الا خلال الممر الضيق ، وسيكون الهلاك نصيبهـم اذا جاءوا منه .

وكانت احسان هي سعادته الباقية ، حين يلاعبها وحين يهدهدهـا وحين يناغيها ، لكنها لم تكن كذلك حين تذكره بالراحلة فتطبق عليه الوحشة وتلفحه أنفاس الحنين . تلك التي خطفت من بين يديه في أول الطريق ، فتركته فريسة للوحشة كلما خلا الى نفسه ، وأحياناً للندم كما حدث عند حافة الجبل ، عند حافة الجبل يوم القهوة ، أو يوم النظرة الرقيقة كنسمة العصارى . وذات ليلة حرن النوم أمام عينيه فوقع صيداً معذباً للوحشة والأرق في ظلمة الكوخ ، فقام من فراشه وانطلق خارجاً . ومضى في الساحة بين الاكواخ تحت النجوم الساهرة يستقبل هواء منعشاً ، هواء الصيف عند منتصف الليل فوق الجبل . وإذا بصوت يناديـه ثم تساءل صاحبه :

– إلى أين أنت ذاهب في هذه الساعة من الليل ؟

فالتفت وراءه فرأى صادق وهو يقترب منه ، فسأله :

– ألم تنم بعد ؟

– لمحتك وأنا راقد امام الكوخ ، وأنت أطيب عندي من النوم .

وسارا جنباً الى جنب حتّى حافة الجبل ، فوقفا هنالك وقاسم يقول :

ـ الوحدة أحياناً لا تطاق .

فقال صادق ضاحكاً :

ـ تباً لها في جميع الاحيان .

ومدا البصر نحو الأفق فبدت الدنيا سماء متلالئة فوق أرض غارقة في الظلام . وعاد صادق يقول :

ـ اكثر رجالك أزواج أو ذوو أهل فهم لا يعرفون الوحشة .

فتساءل قاسم كالمستنكر :

ـ ماذا تعني ؟

ـ مثلك لا يستغني عن امرأة .

واشتد الاحتجاج في صوته بقدر ما استشعر في قول الرجل من صدق ، فتساءل :

ـ أتزوّج بعد قمر ؟

فقال الرجل بايمان :

ـ لو استطاعت ان تسمعك صوتها لأعادت على مسمعك رأيي .

واضطرب قاسم وجاش بالانفعال صدره ، وقال وكأنه يخاطب نفسه :

ـ كأنها الخيانة بعد الحب والرعاية .

ـ ما أغنى الأموات عن اخلاصنا !

ماذا يعني الرجل الطيب ؟ يقرر الصدق أم يبرر الهوى ؟ ولكن للحقيقة طعماً مراً في بعض الأحوال . وأنت نفسك لا تواجه نفسك بالصراحة التي واجهت بها الأوضاع في حارتك . والذي سوّى هذه الأمور في عالمك هو الذي سوى هذه النجوم في السماء . والحق الذي لا مرية فيه أنّ قلبك يخفق كما خفق أول مرة . وتنهد بصوت مسموع فقال صادق :

ـ أنت أول من يحتاج إلى أنيس .

ولما رجع إلى كوخه لمح سكينة واقفة عند الباب فتطلعت اليه كالمتسائلة وهي تقول بقلق :

– لمحتك خارجاً حين كنت أظنك في عز النوم ؟ !

فقال دون تمهيد لشدة ضغط أفكاره على رأسه :

– أنظري الى صادق كيف يحضني على الزواج !

فقالت سكنة كأنما تتلقف فرصة من السماء :

– وددت ان أسبقه !

– أنت ! ؟

– نعم يا سيدي ، شد ما يحز في قلبي ان أراك جالساً وحـدك مستسلماً للوحشة والفكر .

فأشار بيده الى الأكواخ النائمة وقال :

– جميع هؤلاء معي .

– نعم ولكن لا أحـد لك في دارك وأنا عجوز ، رجل فوق الأرض ورجل في القبر .

وشعر بأن تلته دليل تقبل لما تريد ، ولكنه مع ذلك لم يدخـل الى كوخه وقال في نبرة رثاء :

– لن أجد زوجة مثلها !

– هذا حق ، ولكن توجد بنات يبشرن بالسعد !

وتبادلا نظرة خلال الظلام ، أردفت بهنيهة صمت ، ثم تمتمت الجارية :

– بدرية ! ما الطفها من فتاة .

فقال بدهشة تعدل خفقة قلبه :

– البنت الصغيرة !

فقالت وهي تداري ابتسامة ماكرة :

– ما أنضجها وهي تقدم الطعام او القهوة !

فتحول عنها وهو يقول :

– يا شيطانة ! لعنة الله على سلالتك !

وكان للخبر رنة فرح في حارة الجبـــل جميعاً . كاد صادق ان يرقص . وزغردت أمه حتى أسمعت الخلاء . وانهالت التهاني على قاسم . واحتفلت الحارة بالزفاف دون استدعاء لأحد من المحترفين ، فرقصت نساء من بينهن أم بدرية . وغنى أبو فصاده بصوت مليح :

أنا كنت صياد سمك وصيد السمك غيـــة

وسارت الزفـــة حول الاكواخ مستضيئة بأنوار السماوات . وانتقلت سكينة باحسان الى كوخ حسن على حين خلا كوخ قاسم للعروسين .

٨٦

لذ له حتماً ان يراقب – من مجلسه على الفروة امام الكوخ – بدرية وهي تعجن . هي صغيرة بلا جدال ولكن أي امرأة تفوقها في النشاط وتدبير الشئون ! وتمطت من جهد ، وبظهر راحتها رفعت ما تهدّل من شعرها فوق الجبين ، فبدت فاتنة غازيـــة لسويداء القلب . ونم تورد وجهها على احساسها بمتابعة عينيه حتى توقفت في دلال ، فضحك بسرور ومال نحوها فتناول ضفيرتها وقبلهـــا مراراً ثم عاد الى جلسته . وكان سعيداً خالي البال كشأنه في الأويقات التي يعتزل فيها أصدقاءه وأفكاره ، وعلى بعد يسير مضت احسان تتنقل من موضع الى موضـــع على مرمى النظر من سكينة الرابضة فوق حجر . وتعالت ضجة عند رأس الممر . رأى صادق وحسن وبعض الأصدقاء قادمين نحوه حول رجل عرف فيه خردة الزبّال من حي رفاعة فوقف من فوره لاستقبالهم على حين زغردت نساء كما يفعلن كلما أنضم الى الجبل رجل جديد من أهـــل الحارة . وعانقه والرجل يقول :

ـ اني معكم ، وجئت معي بنبوت !

فقال له هاشًا باشًا :

ـ أهلاً بك يا خردة ، نحن لا نفرق بين حي وحي ، فالحارة حارتنا ، والوقف للجميع .

فضحك الرفاعي قائلاً :

ـ يتساءلون عن مكانكم ويتوقعون من ناحيتكم شراً ، ولكن قلوباً كثيرة تتمنى لك النصر .

وألقى نظرة على ما حوله فشملت الأكواخ والناس ثم قال باعجاب :

ـ كل هؤلاء معك !

وقال صادق :

ـ جاء خردة بخبر هام .

فحدجه قاسم بنظرة متسائلة فقال خردة :

ـ اليوم يتزوج سوارس للمرة الخامسة . وستسير زفته هذه الليلة .

فقال حسن بحماس :

ـ هذه فرصة لا تتكرر للقضاء عليه .

وتحمس الرجال . وقال صادق :

ـ سنهجم يوماً على الحارة ، فكلما تخلصنا من فتوة جاء الهجوم أيسر عناء وأضمن نتيجة .

وتفكر قاسم ملياً ثم قال :

ـ سنهاجم الزفة كما يفعل الفتوات ولكن اذكروا دائماً أننا نهاجم للقضاء على الفتونة .

وقبيل منتصف الليل تجمع الرجال عند حافة الجبل ، ثم مضوا يهبطون رجلاً رجلاً وراء قاسم وأيديهم قابضة على نبابيتهم . كانت السماء صافية ، والبدر يحتل منها الكبد ، ونوره يضفي على الدنيا وشى الأحلام . وانتهوا الى الخلاء فاتجهوا ناحية الشمال من وراء سوق المقطم ثم ساروا بحذاء الجبل حتى لا يضلوا الطريق . ولما اقتربوا من صخرة هند

أقبل نحوهم شبح رجل كان يتجسس لهم الأخبار فقال لقاسم :
– ستسير الزفة نحو باب النصر .
وتعجّب قاسم قائلاً :
– لكن زفاتنا تسير عادة نحو الجمالية .
فقال خردة :
– لعلهم يبتعدون عن الأماكن التي يظنون مقامكم قريباً منها !
وفكر قاسم بسرعة ثم قال :
– سيذهب صادق وبعض الرجال الى ما وراء بوابة الفتوح ، ويمضي عجرمة وآخرون الى خلاء باب النصر ، وسأنتظر أنا وحسن وبقية الرجال وراء باب النصر ، وعندما ادعوكم الى الهجوم اهجموا .
وبدأ الرجال ينقسمون جماعات ، وقبل أن يهموا بالرحيل قال :
– ركزوا الضرب على سوارس وأعوانه ، أما الآخرون فسيكونون اخوانكم غداً .

ومضت كل جماعة في طريقها وأوغل هو وحسن ومن معهما شمالاً بحذاء الجبل ، ثم عدلوا الى اليسار في طريق القرافة حتى كمنوا وراء البوابة . وكان ورجاله يحاصرون الطريق ، فصادق يتربص يميناً ، وعجرمة يتوثب يساراً ، وهو يكمن وراء البوابة . وقال حسن :
– ستتجمع الزفة في قهوة الفلكي .
فقال قاسم :
– علينا أن نهاجمها قبل الوصول الى القهوة كيلا نعتدي على قوم لا شأن لنا بهم .
ولبثوا في الظلام ينتظرون وقد توترت منهم الأعصاب . وبغتة قال حسن :
– شد ما أذكر مقتل شعبان .
فقال قاسم :

ـ للفتوات ضحايا لا يحصيهم العدّ .
وأرسل صادق صفيراً وتبعه عجرمة فاشتدت عزيمتهم وقال حسن :
ـ إذا هلك سوارس تسارع أهل حينا الينا .
ـ واذا جاء الآخرون للقضاء علينا أهلكناهم في الممر .
هذه الاحلام مثل ضوء القمر . وما هي الا ساعة حتّى يتقرر النصر لهم أو تتبخر الآمال مع أرواحهم المهدرة . وخيل له أنه يرى شبح قنديل ، وانه يسمع نبرة قمر ، وكأن دهراً مضى مذ كان يرعى الغنم . وشدت قبضته على نبوته وقال لنفسه لا يمكن ان ننهزم . وسمع حسن وهو يسأله :
ـ ألا تسمع ؟
وأرهف السمع قليلاً حتّى التقط أصداء من انغام فقال :
ـ استعدوا ، الزفة قادمة .
وأخذت الاصوات تقترب ، وتتضح ، ثم ترامى الزمر والطبل ، وتعالت الآهات ، وأطبق التهليل . ثم على ضوء المشاعل بدت الزفة وهي تتقدم ، وتراءى سوارس للعين وسط هالة من الراقصين اللاعبين بالنبابيت . وتساءل حسن :
ـ أصفر لعجرمة ؟
فقال قاسم بثبات :
ـ عندما تصل طليعة الزفة الى وكالة الثوم .
واستمر تقدم الزفة ، واشتد الرقص واللعب . وأخذ راقص بنشوة الرقص فجعل يثب في الهواء ثم يدور أمام الزفة في سرعة رشيقة راسماً دائرة متموجة ، والنبوت يدور مرتكزاً على راحته المرفوعة فوق رأسه كالمروحة ، ومضى يتقدم خطوة عقب كل دورة حتّى جاوز وكالة الثوم والزفة من ورائه تتقدم في بطء شديد حتّى بلغ رأسها الوكالة . عند ذاك صفر حسن ثلاثاً . فهبط عجرمة ورجاله من عطفة الطاحين وانقضوا

على مؤخرة الزفة تسبقهم نبابيتهم فاجتاح الاضطراب صفوفها وارتفع صراخ الغضب والخوف . وصفر حسن ثلاثاً مرة اخرى فاندفع صادق ورجاله من السماكين على وسط الزفة من الناحية الأخرى قبل ان تفيق من الهجمة الأولى . وفي الحال هجم قاسم ورجاله من تحت البوابة على مقدمـــة الزفة هجمة رجل واحد . استرد سوارس ورجاله أنفسهم من شرك المفاجأة فرفعوا النبابيت واشتبكوا في معركة مريرة . وتطاير كثيرون من المسالمين فلاذوا بالحواري والأزقة . واشتد ارتطام النبابيت . وسالت الدماء من الأوجه والرءوس . وتحطمت كلوبات وتناثر الورد فطحنته الاقدام . وانطلق الصوات من النوافذ وأغلقت المقاهي أبوابها . وضرب سوارس بقسوة ، وبخفة ، فانطلق نبوته كالمجنون ، مرة في هذه الناحية ومرة في تلك . واشتد الضرب وتكاثف الحقـــد كقطع الليل . ووجد سوارس نفسه بغتة امام صادق فصرخ :

— يا ابن النجسة !

ووجه اليه ضربة فتلاقت مع ضربة وجهها صادق الذي ارتج وترنح . ورفع سوارس نبوته وهوى به مرة اخرى عليه فتلقاه بنبوته المرتكز على قبضته ، غير انه سقط على ركبتيه من شدة الصدمة . وهمّ بتوجيـــه الضربة الثالثة والقاضية لكنه لمح حسن منقضاً عليه كالوحش لانقاذ صاحبه فتحول نحوه وهو يطفح بالغضب صائحاً :

— وأنت أيضاً يا ابن زكريا ! يا ابن الزانية .

وأطلق نحوه ضربة هائلة ، لو لم يتفاد منها بوثبة جانبية لهلك ، ثم طعن سوارس في أثناء وثبته برأس نبوته فأصاب عنقه . عطلت الطعنة سوارس لحظـــات عن تسديد الضربة التالية ، فسيطر حسن على توازنه ووجه ضربة شديدة بقوته الخارقة فأصابت جبهة سوارس ، وفجرت نافورة من الدم ، وسرعان ما تراخت قبضته عن نبوته فهوى ، وتراجع خطوات مترنحة ، ثم سقط على ظهره دون حراك ، وعلا على أصوات

النبابيت المتلاطمة صياح رجل :

— سوارس قتل !

فأدركه عجرمة بضربة نبوت فوق أنفه فصرخ ، وتراجع فعثر بطريح فسقط . وقويت عزيمة رجال قاسم فاشتدت ضرباتهم ، وتخاذل رجال سوارس ، وهالتهم كثرة الساقطين من رجالهم فتقهقروا ، ثم أسلموا أرجلهم للفرار . وأخذ رجال قاسم في التجمع حوله وهم يلهثون ، البعض تسيل دماؤهم ، والبعض يحملون جرحاهم . ونظروا صوب الأرض على ضوء الفوانيس الصادر من شراعات أبواب المقاهي أجساداً مطروحة ، منها ما لقي حتفه ومنها ما راح في غيبوبة . ووقف حمروش فوق ظل سوارس وهتف :

— ليطمئن جثمانك يا شعبان !

فجذبه قاسم الى جانبه وقال :

— يوم النصر قريب ، يوم يلقى بقية الفتوات نفس المصير ، يوم نصبح سادة حارتنا وأصحاب وقفنا وأحفاداً بررة لجدنا .

وعند عودتهم الى الجبل استقبلتهم النساء بالزغاريد ، وجرت مع الهواء أنباء النصر . وآوى قاسم الى كوخه وبدرية تقول له :

— عليك غبار كثير ودم ، يجب ان تستحم قبل النوم .

ولما استلقى عقب الاستحمام تأوه من الألم . وأتت له بطعام وانتظرت أن يجلس ليتناوله ، ولكن استولت عليه حال بين اليقظة والمنام . وشعر بارتياح كأنه السعادة ولكن شابه احساس قلق كأنه الحزن ، وقالت بدرية :

— تناول طعامك .

فنظر اليها بعينين مثقلتين حالمتين وقال :

— ستشهدين النصر قريباً يا قمر .

وانتبه الى هفوة اللسان اثر وقوعها ، ورأى تغير وجه بدرية ، فجلس

في فراشه الأرضي وقال في توادد وارتباك :

– ما أشهى طعامك .

لكنها نفرت من توادده متجهمة فتناول قطعة من الطعمية قائلاً :

– جاء دوري لأدعوك للطعام !

فلوت عنه وجهها وتمتمت :

– كانت طاعنة في السن ولا جمال لها !

فتقوضت قامته المنتصبة في كآبة كأنه تهـدم وقال في عتاب وحزن شديدين :

– لا تذكريها بسوء ، فمثلها لا ينبغي ان يذكر الا بالرحمة .

فارتد اليه رأسها متوثباً لكنها رأت على صفحة وجهه حزناً مخيفاً فترددت ، ثم لاذت بالصمت .

٨٧

رجع المغلوبون يركبهم الخزي . ابتعدوا مـا استطاعوا عن الانوار المنبعثة من بيت سوارس حيث يتألق الجو ببهجة الفرح والطرب ، وانحجز كل رجل في ربعه . وإذا بالانباء السود تنتشر كالحريق ، فتعالى الصوات في مساكن كثيرة وانطفأ العرس كأنمـا أهيل عليه التراب . انطلقت الحناجر تنعي سوارس ، ثم تنعي من قتل معه من رجاله . وامتد المصاب فشمل رجالاً من الرفاعية وآخرين من جبل ممن اشتركو في الزفـة . ومن المجرم المعتدي ؟ قاسم ، قاسم الغنام ، قاسم الذي كان ينبغي ان يظل متسولاً مدى عمره لولا قمر ! وشهد رجل بأنه تبع عصابة قاسم في عودتها حتى اهتدى الى ملجأها فوق المقطم . وتساءل كثيرون هل يعتصم بالجبل حتى يقضي على رجال الحارة ؟ واستيقظ النائمون وخرجوا

الى الحارة والأربع تتجاوب بالصوات . وصرخ أحد رحال جبل في غضب:
ـ اقتلوا الجرابيع .
لكن جلطة أوقفه صائحاً :
ـ لا ذنب لهم ، قتل فتوتهم ، وعدد وافر من رجالهم .
ـ احرقوا المقطم !
ـ هاتوا جثة قاسم لتأكلها الكلاب .
ـ علي الطلاق لأشربن من دمه .
ـ الجربوع اللئيم الجبان .
ـ يحسب ان الجبل سيحميه !
ـ لن يحميه الا القبر .
ـ كان يأخذ المليم من يدي ويبوس التراب .
ـ ويظهر بيننا بمظهر اللطيف الودود ثم يغدر بنا فيقتل الرجال .
وفي اليوم التالي بدت الحارة في مأتم شامل . وفي اليوم الثاني اجتمع الفتوات في بيت الناظر رفعت الذي ركبه الغضب والحنق حتى قال لهم في تهكم مر :
ـ لنحبس أنفسنا في حارتنا كي نأمن الموت .
وكان لهيطة أشدهم حرجاً لكنه أراد ان يهون من الخطب تخففا من مسئوليته فقال :
ـ ما هي الا معركة بين فتوة وبعض رجال حيه !
فقال جلطة معترضاً :
ـ قتل من حينا رجل وجرح ثلاثة .
وقال حجاج :
ـ وقتل منا رجل .
فقال رفعت بمكر مخاطباً لهيطة :
ـ اللطمة لاصقة بسمعتك يا فتوة الحارة !

فامتقع وجه الرجل غضباً وقال :
– راعي غنم ! والله لقد هزلت !
ولم يخف الناظر قلقه فقال :
– راعي غنم ! فليكن ، لكنه أصبح ذا خطر ، استخففنا بهذيانه زمناً وأغمضنا عنه العين اكراماً لزوجته فاستفحل شره ، وقد تمكن حتى تمكن فقضى على فتوته وأعوانه ، وهو الآن معتصم بالجبل ولن تقف أطماعه عند حد .
وتبادلوا النظرات في غضب فواصل الناظر حديثه قائلاً :
– وهو يلوح للناس باغراء . هذه هي مصيبة حارتنا ، لا ينبغي ان نتجاهل ذلك ، انه يعد الناس بالوقف ، ومع ان الوقف لا يكفي أصحابه الا ان احداً لا يصدق ذلك ، المتسولون لايصدقون ذلك وما اكثرهم ، حارتنا حارة المتسولين ! وهو يعد بالقضاء على الفتونة فيطرب لذلك الجبناء وما اكثرهم ، حارتنا حارة الجبناء ، وسيجدون اهلها دائماً مع الغالب ، ففي القعود هلاكنا .
فهتف لهيطة :
– حوله مجموعة من الفئران وما أيسر ابادتهم .
فتساءل حجاج :
– لكنهم يعتصمون بالجبل ؟ !
فقال جلطة :
– نراقب الجبل حتى نجد اليهم منفذاً .
فقال رفعت بتحريض :
– اعملوا ففي القعود كما قلت هلاكنا .
واشتد الغضب بلهيطة فقال للناظر بلهجة ذات مغزى :
– أتذكر يا سيدي انني دبرت قتله في حياة زوجته فعارضت الهانم ؟
فحول الناظر عينيه عن الأعين المحدقة وقال في شبه اعتذار :

ـ لن يجدينا تذكر الأخطاء .
ثم مردفاً بعد هنيهة صمت :
ـ وهذه العلاقات تراعى في حارتنا منذ القدم !
وتعالت ضجة في الخارج غـير مألوفة كأنما تنذر بشر مستجد ، وكانت الأعصاب متوترة فنادى الناظر البواب وسأله عما هنالك فقال الرجل:
ـ يقولون إن الغنام انضم الى قاسم سائقاً معه جميع أغنام الحارة !
فوقف لهيطة ثائراً وهو يصيح :
ـ الكلب .. حارة كلاب ، الويل له !
وتساءل الناظر :
ـ من أي حي هذا الغنام ؟
فقال البواب :
ـ من حي الجرابيع ، ويدعى زقلة .

٨٨

ـ أهلاً بك يا زقلة .
وعانقه قاسم فقال الغنام بحماس :
ـ لم أكن ضدك قط ، وكان قلبي معك دائمـاً ، ولولا الخوف لكنت بين أوائل المنضمين اليك ، وما ان سمعت بمقتل سوارس أجحمه الله حتى سارعت اليك سائقاً أمامي أغنام أعدائك !
وألقى قاسم نظرة على مجمع الأغنام في الساحة بين الأكواخ حيث التف حولها النساء وارتفع ضوضاء الحبور ، ثم ضحك قائلاً :
ـ هي حلال لنا لقاء ما نهبوا من أموالنا في الحارة .
وفي أثناء النهار أنضم الى قاسم افراد من الحارة بكثرة لم تعهد من

قبل فاشتدت العزائم ورسخت الآمال . لكن قاسم استيقظ في الصباح الباكر لليوم التالي على ضجة غريبة فغادر كوخه من فوره فرأى رجاله قادمين نحو كوخه في عجلة واضطراب ، وقال له صادق :

– جاءت الحارة للانتقام وهم مجتمعون أسفل الممر .

وقال خردة :

– كنت أول ذاهب للعمل فرأيتهم وأنا على مبعدة خطوات من الخلاء فرجعت مسرعاً ، وطاردني بعضهم فأصابوني بحجر في ظهري ، وجعلت انادي صادق وحسن حتى جاء جماعة من اخواننا الى رأس الممر فانتبهوا الى الخطر ورموا المهاجمين بالاحجار حتى تراجعوا .

ونظر قاسم نحو رأس الممر فرأى حسن وبعض الرجال واقفين عنده بأيد قابضة على الأحجار فقال :

– نستطيع ان نصدهم هناك بعشرة رجال .

فقال حمروش :

– ان الصعود على هذه الحال انتحار فليصعدوا اذا شاءوا .

وتجمع الرجال والنساء حول قاسم حتى خلت الأكواخ . جاء الرجال بالنبابيت والنساء بمقاطف طوب أعدت لذلك اليوم . وانطلق أول شعاع للشمس من سماء صافية . وتساءل قاسم :

– أما من مسلك آخر الى المدينة ؟

فقال صادق واجماً :

– يوجد مسلك في الجنوب على مسيرة ساعتين في الجبل .

وقال عجرمة :

– لا أظن ان لدينا من الماء ما يكفينا اكثر من يومين .

فسرت فيهم همهمة قلق وبخاصة النساء فقال قاسم :

– لقد جاءوا للانتقام لا للحصار ، واذا حاصرونا عمدنا الى المسلك الآخر لفك الحصار .

ومضى الرجل يفكر وهو يحافظ على هدوء وجهه الذي تتطلع اليه الأبصار . لو حاصروهم لوجدوا اكبر المشقة في احضار المياه من المسلك الجنوبي . ولو هجم برجاله عليهم فهـل يضمن الانتصار على رجال فيهم لهيطة وجلطة وحجاج ؟ وأي مصير يخبئه مغيب هذا اليوم لهم ؟ ورجع الى كوخه ثم عاد قابضاً على نبوته ثم سار الى حسن ورجاله عند رأس الممر ، فقال له حسن :

ـ لا يجرؤ أحد منهم على الاقتراب .

ودنا قاسم من حافة الجبل فرأى اعداءه متجمعين على هيئة هلال في الخلاء بعيداً عن مرمى الحجر . هاله عددهم لكنه لم يستطع ان يميز الفتوات بينهم . ومد بصره خلال الفضاء حتى استقر على البيت الكبير ، بيت الجبلاوي ، الغارق في صمته كأنه لا يبالي بصراع الأبناء من أجله . ما أحوجهم الى قوته الخارقة التي دانت لها هذه البقاع في الزمن الخالي. ولعل القلق لم يكن ليساوره لولا ذكرى مصرع رفاعة على كثب من بيت جده . ووجد دافعاً من أعماقه يدعوه الى ان يصيح بأعلى صوته قائلاً : « يا جبلاوي » كما يفعل أهل حارته في أحوال شتى ، لكن لفت سمعه أصوات النساء المقتربة فاستدار ناظراً حوله فرأى الرجـال منتشرين على حافة الجبل ينظرون الى اعدائهم ، والنساء متجهات الى المواقع نفسها فصاح بهن ان يرجعن ، وشدد في الصياح لدى ترددهن ، وأمرهن بأن يعددن الطعام وان يزاولن مألوف الأعمال ، وما زال بهن حتى صدعن بأمره . فاقترب منه صادق قائلاً :

ـ أحسنت ، فان أخوف ما أخاف علينا تأثير اسم لهيطة .

فقال حسن :

ـ ليس امامنا الا ان نضرب !

ولوح بنبوته مردفاً :

ـ سيتعذر علينا التجوال سعياً وراء ارزاقنا بعد ان عرفوا مكمننا ،

فليس أمامنا الا ان نهجم .

فأدار قاسم رأسه مادآ البصر نحو البيت الكبير وقال :

- بالصواب نطقت ، ما قولك يا صادق ؟

- ننتظر حتى مجيء الليل .

فقال حسن :

- سيضر بنا الانتظار ، ولن ينفعنا الليل في عراك .

وتساءل قاسم :

- ترى ما هي خطتهم ؟

فقال صادق :

- ان يجبرونا على النزول اليهم .

وتفكر قاسم ملياً ثم قال :

- اذا قتل لهيطة ضمنّا النصر .

وردد عينيه بين الرجلين ثم أردف :

- اذا سقط تقاتل جلطة وحجاج على الفتونة .

ومضت الشمس في الارتفاع فتوهـج الحصا وانتشرت نذر الحر .

وتساءل حسن :

- خبّراني ما العمل ؟

فبدا تساؤله كالحصار ولكن لم يطل بأحد التردد ، فقد انطلق صراخ امرأة من ناحية الساحـة ، وتلته على الفور صرخات ، وتميز الصوت وهو يصيح :

- هوجمنا من الناحية الأخرى !

وارتد الرجال عن الحافة فانطلقوا نحو الساحة فيما يـلي الجنوب . أوصى قاسم المدافعين عن الممر بمزيد من الانتباه . أمر خردة ان يدعو النساء القادرات الى الانضمام الى المدافعين عن الممر . جرى بين صادق وحسن نحو الساحة حتى توسط رجاله . لاح للجميع لهيطة وهو يقود

عصابة كبيرة من الرجال قادمين من جنوب الجبل . قال قاسم بحنق :

– شاغلنا برجاله حتى يقوم برحلته حول الجبل ثم يجيئنا من مسلك الجنوب .

فصاح حسن وجسمه العملاق ينتفخ بالتوثب :

– جاء بقدميه الى موته !

فقال قاسم :

– يجب ان ننتصر وسننتصر .

وامتد رجاله من حوله كذراعين قويتين . ومضى القادمون يقتربون ، بنبابيت مرفوعة ، كأنهم دغل من الأشواك . ودخلوا في مجال الأبصار فقال صادق :

– ليس فيهم جلطة ولا حجاج !

وأدرك قاسم ان جلطة وحجاج على رأس المحاصرين أسفل الجبل ، وحدس انهما سيهاجمان الممر مهما كلفهم ذلك من مشقة ، لكنه لم يفض بوساوسه الى أحد . وتقدم خطوات وهو يلوح بنبوته فشدّ الرجال على نبابيتهم . وجاء الصوت الغليظ ، صوت لهيطة وهو يصيح :

– لن تدفنوا في قبر يا أولاد الزواني .

واندفع قاسم مهاجماً فاندفع حوله الرجال ، وأقبل الآخرون كالصخور المتقذفـــة حتى اصطكت النبابيت واختلطت الزمجرة وارتفع الزئير . وفي ذات الوقت انهال الطوب من المدافعات عن رأس الممر على هجوم من أسفل الجبل بدأ . لكن كل رجل من رجال قاسم مع آخر من العدو اشتبك . تضارب قاسم ودنجل بعنف ومكر . وهوى نبوت لهيطة على ترقوة حمروش فانكسر . والتحم صادق وزينهم في هجمات متتابعـــة . ودك حسن بنبوته الغضبان فسكت . وضرب لهيطة زقلة في رقبته فانقلب، وتمكن قاسم من اصابة دنجل في اذنه فصرخ وتراجع ثم اندلق . وحمل زينهم على صادق حملة شديدة لكن هذا بادره بطعنة في بطنه فخذلته

يداه فثنى بطعنة أخرى فجندله . وتغلب خردة على الحفناوي ولكن لهيطة شلّ ذراعه قبل ان يهنأ بنصرته . ووجه حسن ضربة الى لهيطة لكنه زاغ عنها برشاقة ورفع نبوته ليهوى به على الشاب غير أن قاسم عاجله بضربة تلقاها بنبوته ، وجاء ابو فصاده كالريح ليقذفه بالضربة الثالثة لكن لهيطة نطحه برأسه في أنفه فحطمه . بدا لهيطة كأنه قوة لا تغلب . واشتد القتال . تلاطمت النبابيت بلا هوادة . واندفعت سيول الشتائم واللعنات . وانبثقت الدماء تحت أشعّة الشمس المحرقة . وتوالت الاصابات فخر الرجال تباعاً من الفريقين . واحترق لهيطة غضباً للمقاومة المستبسلة التي لم يتوقعها فتضاعفت هجماته وضرباته وقسوته . ومن الناحية الأخرى أمر قاسم حسن وعجرمة بأن يتحينا الفرصة للهجوم معه على لهيطة حتى يهدموا الحصن الذي يلوذ به المهاجمون . واذا بأمرأة من المدافعات عن الممر تجيء وهي تصرخ محذرة :

— انهم يصعدون تحت ألواح العجين !

ففزعت قلوب رجال الجبل ، وصاح لهيطة :

— لن تدفنوا في قبر يا أولاد الزواني .

فصاح قاسم في رجاله :

— انتصروا قبل ان يصعد المجرمون .

واندفع نحو لهيطة بجناحين من حسن وعجرمة ، فاستقبله الفتوة بضربة شديدة تلقاها بنبوته ، وأراد عجرمة ان يعاجله بضربة ولكن العفش اصاب ذقنه فانبطح على وجهه . ووثب حسن أمامه وهما يتبادلا ضربتين ، ورمى حسن بنفسه عليه فالتحما في صراع مميت . وارتفع صراخ النساء عند رأس الممر وأخذ بعضهن يلذن بالفرار ، وتحرج الموقف . وسارع قاسم بارسال صادق وبضعة رجال الى حافة الجبل ، ثم انقض على لهيطة لكن اعترضه زحلفة فاشتبكا في قتال عنيف . ودفع حسن لهيطة بكل قوته فتراجع خطوة ، فبصق على عينه وهو يهدر ، ثم ركله

فأصاب ركبته ، وبسرعة خاطفة هجم عليه متقوساً فنطح بطنه كأنه ثور غاضب فاختل توازن الجبار ووقع على ظهره فبرك الآخر فوقه وأطبق بنبوته على رقبته بكلتا يديه وضغط بكل قواه . وأقبل رجال للدفاع عن فتوتهم فتصدى لهم قاسم وبعض رجاله . واصطكت قدما لهيطة ، وجحظت عيناه ، واحتقن بالدم وجهه ، واخذ يختنق . وبغتة وثب حسن واقفاً فوق غريمه الخائر القوة وهوى على رأسه بنبوته بضربة شرسة حانقة فتحطمت جمجمته وانتهى . وصرخ حسن بصوت كالرعد :

— لهيطة قتل ، فتوتكم قتل ، أنظروا الى جثته !

وأحدث موت لهيطة غير المتوقع أثراً عنيفاً ، فاشتدت عزائم ووهنت عزائم ، واندفع الأمل واليأس في قتال مرير . وانضم حسن الى قاسم في صراعه فلم تخب له ضربة . وشهد الميدان رجالاً تتوثب ثم تثب ، ونبابيت ترتفع ثم تنقض . وثار الغبار وانتشر ثم أطبق على المتعاركين كليل دموي . وقذفت الصدور بجيشات وصيحات ولعنات وصرخات متأوهة وزمجرات متوعدة . وبين كل آونة وأخرى يترنح رجل ثم يسقط ، او يتراجع ثم يفر ، وانتشر المنطرحون على الأرض والتمعت الدماء تحت أشعة الشمس . وانتحى قاسم جانباً فأرسل بصره نحو رأس الممر الذي أقلقه أمره فرأى صادق ورجاله يصبون الطوب بالمقاطف في توتر شديد دل على اقتراب الخطر المتصاعد . وسمع النساء . وبينهن زوجته ، وهن يصرخن كالمستغيثات . وشاهد بعض رجال صادق وهم يقبضون على النبابيت استعداداً للقاء المصريين على الصعود تحت وابل الطوب . قدر خطورة الأمر فمضى من فوره الى جثة لهيطة التي ابتعد عنها القتال لتقهقر رجال الحارة ، وراح يسحبها وراءه نحو رأس الممر . ونادى صادق فجاءه مسرعاً فتعاونا على حمل الجثة ، وسارا بها حتى أول الممر ، وقذفا بها معاً فتهاوت ثم تدحرجت حتى وقفت

تحت أرجل الصاعدين تحت الألواح . ووقع اضطراب واضح . وجلجل صوت حجاج وهو يصرخ في غضب ،

– اصعدوا ، تقدموا ، الويل للمجرمين !

فصاح قاسم متهكماً ، في ضبط نفس عجيب :

– تقدموا ، هذه جثة فتوتكم ، وورائي جثث رجالكم الآخرين ، تقدموا فنحن في انتظاركم !

وأشار الى الرجال والنساء فانهال الطوب كالمطر حتى توقفت طليعة المهاجمين وأخذوا في التراجع البطيء رغم دفع حجاج وجلطة لهم ، وترامت الى قاسم همهمة تحرش واحتجاج وتذمر فصاح قاسم :

– يا جلطة ، يا حجاج ، اقدما ولا تهربا !

فارتفع اليه صوت جلطة كأنه نبرة الكراهية وهو يصيح :

– انزلوا إن كنتم رجالا ! انزلوا يا نسوان يا أولاد العواهر !

وصاح حجاج وهو واقف وسط الموجة المرتدة من الرجال :

– لا عشت ان لم اشرب من دمك يا أقذر من رعى الغنم !

فتناول قاسم حجراً وقذف به بكل قوته . وتواصل انهيار الأحجار. واسرعت الموجة المرتدة حتى اوشكت ان تنقلب جرياً . واذا بحسن يجيء فيقول وهو يمسح عن جبهته دماً سائلاً :

– انتهى القتال ، وفر الاحياء منهم نحو الجنوب .

فهتف قاسم :

– ادع الرجال لنتبعهم !

لكن صادق قال له :

– ان الدم يسيل من اسنانك وذقنك !

فمسح فمه وذقنه براحته وبسطها فرآها حمراء قانية . وقـال حسن بأسف :

– قتل منا ثمانية ، وأصيب الأحياء بجروح بالغـة فلن يستطيعوا حراكاً .
ونظر إلى اسفل من خلال الاحجار المتهاوية فرأى اعداءه يركضون في نهاية الممر . فقال صادق :
– لو أتموا رحلتهم ما وجدوا مقاتلاً يصمد لهم .
ثم لثم ذقن قاسم الدامي واردف بامتنان :
– أنقذنا عقلك !
وأمر قاسم رجلين بالبقاء عند رأس الممر للحراسة ، وأرسل آخرين في اعقاب الهاربين لاستطلاع الأنباء ، ثم عاد بين صادق وحسن وهم ينقلون خطوات ثقالا في اعياء وكلال نحو الساحـة التي لم يبق فوق أديمها جثث القتلى . كانت مذبحة واي مذبحة . قتل من رجاله ثمانية ومن اعدائه عشرة غير لهيطة . ولم يسلم من رجاله الأحياء أحـد من كسر او جرح ،وقد آووا الى الاكواخ فأخذ النساء في تضميد جراحهم، على حين ضجت اكواخ الضحايا بالبكاء والصوات . وجاءت بدرية في لهف ودعتهم الى الكوخ لتغسل جروحهم ، ثم جاءت سكينـة حاملة احسان وهي تبكي بكاء صارخاً . وكانت الشمس تقذف بنيرانها من كبد السماء ، والحدآى والغربان تدور مدومة وهابطة في الفضاء ، والجو يفوح برائحة الدم والتراب . ولم تكف احسان عن البكـاء ولكن لم يعرها أحد التفاتاً ، وحتى حسن العملاق بدا وكأنه يترنـح . وتمتم صادق بصوت حزين :
– ليرحم الله قتلانا !
فقال قاسم :
– ليرحم الله القتلى والأحياء على السواء .
واخذت حسن صحوة ابتهاج طارئة فقال :
– سننتصر عما قريب فتودع حارتنا عهد الدم والارهاب .

فقال قاسم :

– سحقاً لعهد الارهاب والدم .

٨٩

لم تشهد الحارة كارثة كهذه من قبل . رجع الرجال صامتين ذاهلين ذابلين غاضّين الأبصار كأنما شُدّت جفونهم الى أديم الأرض . ووجدوا أنباء الهزيمة قد سبقتهم الى الحارة وان الربوع ترتج باللطم والعويل . وانتشر الخبر في الحارات والأزقة وباتت سمعة الحارة الرهيبة احدوثة تلوكها ألسنة التشفي . وتبين ان حي الجرابيع بأسره قد غادر الحــارة خوفاً من الانتقام فخلت الدور والدكاكين ، ولم يشكّ أحــد في انهم سينضمون حتماً الى ابن حيّهم المنتصر فيزداد بهم عدداً وقوة . وخيّم الحزن على الحارة المكللة بالحداد لكن انفاسه الحارّة قطرت حقداً ومقتاً ورغبة في الانتقام . واذا برجال من جبل يتساءلون عن فتونة الحارة ولمن تكون ، واذا بالسؤال نفسه يتردد على ألسنة في حي رفاعة ، فانتشر سوء الظن انتشار التراب في العاصفة . وعلم الناظر رفعت بما تهجس به الخواطر فدعا حجاج وجلطة الى مقابلته . وذهب الرجلان وحوله كل رجاله الأشداء حتى غصّ بهم بهو الناظر ، واحتــلّ كل فريق جناحاً من البهو ، فكأنه لم يعــد يأمن الاختلاط بجيرانه ، وقد ادرك الناظر مغزى ذلك فازداد غماً على غمّ ، وقال :

– تعلمون ان كارثة حلّت بنا ، لكننا لم نمت ، ولم يقض علينا ، ولم يزل في وسع سواعدنا ان تحقق لنا النصر على شرط ان نحافظ على وحدتنا ، والا فقولوا علينا السلام .

فقال رجل من جبل :

– ستكون الضربة الاخيرة لنا وما شدة الا وبعدها الفرج .

وقال حجاج :

– لولا اعتصامهم بالجبل لهلكوا عن آخرهم .
وقال ثالث :
– لاقاهم لهيطة بعد رحلة طويلة شاقة تبرك بعدها الجمال .
فقال الناظر بامتعاض :
– حدثوني عن وحدتكم ما شأنها ؟
فقال جلطة :
– نحن بفضل الله اخوان وسنظل كذلك .
– هذا قولك ، لكن مجيئكم بعددكم الوفير هذا ينم على الارتياب الذي يفرق بين قلوبكم !
فقال حجاج :
– بل دعت الى ذلك رغبة الجميع في الانتقام !
فوقف الناظر متوتر الأعصاب وقال مقلباً عينيه في الوجوه الكالحة :
– كونوا صريحين ، انكم تنظرون الى بعضكم بعين ، وتنظرون بالأخرى الى فتونة الحارة ، الى مكان لهيطة الخالي ، ولن تعرف الحارة الأمان ما دامت هذه الحال ، وأخشى ما أخشاه ان تتداخل النبابيت في الأمر فتهلكوا جميعاً ويأكلكم قاسم لقمة سائغة !
فارتفعت أصوات كثيرة تقول في نفس واحد :
– نعوذ بالله من ذلك .
فقال الناظر بصوت قوي واضح :
– لم يعد بالحارة الا حيًا جبل رفاعة ، فليكن عليها فتوتان ، ولا ضرورة للفتوة الواحد ، ولنتعاهد على ذلك ، ولنكن يداً واحدة على الخارجين .
وانقضت ثواني صمت رهيبة ثم رددت أصوات في فتور :
– نعم .. نعم .
وقال جلطة :

ـ سنرضى بذلك رغم اننا سادة الأحياء منذ القدم .

فقال حجاج محتجاً :

ـ ليكن القبول بلا منّ ، لا سادة هنا ولا خدم وبخاصة بعد ذهاب الجرابيع ، ومنذا ينكر ان رفاعة كان أنبل من عرفت حارتنا ؟

فهتف جلطة محتداً حانقاً :

ـ حجاج ! انا عارف قلبك .

وهمّ رفاعي بالكلام ولكن الناظر صرخ غاضباً :

ـ خبروني هل عزمتم على ان تكونوا رجالاً او لا ، ان أي نبأ يطير عن ضعفكم سيعقبه زحف الجرابيع من الجبل كالذئاب ، خبروني هل تستطيعون ان تقفوا صفاً واحداً او أرى لنفسي وجهة أخرى ؟

فصاح افراد من هنا ومن هناك :

ـ هُس ، عيب يا رجال ، حارتنا على وشك ان تفقد كل شيء .

وتطلعت اليه الوجوه في تسليم ، فقال :

ـ ما زلتم متفوقين في العدد والقوة ، ولكن لا تهاجموا الجبل مرة اخرى .

وارتسم التساؤل على الوجوه فاردف قائلاً :

ـ سنحبسهم فوق الجبل ، سنتربص لهم أمام المسلكين المفضيين للجبل ، فاما يموتون جوعاً وأما يضطرون الى النزول اليكم فتقضون عليهم.

فقال جلطة :

ـ نعم الرأي ، به أشرت على لهيطة رحمه الله ولكنه اعتدّ الحصار جبناً وأبى الا ان يهاجم .

وقال حجاج :

ـ هو الرأي ، ولكن ينبغي تأجيل تنفيذه حتّى يرتاح الرجال .

وطلب الناظر اليهم ان يتعاهدوا على الاخاء والتعاون ، فتصافحوا ورددوا الأقسام . وبدا لكل ذي عينين فيما تبع ذلك من أيام ان جلطة

وحجاج يشتدان في معاملة أتباعهما لتغطية آثار الهزيمة التي لحقتهما . وأذاعا في الحارة انه لولا حماقة لهيطة لقضي على قاسم بلا مشقة ، ولكن اصراره على صعود الجبل أنهك رجاله فذهب بقوتهم وشجاعتهم ، ولاقاهم عدوهم وهم على أسوأ حال . وصدق الناس ما قيل لهم ، ومن أبدى شيئاً من الارتياب سب ولعن وضرب . أما فتونة الحارة فلم يكن يسمح لأحد بالخوض فيها ، على الأقل في الجهر ، ولكن كثيرين — من الرفاعية والجبلية على السواء — جعلوا يتساءلون في الغرز عمن سيخلف لهيطة بعد النصر . وتولد في الحارة رغم التعاهد والأقسام جو خفي من الريبة ، فاحتاط كل فتوة لنفسه فلم يكن ينأى عن مركزه إلا وسط جماعة من أعوانه . لكن الاستعداد ليوم الانتقام لم يتوقف لحظة واحدة . واتفقوا فيما بينهم على ان يعسكر جلطة ورجاله أمام مسلك المقطم عند السوق ، وان يعسكر حجاج ورجاله امام مسلك القلعة . وسوف يلازمون اماكنهم ولو بقوا عمراً ، وستسرح النساء للبيع والشراء ويجئنهم بالطعام . وعند مساء اليوم السابق ليوم الخروج تجمعوا في شتى الغرز ، وجاءوا بقدور البوظة والنبيذ ، وراحوا يحششون ويسكرون حتى ساعة متأخرة من الليل . وودع الاعوان حجاج أمام ربعه بحي رفاعة وهو في نهاية من الانبساط والسلطنة . ودفع الباب ومضى في الدهليز وهو يدندن :

الأوله آه ..

لكنه لم يتمها . انقض عليه شبح من وراء ، فسد فاه بيد ، وطعن بسكين قلبه بالأخرى . انتفض الجسم بقوة بين يديه فلم يتركه ان يحدث سقوطه صوتاً . وأنامه برفق على الأرض لا حراك به في الظلام الدامس .

٩٠

استيقظت الحارة في باكر الصباح على ضجة صارخة مفزعة. فتحت النوافذ وأطلت الرءوس ، وسرعان ما اتجهت نحو الربع الذي يقيم فيه حجاج فتوة رفاعة ، حيث تجمهر جمع غفير واختلط اللغط بالصراخ والعويل. وامتلأ دهليز الربع بالرجال والنساء ، وكثر التساؤل والتعليق، وانذرت الأعين المحمرة بالبكاء بكل شر خطير . وهرع الى الربع الرفاعية من كل ربع ودار وجحر . وما لبث ان جاء جلطة ورجاله فأوسع الناس لهم حتى انتهوا الى الدهليز ، وصاح جلطة :

- مصيبة ولا كل المصائب ، ليتني كنت فداك يا حجاج .

كف الباكون عن البكاء والصارخون عن الصراخ والحانقون عن التساؤل ، لكنه لم يسمع كلمة مجاملة واحدة . فعاد يقول :

- مكيدة دنيئة ! ليس الغدر من شيم الفتوات ، لكن قاسم راعي غنم متسول لا فتوة ، ولن يهنأ لي بال حتى أرمي بجثته الى الكلاب .

وصاحت امرأة في حدة ملتاعة :

- مباركة عليك فتونة الحارة يا جلطة .

وتقلصت سحنته بالغضب فوجم القريبون منه وسرت الدمدمة فيما وراء ذلك ، وصاح بغلظة :

- فلتغلق النسوان افواههن في هذا اليوم الأغبر !

فعادت المرأة تقول :

- ليفهم كل ذي عقل !

وصوتت فهاج الصوات ، وانتظر جلطة حتى هدأت العاصفة وقال:

- مكيدة ماكرة دبرت بليل للايقاع بيننا .

فهتفت امرأة أخرى :

– مكيدة ! قاسم وجرابيعه في الجبل ، وحجاج قتل في حارته بين قومه وجيرانه الطامعين في الفتونة !

فصاح جلطة :

– مرة مجنونة ، ومجنون كل من يتقبل ظنها ، واذا تماديتم فسيقتل بعضنا بعضاً كما يفسد قاسم .

واذا بقلة تهوي فتتحطم عند قدمي جلطة فتراجع ورجاله وهو يقول:

– عرف ابن الزانية كيف يفسد بيننا .

ومضى من توه نحو بيت الناظر . واشتد اللغط عقب ذهابه . واذا برجلين – رفاعي وجبلي – يتشابكان في شجار عنيف ، وتبعتهما على الأثر امرأتان . وتضارب غلمان من الحيين . واستعرت معـارك قذف وسب من النوافذ . وشاع الاضطراب في الحارة حتى تجمهر في كل حي رجاله وارتفعت النبابيت . وخرج الناظر من بيته بين خدم ورجال فسار حتى توسط الحيين وصاح بأعلى صوته :

– اعقلوا .. الغضب سيعميكم عن عدوكم الحقيقي، قاتل المعلم حجاج !

فصاح أحد الرفاعية :

– من ادراك بذلك ؟ وأي جربوع يتجرأ على دخول الحارة ؟

فصاح رفعت :

– كيف يقتلون حجاج اليوم وهم في أشد الحاجة اليه ؟

– سل المجرمين ولا تسلنا نحن .

– الرفاعية لا يخضعون لفتوة من جبل !

– سيدفعون ثمن دمه غالياً .

فعاد الناظر يصيح :

– لا تطيعوا المكيدة وإلا رأيتم قاسم زاحفاً عليكم كالوباء .

– فليأت قاسم اذا شاء ، ولكن لن يكون جلطة فتوة علينا .

فقال الناظر وهو يضرب كفاً بكف :

ــ انتهينا وسيدركنا الخراب .

فتعالت الاصوات :

ــ الخراب خير من جلطة .

وقذفت طوبة من حي رفاعة فاستقرت بين الرجال في حي جبل . وأجاب حي جبل بالمثل . ورجع الناظر مسرعاً . واذا بالطوب ينهمر من الجانبين ، وسرعان ما اشتبك الحيّان في معركة دامية . واشتد الضرب في قسوة بالغة . وامتدت المعركة الى بعض الأسطح حيث تبادل نساء من الحيين قذف الطوب والحصا والتراب والأخشاب . وتواصل الاشتباك فترة طويلة رغم أن الرفاعية كانوا يقاتلون بغير فتوتهم ، ولكن كثر صرعاهم أمام ضربات جلطة التي لا تخيب . وإذا بأصوات نساء تنطلق من النوافذ في ضوضاء غير متميزة ضاعت في ضوضاء المعركة ، غير أن النساء بدون وهن يشرن بأيديهن في فزع تارة نحو طرف الحارة الشرقي وطوراً نحو الطرف الآخر . والتفت أناس الى حيث تشير النساء . رأوا قاسم أمام البيت الكبير ، يتقدم في عصبة من رجاله تسبقهم نبابيتهم . ورأوا في الطرف الآخر حسن يتقــدم في عصبة أخرى . ضج المكان بصيحات التحذير وتتابعت الأحداث في سرعة خاطفة . أمسكت الأيدي عن الضرب كأنما شلت . وبدافع عفوي تكتلوا وتداخلوا ، الضارب منهم والمضروب ، وانقسموا فرقتين لمواجهة القادمين . وصاح جلطة بحنق :

ــ قلت انها مكيدة فلم تصدقوا ..

استعدوا للقتال وهم من الجهد واليأس على أسوأ حال . لكن قاسم توقف فجأة عن التقدم ، ومثله فعل حسن كأنهما ينفذان خطة واحدة . وصاح قاسم بأعلى صوته :

ــ لا نريد أذى لأحد ، لا غالب ولا مغلوب ، أبناء حارة واحدة وجدّ واحد ، والوقف للجميع .

فصاح جلطة :

– مكيدة جديدة !

فقال قاسم غاضباً :

– لا تدفعهم الى القتال دفاعاً عن فتونتك ، دافع عنهـا وحدك اذا شئت ..

وصرخ جلطة :

– اهجموا ..

وانقض على مجموعة قاسم . تبعه رجال . وانقض آخرون على حسن ورجاله . تردد كثيرون . تسلل الجرحى الى الربوع ، وكذلك المنهكون ، ثم تبعهم المترددون . لم يبق الا جلطة وعصابته . لكنهم خاضوا معركة شديدة رغم ذلك واستماتوا في الدفـاع . تضاربوا بالنبابيت والرءوس والاقدام والأيدي . وركز جلطة هجومه على قاسم بحقد أعمى . تبادلا ضربات عنيفة ، ثم مضى قاسم يتلقى ضربات خصمه بنبوته في خفـة وحذر . لكن رجال قاسم أطبقوا بكثرتهم على عصابة جلطة حتى غابت تحت عشرات النبابيت . وانقض حسن وصادق على جلطة وهو مشتبك مع قاسم ، فضرب صادق نبوته وهوى حسن بنبوته على رأسه ، مرة وثانية وثالثة ، فسقط النبوت من يده واندفع يجري كالثور الذبيح ثم انكب على وجهه كمصراع بوابة . انتهت المعركة . سكتت أصوات النبابيت وصرخات الرجال . وقف المنتصرون وهم يلهثون ويمسحون الدماء عن الوجوه والرءوس والمعاصم لكن ثغورهم افترت رغم ذلك عن ابتسامة الفوز والسلام . كان العويل يترامى من النوافذ ، ورجال جلطة مبعثرين على الأرض ، والشمس ساطعـة ترسل أشعة حامية . وخاطب صادق قاسم قائلاً في ثقة وطمأنينة :

– انتصرت ، نصرك الله ، ان جدنا لا يخطىء في اختياره ، ولن تسمع حارتنا للعويل بعد اليوم .

فابتسم قاسم ابتسامة هادئة ، ثم استدار في عزم موجهاً بصره نحو بيت الناظر فاتجهت الرءوس اليه ..

٩١

سار قاسم على رأس رجاله الى بيت الناظر فوجدوا الباب والنوافذ مغلقة ، والصمت والكآبة يخيمان عليه . وطرق حسن الباب بقوة ولكن أحداً لم يرد . وتجمّع نفر من الرجال وراحوا يدفعون الباب بشدة حتى انفتح على مصراعيه . ودخل الرجل ، ورجاله وراءه . فلم يعثروا للبواب على أثر ولا لأحد من الخدم . وتسارعوا الى البهو ، ببقية الحجرات ، ثم الادوار الثلاثة ، فتبين لهم أن الناظر وأهله وخدمه قد غادروا البيت هاربين . والحق أن قاسم لم يأسف على ذلك اذ كان في أعماقه راغباً عن الفتك بالناظر اكراماً لزوجته التي لولاها لقضي عليه من أول الأمر ، ولكن حسن والآخرين غضبوا غضباً شديداً لنجاة الرجل الذي أذاق الحارة الفقر والهوان طوال عهده بها . وهكذا تم النصر لقاسم وأصبح رجل الحارة دون منازع . وتولى شئون النظارة اذ انه كان لا بد للوقف من ناظر . وعاد الجرابيع الى حيّهم ، وعاد معهم كل ما هاجر من الحارة خوفاً من الفتوات وعلى رأسهم المعلم يحيي . ومضت أربعون يوماً في هدوء فالتأمت الجراح وسكنت النفوس واطمأنت القلوب . ويوماً وقف قاسم امام البيت الكبير ودعا اليه أهل الحارة رجالاً ونساء من جميع الأحياء فمضوا اليه في لهفة وتطلع وقلوبهم تخفق بشتى الخواطر . واكتظ بهم المكان واختلط جرابيعهم بآل جبل وآل رفاعة . وبدا قاسم باسماً متواضعاً رقيقاً مهيباً معاً فأشار الى أعلى ، الى البيت الكبير وقال :

— هنا يقيم الجبلاوي ، جدنا جميعاً ، لا تمييز في الانتساب اليه بين

حي وحي ، أو فرد وفرد ، أو رجل وامرأة .

تهللت الوجوه في دهشة وبشر وبخاصة وجوه الذين توقعوا أن يسمعوا مقالة رجل ملك وانتصر .

وأردف قاسم قائلاً :

– وحولكم وقفه ، وسيكون لكم جميعاً على السواء كما وعد أدهم حين قال له : « سيكون الوقف لذريتك » ، وعلينا أن نحسن استغلاله حتى يكفي الجميع ويفيض ، فنحيا كما تمنى أدهم أن يحيا ، في رزق موفور وطمأنينة شاملة وسعادة صافية غناء .

وتبادل الناس النظرات كأنهم في حلم فواصل كلامه قائلاً :

– ذهب الناظر الى غير رجعة ، واختفى الفتوات ، لن يوجد في حارتنا بعد اليوم فتوة ، لن تؤدوا أتاوة لجبّار ، أو تخضعوا لعربيد متوحش ، فتمضي حياتكم في سلام ورحمة ومحبة .

وقلب عينيه في الوجوه المستبشرة وقال :

– وبيدكم أنتم الا يعود الحال كما كان ، راقبوا ناظركم فإذا خان اعزلوه ، واذا نزع أحدكم الى القوة اضربوه ، واذا ادعى فرد أو حي سيادة أدبوه ، بهذا وحده تضمنون ألا ينقلب الحال الى ما كان ، وربنا معكم .

في ذلك اليوم تعزى قوم عن موتاهم ، وآخرون عن هزيمتهم ، ونظر الجميع الى الغد كأنما ينظرون الى بزوغ البدر في ليلة من ليالي الربيع . ووزع قاسم الريع على الجميع بالعدل بعد الاحتفاظ بقدر للتجديد والانشاء . أجل كان نصيب الفرد ضئيلاً ولكن إحساسه بالعدل والكرامة فاق كل حد . ومضى عهده في تجديد وبناء وسلام . ولم تنعم حارتنا قبله بمثل ما نعمت به في أيامه من الوحدة والألفة والسعادة . أجل كان ثمة آحاد في آل جبل يضمرون غير ما يظهرون ويتهامسون فيما بينهم : « أنكون من جبل ويحكمنا جربوع من الجرابيع ؟ » ومثلهم وجد في

آل رفاعة . بل لم يخل الجرابيع من تفر أخذتهم العزة والزهو . ولكن صوتاً لم يرتفع لتعكير الصفو في عهده . ورأى الجرابيع فيه طرازاً من الرجل لم يوجد مثله من قبل ولن يوجد مثله من بعد . جمع بين القوة والرقة ، والحكمة والبساطة ، والمهابة والمحبة ، والسيادة والتواضع ، والنظارة والأمانة ، والى ذلك كله كان ظريفاً بشوشاً أنيقاً ، وعشيراً تطيب مودته ، فضلاً عن ذوقه الجميل وحبه الغناء والنكتة . لم يتغير من شأنه شيء اللهم الا أنه توسع في حياته الزوجية كأنما جرى فيها مجراه في تجديد الوقف وتنميته . فعلى حبه بدرية تزوج حسناء من آل جبل وأخرى من آل رفاعة ، وتعشق امرأة من الجرابيع ثم تزوج منها ايضاً . وقال أناس في ذلك انه يبحث عن شيء افتقده مذ فقد زوجته الأولى قمر . وقال عمه زكريا انه يريد ان يوثق اسبابه بأحياء الحارة جميعاً . لكن حارتنا لم تكن بحاجة الى تفسير أو تعليل لما حدث ، بل الحق انها اذا كانت أعجبت به لأخلاقه مرة فقد اعجبت به لحيويته مرات . وان حب النسوان في حارتنا مقدرة يتيه بها الرجال ويزدهون ومنزلة تعدل في درجتها الفتونة في زمانها أو تزيد .

ومهما يكن من أمر فان حارتنا لم تشعر قبله بالسيادة حقاً ، وبأن أمرها قد آل الى نفسها دون ناظر يستغل أو فتوة يستذل ؛ ولا عرفت قبله ما عرفت أيامه من الاخاء والمودة والسلام .

وقال كثيرون انه اذا كانت آفة حارتنا النسيان فقد آن لها أن تبرأ من هذه الآفة ، وانها ستبرأ منها الى الأبد .

هكذا قالوا ..

هكذا قالوا يا حارتنا .!

عرفة



٩٢

المتأمل لحال حارتنا لا يصدق مـــا تقول الرباب في القهوات . من جبل ومن رفاعة ومن قاسم ؟ ! وأين الآثار التي تدل عليهـــم خارج نطاق القهوات ؟ أما العين فلا ترى إلا حارة غارقة في الظلمات وربابا تتغنى بالأحلام . وكيف آل بنا الأمر الى هـــذه الحال ؟ أين قاسم والحارة الواحدة والوقف المبذول لخير الجميع ؟ وماذا جاء بهذا الناظر الجشع وهؤلاء الفتوات المجانين ؟ ستسمع حول الجوزة الدائرة في الغرز ، بـــين الحسرات والضحكات ، أن صادق خلف قاسم على النظارة فسار سيرته . وأن قوماً رأوا ان حسن أحق منه بالنظارة لقرابتـــه من قاسم ولأنه الرجل الذي قتل الفتوات . وأنهم حرضوا حسن على رفـــع نبوته الذي لا يقاوم فأبى ان يعود بالحارة الى عهـــد الفتونة . لكن الحارة كانت قد أنقسمت على نفسها ، ومضى أناس في آل جبل وآل رفاعة يجاهرون بما كانوا يضمرون . ولما رحل صادق عن الدنيا أسفرت الرغبات المكبوتة عن وجهها الشائه ونظراتها العدوانية . واستيقظت النبابيت بعـــد رقاد ، وسال الدم في كل حي على حدة ، وبين كل حي وآخر ، حتى قتل الناظر نفسه في إحدى المعارك . وافلت الزمام ووئـــد الأمن والسلام فلم يجد الناس بداً من إعادة آخر ذرية الناظر رفعت الى النظارة التي يتقاتل الطامعون عليها . هكذا عاد الناظر قدري الى النظارة . وانقلبت

الأحياء الى عصبيتها القديمة ، وإذا كل حي يسيطر عليـه فتوة ، ثم دارت المعارك على فتونة الحارة حتى فاز بهـا سعد الله ، فاحتل بيت الفتوة وصار الناظر الأول ، واستأثر يوسف بآل جبل ، وعجاج بآل رفاعة ، والسنطوري بآل قاسم . ووزع الناظر الريع بالأمانة أول الأمر فاستمرت حركة التعمير والتجديد . وسرعان ما لعب الطمع بقلب الناظر ، والفتوات من بعده كما كان المتوقع ، فارتدوا الى النظام القديم ، أي ان الناظر يستأثر بنصف الريع ويوزع نصفه الآخر على الفتوات الأربعة الذين استأثروا به من دون المستحقين ، ولم يقفوا عند ذلك بل جاوزوه بكل وقاحة الى فرض الاتاوات على اتباعهم المساكين . وتعطلت حركة الانشاء حتى توقف البناء في بيوت لم يشيد منها الا نصفها او ربعها . وبدا وكأن شيئاً من القديم لم يتغير الا ان حي الجرابيع أصبح حي آل قاسم ، برأسه فتوة كالفتوات الآخرين ، وتقوم على جانبيه الربوع مكان الاكواخ والخرائب . أما أهل الحارة فانقلبوا الى ما كانوا عليه في الزمان الأسود ، بلا كرامة ولا سيادة ، تنهكهم الفاقة وتتهددهم النبابيت وتنهال عليهم الصفعات . وانتشرت القذارة والذباب والقمل ، وكثر المتسولون والمشعوذون وذوو العاهات . ولم يعد جبل ورفاعة وقاسم الا اسمـاء ، واغاني ينشدها شعراء المقاهي المسطولون . وتباهى كل فريق برجله الذي لم يبق منه شيء وتنافسوا في ذلك الى حـد الشجار والعراك . وذاعت شعارات المساطيل ، فيقول أحدهم وهو داخل الى الغرزة : « ما فيهـا فائدة » يعني الدنيا لا الغرزة . ويقول آخر : « هناك نهاية واحدة هي الموت ، فلنمت بيد الله خير من ان نموت بنبوت فتوة ، وأحسن مـا نفعل سكرة او تحشيشة ! » . وكانوا يتغنون بمواويل حزينة ، ينسجونها من خيوط الخيبـة والفقر والذل ، او يترنمون بأغنيات فاحشة داعرة يقذفونها في آذان النساء والرجـال الباحثين عن السلوى والعزاء ولو في خرابة مظلمة . وعندما يشتد الكرب بأحدهم يقول : « المكتوب مكتوب ،

لا جبل أجدى ولا رفاعة ولا قاسم ، حظنا من الدنيا الذباب ومن الآخرة التراب » . ومن عجب ان تبقى حارتنا بعـد ذلك كله الأثيرة بين الحواري ، يشير اليها الرجل من جيراننا ويقول في اكبار : « حـارة الجبلاوي » ، ونقبع في أركانها ساهمين واجمين كأننا بتنا قانعين بالذكريات العزيزة الماضية ، او اننا نجتر الاصغاء الى هاتف في أعماقنا يهمس بصوت خافت : « ليس من المستحيل ان يقع في الغد ما وقع بالأمس ، فتتحقق مرة أخرى أحلام الرباب وتختفي من دنيانا الظلمات » .

٩٣

في يوم من الأيام ، قبيل العصر ، رأت الحارة فتى غريباً قادماً من ناحية الخلاء ، يتبعه آخر كالقزم . كان يرتدي جلباباً ترابـي اللون على اللحم ، ويشد على وسطه حزاماً شطر جلبابه شطرين انداح اعلاهما وتدلى وامتلأ بأشياء فيه ، وانتعل مركوباً باهتاً متهتكاً ، أما رأسه فبدا عارياً مشعث الشعر غزيره . وكان أسمر اللون ، مستدير العينين ، حاد البصر ، تلوح في محجريه نظرة قلقة نافذة ، وفي حركاته ثقة واعتداد . وقف قليلاً أمام البيت الكبير ثم تقدم على مهل يتبعه صاحبه . وتطلعت نحوه الأبصار وكأنما تتساءل : « غريب في حارتنا ! يا للوقاحة ! » قرأ ذلك في أعين الباعة وأصحاب الدكاكين والجالسين في القهوات والمطلات من النوافذ ، بل في أعين الكلاب والقطط ، حتى خيل اليه ان الذباب نفسه سيتجنبه ازدراء واحتجاجاً . والتفت نحوه الغلمان في تحرش ، واقترب بعضهم منه ، وأخذ الآخرون يملأون النبال او يبحثون في الأرض عن طوبة ، فابتسم لهم متودداً ، ودس يده في عبه فأخرج شوية نعناع وراح يوزعه عليهم فأقبلوا نحوه فرحين ، ومضوا يمصون النعناع وهم

يرمقونه باعجاب . وقال لهم والابتسامة لا تفارق وجهه :

ـ أما من بدروم خال للايجار ؟ هيا يا رجال ، من يدلني منكم عليه فله قرطاس نعناع .

وسألته امرأة كانت مقتعدة الأرض امام أحد الربوع :

ـ يا ألف مصيبة عليك ، من أنت حتى تسكن في حارتنا ؟

فضحك الرجل وقال :

ـ محسوبك عرفة ، من أولاد حارتكم كالآخرين ، وهو عائد بعد غيبة طويلة .

فدققت المرأة فيه النظرات وتساءلت :

ـ ابن من يا روح أمك ؟

فبالغ في الضحك تودداً وقال :

ـ خالدة الذكر جحشة ، ألا تعرفينها يا ست النساء ؟

ـ جحشة ؟ بنين زين ؟ !

ـ بعينها ولحمها .

وقالت المرأة مستندة الى جدار ، كانت تتابــع الحديث وهي تفلي رأس غلام :

ـ كنت تتبع أمك في تلك الأيام وأنت غلام ، ما زلت أذكرك ، وتغير كل شيء فيك إلا عينيك .

فقالت المرأة الأولى :

ـ أي والله ، وأين أمك ؟ ماتت ! الله يرحمها ، ياما قعدتُ قدام مقطفها سائلة عن الغيب ، أوشوش الدكر وترمي هي بالودع وتتكلم ، الله يرحمك يا جحشت !

فقال بارتياح :

ـ الله يطول عمرك ، ستدليني أنت على بدورم خال بإذن الله .

فحدجته المرأة بنظر أعمش وسألته :

– وماذا عاد بك بعد الغيبة الطويلة ؟
فقال محاكياً لهجة الحكماء :
– مسير الحي الى حارته وأهله .
فأشارت المرأة الى ربع في حي رفاعه وقالت :
– عندك هناك بدروم ، خلا مذ ماتت ساكنته حرقاً الله يرحمها ، ألا يخيفك ذلك ؟
فضحكت امرأة مطلة من نافذة وقالت :
– هذا رجل تخاف منه العفاريت .
فرفع رأسه متظاهراً بالضحك والانبساط وقال :
– يا حارتنا يا حلوة ، ما أرق ظرف أهلك ، الآن أعرف لماذا نصحتني أمي عند الوفاة بالعودة اليك !
ثم نظر الى المرأة القاعدة وقال :
– الموت حق علينا يا زبونة المرحومة أمي ، سواء جاء من حرق او غرق او عفريت او نبوت .
وحياها ومضى نحو الربع الذي أشارت اليه . وأصبح محط أنظار كثيرين فقال رجل ساخراً :
– عرفنا أمه فمنذا يعرف أباه ؟
فقالت عجوز :
– ربنا أمر بالستر !
فقال ثالث :
– يمكنه ان يدعي انه إبن رجل من جبل او رفاعة او قاسم ، كما يشاء او تشاء مصلحته ، الله يرحم امه !
فهمس صاحبه في أذنه ساخطاً :
– لماذا عدت بنا الى هذه الحارة ؟
فقال عرفة والابتسامة ما زالت في شفتيه :

— في كل مكان أسمع هذا الكلام ، وهذه حارتنا على أي حال ، وهي الحارة الوحيدة التي يمكننا الاقامة بها ، حسبنا تخبطاً في الأسواق ونوماً في الخلاء والخرابات ، ثم ان هؤلاء الناس طيبون رغم قذارة ألسنتهم ، أغبياء رغم نبابيتهم ، فهنا يسهل علينا كسب رزقنا ، تذكر هذا يا حنش !

فهز حنش منكبيه الضيقين كأنما يقول : « الأمر لله » . واعترضهما رجل مسطول فسأل عرفة :

— ماذا نسميك ؟

— عرفة .

— ولقبك ؟

— عرفة ابن جحشة !

فضج الواقفون بالضحك مسرورين بهوانه ، فعاد المسطول يقول :

— طالما ساءلنا أنفسنا في ذلك الزمان حينما حملت أمك ترى من يكون أبوه ؟ فهل خبرتك بالحقيقة ؟

فقال عرفة مدارياً ألمه بمزيد من الضحك :

— ماتت هي نفسها قبل ان تعرفه !

ومضى وهم يضحكون . وسرى نبأ عودته في الأحياء . وقبل ان يتسلم البدروم جاء صبي قهوة الرفاعية وقال له :

— المعلم عجاج فتوة حينا يطلبك .

ذهب الى القهوة على مبعدة قريبة من الربع . لفت نظره أول ما اقترب منها الصورة المنقوشة على الجدار الأوسط فوق أريكة الشاعر . كانت تبدأ من أسفل بصورة لعجاج ممتطياً جواده ، وفوقها صورة للناظر قدري بشاربه الضخم وعباءته الأنيقة ، ثم فوقها صورة لجثة رفاعة بين يدي الجبلاوي وهو يرفعها من الحفرة ليأخذها الى بيته . تأمل ذلك المنظر باهتمام ولكن بسرعة ، ثم دخل القهوة فرأى عجاج

يجلس على أريكة تتوســط الجناح الأيمن ، ومن حوله يجلس الاتباع والأعوان .

مضى عرفة اليه حتى مثل بين يديه فرمقه الفتوة بنظرة ازدراء طويلة كأنما ينومه بعينيه قبل ان ينقض عليه . وقال عرفة رافعاً يديه الى رأسه :

— التحيات المباركات على فتوتنا ، من نحتمي بجاهه ونسعد بجواره .

فلاحت السخرية في العينين الضيقتين وقال :

— كلام حلو يا ابن القديمة ولكنه عملة لا نعترف بها وحدها !

فقال عرفة باسماً :

— ستجيء العملة الأخرى في أقرب وقت ان شاء المولى .

— عندنا متسولون اكثر من الحاجة !

فقال عرفة بكبرياء ضاحك :

— لست متسولاً يا معلم ولكني ساحر اعترفت بفضله الملايين !

وتبادل الجلاس النظرات فقطب عجاج متسائلاً :

— ماذا تعني يا ابن المجنونة ؟

فدس عرفة يده في عبه وأخرج حقاً صغيراً دقيقاً في حجم النبقة وتقدم في خضوع من المعلم ومد به يده فتناوله المعلم بعدم اكتراث ، وفتحه ، فرأى مادة قاتمة ، رفع اليه عينيه متسائلاً فقال عرفة في ثقة لا حد لها :

— قمحة منه على فنجال شاي قبل « لامؤاخذة » بساعتين ، وبعدها فاما ترضى عن محسوبك عرفة واما تطرده من الحارة مشفوعاً باللعنات .

اشرأبت الأعناق باهتمام شديد لأول مرة ، وحتى عجاج لم يستطع ان يخفي اهتمامه ، لكنه تساءل في استهانة مصطنعة :

— أهذا هو سحرك ؟

— عندي أيضاً البخور النادر ، الوصفات العجيبة ، الطب والدواء ، الأحجبة ، ويعرف قدري حقاً عند المرض والعقم والضعف .

فقال عجاج فيما يشبه الوعيد :
— الله .. الله .. فلنبشر بالاتاوات !
فانقبض قلب عرفة لكن وجهه زاد انبساطاً وهو يقول :
— كل ما املك تحت أمرك يا معلم .
فضحك الفتوة بغتة وقال :
— لكنك لم تخبرنا من أبوك !
فقال دون ان يزايله المرح ·
— لعلك به اعلم !
وضجت القهوة بالضحك . وتلاقت التعليقات الساخرة في شراريب الدخان السابحة في الجو . ولما ابتعد عرفة عن القهوة قال لنفسه حانقاً : « من يدري من يكون ابوه حقاً ، ولا أنت يا عجاج ، آه يا اولاد الكلب ! » . وتفقد هو وحنش البدروم في ارتياح ، ومضى يقول :
— اوسع مما كنت اتوقع ، مناسب جداً يا حنش ، فهذه الحجرة صالحة للمقابلات ، والتي بالداخل للنوم ، والأخيرة للعمل .
فسأله حنش بقلق :
— ترى في أي حجرة احترقت المرأة ؟
فضحك عرفة ضحكة عالية رنت بين الجدران الخالية وقال :
— أتخاف من العفاريت يا حنش ؟ اننا نتعامل معهم كما كان يتعامل جبل مع الثعابين .
ونظر فيما حوله بارتياح وقال :
— ليس عندنا إلا نافذة واحدة في الحجرة المطلة على الطريق ، سنرى الطريق من تحت من خلال النافذة ذات القضبان الحديدية ، فلهذه المقبرة ميزة جليلة وهي انها لا يمكن ان تسرق .
— قد تنهب !
— قد !

ثم وهو يتنهد :

– كل ما عندي فيه فوائد للناس ، لكني لم الق في حياتي الا الاساءة .

فقال حنش :

– سيعوضك النجاح عن كل ما نالك من أذى ، او ما نال المرحومة امك من قبل .

٩٤

في اوقات الفراغ كان يحلو له ان يجلس على كنبة قديمة ليتفرج على ما يجري من النافذة المطلة على ارض الحارة . جلس مسند الجبين الى قضبان النافذة فبدت الأرض على مستوى بصره بكل ما يدب عليها من اقدام وعجلات وكلاب وقطط وحشرات وأطفال ، اما الوجوه والصدور فلم يكن ليراها إلا بتخفيض قامته ورفع رأسه . ووقف امامه طفل عار وهو يلعب بفأر ميت ، ثم مر عجوز ضرير يحمل على يسراه صينية خشبية حملت لباً وفولاً وحلوى وذباباً ويتوكأ بيمناه على عصا غليظة ، وكان صوت عويل يترامى من شباك بدروم ، ومعركة تدور بين رجلين حتى تدفق الدم من وجهيهما . وابتسم للطفل العاري وسأله برقة :

– ما اسمك يا شاطر ؟

فأجاب :

– اونة .

– قصدك حسونة ، هل يعجبك هذا الفأر الميت يا حسونة ؟

فرماه به ، ولولا ان حجزه قضيب لأصاب وجهه ، وجرى الصغير كقارب يتمايل . والتفت نحو حنش وكان يهوم عند قدميه وقال :

— في كل شبر من هذه الحارة تجد دليلاً على وجود الفتوات ، ولكنك لن تجد دليلاً واحداً على وجود اناس مثل جبل او رفاعة او قاسم .

فقال حنش وهو يتثاءب :

— نحن نرى امثال سعد الله ويوسف وعجاج والسنطوري ولكننا نسمع فقط عن امثال جبل ورفاعة وقاسم .

— لكنهم وجدوا ، اليس كذلك ؟

فأشار حنش الى ارض الحجرة بأصبعه وقال :

— ربعنا رفاعي ، كل سكانه رفاعية ، أي رجال رفاعة الذي تؤكد الرباب كل مساء انه عاش ومات في سبيل الحب والسعادة ، ومع ذلك فنحن نغير ريقنا كل صباح على سبابهم ومشاجراتهم ، هكذا هم نساء ورجالاً .

فلوى عرفة شفتيه امتعاضاً وقال :

— لكنهم وجدوا ، اليس كذلك ؟

فواصل حنش كلامه قائلاً :

— السباب أهون ما يقع في حي رفاعة ، اما المعارك فأجارك الله منها ، أمس فقط فقد ساكن عينه .

وقف عرفة محتداً وقال :

— حارة عجيبة ! الله يرحمك يا أمي ، انظر الينا مثلاً ، الكل ينتفع بنا ولا احد يحترمنا !

— إنهم لا يحترمون احداً .

فأصر على اسنانه وقال :

— إلا الفتوات !

فقال حنش ضاحكاً :

— حسبك انك الوحيد في هذه الحارة الذي يتعامل معه الجميع من

جبلية ورفاعة وقاسمية .

— عليهم اللعنة جميعاً .

وصمت ملياً وعيناه تلمعان في ضوء البدروم الخافت ثم قال :

— كل واحد منهم يفاخر برجله بغباء وعمى ، يفاخرون برجال لم يبق منهم الا أسماؤهم ، ولا يحاولون قط ان يجاوزوا الفخر الكاذب بخطوة واحدة ! أولاد كلب جبناء .

وكان أول من قصده من زبائن امرأة من رفاعـة ، في الأسبوع الاول من استقراره في مسكنه . وإذا بها تسأله بصوت خفيض :

— كيف يمكن التخلص من امرأة دون ان يدري أحد ؟

فارتاع الرجل ، ونظر اليها باستغراب ، ثم قال :

— لست لذلك يا ستي ، إذا أردت أدويـة للجسد او للروح فأنا خادمك !

فتساءلت بانكار :

— ألست ساحراً ؟

فقال بوضوح :

— في كل ما فيه فائدة للناس ، اما القتل فله أناس آخرون !

— *لعلك خائف ! ؟ لكننا سنكون شريكين سرهما واحد .*

فقال برقة تطوي سخرية :

— لم يكن رفاعة كذلك !

فهتفت :

— رفاعة ! عليه الرحمة ، نحن في حارة لا تجدي فيها الرحمة ، ولو كانت تجدي ما هلك رفاعة نفسه !

وتركته يائسة لكنه لم يندم . ان رفاعة نفسه — اول الطيبين — لم يظفر بالسلامة في هذه الحارة ، فكيف يأمل فيها من يبدأ عمله بالجريمة ؟! وأمه ! كم لاقت من آلام دون ان تتعرض لأحد بأذى . فليكن على

خير صلة بالناس جميعاً كما يجدر لكل تاجر لبق . ومضى يتردد على جميع المقاهي فيجد في كل قهوة زبوناً يعرفه . واستمع الى قصص الرباب في جميع الأحياء حتى اختلطت في رأسه وكان يدور بها ذلك الرأس . وكان أول زبون جاءه من حي قاسم رجلاً طاعناً في السن فقال له همساً وهو يبتسم :

— سمعنا عن الهدية التي اتحفت بها عجاج فتوة رفاعة .

فتفرّس في وجهه المجعد باسماً ، فقال الرجل :

— اتحفنا بما عندك ولا تدهش ، فيّ وحياتك رمق !

وتبادلا ابتسامة كالسر فقال العجوز متشجعاً :

— أنت قاسميّ ، أليس كذلك ؟ هكذا يعتبرك اهل حيّنا .

فسأله عرفة ساخراً :

— هل يعرفون أبي عندكم !

فقال الرجل بجدّ واهتمام :

— القاسمي يُعرف بسيماه ! لذلك فأنت قاسمي ، نحن الذين رفعنا الحارة الى قمة العدالة والسعادة ، ولكنها واأسفاه حارة مشئومة .

ثم تذكر الرجل الغرض الذي جاء من أجله فقال برقة :

— الهدية من فضلك .

وذهب الرجل وهو يقرّب الحق من عينه العمشاء وقد دبت في مشيته المتهالكة صحوة نشاط وأمل . وكان آخر من زاره شخص غير متوقع . كان يجلس في حجرة الاستقبال على شلتة أمامها مبخرة تنفث دخاناً رقيقاً ساحراً حين دخل عليه حنش بين يدي نوبي عجوز وهو يقول :

— عم يونس بواب حضرة الناظر .

فانتفض عرفة واقفاً ومدّ له يديه مرحباً وهو يقول :

— أهلاً .. أهلاً ، زارنا النبي .. تفضل يا مولانا !

جلسنا متجاورين ، وقال البواب بصراحة معهودة :

– الهانم ، نظيرة هانم حرم الناظر ، تحلم أحلاماً سيئة حتى قل نومها .

بدا الاهتمام في عيني عرفة ودق قلبه دقة الأمل والطموح ، لكنه قال ببساطة :

– حال عارضة تمر بسلام ..

– لكن الهانم منزعجة وقد ارسلتني اليك لتجد لها شيئاً مناسباً .

شعر رفاعة بسعادة وسيادة لم يعرفها طوال حياة التشرد التي الفها في ظل أمه الراحلة وقال :

– الأفضل أن أحادثها بنفسي !

فقال البواب بحدّة :

– محال ! لن تجيء اليك ولن تدخل اليها !

وغالب عرفة اليأس مستميتاً في الدفاع عن فرصته الذهبية فقال :

– يلزمني منديلها أو شيء من طرفها !

وأحنى البواب رأسه المعمم وقام ليذهب . وعندما بلغا باب البدروم تلكأ البواب قليلاً ثم مال على أذن عرفة قائلاً في همس :

– سمعنا عن هديتك لعجاج فتوة رفاعة !

ولما ذهب البواب بالهدية ضحك عرفة وحنش طويلاً وتساءل الأخير :

– لمن أخذ الهدية يا ترى ؟ لنفسه أم للناظر أم للهانم ؟

وهتف عرفة ساخراً :

– يا حارة الهدايا والنبابيت !

ومضى الى النافذة ينظر الى الحـــارة في الليل . بدا الجدار المواجه لعينيه مفضضاً بضوء القمر ، وتعالت زفرات الصراصير ، وارتفع صوت الشاعر من قهوة الحي وهو يقول :

« وتساءل أدهم :

– متى تقر بأنه لم تعد تربطنا صلة ؟

فقال ادريس :

ــ لترحمنا السماء ، ألست أخي ؟ هذه رابطة ليس في الامكان فصمها .

ــ ادريس ! كفاك ما فعلت بي ..

ــ الحزن قبيح، ولكن كلانا مصاب ، أنت فقدت همام وقدري وأنا فقدت هند ، أصبح للجبلاوي العظيم حفيدة عاهرة وحفيد قاتل ..

فعلا صوت أدهم وهو يهدر :

ــ اذا لم يكن جزاؤك من جنس عملك فعلى الدنيا العفاء .»

وتحول عرفة عن النافذة في سأم . متى تكفّ حارتنا عن حكي الحكايات ؟ ومتى يكون على الدنيا العفاء ؟ وأمي رددت يوماً هذا القول : « اذا لم يكن الجزاء من جنس العمل فعلى الدنيا العفاء » . أمي المسكينة ساكنة الخلاء . لكن ماذا أفدت من الحكايات يا حارتنا ؟

٩٥

كان عرفة وحنش يعملان بهمة في حجرة البدروم الخلفية على ضوء مصباح غازي مثبت في الجدار . لم تكن الحجرة تصلح للحياة العادية لرطوبتها وظلامها ولموقعها آخر البدروم فجعل عرفة منها مقراً لعمله . وبدت على أرضها وفي أركانها مجموعات من أوراق الأحجبة ، والأتربة والجير ، ونباتات وتوابل ، وحيوانات وحشرات مجففة كالفئران والضفادع والعقارب ، واكوام من قطع الزجاج ، وقوارير ، ومياه في صفائح ، وسوائل غريبة ذات رائحة نفاذة ، وفحم ، وكانون ، وقد ركبت على الجدران رفوف حملت بانواع شتى من الأوعية والآنية والأكياس . وكان عرفة منهمكاً في خلط بعض المواد وعجنها في وعاء من الفخار كبير ، وكان العرق يتصبب من جبينه فيجففه بكم جلبابه من حين

لآخر ، هذا وحنش رابض عن كثب ، يراقبه باهتمام ، واستعداد لتلبية أية اشارة تصدر منه ، وكأنما اراد ان يعزيه أو يتودد اليه فقال :

– هذا التعب لا يبذل جزءاً منه اكبر عامل في هذه الحارة المنكودة ، وفي سبيل أي جزاء يبذل ؟ ملاليم أو قرش على خير الفروض !

فقال عرفة بارتياح :

– رحم الله أمي ! لا يعرف فضلها سواي ، ويوم سلمتني لذلك الساحر العجيب الذي يقرأ لك جميع ما يجول في خاطرك تغيرت حياتي تغيراً كلياً ، فلولاها لكنت على خير ظن نشالاً أو متسولاً ..

فأصر حنش على أسفه قائلاً :

– ملاليم .!

– النقـــود تكثر بالصبر ، لا تيأس من ذلك ، ليست الفتونة هي السبيل الوحيد الى الثروة ، ولا تنس المنزلة السامية التي اتمتع بها ، فان من يقصدني انما يعتمد كل الاعتماد عليّ ويضع سعادته أمانة بين يدي ، وليس هـــذا بالشيء القليل ، ولا تنس ايضاً لذة السحر نفسه ، لذة استخراج مادة مفيدة من مواد قذرة ، لذة الشفاء حين يأتمر بأمرك ، وهنالك القوى المجهولة التي تتشوف للاتصال بها وامتلاكها ان استطعت .

ونظر حنش الى الكانون وقال منقطعاً فجأة عن تيار صاحبه :

– الأوفق أن أوقد الكانون في دهليز المنور والا اختنقنا .

– أوقده في جهنم ، ولكن لا تخرجني عن افكاري ! ان اي مغفل ممن يحسبون انفسهم معلمين في هذه الحارة لا يستطيع ان يدرك خطورة الأشياء التي تصنع في هذه الحجرة المعتمة القذرة ذات الروائح الغريبة ، أدركوا فائدة « الهدية » ولكن ليست الهدية كل شيء ، ان اعاجيب لا يحيط بها الخيال يمكن ان تخرج من هذه الحجرة ، المجانين لا يدركون قيمة عرفة الحقيقيـــة ، لعلهم يعرفونها يوماً ما ، وعند ذاك يجب ان يترحموا على امي لا ان يعرّضوا بها كما يفعلون .

وكان حنش قد قام نصف قومة فعاد يجلس القرفصاء وهو يقول بامتعاض :

– كل هذا الجمال قد تطيح به عصا فتوة أحمق .

فقال عرفة بحدة :

– نحن لا نؤذي أحداً وندفع الاتاوة فكيف نتعرض للأذى يا ابن جلجل ؟

فضحك حنش قائلاً :

– وما كان ذنب رفاعة ؟

فحدجه بنظرة غاضبة وقال :

– لماذا تقرفني بهذه الأفكار ؟

– أنت تأمل ان تثري وهنا لا يثري الا الفتوات ، وتأمل أن تصير قوياً وهنا لا يسمح بالقوة الا للفتوات ، فاعمل حسابك يا أخ !

وصمت عرفة حتى يتأكد من حسن تقديره في الخلط بين المواد ، ثم نظر الى حنش فرأى سحنته ما زالت محتفظة بصورة التحذير فضحك قائلاً :

– حذرتني امي من قبلك ، شكراً يا حنش يا ابن جلجل ، لكني عدت الى الحارة وفي رأسي خطة !

– يبدو انه لم يعد يهمك إلا السحر .

فقال عرفة في جذل كالنشوة :

– السحر شيء عجيب حقاً ، لا حد لقوته ، ولا يدري احد اين يقف ، وقد تبدو النبابيت نفسها لمن يملكه لعب اطفال ، تعلم يا حنش ولا تكن غبياً ، تصور لو كان جميع اولاد حارتنا سحرة ؟

– لو كانوا جميعهم سحرة لماتوا جوعاً !

فضحك عرفة ضحكة كشفت عن اسنان حادة وقال :

– لا تكن غبياً يا حنش واسأل نفسك ماذا كان يمكن ان يصنعوا ،

والله كانت الأعاجيب تخرج من حارتنا في غزارة السباب والشتائم .

– نعم ، على شرط الا يموتوا جوعاً قبل ذلك !

– نعم ، ولن يموتوا ما داموا في غبر ..

لكنه سكت قبل أن يتم قوله ، ومضى يفكر في اهتمام حتى كفت يداه عن العمل ، ثم رجع يقول :

– شاعر آل قاسم يقول ان قاسم اراد استغلال الوقف حتى يجد كل حاجته فيستغني عن العمل ويفرغ للسعادة الغناء التي حلم بها أدهم .

– ذلك قول قاسم !

فقال وعيناه تلمعان بشدة :

– لكن الغناء ليس هو الهدف الأخير ! تصور ان يمضي العمر في فراغ وغناء ؟ وهو حلم جميل لكنه مضحك يا حنش ، الأجمل حقاً ان نستغني عن العمل لنصنع الأعاجيب .

هز حنش رأسه الكبير – الذي يبدو منغرساً في جسده دون رقبة تذكر – محتجاً على حديث لا معنى له ، ثم استرد لهجة العمل الجدية وهو يقول :

– دعني الآن أوقد الكانون تحت المنور .

– افعل ، وضع نفسك فوق اللهيب فما تستحق الا الحرق .

وغادر عرفة غرفة العمل بعد ساعة فمضى الى الكنبة وجلس ينظر من النافذة الى الخارج . اقتحمت أذنيه ضجة الحياة بعد صمت فتلاقت فيها نداءات الباعة وأحاديث النساء المتبادلة ونكات صارخة ومختارات من الشتائم ، تصاحب تيار الرائحين والغادين الذي لا ينقطع . واذا به يلاحظ ان شيئاً جديداً اتخذ مكانه عند الجدار المواجه لنافذته . قهوة متنقلة مكونة من قفص مغطى بملاءة قديمة صفت عليه علب البن والشاي والقرفة وموقد وكنجات وفناجيل واكواب ومعالق ، وقد جلس عجوز على الأرض يروح على الموقد ليسخن ماء ، على حين وقفت وراء القفص

فتاة في ربيع العمر وهي تنادي بصوت دافىء : « قهوة مزاج يا جدع ! »
كانت القهوة تقع عند ملتقى القاسمية بالرفاعية ، وبدا أن اكثر زبائنها
من أصحاب عربات اليد والمساكين . وجعل رفاعة يطيل النظر الى الفتاة
من بين القضبان . هذا الوجه الأسمر المتلفع بخمار أسود ما ألطفه ، وهذا
الجلباب البني الغامق الذي يغطيها من العنق حتى القدمين ويتجرجر منه
طرف على الأرض اذا مشت بطلب أو عادت بقدح فارغ ، هذا الجلباب
حشمة وأدب ، وهذه القامة الرشيقة ، والعينان العسليتان ما أجملها لولا
احمرار اشفار يسراهما لرمد أو قذارة ! هي ابنة العجوز كما يشهد الوجهان
ويبدو أنه أنجبها في سن متأخرة كما يقع كثيراً في حارتنا . ودون تردد
صاح بها :

– يا شابة .. فنجال شاي وحياتك .

فامتدت اليه عيناها ، وبسرعة ملأت قدحاً من ابريق مدفون حتى
منتصفه في الرماد ، ومضت به اليه عبر الطريق فتسلمه وهو يقول باسماً :

– عاشت يدك ، كم ثمنه ؟

– نكلة .

– غال ! ولكن لا يغلو لك ثمن !

فقالت باحتجاج :

– في القهوة الكبيرة بتعريفة وهو لا يمتاز عما في يدك بشيء .

وذهبت دون انتظار لكلام فراح يحسوه قبل أن يبرد ودون أن يحول
عينيه عنها . ما أسعد أن يملك فتاة بهذا الشباب ! لا عيب فيها الا حمرة
عينها وما اسهل ان يداويها ، ولكن الأمر يحتاج الى قدر من النقود لم
يوجد بعد . والبدروم جاهز وما على حنش الا ان ينام في الدهليز أو
في حجرة الاستقبال اذا شاء على شرط ان يفليها من البق أول بأول .
وانتبه على همهمة غريبة ورأى الناس ينظرون نحو أعلى الحارة ويقول
البعض منهم : « السنطوري .. السنطوري » فنظر بميل على قدر ما سمحت

القضبان له فرأى الفتوة قادماً في هالة من الأعوان . ولما مر بالقهوة المتنقلة وقع بصره على الفتاة فسأل رجلاً من رجاله :

— من الفتاة ؟

— عواطف بنت عم شكرون .

فلعّب الرجل حاجبيه في ارتياح ومضى نحو حيّه . وشعر عرفة بضيق وقلق . لوح للفتاة بالقدح الفارغ فجاءته في خفة فأخذته وتناولت من يده النكلة ، وعند ذاك سألها وهو يشير بذقنه الى الناحية التي ذهب اليها السنطوري :

— الم يضايقك شيء ؟

فقالت ضاحكة وهي تستدير لتذهب :

— سأستعين بك عند اللزوم ، فهل تعين ؟

فحزت في نفسه سخريتها . سخرية حزينة لا متحدية فتضاعف ضيقه . وهنا سمع صوت حنش وهو يناديه فوثب الى ارض الحجرة واندفع الى الداخل ..

٩٦

تكاثر زباين عرفة مع الأيام ، لكن قلبه لم يفرح بزبون كما فرح بعواطف يوم رآها مقبلةً عليه في حجرة الاستقبال . نسي مهابة المعلم التي يرتديها امام زباينه فوقف مرحباً بها ، ثم أجلسها على شلتة أمامه وتربّع في مجلسه والدنيا لا تسعه من السرور ، حيّاها بنظرة شاملة لكنها سرعان ما وقفت على عينها اليسرى التي كادت تختفي وراء ورم ملتهب ، فقال محتجاً :

— أهملتها يا شابة ، كانت حمراء منذ أول يوم رأيتك .

فقالت كالمعتذرة :

ـ اكتفيت بغسلها بالماء الساخن ، والمشغول بالعمل مثلي ينسى .

ـ لا يجوز ان تنسي صحتك ، وبخاصة اذا تعلق الأمر بعضو عزيز مثل عينك الجميلة !

ابتسمت متأثرة بالثناء على حين كان هو يمد يده الى رف خلفه ليجيء بكوز ، ثم اخرج منه لفافة صغيرة وقال وهو يشير اليها :

ـ صرّي ما فيها في منديل ، وحطّيه فوق بخار ماء يغلي ، ثم اربطيه على عينك ليلة بعد أخرى حتى تعود عينك الى جمال اختها .

تناولت اللفافة ، وأخرجت كيساً من جيبها وهي تسأله بعينها اليمنى عن الثمن فقال ضاحكاً :

ـ لا عليك من هذا! فنحن جيران وبيننا صداقة !

ـ لكنك تدفع ثمن ما تشرب من شاي .

فقال متهرباً :

ـ اني أدفع في الواقع لأبيك ، هذا الرجل الوقور ، كم أودّ أن أعرفه ، وكم أسفت على اضطراره للعمل حتى هذه السن المتأخرة !

فقالت في مباهاة :

ـ لكن صحته جيدة ، وهو يأبى أن يقعد في البيت ، غير ان طول عمره من دواعي حزنه في الحياة، اذ انه كان ممن شهدوا الأحداث على عهد قاسم .

فتجلى الاهتمام في وجه عرفة وسألها :

ـ حقاً ! أكان من أعوانه ؟

ـ كلا ، لكنه ذاق السعادة في أيامه وما زال يتحسر عليها .

ـ أريد أن أعرفه وأن استمع اليه .

فبادرته قائلة :

ـ لا تجرّه الى هذا الحديث، فاني أود أن ينساه الى الأبد حرصاً على

سلامته . كان مرة في خمارة يشارب بعض أصحابه ، ولما سكر وقف بينهم يطالب بأعلى صوته بأن تعود الحياة الى ما كانت عليه ايام قاسم ، وما ان عاد الى حارتنـــا حتّى وجد السنطوري امامه فانهال عليه ضرباً وصفعاً ولم يتركه حتّى أغمي عليه .

تفكر عرفة في امتعاض شديد ثم لحظ عواطف بمكر وقال :

ـ لا أمان لأحد مع وجود هؤلاء الفتوات !

فرمقته بنظرة خاطفة كأنما تتساءل عما وراء مقصده الظاهر وقالت :

ـ صدقت ، لا أمان لأحد معهم .

وتريث وهو يعض شفتيه كالمتردد ، ثم قال :

ـ رأيت السنطوري وهو ينظر اليك نظرة كلها وقاحة .

فدارت ابتسامة بحركة من رأسها الى اسفل ، وقالت :

ـ ربنا يأخذه .

لكن عرفة تساءل في ارتياب :

ـ أليس مما يسر الفتاة ان يعجب بها فتوة مثله ؟

ـ انه زوج لأربع !

فغاص قلبه في أعماقه ، وتساءل :

ـ واذا كان عنده متسع ؟

فقالت بحدة :

ـ كرهته منذ اعتدى على أبي ، وهكذا جميع الفتوات لا قلوب لهم ، يأخذون الاتاوة وكأنهم لاستكبارهم هم الذين يعطون .

فانتعش بالارتياح وقال بحماس :

ـ أحسنت يا عواطف ! كما احسن قاسم من قبل يوم قضى عليهم ، لكنهم يعودون مثل بعض الدمامل الغامضة .

ـ لذلك يتحسر أبي على ايام قاسم .

فهز رأسه في غير اكتراث طارىء وقال :

ـ ويوجد غيره من يتحسرون على أيام جبل ورفاعة ، لكن الماضي لا يعود .

فقالت في استياء مليح :

ـ تقول ذلك لأنك لم تشهد قاسم مثل أبي .

ـ وهل شهدته أنت ؟

ـ أبي قال لي .

ـ وأمي قالت لي ، ولكن ما جدوى ذلك ؟ انـــه لا يخلصنا من الفتوات ، وأمي نفسها كانت ضحية لهم ، وها هم يعرّضون بها بعد موتها .

ـ حقاً ؟ !

فقال بوجه متجهم كأنه قدح ماء صاف تعكر فجأة باثارة رواسبه:

ـ لذلك أخشى عليك يا عواطف ، الفتوات يهددون الرزق والعرض والحب والسلام ، واصارحك بانني اقتنعت منذ رأيت الوحش يتطلع اليك بوجوب القضاء عليهم .

فقالت عواطف باهتمام :

ـ يقولون إنه في وصية جدّنا الواقف .

ـ أين جدّنا ؟

فقالت ببساطة :

ـ في البيت الكبير .

فقال بهدوء وبوجه لا ينم عن السرور :

ـ نعم ، أبوك يحدث عن قاسم ، وقاسم حدث عن جدنا ، هكذا نسمع ، ولكنا لا نرى إلا قدري وسعد الله وعجاج والسنطوري ويوسف ، نحن في حاجة الى قوة لتخلصنا من العذاب ، فماذا تجدي الذكريات !

وانتبه الى ان مجرى الحديث كاد يفسد عليه اللقاء ، فقال وهو يعدل عن السيكا الى الصبا :

ـ الحارة في حاجة الى قوة كما انا في حاجة اليك !

فحدجته بنظرة استنكار فابتسم في جرأة بدت غير غريبة عن عينيه الجارحتين وقال بجدية ليتحاشى غضبة متوثبة في حاجبيها :

ـ شابة طيبة مجتهدة جميلة ، تنسى في غمرة العمل عينها حتى تورم ، ثم تجيئني وهي تظن انها في حاجة إلي فتتضح لها الحقيقة وهي انني انا الذي في حاجة اليها .

قالت وهي تهم بالقيام :

ـ آن لي ان انصرف .

ـ بغير غضب من فضلك ، واذكري انني لم اصرح بجديد، فلا شك انك استشففت اعجابي بك طوال الأيام الماضية اذ نظراتي تذهب وتجيء ما بين نافذتي وقهوتك ، ان أعزب مثلي لا يمكن ان يعيش وحده الى الأبد ، وان بيته المشحون بالعمل في حاجة للرعاية ، وان ارباحه تفيض عن حاجته فلا بد ان يشاركه فيها انسان .

غادرت الحجرة . وقف في نهاية الدهليز ليودعها . وكأنها لم ترض ان تذهب دون تحية فقالت :

ـ فتك بعافية .

ولبث مكانه وهو يترنم بصوت مهموس :

خدك المياس يا بدري واملا لي الكاس من بدري

وانت احلى الناس في نظري

ثم مضى في فتوة ونشاط الى حجرة العمل فوجد حنش منهمكاً في واجباته ، فسأله :

ـ ماذا عندك ؟

فعرض امامه زجاجة وهو يقول :

ـ معبأة ومحكمة الاغلاق ، ولكن ينبغي ان تجرب في الخلاء .

فتناولها عرفة وراح يمتحن سدادتها ، ثم قال :

ـ نعم ، في الخلاء والا افتضح أمرنا .
فقال حنش بقلق :
ـ الرزق بدأ يجيء والحياة تبتسم، فلا تفرط فيما وهبك الله من سعادة.
أخذ حنش يضيق بالحياة بعد ان حلت في عينيه. ابتسم عرفة عند هذا الخاطر . ونظر الى حنش ملياً ثم قال :
ـ كانت أمك كما كانت أمي .
ـ نعم ولكنها توسلت اليك الا تفكر في الانتقام .
ـ كان رأيك غير ما تبدي الآن !
ـ سنُقتل قبل ان ننتقم .
فضحك عرفة وقال :
ـ لا أخفي عنك انني كففت عن التفكير في الانتقام من زمن .
فتهلل وجه حنش وهو يقول :
ـ هات الزجاجة لنفرغها يا أخي .
لكن عرفة شدد قبضته على الزجاجة وهو يقول :
ـ بل سنجربها حتى تبلغ الكمال .
فقطب حنش في استياء احتجاجاً على الهزء به فأردف عرفة قائلاً :
ـ انا اعني ما أقول يا حنش ، ثق انني عدلت عن الانتقام ، لا اذعاناً لتوسلات أمنا ، وانما لاقتناعي بوجوب القضاء على الفتوات بصرف النظر عن انتقامنا .
فقال حنش محتداً :
ـ بسبب حبك لهذه الفتاة .
فضحك عرفة حتى بان حلقه ، وقال :
ـ حب الفتاة ، حب الحياة ، أسمه بما تشاء .. كان قاسم على حق!
ـ مالك انت وقاسم ! كان قاسم يحقق رغبة جده !
فمط بوزه وقال :

— من يدري ؟ ! حارتنا تحكي الحكايات ، اما نحن فنقوم بأعمال حاسمة في هذه الحجرة لا شك فيها ، وأين الأمان في حياتنا ؟ سيجيء عجاج غداً لينهب رزقنا ، واذا قدّمت يداً للزواج من عواطف اعترضني نبوت السنطوري ، وهذا حال كل رجل في حارتنا حتّى المتسول ، فما يكدر صفوي هو ما يكدر صفو حارتي ، وما يؤمنني هو ما يؤمنها . حق ما انا فتوة ، ولا برجل من رجال الجبلاوي ، ولكني املك الأعاجيب في هذه الحجرة ، ومنها قوة لم يحز عُشرها جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين.

ورفع بالزجاجة بيده متخذاً هيئة الموثب للقذف بها ، ثم اعادها الى حنش قائلاً :

— سنجربها الليلة بالجبل .. ابسط وجهك واستعد حماسك .

وغادر حجرة العمل الى النافذة . وتقرفص فوق الكنبة مرسلاً ناظريه الى القهوة المتنقلة . وكان الليل يهبط رويداً ، وصوتها يعلو منادياً بالقهوة والشاي . وتجنبت النظر الى نافذتـه فدل التجنب على خطوره ببالها . وومض بالابتسام فمها مثل ذلك النجم . وابتسم عرفة ، كيانـه كله ابتسم ، وفاض من قلبـه الرضى حتّى أقسم ليمشطن شعره كل صباح . وترامت من الجمالية ضجة اقوام يطاردون لصاً ، ثم انبعثت من القهوة انغام الرباب وترامى صوت الشاعر مفتتحاً ليلته بقوله :

الأولى آه   سي قدري ناظرنا
والثانية آه   سعد الله فتوتنا
والثالثة آه   عجاج فتوة حتتنا

فانتزع من حلمه بلا رحمة . وقال بملل وتمرد « ستبدأ الحكايات ، متى تنتهي هذه الحكايات ؟ وماذا افاد الاستماع اليها طوال الليالي ؟ سيغني الشاعر وتستيقظ الغرز يا حارة الحسرات .. »

٩٧

وطرأ على حياة عم شكرون اضطراب غامض . كان يتكلم احياناً بصوت مرتفع جداً كأنه يخطب فيقول بعطف : « الكبر .. انه الكبر » . وكان يغضب شديد الغضب لأتفه سبب او لغير ما سبب فيقولون : « الكبر » . وكان يصمت طويلاً حتى حين تتطلب الحال الكلام فيقولون : « الكبر » . وكان يقول أقوالاً تعد في الحارة كفراً فيقولون في اشفاق : « الكبر اللهم احفظنا » . وكان عرفة يراقبه كثيراً من خلال الغضبان في عطف واهتمام . ومضى يراقبه ذات يوم وهو يقول لنفسه : رجل مهيب رغم اسماله البالية وقذارته ، وعلى صفحة وجهه الناحلة نقشت النكسة التي عدت على الحارة عقب أيام قاسم ، اذ انه من سوء حظه انه عاصر قاسم ، فنعم بأيام العدل والأمانة ، ونال نصيبه كاملاً من ريع الوقف ، ورأى الأبنية تشيد باسم الوقف ثم تتوقف بأمر قدري ، وبالجملة هو رجل بائس طال به العمر اكثر مما ينبغي ! ورأى عواطف قادمة بوجه لا تشوبه شائبة بعد ان شفيت عينها فتحول عن الرجل اليها وهتف باسماً :

– الشاي يا أهل النظر !

وجاءته بالقدح فقال قبل ان يتناوله من يدها ليضمن بقاءها :

– مبارك عليك الشفاء يا وردة حارتنا .

فقالت باسمة :

– الفضل لله ولك .

وتناول القدح متعمداً ان تمس أنامله أناملها ، فرجعت ومرح مشيتها ينبيء عن القبول والرضى . ما أجدر ان يخطو الخطوة الحاسمة . وهو

رجل لا تعوزه الجرأة غير انه يجب ان يعمل للسنطوري ألف حساب . الحق على عم شكرون الذي جاء بفتاته الى طريق السنطوري ! لكنه مسكين أعياه التجوال وراء عربته حتى عجز عن الاستمرار ففتح هذه القهوة المشئومة . وترامت من بعيد ضجة وهتاف فتطلعت الرءوس نحو الجمالية ، وما لبث ان ظهرت عربة كارو حملت النساء المغنيات المصفقات في وسطهن عروس عائدة من الحمام فجرى الغلمان نحو العربة مهللين وتعلقوا بأطرافها وهي صاعدة نحو حي جبل ، ويضطرم الجو حيناً بالزغاريد والتهاني والهمسات الفاحشة . ووقف عم شكرون كالغاضب وصاح بصوت كالرعد :

– اضرب .. اضرب !

فهرعت اليه عواطف وأجلسته وهي تربت ظهره في أسى وحنان . وتساءل عرفة ترى هل يحلم الرجل او يهلوس ؟ ما ألعن الكبر . كيف إذن يعيش جدنا الجبلاوي ؟ وجعل ينظر الى الرجل حتى سكن ثم سأله برقة :

– يا عم شكرون هل رأيت الجبلاوي ؟

فأجابه دون ان ينظر اليه :

– يا مغفل ألا تدري انه اعتكف في بيته من قبل أيام جبل !

فضحك عرفة ، كما ابتسمت عواطف ، وقال بصوت باسم :

– ربنا يمدّ في عمرك يا عم شكرون .

فصاح شكرون :

– دعاء كان له قيمة حقاً عندما كان العمر له قيمة .

وجاءت عواطف لتأخذ القدح فقالت له همساً :

– دعه في حاله ، انه لا ينام من الليل ساعة !

فقال باهتمام حارّ :

– قلبي عندك يا عواطف .

ثم بسرعة قبل ان تهم بالسير :

ـ أود ان احدثه في أمرنا .

فحذرته بأصبعها وذهبت . وراح يتسلى برؤية صغار يلعبون « وطي البصلة » . وبغتة ظهر السنطوري قادماً من حي آل قاسم فتراجع رأسه عن القضبان بحركة غريزية . ماذا جاء به ؟ من حسن حظه انه اقام في حي رفاعة فأصبح له من عجاج حام ، عجاج الغارق في « هداياه » . اقترب الفتوة حتى وقف امام قهوة شكرون ، وتفحص وجه عواطف وهو يقول :

ـ واحد سادة .

لعلعت ضحكة امرأة في نافذة وتساءلت أخرى :

ـ أي شيء حمل فتوة قاسم على طلب السادة من قهوة المتسولين ؟

بدا السنطوري غـــير مكترث لشيء . قدمت عواطف له الفنجال فتلوى قلب عرفة في صدره . وانتظر الفتوة حتى تذهب حرارة المشروب وهو يبتسم الى الفتاة ابتسامة وقحة كشفت عن اسنانه المذهبة . وتوعده عرفة في نفسه بضربه بجبل المقطم . ورشف السنطوري رشفة وقال :

ـ تسلم يدك الجميلة .

وخافت ان تبتسم كما خافت ان تقطب على حين تطلع شكرون اليهما بارتياع . ثم اعطاها الفتوة قطعة من ذات الخمسة القروش فدست يدها في جيبها لاحضار الفكة ولكنه لم ينتظر ولم يبد انه يطالب بشيء ، وعاد الى قهوة القاسمية . وحارت عواطف في امرها فقال لها عرفـــة بصوت منخفض :

ـ لا تذهبي اليه .

فتساءلت :

ـ وباقي النقود ؟

فنهض عم شكرون رغم ضعفه وأخذ الباقي وذهب الى المقهى . وبعد

قليل عاد العجوز الى مجلسه . ومـــا لبث ان أغرق في الضحك حتى اقتربت منه ابنته وقالت برجاء :

– كفاك ضحكاً .

ونهض قائماً مرة أخرى . وقف مستقبلاً بيت الواقف في نهايـــة الحارة ، وصاح :

– يا جبلاوي .. يا جبلاوي ..

والتفتت نحوه الأعين من النوافذ وابواب الأربع والمقاهي والبدرومات، وهرع نحوه الغلمان ، حتى الكلاب رمقته بأعينها ، وعاد شكرون يصيح :

– يا جبلاوي ، حتى متى تلازم الصمت والاختفاء ، وصاياك مهملة وأموالك مضيعة ، انت في الواقع تُسرَق كما يُسرق احفادك يا جبلاوي .

وهتف الصغار « هيه » ، وقهقهه كثيرون ، اما العجوز فاستدرك صراخه :

– يا جبلاوي ألا تسمعني ؟ ألا تدري بما حل بنا ؟ لماذا عاقبت ادريس وكان خيراً ألف مرة من فتوات حارتنا ! يا جبلاوي !

خرج عند ذاك السنطوري من المقهى وهو يصيح به :

– يا مخرف احتشم .

فالتفت نحوه غاضباً وهتف :

– عليك اللعنة يا وغد الأوغاد !

همس كثيرون في اشفاق : « ضاع الرجل » . واتجه السنطوري نحوه وقد أعماه الغضب وضربه على رأسه بقبضته . ترنح الرجل وكاد يهوي لولا ان ادركته عواطف . ورآها السنطوري فرجع الى مجلسه .

وقالت الفتاة باكية :

– لنعد الى البيت يا أبي .

وانضم اليها عرفة في مساندتـــه ، ولكن العجوز حاول في ضعف ان يبعدهما عنه . وثقلت انفاسه على حـــين ساد الأقربين وجوم . وقالت

امرأة من نافذة :

– الحق عليك يا عواطف، فالأحسن انه كان يبقى في البيت .

فقالت عواطف وهي ما زالت تبكي :

– مالي حيلة .

وراح شكرون يقول بصوت ضعيف :

– يا جبلاوي .. يا جبلاوي ..

٩٨

وقبيـــل الفجر شق صوات مولول السكون ، ثم عرف الناس ان شكرون قد مات . كانت حادثة غير غريبة على الحارة . وقالت بطانة السنطوري : « الله يجحمه ، عاش قليـــل الأدب ، وقلة الأدب كانت السبب في موته » . وقال عرفة لحنش :

– قتل شكرون ، كما يقتل كثيرون في حارتنا ، والقتلة لا يبالون باخفاء جرائمهم ، ولا يتجرأ احد على الشكوى او يجد شاهداً واحداً !

فقال حنش بتقزز :

– يا للمصيبة ! لماذا جئنا الى هنا !

– انها حارتنا .

– أمنا غادرتها منكسرة الخاطر ، حارة ملعونة هي ومن عليها .

فقال باصرار :

– لكنها حارتنا .

– كأننا نكفر عن ذنوب لم نجنها .

– التسليم هو اكبر الذنوب جميعاً .

فقال حنش بيأس :

– خابت تجربة الزجاجة في الجبل !

– لكنها ستنجح في المرة القادمة .

ولما حمل نعش شكرون لم يكن وراءه الا عواطف وعرفة ، وهكذا بدا امام الربع . وعجب الجميع من اشتراك عرفـــة الساحر في الجنازة وتهامسوا بجرأته العجيبة ذلك الساحر المجنون .

وكان الأعجب من ذلك ان السنطوري انضم الى الجنازة عندما توسطت حي آل قاسم . بأي جرأة وقحة فعل ! لكنه فعل بـــلا حياء وقال لعواطف :

– البقية في حياتك يا عواطف !

وادرك عرفة ان الرجل يمهد بذلك لطلبه القادم . والمهم ان حال الجنازة تغير في غمضة عين اذ تسارع اليها الجيران والمعارف الذين منعهم الخوف حتى ملأت الطريق . وعاد السنطوري يقول :

– البقية في حياتك يا عواطف !

فنظرت اليه في تحدّ وقالت :

– تقتل القتيل وتمشي في جنازته .

فقال السنطوري بصوت سمعه الكثيرون :

– قيل مثل هذا لقاسم من قبل .

وتعالت أصوات كثيرة وهي تقول :

– وحدي الله ، الآجال بيد الله وحده !

فصاحت به عواطف :

– قُتل أبي بضربة يدك !

فقال السنطوري :

– الله يسامحك يا عواطف ، لو كنت ضربته ضربة حقيقية لقتل في الحال ، والحق اني ما ضربته ولكن هوشته والكل يشهدون بذلك .

واستبقت الحناجر قائلة :

ـ هوشه ! ما لمسته يده ، والله ما لمسته ، وليأكل الدود عيوننا اذا كنا كاذبين .

فهتفت عواطف :

ـ ربنا المنتقم !

فقال السنطوري بحلم ضرب مثلاً عهداً طويلاً :

ـ الله يسامحك يا عواطف .

ومال عرفة على أذن عواطف وقال فيما يشبه الهمس :

ـ خلي الجنازة تسير بسلام .

وما يدري عرفة إلا ورجل من أعوان السنطوري يدعى العضاض يهوي بكفه على وجهه ويصيح به :

ـ يا ابن المبولة ، ما أدخلك انت بينها وبين المعلم !

التفت عرفة نحوه في ذهول فتلقى ضربة أشد من الأولى ، وآخر صفعه ، وثالث بصق على وجهه ، ورابع اخذ بتلابيبه ، وخامس دفعه بقوة فسقط على ظهره ، وسادس قال له وهو يركله :

ـ ستدفن في القرافة إذا ذهبت اليها .

لبث مطروحاً على الأرض في ذهول ، وتجمع ، وقام في ألم غير يسير ، وراح ينفض التراب عن جلبابه ووجهه ، وكان جمع من الصغار قد التفوا حوله وراحوا يهتفون : « العجل وقع .. هاتوا السكين » . رجع الى البدروم وهو يعرج وقد جن جنون غضبه . ونظر حنش اليه بأسى وقال :

ـ قلت لك لا تذهب !

فصرخ في حنق أهوج :

ـ اسكت ، الويل لهم .

فقال له بلين وحزم معاً :

ـ اصرف النظر عن هذه البنت وإلا فعلينا السلام .

فصمت ملياً وهو ينظر الى الأرض مفكراً ، ثم رفع وجهاً مكفهراً بالاصرار المخيف وقال :

– ستراني متزوجاً بها أقرب مما تتصور !

– هذا هو الجنون بعينه .

– وسوف يرأس عجاج الزفة .

– انك تبلل ثيابك بالكحول وترمي بنفسك في النار .

– وسأعاود تجربة الزجاجة الليلة في الخلاء .

ولزم داره لا يبرحها أياماً، ولكن صلته بعواطف لم تنقطع عن طريق النافذة ذات القضبان . ثم قابلها خفية عقب انقضاء أيام الحداد في دهليز ربعها وقال لها في صراحة :

– يحسن بنا ان نتزوج في الحال .

ولم تفجأ الفتاة بطلبه ولكنها قالت في حزن :

– ستسبب موافقتي لك من المتاعب ما لا تحتمل .

فقال بثقة :

– قبل عجاج ان يشرف حفلنا ، ولذلك معنى لا يخفى عليك .

واتخذت الخطوات في تكتم شديد حتى تم كل شيء . وعلمت الحارة دون سابق انذار ان عواطف ابنة شكرون تزوجت من عرفة الساحر ، وانتقلت الى داره وان عجاج فتوة آل رفاعة قد شهد الزواج . ذهل كثيرون وتساءل آخرون كيف تم ذلك ، كيف تجرأ عرفة عليه ، وكيف اقنع عجاج بمباركته ، أما اهل الخبرة فقد قالوا يا داهية دقي.

٩٩

واجتمع السنطوري بأعوانه في قهوة آل قاسم ، وعلم عجاج بذلك

فاجتمع بأعوانه في قهوة آل رفاعة . ودرت الحارة بالاجتماعين فتوتر جوها ، وسرعان ما خلا الموقع بين القاسمية والرفاعية من الباعة والمتسولين والأطفال وأغلقت الدكاكين والنوافذ . وخرج السنطوري برجـــاله الى الحارة فخرج عجاج برجاله كذلك . واحتدم الشر حتى فاحت رائحته الكريهة فلم يبق على اندلاع اللهيب إلا لمسة . وصاح رجل طيب من فوق سطح :

– ماذا أغضب رجالنا ؟ فكروا قبل ان تجرى الدماء .

فقال عجاج من خلال صمت الرهبة وهو ينظر إلى السنطوري :

– لسنا غاضبين ولا داعي عندنا للغضب .

فقال السنطوري بغلظة :

– أنت خرجت على حدود الزمالة يا معلم ، ولا يمكن أن يقرك فتوة على ما فعلت .

– وما الذي فعلت ؟

فقال السنطوري وكأن الكلام يخرج من فمه وعينيه معاً :

– حميت رجلاً وهو يتحداني .

– ما فعل الرجل إلا ان تزوج بنتاً وحيدة بعد وفـــاة أبيها ، وأنا أشهد زواج كل رفاعي .

فقال السنطوري بازدراء :

– ما هو برفاعي ، ولا يعرف أحد أباه ، ولا هو نفسه ، وقد تكون أنت أباه وقد اكونه أنا ، او أي متسول في الحارة .

– لكنه يقيم اليوم في حيي .

– ليس إلا أنه وجد بدروما خالياً !

– ولو !

فصرخ السنطوري بصوت مدو :

– أعرفت انك خرجت على حدود الزمالة ؟

فصاح به عجاج :
— لا تصرخ يا معلم ، الأمر لا يستوجب ان نتناقر كالديوك !
— لعله يستوجب .
فقال عجاج بنبرة كأنها أمر بالاستعداد :
— اللهم طولك يا روح .
— عجاج .. انتبه لنفسك !
— ملعون أبو القفا .
— ملعون أبوك !
وارتفعت النبابيت لولا ان ادركها صوت كالخوار يصيح بلهجة آمرة:
— عيب يا رجال .
اتجهت الرءوس نحو مصدره فرأوا المعلم سعدالله فتوة الحـــارة وهو يشق طريقه بين الرفاعية حتى وقف في المنطقة بين الحيين وهو يقول :
— نزلوا النبابيت .
فهبطت النبابيت كرءوس المصلين ، ونظر سعدالله مرة الى السنطوري وأخرى الى عجاج وقال :
— لا أحب الآن ان اسمع كلام أحد ، تفرقوا بسلام ، مذبحة من أجل مرة ؟ يا خسارة الرجولة !
تفرق الرجال في سكون ، ورجع سعدالله صوب داره .
وكان عرفة وعواطف داخل البدروم لا يصدقـــان أن الليلة ستمر بسلام ، كانا يتابعان ما يدور في الخـــارج بقلبين واجفين ووجهين ممتقعين ، ولم يبتـل لهما حلق حتى سمعا صوت سعدالله بنبرته الآمرة التي لا ترد . تنهدت عواطف من الأعماق وقالت :
— ما أقسى هذه الحياة !
وأراد ان يبث في نفسها شيئاً من الطمأنينة فقـــال وهو يشير الى رأسه :

ـ أنا أعمل بهذا ، هكذا كان جبل ، وهكـــذا كان قاسم الداهيـــة !

فازدردت ريقها بمشقة وقالت :

ـ ترى هل تدوم السلامة ؟

ضمها الى صدره في مرح ظاهري وقال :

ـ ليت كل زوجين يسعدان مثلنا .

فطرحت رأسها على كتفه ريثما تسترد أنفاسها وهمست قائلة :

ـ ترى هل تنتهي المسألة عند ذلك ؟

فنفخ قائلاً في صراحة :

ـ أي فتوة لا يؤمن جانبه .

فرفعت رأسها وهي تقول :

ـ أعرف ذلك ، وبي جرح لن يلتئم حتى أراه صريعاً .

وعرف من تعني ، ونظر في عينيها يتفكر وقال :

ـ الانتقام في مثل حالتك واجب ولكنه لا يؤدي الى نتيجة حاسمة، ان سلامتنا مهددة لا لأن السنطوري يود البطش بنا ، ولكن لأن سلامة حارتنا كلها مهددة ببطش الفتوات ، ولو تغلبنـــا على السنطوري فمن يضمن لنا الا يتحرش بنا عجاج غداً او يوسف بعد غد ؟ فاما أمن للجميع أو لا أمن لأحد .

فابتسمت في فتور متسائلة :

ـ أتريد ان تكون كجبل او رفاعة او قاسم ؟

فقبّل شعر رأسها وهو يتشمم رائحته القرنفليـــة دون ان يجيب فعادت تقول :

ـ أولئك كلفوا بالعمل من قبل جدّنا الواقف .

فقال بضجر :

ـ جدنا الواقف ! كل مغلوب على أمره يصيح كما صاح المرحوم

ابوك : « يا جبلاوي » ! ولكن هل سمعت عن احفاد مثلنا لا يرون جدهم وهم يعيشون حول بيته المغلق ؟ وهل سمعت عن واقف يعبث العابثون بوقفه على هذا النحو وهو لا يحرك ساكناً ؟

فقالت ببساطة :

– انه الكبر !

فقال بارتياب :

– لم أسمع عن معمّر عاش طول هذا العمر .

– يقال إنه يوجد رجل في سوق المقطم جاوز المائة والخمسين من العمر ، ربك قادر على كل شيء .

فصمت ملياً ، ثم غمغم قائلاً :

– كذلك السحر فهو قادر على كل شيء !

فضحكت من غروره وهي تنقر بأصبعها على صدره وقالت :

– سحرك قادر على مداواة العين .

– وعلى اشياء لا تحصى !

فتنهدت قائلة :

– يا لنا من مساطيل ! نتسلى بالأحاديث كأننا لا يتهددنا شيء !

لم يأبه لمقاطعتها فواصل حديثه قائلاً :

– وقد يتمكن يوماً من القضاء على الفتوات انفسهم ، وتشييد المباني ، وتوفير الرزق لكافة أولاد حارتنا .

فتساءلت ضاحكة :

– هل يمكن ان يحدث ذلك قبل قيام القيامة ؟

فرقت عيناه الحادتان بنظرة حالمة وقال :

– آه لو كنا جميعاً سحرة !

– لو !

ثم أردفت قائلة :

ـ في زمن قصير حقق قاسم العدالة بغير سحرك !

ـ وسرعان ما ولت ، أما السحر فأثره لا يزول ، لا تستخفي بالسحر يا عسلية العين ، انه لا يقل عن حبنا خطورة ، ويخلق مثله حياة جديدة ، ولكنه لن يؤتي اثره الحق الا اذا كان اكثرنا سحرة !

فتساءلت في دعابة :

ـ وكيف يتأتى ذلك ؟

ففكر طويلاً قبل ان يجيب قائلاً :

ـ اذا تحققت العدالة ، اذا نفذت شروط الواقف ، اذا استغنى اكثرنا عن الكد وتوفروا على السحر .

ـ أتريدها حارة من السحرة !

وضحكت ضحكة لطيفة واستدركت قائلة :

ـ وما السبيل الى تنفيذ الشروط العشرة وجدنا قعيد الفراش ، ويبدو انه ما عاد بوسعه ان يكلف احداً من أحفاده بعمل !

فنظر اليها نظرة غريبة وتساءل :

ـ لماذا لا نذهب نحن اليه ؟

فضحكت مرة اخرى وقالت :

ـ هل تستطيع ان تدخل بيت الناظر ؟

ـ كلا ، ولكن ربما استطعت دخول البيت الكبير .

فضربت يده وهي تقول :

ـ كفاك مزاحاً حتى نطمئن على حياتنا أولا !

فابتسم ابتسامة غامضة وقال :

ـ لو كنت أحب المزاح ما عدت الى حارتنا .

فأفزعها شيء في نبرته فحدجته بدهشة وهتفت :

ـ أنت تعني ما تقول .

فطالعها بنظرة صامتة فعادت تقول :

– تصور ان يقبضوا عليك في البيت الكبير !

فقال بهدوء :

– ما العجب في وجود حفيد ببيت جدّه !

– قل إنك تمزح ، رباه! مالك تنظر جاداً هكذا ، شيء عجيب ،. لماذا تريد ان تذهب اليه ؟

– ألا تستحق مقابلته المخاطرة ؟

– كلمة ندّت عن لسانك فكيف انقلبت حقيقة مرعبة .

فربت راحتها ليهدىء خاطرها وقال :

– مذ عدت الى حارتنا وانا افكر وحدي في اشياء لا تخطر ببال .

فتساءلت بتوسل :

– لِمَ لا نعيش في حالنا ؟

– يا ليت ! إنهم لا يتركوننا نعيش في حالنا ، ولا بد للإنسان من ان يؤمن حياته .

– إذن نهرب من الحارة .

فقال باصرار :

– لا أهرب وفي يدي السحر !

وجذبها برقة حتى ألصقها بنفسه ، وجعل يربت منكبها وهو يهمس في اذنها :

– سنجد للكلام فرصاً كثيرة ؛ اما الآن فليطمئن قلبك .

١٠٠

ترى جُنّ الرجل أم أعماه الغرور ؟ هكذا جعلت عواطف تتساءل وهي تراقب عرفة في عمله وتفكيره . ومن ناحيتها هي لم يكن يكدر

صفو أيامها السعيدة إلا رغبتها في الانتقام من السنطوري قاتل أبيها ، والانتقام في الحارة تقليد مقدس من قديم الزمان . وحتى هذا التقليد المقدس يمكن ان تتناساه ولو على مضض إكراماً للحياة السعيدة التي وهبها الزواج . لكن عرفة كان يؤمن بأن الانتقام من السنطوري ما هو إلا جزء من عمل كبير آلى على نفسه – كما خيل اليها – القيام به : ولم تفهمه . أيحسب انه احد الرجال الذين تتغنى بهم الرباب ؟ لكن الجبلاوي لم يعهد اليه بشيء ، وهو لا يبدو كبير الثقة بالجبلاوي ولا بما تحكي الرباب . ومن المؤكد أنه بات يعطي السحر من جهده ووقته أضعاف ما يتطلبه الرزق . وإذا فكر جاوز تفكيره شخصه وأسرته الى مسائل عامة لا يعنى بها أحد ، كالحارة والفتونة والنظارة والوقف والريع والسحر . وكان يحلم احلاماً عريضة عن السحر والمستقبل مع انه كان الرجل الوحيد في الحارة الذي لم يُقبل على الحشيش لحاجة عمله في الحجرة الخلفية إلى اليقظة والانتباه . ولكن كل هذا هان الى جانب رغبته الجنونية في التسلل الى البيت الكبير . لماذا يا رجُلي ؟ لاسأله المشورة فيما ينبغي ان تسير عليه الحارة . انت تعلم بما ينبغي ان تسير عليه الحارة ، وكلنا نعلم ، فما الضرورة الى تعريض نفسك للهلاك ؟ أريد معرفة شروط الوقف العشرة . ليست العبرة في المعرفة ولكن في العمل فماذا تستطيع ان تفعل ؟ الحق اني اريد ان اطلع على الكتاب الذي طرد بسببه أدهم إن صدقت الحكايات. وماذا يهمك في ذلك الكتاب ؟ لا أدري ما الذي يجعلني أؤمن انه كتاب سحر وأعمال الجبلاوي في الخلاء لا يفسرها إلا السحر لا العضلات والنبوت كما يتصورون . وما الداعي الى هذه المخاطر وانت سعيد ورزقك موفور بغيرها ؟ لا تظني ان السنطوري نسينا .. كلما خرجت كدت اتعثر في نظرات رجاله الحانقة . حسبك السحر ودع البيت الكبير جانباً. هناك الكتاب .. كتاب السحر الاول .. سر قوة الجبلاوي الذي ضن به حتى على ابنه ، قد لا يكون شيئاً مما

تتصور ، وقد يكون ، والأمر يستحق المخاطرة . واذا به يخطو خطوة حاسمة في طريق الصراحة فقال لها :

– هكذا أنا يا عواطف ، ما العمل ؟ لست الا ابناً حقيراً لامرأة تعيسة وأب مجهول والكل يعرف هذا ويتندر به ، ولكن لم يعد لي من همّ في الدنيا الا البيت الكبير ، وليس غريبـاً على مجهول الأب ان يتطلع بكل قوته الى جده ، وحجرتي الخلفية علمتني الاّ أؤمن بشيء الا اذا رأيته بعيني وجربته بيدي ، فـلا محيد عن الوصول الى داخل البيت الكبير ، وقد أجد القوة التي انشدها وقد لا اجد شيئاً على الاطلاق ولكني سأبلغ براً هو على أي حال خير من الحيرة التي أكابدها ، ولست أول من اختار المتاعب في حارتنا ، كان بوسع جبـل ان يبقى في وظيفته عند الناظر ، وكان بوسع رفاعة ان يصير نجار الحارة الأول، وكان في وسع قاسم ان يهنأ بقمر واملاكها وان يعيش عيشة الأعيان ، ولكنهم اختاروا الطريق الآخر .

فقال حنش بأسى :

– ما اكثر الذين يجرون نحو الهلاك بأرجلهم في حارتنا .

فقال عرفة بحدة :

– قليل منهم من عنده لذلك اسباب وجيهة .

غير ان حنش لم يتخلف عن معاونة أخيه . تبعه كظله في الهزيـع الأخير من الليل الى الخلاء . ولما يئست عواطف من مقاومته رفعت يديها بالدعاء له . كانت ليلة مظلمة ظهر الهلال في أولها ساعة ثم اختفى. سار الاخوان بلصق الجدران حتى بلغا السور الخلفي للبيت الكبير فيما يلي الخلاء . وقال حنش همساً :

– كان رفاعة يقف في مكاننا عندما ترامى اليه صوت الجبلاوي .

فقال عرفة وهو ينظر فيما حوله مدققاً :

– هكذا تقول الرباب وسوف أعرف حقيقة كل شيء .

فأشار حنش الى الخلاء وقال برهبة :

ـ وفي هذا الخلاء كلم بنفسه جبل وأرسل خادمه الى قاسم .

فقال عرفة بامتعاض :

ـ وفيه ايضاً قتل رفاعة واغتصبت امنا وضربت ولم يحرك جدك ساكناً!

وحط حنش مقطفاً به ادوات حفر على الأرض ، ثم شرعا في حفر الأرض تحت السور ورفع الأتربة بالمقطف . عملا بجدّ وعزم حتّى امتلأ صدراهما برائحة ترابية . وتبين ان حنش لم يكن دون عرفة حماساً ، كأنما كانت تدفعه نفس الرغبة وان غلبه الخوف . ولم يكن رأس عرفة فوق الأرض إلا بشبر حين قال من جوف الحفرة :

ـ حسبنا هذه الليلة .

ثم وثب الى سطح الأرض معتمداً على راحتيه ثم قال :

ـ علينا ان نسد الفوهة باللوح الخشبي ثم نغطيها بالتراب حتّى لا ينكشف أمرها .

ثم رجعا مسرعين والفجر في أعقابهما ، كان يفكر في الغد . الغد العجيب . حين يسير في البيت الكبير المجهول . ومن يدري فلعله يلقى الجبلاوي ولعله يحادثه ، فيستوضحه عما مضى وعما هو راهن وعن شروط وقفه وسر كتابه . ذلك الحلم الذي لا يتحقق إلا بين سحابات الدخان الذي تنفثه الجوزة .

وفي البدروم وجد عواطف ما تزال ساهرة تنتظر فلما رأته حدجته بنظرة عتاب ناعسة وغمغمت :

ـ كأنك راجع من مقبرة !

فقال بمرح يداري به قلقه :

ـ ما أحلاك !

وارتمى الى جانبها فقالت :

– لو كنت عندك شيئاً لما استهنت برأيي .

فقال مداعباً :

– ستغيرين رأيك عندما تشهدين ما يحدث غدا .

– لي في السعادة فرصة وفي الهلاك ألف !

فضحك عرفة ثم قال :

– لو رأيت الأعين الحاقدة لأيقنت ان ما ننعم به من سلام ما هو إلا خيال .

ومزق سكون الفجر صوات حادّ ، وتبعه عويل ، فعبست عواطف وتمتمت :

– فأل غير حسن !

فهز منكبيه باستهانة ، ثم قال :

– لا تلوميني يا عواطف وأنت مسئولة بعض الشيء عما أنا فيه .

– أنا !

فقال جاداً :

– عدت الى الحارة مدفوعاً برغبة خفية الى الانتقـام لأمي ، ولما وقع الاعتداء على ابيك تأصلت تلك الرغبة في الانتقام من جميع الفتوات ولكن حبي لك أضاف اليها جديداً كاد يطمس على الأصل ، وهو ان اقضي على الفتوات لا للانتقام ، ولكن ليهنأ الناس بالحياة ، وما قصدت بيت جدنا إلا لأحصل على سر قوته .

ورنت اليه بنظرة طويلة قرأ فيها بوضوح على ضوء الذؤابة الاشفاق الاليم من ان تفقده كما فقدت أباها ، فابتسم إليها مشجعـا متودداً ، وكان العويل يستفحل في الخارج .

١٠١

وشد حنش على يد عرفة مودعاً والأخير في أعماق الحفرة . وانبطح عرفة على وجهه وراح يزحف خلال الممر المعبق برائحة الأرض ، وما زال في زحفه حتى برز رأسه من أرض الحديقة داخل البيت الكبير . استقبل أنفه شذاً عجيباً كأنه خلاصة خلاصات من الورد والياسمين والحناء مذابة في ندى الفجر . أسكره الشذا رغم شعوره البالغ بالخطورة . ها هو يتشمم الحديقة التي مات أدهم حسرة عليها . ما يبدو منها الا ظلام ضارب تحت الأنجم الساهرة . وعليها صمت رهيب يند عنه من آن لآن هسيس الأوراق المستجيبة للنسائم . ووجد الأرض طرية رطيبة فبيّت في نيته ان يخلع نعليه عند تسلله الى البيت كيلا يطبع على الأرض آثاره . ترى أين ينام البواب والبستاني وغيرهما من سائر الخدم ؟ وزحف على أربع في حذر شديد ان يحدث صوتاً متجهاً نحو البناء الذي بدا شبح هيكله متربعاً في الظلام . ولاقى في رحلته نحو البيت من الارتياع ما لم يلاق في حياته على ايلافه خوض الظلمات والمبيت في الخلاء والخرائب . ومضى يزحف لصق الجدار حتى مسّت يده أولى درجات السلم المفضي الى السلاملك ان صدقت الرباب . هنا دفع الجبلاوي بادريس ليطرده خارجاً . ذلك كان مصير ادريس جزاء تحديه لأمر أبيه ، فما عسى ان يفعل الجبلاوي بمن يقتحم عليه داره ليسرق سرّ قوته ؟ ولكن مهلاً فان أحداً لا يمكن ان يتوقع تسلل لص الى البيت الذي ظلّ آمناً مدّرعاً بمهابته طيلة الأعوام الماضية . ودار زاحفاً حول الدرابزين ثم اخذ يرقى في الدرج على يديه وركبتيه حتى بسطة السلاملك . وخلع نعليه وتأبطها ثم زحف

نحو الباب الجانبي الذي تقول الرباب انه يفضي الى المخدع . وبغتة سمع سعلة ! سعلة قادمة من الحديقة . فلبد اسفل الباب مرسلاً ناظريه نحو الحديقة ، فرأى شبحاً يقترب من السلاملك . كتم أنفاسه لأنه خيل اليه ان اضطراب قلبه سيُسمع مدوياً . وأخذ الشبح يقترب . ومضى يرقى في الدرج . لعله الجبلاوي نفسه . ولعله يضبطه متلبساً بجريمته كما ضبط أدهم من قبل في نفس الساعة على وجه التقريب . وبلغ الشبح بسطة السلاملك على بعد ذراعين من مكمنه . لكنه مضى الى الجانب الآخر من السلاملك ، ورقد على شيء يشبه الفراش ! خف التوتر مخلفاً وراءه أعياء . ولعل الشبح لم يكن الا خادماً ذهب لقضاء حاجة ثم عاد الى مرقده وها هو يعلو شخيره . استرد شيئاً من جرأته فرفع يده متحسساً موضع الأكرة حتى عثر عليها ، وادارها بهوادة ، ومضى يدفع الباب برفق حتى انفرج عن فتحة تسعه ثم زحف داخلاً ورد الباب وراءه . وجد نفسه في ظلمــة حالكة ، فأجال يده أمامه حتى مس اولى درجات السلم ، وجعل يصعد في خفة الهواء . انتهى الى ردهة طويلة مضاءة بمصباح في كوة بالجدار . وكانت تنعطف يميناً الى الداخل ، وتمتد يساراً بعرض البيت ، ويتوسطهــا باب المخدع مغلقاً . عند ذاك المنعطف وقفت أميمة ، ومن موقفه انطلق أدهم ، وها هو ينطلق وراء الشيء نفسه . تراكمت على صدره الرهبة ، فنادى ارادته وجرأته ، وكان من السخرية ان يرجع . قد يظهر خادم في أية لحظة ، وقد يفيق من جنونه على يد تقبض على كتفه. فما أجدره أن يسرع . سار على أطراف أصابعه نحو الباب . ادار المقبض اللامع فدار مع يده ، ودفع البــاب فانفتح برفق ، ثم تسلل راداً الباب وراءه . أسند ظهره الى الباب في ظلام لا يرى فيه شيئاً ، وتنفس بحذر وكأنما يضن بأنفاسه . وعبثاً حاول أن يرى شيئاً . وبعد قليل شم رائحة بخور زكية أفعمت قلبــه قلقاً وحزنـاً غريبــاً لم يدر له من سبب ولم يعد يشك انه في مخدع

الجبلاوي . متى يألف الظلمة ؟ وكيف يلم نفسه المبعثرة ؟ ومن وقف موقفه هذا من قبل ؟ وكيف يشعر بأنه سينهار الى الحضيض اذا لم يستمسك بكل ما أوتي من قوة وعزم وجرأة ! وتوعد نفسه بالهلاك اذا لم يحسب لكل حركة حسابها الدقيق . وتذكر السحب في جريانها الذي يرسم لها اشكالاً غريبة بطريقة عفوية فيرسم جبلاً كما يرسم قبراً . ومس الجدار بأصبعه فاتخذ منه مرشداً وسار بحذائه متقوساً حتى لمس كتفه مقعداً . لكن حركة مفاجئة ندت من ركن الحجرة البعيد تصلبت لها شرايينه . لبد وراء المقعد متجه العينين نحو الباب الذي دخل منه . وسمع وقع أقدام خفيفة وحفيف ثوب . وتوقع ان يغمر الظلماء نور وأن يرى الجبلاوي واقفاً حياله . سيسجد عند قدميه مستعطفاً ويقول له اني حفيدك ، لا أب لي ، ولا هدف الا الخير ، فافعل بي ما تشاء . رأى رغم الظلمة شبحاً يقترب من الباب . ورأى الباب وهو يفتح برفق ونور الردهة الخارجية يتسرب الى ما وراءه . وخرج الشبح تاركاً الباب مواربا واتجه يمنة فتبينه على ضوء المصباح الخارجي ، امرأة عجوز سوداء نحيلة الوجه طويلة بصورة لا يمكن ان تنسى . ترى أهي خادم ؟ وهل يمكن ان تكون هذه الحجرة من جناح الخدم ؟ ونظر من جانب المقعد الى المكان ليراه على الضوء الباهت المتسلل من الباب ، فميز اشباح المقاعد والكنب ، وتراءى له في الصدر رسم فراش كبير ذي عمد وناموسية يليه عند قدميه فراش صغير لعله هو الذي غادرته العجوز . لن يكون هذا الفراش الفخم الا للجبلاوي . انه نائم الآن هناك غير دار بجريمته . كم يود ان يلقي نظرة عليه ولو من بعيد لولا هذا الباب الموارب الذي ينذر بعودة الذاهبة . ونظر الى يساره فلمح رسم باب الخلوة مغلقاً على سره الرهيب . هكذا تطلع اليه أدهم في القديم فله الرحمة . وزحف وراء المقاعد متناسياً الجبلاوي نفسه حتى صار أسفل الباب الصغير . لم يستطع مقاومة الاغراء فرفع يده حتى دس أصبعه في ثقب المفتاح ثم ضغط الى

أسفل جاذباً اياه اليه فأطاع . وسرعان ما رده وقلبه يرتجف انفعالاً واحساساً بالفوز. واذا بالضوء الضئيل يختفي وتغرق الحجرة مرة اخرى في الظلام . وسمع مرة اخرى كذلك وقع الاقدام الخفيفة ، ثم طقطقة فراش وشت باستلقاء العائدة ، ثم ساد الصمت . وانتظر متصبّراً حتى تنام العجوز . ومضى يمعن النظر نحو الفراش الكبير ولكنه لم ير شيئاً . واقتنع بأنه من الجنون أن يحاول الاتصال بجدّه ، اذ قبل ذلك ستستيقظ العجوز وتملأ الدنيا صراخاً ثم يكون الوداع . ولكن حسبه الكتاب الخطير بما يتضمن من شروط الوقف وآيات السحر التي سيطر بها جده في الخلاء والناس في زمانه الأول . ان احداً قبله لم يتصور ان الكتــاب كتاب سحر لأن احداً قبله لم يمارس السحر . وعاد يرفع يده ويدس أصبعه ويجذب الباب ، ثم تسلل زاحفاً ورده وراءه . وقف في حذر وهو يتنفس في عمق ليريح شيئاً ما اعصابه المرهقة . لماذا ضن الجبلاوي على أبنائه بسر كتابه ؟ حتى أحبهم الى قلبه أدهم ! هنالك سر بلا ريب وسينكشف السر بعد ثوان ، بعد اشعال شمعة . وقديماً اشعل أدهم الشمعة ، وها هو مجهول الأب يشعلها مرة اخرى في نفس الموقف ، وسوف تغني الرباب بهذا الى الأبد . أشعل الشمعة فرأى عينين تنظران اليه . رغم ذهوله أدرك ان العينين لعجوز أسود يرقد على فراش في مواجهة الداخل . ورغم ذهوله ورعبه تبين له ان العجوز يجاهد للخروج من الغيبوبة الفاصلة بين النوم واليقظة التي ربما كان أحدثها صوت حك عود الثقاب . وبحركة غير ارادية ولاشعورية انقض عليه فأطبق يمناه على رقبته وشد بكل قوة أعصابه . تحرك العجــوز بعنف وقبض على يده فضربه بقدمه في بطنه وضاعف من قوة الضغط على عنقه . وسقطت الشمعة من يسراه فانطفأت وساد الظلام . وفي الظلام تحرك العجوز حركة أخيرة من أعماقه ثم همد لكن يده المجنونة لم تكف عن الضغط حتى

تراخت أصابعها . وتراجع لاهثاً حتّى التصق ظهره بالباب . ومرت الثواني وهو في جحيم من العذاب الصامت،وشعر بقواه تخور وبأن الزمن بات اثقل من الذنوب . سيقع على الأرض أو فوق جثة ضحيتــه اذا لم يتغلب على ضعفه . وناداه الهرب كقوة لا قبل له بها . لن يستطيع أن يتخطى الجثــة الى الكتاب الأثري . الكتاب المشئوم . ولا شجاعة عنده ليشعل الشمعة من جديد . العمى احب اليه من ذلك . وشعر بألم في ساعديه لعله من أثر اظافر الرجل عند المقاومة البائسة . وارتعد جسده لتلك الفكرة . كانت جريمة أدهم العصيان،اما جريمته هو فالقتل . قتل رجل لا يعرفه ولا يعرف لمصرعه على يده سبباً . وهو قد جاء سعياً وراء قوة يناضل بها المجرمين فانقلب وهو لا يدري مجرماً . واتجه رأسه في الظلام الى الركن الذي ظن الكتاب معلقاً به . ودفع الباب ثم تسلل وهو يرده وراءه . وزحف بحذاء الجدار الى الباب . وتريث وراء المقعد الأخير . لا يرى في هذا البيت الا الخدم فأين سيده ؟ ستحول هــذه الجريمة بينهما الى الأبد . وشعر بالخيبة والفشل حتّى أعمق أعماقه . وفتح الباب برفق فأعشى النور عينيه وخيل اليه انه ينقض عليه في ضوضاء صاخبة ووميض صارخ . أغلق الباب ومضى على أطراف اصابعه . وهبط السلم في ظلمة حالكة . وعبر السلاملك الى الحديقة وقد قل من الاعياء والحزن حذره . واذا بالنائم في السلاملك يستيقظ متسائلاً : « من ! » فلبد عرفة لصق الجدار اسفل السلاملك وقد أمده الفزع بقوة . ونادى الصوت كرة اخرى فأجابت قطة بنوائها . لبث في مكمنه وهو يخشى أن يساق الى جريمة جديدة . ولما استقر الصمت زحف على ارض الحديقة الخلفية حتّى السور ، وراح يتحسس موضع الثغرة حتّى عثر عليها . ودخلها زحفاً كما جاء . ولما بلغ النهاية او كاد ارتطم بقدم ! واذا بالقدم تركله في رأسه بسرعة فاقت خاطره .

١٠٢

وثب على صاحب القدم فاشتبكا في صراع لم يدم طويلاً اذ ندّت عن الآخر صيحة غضب كشفت عن شخصه لعرفة فهتف في ذهول :

ــ حنش !

تعاونا على الخروج معاً الى سطح الأرض وقال حنش :

ــ طالت غيبتك فدخلت لاتنسم الاخبار .

فقال عرفة وهو يتنفّس بمشقة :

ــ اخطأت كعادتك ولكن هلم بنا .

عادا الى الحارة المستغرقة في النوم . ولما رأته عواطف هتفت :

ــ اغتسل .. رباه .. ما هذا الدم يسيل من يدك وعنقك !

فارتعد لكنه لم يجب . ومضى ليغتسل وسرعان ما أغمي عليه . وأفاق بعد قليل وبمساعدة عواطف وحنش . جلس على الكنبة بينهما وهو يشعر بأن النوم بات ابعد عنه من الجبلاوي . ولم يعد يتحمل عبء سره وحده فقص عليهما ما وقع له في رحلته العجيبة . وانتهى والأعين تحملق فيه برعب ويأس . وهمست عواطف :

ــ كنت ضد الفكرة من أول الأمر .

غير ان حنش قصد ان يخفف من وقع الكارثة فقال :

ــ ليس في الامكان تجنب مثل هذه الجريمة !

فقال عرفة بحزن :

ــ لكنها أبشع من جرائم السنطوري وسائر الفتوات !

فقال حنش :

ــ هيهات ان تتجه الظنون اليك .

ــ لكني قتلت عجوزاً لا ذنب له ، ومن يدري فلعه الخادم الذي أرسله الجبلاوي الى قاسم !

وغشيتهم فترة صمت قاتمة كالسهاد المرير حتى قالت عواطف :

ــ ألا يحسن بنا ان ننام ؟

فقال عرفة :

ــ ناما انتما ، اما انا فلا نوم لي الليلة .

وانحط الصمت مرة أخرى فوق رءوسهم . واذا بحنش يسأله :

ــ ألم تلمح الجبلاوي او تسمع صوته ؟

فهز رأسه في ضيق قائلاً :

ــ كلا .

ــ لكنك رأيت في الظلام فراشه !

ــ كما نرى بيته !

فقال حنش في حسرة :

ــ ظننت غيابك انقضى في محادثته !

ــ ما أسهل الخيال خارج البيت !

فقالت عواطف بقلق :

ــ انت تبدو كالمحموم ومن الأفضل ان تنام .

ــ من أين يجيء النوم ؟

لكنه شعر بصدق قولها فيما ينتابه من حرارة وذهول . وعاد حنش يقول بحسرة :

ــ كنت على بعد ذراع من الوصية لكنك لم تنظر فيها !

وتقلص وجهه من الألم فقال حنش :

ــ يا لها من رحلة شاقة وخاسرة !

ــ نعم !

ثم بنبرة جديدة حادة :

— لكنها علمتني انه لا ينبغي ان نعتمد على شيء سوى السحر الذي بين أيدينا ! الا ترى انني غامرت برحلة جنونية جرياً وراء فكرة ربما كانت أبعد ما يكون عن ظني ؟ !

— نعم ، لم يقل غيرك أحد إن كتابه المشهور كتاب سحر .

فقال عرفة وقد بدا اكثر من قبل أنه يكابد حال اضطراب في العقل والنفس :

— تجربة الزجاجة ستنجح أقرب مما تتصور ، وستكون جد نافعة اذا احتجنا للدفاع عن النفس !

وأنذر الصمت المخيف بالعودة ، فقال حنش :

— ليتك عرفت من السحر ما يمكنك من الوصول الى البيت الكبير وصاحبه دون تلك المغامرة !

فقال عرفة بحماس :

— السحر لا نهاية له ، ليس بين يدي منه اليوم الا بعض الأدوية ومشروع زجاجة للدفاع او للهجوم ، اما ما يمكن ان يوجد فلا يحيط به خيال .

فقالت عواطف في ضجر :

— ما كان ينبغي ان تفكر اطلاقاً في تلك المغامرة ، جدّنا من دنيا ونحن من دنيا أخرى ، وما كنت لتفيد شيئاً من محادثته لو وقعت ، ولعله نسي الوقف والنظارة والفتوات والأحفاد والحارة !

وغضب عرفة بلا سبب ظاهر ، ولكن حالته الطارئة كانت تبرر كل غريب ، وقال بحدة :

— هذه الحارة المغرورة الجاهلة ! ماذا تدري من الأمر ؟ لا شيء ، ليس لديها إلا الحكايات والرباب ، وهيهات ان تعمل بما تسمع ، ويظنون حارتهم قلب الدنيا ، وما هي الا مأوى البلطجية والمتسولين ، وكانت في البدء مرتعاً قفراً للحشرات ، حتى حلّ بها جدكم الواقف !

وأجفل حنش ، على حين بللت عواطف خرقة وهمت بوضعهـا على جبينه ، ولكنه ابعد يدها بحدة وقال :

– انا عندي ما ليس عند أحـد ، ولا الجبلاوي نفسه ، عندي السحر ، وهو يستطيع ان يحقق لحارتنا ما عجز عنه جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين .

قالت عواطف بتوسل :

– متى تنام ؟

– عندما تخمد النار المشتعله في رأسي .

فتمتم حنش باشفاق :

– اوشك الصبح ان يطلع .

فهتف عرفة :

– فليطلع ، ولن يطلع حتى يقضي السحر على الفتوات ، ويطهـر النفوس من عفاريتها ، ويحل من الخير ما يعجز الوقف عن جزء منه ، ويصير هو الغناء المنشود الذي كان يحلم به أدهم .

وتنهـد من أعماقه : ثم طرح رأسه على الجدار في أعياء ، فأملت عواطف ان يجيء النوم عقب ذلك . وإذا بصوت يجلجـل في السكون بقوة هزت النفوس . وتبعته اصوات صراح وعويل . وثب عرفة قائماً وهو يقول برعب :

– جثة الخادم اكتشفت !

فقالت عواطف من حلق جاف :

– من أدراك ان الأصوات قادمة من البيت الكبير ؟

وجرى عرفة الى الخارج فتبعاه على الأثر . وقفوا أمام الربع برءوس متجهة نحو البيت الكبير .

كانت آخر الظلمة ترق وتشف عن أمارات الصباح . وفتحت نوافذ وأطلت رءوس ، واتجهت جميعاً نحو البيت الكبير . وجـاء رجل من أقصى الحارة مهرولاً نحو الجمالية فلما مر بهم سأله عرفة :

— ماذا جرى يا عم ؟
فأجابه دون توقف :
— لله الأمر ، من بعد العمر الطويل مات الجبلاوي !

١٠٣

انقلب ثلاثتهم الى البدروم ، وعرفة لا تكاد تحمله قدماه ، فانحط على الكنبة وهو يقول :

— الرجل الذي قتلته كان خادماً أسود تعيس المنظر ، وكان نائماً في الخلوة .

لم ينبس أحد منهما ، ودفنا نظريهما في الأرض متحاشيين عينيه الزائغتين ، فقال بحدة :

— أراكما لا تصدقان ! أقسم لكما انني لم اقترب من فراشه .

فتردد حنش ملياً لكنه شعر بأن الكلام خير على أي حال من تركه للصمت فقال بحذر :

— لعلك لم تتبين وجهه من شدة المفاجأة ؟

فهتف بيأس :

— ابداً ، انت لم تكن معي !

فهمست عواطف بخوف :

— أخفت من صوتك .

وغادرهما مهرولاً الى الحجرة الخلفية ، وقعد في الظلام وهو يرتجف من الاضطراب . أي جنون دفعه الى تلك الرحلة المشئومة ! أجل كانت رحلة مشئومة . ان الأرض تميد به وتنفث من جوفها الاحزان . ولم يعد له من أمل إلا هذه الحجرة العجيبة .

وأشرق أول شعاع للشمس ، فاذا الناس جميعاً مجتمعون في الحارة حول البيت . وتسربت الأخبار وشاعت ، وبخاصة عقب زيارة الناظر للبيت زورة قصيرة ثم عودته الى بيته . وتناقل الناس ان لصوصاً سطوا على البيت الكبير من خلال نفق حفروه تحت السور الخلفي ، فقتلوا خادماً أميناً ،

ولما علم الجبلاوي بالخبر تأثر تأثراً لم تحتمله صحته الواهية في تلك الذروة من العمر ففاضت روحه . وثار الغضب بالنفوس حتّى غطى دخانــه الأسود على الدموع والصراخ. وهتف عرفة لما بلغته الانباء بزوجه وحنش:

— ها هي الأنباء تصدقني !

ثم ذكر من توه انه على اي حال تسبب في موته فلاذ بصمت الخجل والألم . ولم تجد عواطف ما تقوله فغمغمت :

— فليرحمه الله !

وقال حنش :

— لم يمت ناقص عمر !

فقال عرفة بنبرة الرباب الحزينة :

— لكنني انا سبب موته ! انا من دون أحفاده جميعاً حتّى الاشرار منهم وما اكثرهم !

فبكت عواطف وهي تقول :

— ذهبت بنفس لا تشوبها شائبة سوء .

واذا بحنش يتساءل في قلق :

— ألا يمكن ان يستدل علينا ؟

فهتفت عواطف :

— فلنهرب .

فأشار اليها عرفة حانقاً وهو يقول :

— وبذلك نقدم اسطع دليل على جريمتنا !

وترامت من الطريق المحتشد اصوات متلاطمة :

— يجب قتل الجاني قبل دفن الرجل !

— يا ألعن جيل في حارتنا ، حتّى كبار الأشرار احترموا هذا البيت طيلة ماضينا ، وحتّى ادريس نفسه ، علينا اللعنة الى يوم القيامة .

— ليس القتلة من حارتنا ، منذا يتصور ذلك !

— سوف يعرف كل شيء .

– علينا اللعنة الى يوم القيامة .

واشتد اللطم والندب ، حتى انهارت اعصاب حنش فقال :

– وكيف نبقى في الحارة بعد اليوم !

واقترح آل جبل ان يدفن الجبلاوي في مقبرة جبل لاعتقادهم من ناحية انهم اقرب نسباً اليه من الآخرين ، ولأنهم كرهوا ان يدفن في المقبرة التي تضم ادريس فيما تضم من رفات اسرة الواقف من ناحية اخرى . وطالب آل رفاعة ان يدفن في القبر الذي دفن فيه رفاعة بيديه ! وقال آل قاسم إن قاسم خير احفاد الواقف وإن قبره هو أليق قبر بجثمان الجد العظيم . وكادت ان تقع فتنة في الحارة ولما يدفن الرجل . لكن الناظر قدري أعلن ان الجبلاوي سيدفن في المسجد الذي أقيم في مكان حجرة الوقف القديمة بالبيت الكبير . ولاقى هذا الحل ارتياحاً عاماً ملحوظاً وان اسف أهل الحارة على حرمانهم من مشاهدة جنازة الجد كما حرموا من قبل من مشاهدة الرجل في حياته . وتهامس آل رفاعة فرحين بأن الجبلاوي سيدفن في القبر الذي دفن فيه رفاعة بيديه . لكن أحداً غيرهم لم يكن يصدق تلك الحكاية القديمة ، وراحوا يسخرون منهم حتى ثار عجاج فتوتهم وأوشك ان يلتحم في معركة بالسنطوري . وعند ذاك تصدى سعد الله للجميع وصاح منذراً :

– سأكسر رأس اي مكابر يحاول النيل من احترام هذا اليوم الحزين !

ولم يشهد الغسل إلا خدمة المقربون . وهم الذين كفنوه وأودعوه نعشه . وحملوا النعش الى البهو الكبير الذي شهد اخطر احداث الأسرة كعهده بالنظارة الى أدهم وثورة ادريس عليه . ثم دعي للصلاة عليه الناظر ورءوس جبل ورفاعة وقاسم . ووري بعد ذلك في قبره والشمس تميل نحو الغروب . وفي المساء أم السرادق جميع أولاد الحارة . وذهب اليه عرفة وحنش فيمن ذهب من آل رفاعة . وبدا وجه عرفة الذي لم يذق طعم النوم منذ ارتكب جريمته كوجه ميت . ولم يكن للناس من

حديث الا أمجاد الجبلاوي ، قاهر الخلاء وسيد الرجـال ورمز القوة والشجاعة ، صاحب الوقف والحارة والأب الأول للأجيال المتعاقبـة . وبدا عرفة حزيناً ولكن ما كان يدور بنفسه لم يخطر لأحد على بال . ذلك الذي اقتحم البيت غير مبال بجلاله . الذي لم يتأكد من وجود جده إلا عند موته ! الذى شذ عن الجميع ولوث يديه الى الأبد . وتساءل كيف يمكن التكفير عن هذه الجريمة ؟ ان مآثر جبـل ورفاعة وقاسم مجتمعة لا تكفي . القضاء على الناظر والفتوات وانقاذ الحارة من شرورهم لا يكفي . تعريض النفس لكل مهلكة لا يكفي . تعليم كل فرد السحر وفنونه وفوائده لا يكفي . شيء واحـد يكفي هو ان يبلغ من السحر الدرجة التي تمكنه من إعادة الحياة الى الجبلاوي ! الجبلاوي الذي قتله اسهل من رؤيته . فلتهبـه الأيام القوة حتى يضمد الجرح النازف في قلبه . وهؤلاء الفتوات ذوو الدموع الكاذبـة . ولكن آه ثم آه لم يأثم أحدهم كما أثم . وكان الفتوات يجلسون واجمين ، يركبهـم الخزي والهوان . ستقول الحواري إن الجبلاوي قتل في بيته ومن حوله الفتوات الكبار يحششون . لذلك تتوعد نظراتهم بالانتقام . الويل والموت يطلان من عيونهم . وعندما عاد عرفة الى البدروم في آخر الليل جذب عواطف اليه وسألها في استغاثة يائسة :

— عواطف ، صارحيني برأيك ، هل ترينني مجرماً ؟

فقالت برقة :

— انت رجل طيب ، انت أطيب من صادفت في حياتي ، ولكنك أتعسهم حظاً !

فأغمض عينيه وهو يقول :

— لم يتجرع أحد قبلي الألم كما تجرعته .

— نعم .. اعرف ذلك .

وقبلته بشفتين باردتين وهمست :

— اخشى ان تحل بنا اللعنة .

فحول عنها وجهه ، وقال حنش :

— لست مطمئناً ، سيكتشف امرنا اليوم او غداً ، لا انصور ان يُعرف كل شيء عن الجبلاوي ، أصله ، وقفه ، سيرته في ابنائـه ، اتصالاته بجبل ورفاعة وقاسم ، وان يجهل فقط موته !

فنفخ عرفة في ضيق وسأله :

— هل عندك حل غير الهرب ؟

فلزم حنش الصمت ، فعاد الآخر يقول :

— اما انا فعندي خطة ، غير اني اود ان اطمئن الى نفسي قبـــل الشروع في تنفيذها ، اذ لا استطيع ان اعمل ان كنت مجرماً .

فقال حنش بفتور :

— انك بريء .

فقال بحدة :

— سأعمل يا حنش ، لا تخف علينا ، فان الحارة ستشغل عن الجريمة الكبرى بالأحداث ، ستقع عجائب ، وستكون ذروة العجائب ان تعود الحياة الى الجبلاوي .

تأوهت عواطف ، اما حنش فقال مقطباً :

— هل جننت ؟

فقال بصوت المحموم :

— ان كلمة من جدنا كانت تدفع الطيبين من احفاده الى العمل حتّى الموت ، موته اقوى من كلماته ، انه يوجب على الابن الطيب ان يفعل كل شيء ، ان يحل محله ، ان يكونه ، أفهمت ؟!

١٠٤

تأهب عرفة لمغادرة البدروم بعد ان سكت آخر صوت في الحارة . أوصلته عواطف حتّى الدهليز محمرة العينين من البكاء ، وكانت تقول في تسليم من لا حيلة له :

– فلتحرسك العناية .

اما حنش فتساءل في اصرار :

– لم لا أصحبك ؟ !

فقال عرفة :

– الهرب أيسر على واحد منه على اثنين .

فقال له ناصحاً وهو يربت ظهره :

– لا تستعمل الزجاجة الا عند اليأس .

فأومأ برأسه موافقاً وذهب . القى نظرة على الحارة الغارقة في الظلام ثم مضى نحو الجمالية . ودار دورة كبيرة شملت حارة الوطاويط والدراسة والخلاء فيما وراء البيت الكبير ، حتى انتهى الى سور بيت سعدالله المشرف على الخلاء من ناحية الشمال . واتجه نحو موضع في منتصف السور ، وتحسس الأرض حتى عثر على حجر فأزاحه ثم غاص في الممر الذي دأب على حفره – هو وحنش – ليلة بعد أخرى . زحف على بطنه حتى نهايته ، ثم عالج بيديه القشرة الرقيقة التي تسده ونفذ منها إلى حديقة بيت الفتوة . كمن وراء السور وألقى نظرة على المكان فرأى في البيت نافذة مغلقة تنضح بضوء خافت ، أما الحديقة فقد غشيها النوم والظلام الا نور نافذة المنظرة الساهرة . ومن المنظرة ترامت بين آونة وأخرى عربدات الساهرين وضحكاتهم الغليظة . استل من صدره خنجراً ولبث متوثباً والوقت يمر أثقل من الذنوب . لكن الغرزة انفضت عقب وصوله بنصف ساعة . فتح بابها وخرج الرجال تباعاً نحو الباب الخارجي المفضى الى الحارة والبواب يتقدم بفانوس في يده . واغلق الباب وعاد البواب متقدماً سعدالله نحو السلاملك . تناول عرفة من الأرض حجراً بيسراه ، وتسلل متقوساً والخنجر بيمناه ثم كمن وراء نخلة حتى هم سعدالله بارتقاء أول درجة من درجات السلم فانقض عليه وأغمد خنجره في ظهره فوق القلب . ندت عن الرجل صرخة ثم تقوض بناؤه . التفت البواب مذعوراً

لكن الحجر أصاب الفانوس فأطفأه وحطمه ثم جرى عرفة مسرعاً نحو السور الذي جاء منه . وصرخ البواب صرخة مدوية . وسرعان ما تدافعت أقدام وتلاطمت اصوات في الداخل وفي آخر الحديقة . وعثر عرفة في جريه بقائم كأنه أصل شجرة مقطوعة ، فسقط على وجهه وهو يحس بألم يهرصه في ساقه وكوعه ، لكنه تغلب على ألمه وقطع بقية المسافة الى النفق زحفاً . وارتفعت الاصوات واشتد وقع الاقدام . رمى بنفسه في النفق وزحف بسرعة حتى خرج الى الخلاء . ونهض وهو يئن ثم اندفع شرقاً . وقبل ان يدور مع سور البيت الكبير التفت وراءه فرأى اشباحاً تندفع نحوه وسمع صوتاً يصيح : « من هنا » ! فضاعف من سرعته رغم ألمه حتى بلغ نهاية السور الخلفي للبيت الكبير . وعندما عبر الفراغ الذي يفصل بين البيت الكبير وبيت الناظر لمح اضواء كالمشاعل وسمع ضجة فاندفع في الخلاء متسمتاً سوق المقطم . وشعر بأن الألم سيقهره عاجلاً او آجلاً ، وبأن اقدام المطاردين تقترب واصواتهم تتعالى صارخة في السكون « امسك .. حلّق » . عند ذاك اخرج الزجاجة من عبه ، الزجاجة التي قضى الشهور في تجربتها ، ثم توقف عن الجري واستقبل القادمين بوجهه ، وأحدّ بصره حتى تراءت له اشباحهم ثم قذف الزجاجة عليهم . وما هي الا ثانية حتى دوى انفجار لم تعرفه اذن من قبل . وتتابعت صرخات وتأوهات . وواصل جريه وقد كفت الاقدام عن مطاردته . وعند حافة الخلاء ارتمى على الأرض وهو يلهث ويئن . لبث في ألم وعجز وحيداً تحت النجوم . ونظر وراءه فلم ير إلا ظلاماً وصمتاً . وجعل يمسح الدم السائل على ساقه بيده ثم جففها في الرمال . وشعر بأنه ينبغي ان يذهب مهما كلفه الأمر فقام معتمداً على يديه ، وسار متمهلاً نحو الدراسة . وفي اول الدراسة رأى شبحاً قادماً فنظر نحوه بحذر وخوف ، ولكن القادم مر به دون ان يلتفت اليه فتنهد في ارتياح . ومضى راجعاً في نفس الدورة التي جاء بها . ولما اقترب

من حارة الجبلاوي ترامت الى اذنه ضجة حارة غير مألوفـة في ذلك المزيع من الليل . خليط من الاصوات الهادرة والبكاء والصرخات الغاضبة ونذر شر تتطاير في الظلام . تردد ملياً ثم تقـدم ملتصقاً بالجدران . والقى نظرة من عين واحدة عند ركن الحارة فرأى خلقاً كثيراً متجمعاً في الآخر فيما بين بيتي الناظر وسعدالله على حين بدا حي قاسم خالياً مظلماً . وتسلل بحذاء الجدار حتى غيبه الربـع . ارتمى بين عواطف وحنش ، ثم كشف عن ساقه الدامية فارتاعت عواطف وذهبت مسرعة لتعود بطبق القلة المملوء بالماء ، وراحت تغسل الجرح وهو يعض على اسنانه حتى لا تفلت منه صرخة ألم . وساعدها حنش وهو يقول بقلق:

– الغضب يشتعل في الخارج كالنار .

فسأله عرفة بوجه متقبض :

– ماذا قالوا عن الانفجار ؟

– وصف الذين كانوا يطاردونك ما وقع فلم يصدقهم أحد ، لكنهم وقفوا ذاهلين امام الجراح التي اصابت الوجوه والاعنـاق ، وكادت حكاية الانفجار تغطي على مقتل سعدالله !

فقال عرفة :

– قتل فتوة الحارة ، وغداً يبدأ التناحر بين الفتوات على مكانه !

ثم نظر الى زوجته المنهمكة في تضميد جراحه برقة وقال :

– عهد الفتوات موشك على الزوال ، وأولهم قاتل أبيك !

لكنها لم تجب . وظلت عينا حنش ترمضان في قلق . ثم اسند عرفة رأسه الى يده من شدة الألم .

١٠٥

في باكر الصباح طرق طارق باب البدروم ، ولما فتحتـه عواطف رأت أمامها عم يونس بواب بيت الناظر ، فحيته برقة ودعته الى الدخول، لكنه قال وهو ثابت في مكانه :

ـ حضرة الناظر يطلب عم عرفة الى مقابلته لاستشارة عاجلة !

ذهبت عواطف لابلاغ عرفة دون ان تجد للدعوة العاليــة السرور الخليق بها في غير الظروف التي تعانيها .

ومضت فترة قصيرة ثم جاء عرفة مرتدياً خير ملابسه ، جلباباً ابيض ولاسة منقطة ومركوباً نظيفاً ، غير انه كان يتوكــأ على عصا لعرج طارىء غير خاف ، فرفع يده تحية وقال :

ـ تحت الأمر .

فسار البواب وهو يتبعه . وكانت الكآبة تغشى الحارة من اولها الى آخرها ، فالأعين قلقة كأنما تتساءل في خوف عما سيجيء به الغد من الكوارث ، وأعوان الفتوات تجمعوا في المقاهي يتشاورون ، على حين تتابع العويل والنواح في بيت سعد الله . ودخل بيت الناظر وراء البواب، فسارا في الممر المسقوف بعريشة الياسمين حتى بلغا السلاملك . وتخيــل أوجه الشبه بين هذا البيت والبيت الكبير فوجدهــا كثيرة حتى ظن الا اختلاف إلا في الدرجة ، وقال لنفسه بحنق : « تقلدونه فيما ينفعكم لا فيما ينفع الناس ! » . وسبقه البواب ليستأذن له ثم عــاد ليشير اليه بالدخول فمضى الى البهو الكبير حيث رأى الناظر قدري جالساً في انتظاره في أقصى المكان . وقف على بعد ذراع منه وهو ينحني احتراماً حتى تقوس ظهره . وبدا لعينيه من أول لمحة طويل القامة قوي البنيان ممتلىء الوجه باللحم والدم ، ولما ابتسم اليه رداً على تحيته افترّ فمه عن اسنان صفر قذرة لا تناسب بهاء منظره بحال . واشار اليه ان يجلس الى جانبه على ديوانه ، لكن عرفة اتجه الى اقرب مقعد وهو يقول :

ـ عفواً يا حضرة الناظر !

لكن الناظر اصرّ على دعوته فأشار الى الديوان قائلاً بلطف وأمر معاً :

ـ هنا .. اجلس هنا .

فلم يجد بداً من الجلوس الى جانبــه في أقصى الديوان وهو يقول

لنفسه : لا شك انها حالة سرية ! وتأكد ظنه حينما رأى البواب وهو يغلق باب البهو ! ولبث صامتاً في حال خضوع والناظر يرمقه بهدوء ، ثم قال الناظر في نبرة هادئة كالمناجاة :

ــ عرفة ! لِمَ قتلت سعدالله ؟

تجمد البصر تحت البصر . وسابت المفـــاصل . ودار كل شيء . وانقلب المستقبل ماضياً . ورأى الرجل ينظر اليه بعين الواثق فلم يشك في انه عرف كل شيء كالقضاء والقدر. ثم لم يمهله فقال بشيء من الحدة:

ــ لا ترتعب ! لماذا تقتلون اذا كنتم هكذا ترتعبون ؟ تمالك مشاعرك لتستطيع ان تجيبني ، وخبرني صراحة لِمَ قتلت سعدالله ؟

وكره الصمت فقال وهو لا يدري ما يقول :

ــ سيدي .. أنا !

فقال الناظر بحدة :

ــ يا ابن الحقيرة أحسبتني أهذي ! او انني اتكلم دون دليـــل ؟ أجبني لماذا قتلته ؟

وهو يتمزق من الحيرة واليأس جالت عيناه في أرجاء البهو بحركة لا معنى لها ، فقال الناظر بصوت بارد كالموت:

ــ لا مهرب يا عرفة ! وفي الخارج أناس لو علموا بأمرك لمزقوك بأسنانهم ولشربوا دمك .

وكان النواح يشتد في بيت الفتوة ، أما آماله فقد ووريت في التراب . وفتح فمه دون ان يقول شيئاً .

فقال الناظر بقسوة :

ــ الصمت مهرب في متناول اليد ، سأدفع بك الى الوحوش في الخارج وأقول لهم هاكم قاتل سعدالله ، وان شئت اقول لهم هاكم قاتل الجبلاوي !

هتف بصوت مبحوح :

ــ الجبلاوي !

ـ حافر الانفاق وراء الأسوار الخلفيـة ! نجوت في المرة الأولى ووقعت في الأخرى ، لكن لماذا تقتل يا عرفة ؟

وقال في يأس بلا قصد ولا معنى :

ـ بريء يا حضرة الناظر ، انا بريء !

فقال في تهكم :

ـ اذا اعلنت تهمتك فلن يطالبني أحد بدليل ، في حارتنا الاشاعة حقيقة ، والحقيقة حكم ، والحكم هو الاعدام ، ولكن خبرني عما دفعك الى اقتحام البيت الكبير ؟ ثم قتل سعدالله ؟

هذا الرجل يعرف كل شيء . كيف ؟ لا يدري لكنه يعرف كل شيء . والا فلماذا صب عليه اتهامه دون أهل الحارة جميعاً ؟

ـ هل كنت تقصد السرقة ؟

غض بصره في يأس لكنه لم يتكلم فهتف الناظر في غضب :

ـ انطق يا ابن الافاعي !

ـ سيدي .

ـ لماذا تسعى الى السرقة وانت افضل حالاً من كثيرين ؟

فقال بنبرة الاعتراف اليائسة :

ـ النفس امارة بالسوء .

ضحك الناظر بظفر ، أما عرفة فساءل نفسه في حيرة : عما حمل الرجل يؤجل الفتك به الى الآن ! بل لِمَ لم يفض بسره إلى احـد الفتوات بدلاً من استدعائه على ذلك النحو الغريب ؟ وتركه الناظر لنفسه كأنما يعذبه ، ثم قال :

ـ يا لك من رجل خطير !

ـ انا رجل مسكين .

ـ أيُعدّ في المساكين من يحوز سلاحاً كسلاحك الذي هزيء بالنبابيت؟

لا يبكي ميت على فقد بصره . هذا الرجل هو الساحر حقاً لا هو.

وجعل الناظر يتلذذ بيأسه ملياً ثم قال :

— انضم أحد خدمي الى مطاردبك ، وكان متأخراً عنهم فلم يصبه سلاحك ، ثم تبعك وحده في هدوء فلم يُشعرك بمطاردته الخفية ، ثم عرفك عند الدراسة فلم يهاجمك خوفاً على نفسه من مفاجآتك ، وسارع إلي فأخبرني .

فقال عرفة بلا وعي :

— الا يمكن ان يخبر أحداً غيرك ؟

فقال مبتسماً :

— انه خادم أمين .

ثم بنبرة ذات معنى :

— الآن حدثني عن سلاحك .

أخذت الغيوم تتكشف لناظريه . الرجل يطمع فيما هو أثمن من حياته ! لكن يأسه كان محيطاً . وأين المفر ؟ قال بصوت منخفض :

— هو أبسط مما يتصور الناس !

فقست نظرته وتجهم وجهه وقال :

— في وسعي ان افتش بيتك الآن لكنني اتحاشى لفت الانظار اليك ، ألا تفهم ؟

وسكت ملياً ثم أردف :

— لن تهلك ما دمت تطيعني !

كان يتكلم ونذر الوعيد تتطاير من عينيه ، فقال عرفة وقد طفت باليأس روحه :

— ستجدني رهن مشيئتك .

— بدأت تفهم يا ساحر حارتنا ، لو كان مقصدي قتلك ، لكنتَ الساعة في بطون الكلاب .

ثم تنحنح وواصل حديثه قائلاً :

— دعنا من الجبلاوي وسعد الله وحدثني عن سلاحك ، ما هو ؟

فقال بدهاء :

ـ زجاجة سحرية !

فحدجه بنظرة ارتياب وقال :

ـ أفصح !

فقال وهو يسترد شيئاً من الطمأنينة لأول مرة :

ـ لغة السحر لا يتكلمها الا اهلها .

ـ ألا تفصح حتى ولو وعدتك بالسلامة ؟

فضحك باطنه ولكنه قال بجد ظاهر :

ـ ما قلت الا الحق .

فنظر الرجل الى الأرض قليلاً ثم رفع رأسه متسائلاً :

ـ الديك منها الكثير ؟

ـ ليس لدي منها شيء الساعة !

فعض الناظر على اسنانه هاتفاً :

ـ يا ابن الأفاعي !

فقال عرفة ببساطة :

ـ فتش بيتي لترى صدقي بعينك .

ـ أتستطيع ان تصنع مثلها ؟

فقال بثقة :

ـ بكل تأكيد .

فشبك ذراعيه على صدره من شدة الانفعال ، وقال :

ـ أريد منها الكثير .

فقال عرفة :

ـ سيكون لك منها ما تشاء .

وتبادلا نظرة تفاهم لأول مرة ، واذا بعرفة يقول بجرأة :

ـ سيدي يريد الاستغناء عن الفتوات الملاعين .

فومضت بعيني الرجل نظرة غريبة وسأله :

ـ صارحني بما دفعك الى اقتحام البيت الكبير ؟

فقال عرفة ببساطة :

– لا شيء الا حب الاستطلاع ، وقد ساءني مقتل الخادم الأمين عن غير قصد مني .

فحدجه بنظرة ارتياب وقال:

– تسبّبت في موت الرجل الكبير !

فقال عرفة بحزن :

– شدّ ما يتقطع قلبي حزناً لذلك .

فهز الناظر منكبيه قائلاً :

– ليتنا نحيا مثله !

يا لك من منافق اثيم ! لا شيء يهمك الا الوقف ! وقال :

– أمد الله في عمرك .

فعاد يسأله بارتياب :

– ألم تذهب الا جرياً وراء الاستطلاع ؟

– بلى .

– ولماذا قتلت سعد الله ؟

فقال بصراحة :

– لأني مثلك أود القضاء على جميع الفتوات .

فابتسم الرجل وقال :

– انهم شرّ مستحكم !

لكنك في الحق تبغضهم لما يأخذون من أموال الوقف ،لا لشرّهم

– بالحق نطقت يا سيدي .

فقال باغراء :

– ستثري فوق ما كنت تحلم .

فقال عرفة بمكر :

– ولا غاية لي الا ذلك .

فقال الناظر بارتياح :

ـ لا ترهق نفسك بالعمل نظير الملاليم ، تفرّغ لسحرك في حمايتي ، وسيكون لك كل ما تشتهيه نفسك !

١٠٦

جلس ثلاثتهم على الكنبـــة ، عرفة يقصّ ما حدث له وعواطف وحنش يتابعانه بانتباه وانفعال وفزع ،حتى ختم عرفة حديثه المثير بقوله :

ـ لا اختيار لنا ، ان جنازة سعد الله لم تخرج بعد ، فاما القبول واما الابادة .

فقالت عواطف :

ـ واما الهرب .

ـ لا مهرب من عيونه التي تحيط بنا .

ـ لن نكون في كنفه آمنين .

تجاهل قولها كما يود أن يتجاهل أفكاره وتحول الى حنش قائلاً :

ـ ما لك لا تتكلم ؟

فقال حنش بجدّ وحزن :

ـ عدنا الى هذه الحارة يوم عدنا بآمال بسيطة محدودة ، أنت وحدك المسئول عن التغيّر الذي وقع بعد ذلك ، عن تعلقنا بالآمال الكبيرة ، وكنت أعارض طموحك بادىء الأمر ،ولكني عاونتك دون تردد ، وأخذت أقتنع بآرائك رويداً رويداً ، حتى لم يعد لي من أمل الا أمل حارتنا في الخلاص والكمال ، واليوم تفاجئنا بخطة جديدة سنصبح بها آلة رهيبة لاستذلال حارتنا ، آلة لا يمكن أن تقاوم ولا أن تبيد وان جاز أن يُقاوم فتوة او يُقتل .

وقالت عواطف :

ـ ولا أمان لنا بعد ذلك ، فقد ينال منك ما يريد ثم يتخلص منك بحيلة كما يدبر الآن للفتوات .

كان مقتنعاً في أعماقه بما يقولان ولا يكف عن التفكير فيه ، لكنه قال وكأنما يحاور نفسه :

– سأجعله دائماً في حاجة الى سحري !

فقالت عواطف :

– ستكون على خير الأحوال فتوته الجديد .

فقال حنش مؤيداً :

– نعم ، فتوة سلاحه زجاجة بدلاً من النبوت ، واذكر مشاعره نحو الفتوات لتعرف ما ستكون عليه نحوك .

واحتد عرفة غضباً فقال :

– ما شاء الله ، كأنني الطامع وانتما الزاهدان ! انما انا الايمان الذي أصبحتما به تؤمنان ، وما سهرت الليالي في الحجرة الخلفية وما عرضت نفسي للموت مرتين الا لخير حارتنا ، فاذا كنتما ترفضان ما فرض علينا دون اختيار فأشيرا علي بما يجب فعله .

ونظر اليهما بتحدٍّ غاضب فلم ينبس منهما أحد . وكان الألم يعتصره والدنيا تبدو كابوساً خانقاً لعينيه . ودهمه شعور غريب بأن ما يعانيه ما هو الا انتقام لتهجمه القاسي على جده ، فازداد ألماً وحزناً . وهمست عواطف بتوسل يائس :

– الهرب !

فتساءل بحدة وحنق :

– وكيف الهرب ؟!

– لا أدري ! لكنــه لن يكون أصعب عليك من التسلل الى بيت الجبلاوي !

فنفخ يائساً وقال بهدوء كالرثاء :

– الناظر الآن بانتظارنا ، عيونه حولنا ، كيف ندبّر الهرب ؟

وكان صمت ، يا له من صمت ، كصمت القبر الذي يضم الجبلاوي . فقال بتشفٍّ :

– لا أريد ان اتحمل الهزيمة وحدي .

فتأوه حنش قائلاً كالمعتذر :

– لا خيار لنا .

ثم بحرقة :

– قد يلد المستقبل فرصة للنجاة .

فقال عرفة بلب شارد :

– من يدري !

ومضى الى الحجرة الخلفية وحنش في اثره . وأخـذا يعبئان بعض القوارير بقطع من الزجاج والرمل وغيرها . واذا به يقول :

– ينبغي ان نتفق على رموز للدلالة على خطوات أعمالنا السحرية ، وان نسجل صورها في كراسة أمينة سرية حتى لا يتعرض جهدنا للضياع او يكون موتي نذير النهاية لهذه التجارب . ومن ناحيـة أخرى أرجو ان يكون لديك الاستعداد لتعلم السحر ، فما ندري شيئاً عما يخبئه القدرلنا !

وواصلا عملهما بهمة عالية . وحانت من عرفة التفاتة الى صاحبه فرآه متجهماً فلم يخف عليه سره ، لكنه قال مداراة للموقف الغريب :

– ستقضي هذه القوارير على الفتوات !

فقال حنش فيما يشبه الهمس :

– لا لحسابنا ولا لحساب حارتنا .

فقال دون ان تكفّ يداه عن العمل :

– ماذا علمتك رباب الشاعر ؟ وجد في الماضي رجال أمثال جبل ورفاعة وقاسم ، فماذا يمنع ان يجيء أمثالهم في المستقبل ؟

فقال حنش متنهداً :

– كدت أحسك في بعض الأوقات أحدهم .

فضحك عرفة ضحكة جافة مقتضبة وتساءل :

– وهل عدلت بك عن ذلك هزيمتي ؟

فلم يجب ، فعاد الآخر يقول :

– لن أكون مثلهم في ناحية واحدة على الأقل ، وهي انهم كانوا ذوي اتباع من أولاد حارتنا ، اما انا فلا يفهمني أحد .

ثم وهو يضحك :

– كان في وسع قاسم ان يكتسب تابعاً قوياً بكلمة حلوة ، اما انا فتلزمني أعوام وأعوام حتى أستطيع ان أدرب رجلاً على عملي وأجعل منه تابعاً .

وفرغ من تعبئة زجاجة فأحكم سدادتها وعرضها أمام ضوء المصباح في إعجاب ، ثم قال :

– هي اليوم ترعب الافئدة وتدمي الوجوه بالجراح ، وغداً قد تقتل قتيلاً ، قلت لك إنه ليس للسحر من نهاية !

١٠٧

مَن فتوة حارتنا ؟ مضى الناس يتساءلون عنه مذ رقد سعد الله في قبره . وأخذ كل فريق يزكي رجله . فآل جبل قالوا إن يوسف اقوى فتوات الحارة وأوثقهم نسباً بالجبلاوي . وقال آل رفاعة إنهم حي أنبل من عرفته الحارة في تاريخها ، الرجل الذي دفنه الجبلاوي في بيته وبيديه . وقال آل قاسم انهم هم الذين لم يستغلوا النصر لصالح حيّهم ولكن لصالح الجميع فكانت الحارة على عهد رجلهم وحدة لا تتجزأ يسودها العدل والأخوة . وكالعادة بدأت الخلافات همساً في الغرز ، ثم تطايرت في الجو فثار الغبار وتحفزت النفوس لشر المهالك . ولم يعد فتوة يسير بمفرده ، وإذا سهر في قهوة او غرزة أحاط به الاتباع مدجّجين بالنبابيت . وراح كل شاعر يدعو بالرباب الى فتوة حيه . وتجهم أصحاب الدكاكين والباعة وكدر التشاؤم وجوههم . وتناسى الناس موت الجبلاوي ومقتل سعد الله بما ركبهم من هم وتوجس للخوف ، وحتى لأم نبوية بياعة النابت ان تقول بأعلى صوت :

– قطعت العيشة وبانحت من كان الموت نصيبه .

وذات مساء ترامى صوت من فوق سطح بحي جبل وهو يصيح :

– يا أولاد حارتنا ، اسمعوا واجعلوا العقل حكماً بيننا وبينكم ، حي جبل اقدم أحياء الحارة ، وجبل أول رجالها الكرام ، فلا مذلة لأحد اذا ارتضيتم يوسف فتوة لحارتكم .

فتعالت أصوات الاستهزاء من حيّي رفاعة وقاسم، مصحوبة بقذائف السب واللعن ، وما لبث ان تجمع الصغار امام الربوع وراحوا ينشدون :

يا يوسف يا وش القمله   مين قلّك تعمل دي العمله

واشتدت القلوب غلظة وسواداً . ولم يؤجل وقوع الكارثـة الا ان التناحر كان يقوم بين ثلاث قوى متضادة معاً ، وانـه كان لا بـد من ان يتحد حيـان او ان ينسحب من التنافس حي مختاراً . ووقعت احداث بعيداً عن الحارة ذاتها . فقد التقى بائعـان في بيت القاضي ، احدها من جبل والاخر من قاسم ، فاشتبكا في معركة حامية فقد فيها القاسمي اسنانه والجبلي عينا . وفي حمام السلطان نشبت معركة اخرى بين نسوة من جبل ورفاعة وقاسم وهن عرايا في المغطس فانغرست الاظافر في الخدود والأسنان في السواعد والبطون والأيدي في الضفائر ، وتتطايرت الاكواز وأحجار الحك والياف التدليك وقطع الصابون ، وانجلت المعركة عن اغماء امرأتين واجهاض ثالثة وبض أجساد لا حصر لهـا بالدم . وعند ظهيرة اليوم نفسه ، عقب عودة المتعاركات تباعـاً الى الحارة ، استؤنفت المعركة من جديد من فوق الاسطح ، واستعمل فيها الطوب والسباب الفاحش ، وسرعان ما امتلأت سماء الحارة بالقذائف وارتفـع صراخها الى السحاب . واذا برسول من قبـل الناظر يتسلل خفية الى يوسف فتوة جبـل ويدعوه الى مقابلة الناظر . وحرص الفتوة على ان يقابل الناظر دون ان يدري به أحد . واستقبله الناظر بلطف وطلب اليه ان يعمل على تهدئة الخواطر في حيّه وبخاصة ان ذلك الحي هو التالي

موقعه لبيت الناظر . وعندما صافحه مودعاً قال له إنه يتمنى ان يستقبله في المرة الآتية وهو فتوة الحارة كلها ! وخرج الرجل من بيت الناظر ثملاً بتأييده الصريح له ، وآمن بأن الفتونة باتت في متناول يديه . وما لبث ان ألزم حيّه بالنظام . وتهامس الناس في حيه بما يدخره الغد لهم من سيادة وجاه . وتسربت من حيهم الأنباء الى بقية الحارة فهاجت الخواطر . ولم تمض أيام بعد ذلك حتى تقابـل عجاج والسنطوري سراً فاتفقا فيما بينهما على القضاء على يوسف من ناحية ، ثم على الاقتراع على الفتونة بعد النصر من ناحية أخرى . وعند فجر اليوم التالي تجمع الرجال من آل قاسم ورفاعة فهاجموا حي جبـل ، فدارت معركة شديدة ، لكن يوسف وكثرة من اتباعة قتلوا وهرب الباقون ، وأذعن آل جبل للقوة يائسين . وحُدد العصر لاجراء القرعة المتفق عليها . وعند العصر هرع القاسمية والرفاعية رجالاً ونساء الى رأس الحارة امام البيت الكبير ، وامتدت جموعهم جنوباً حتى بيت الناظر وشمالاً حتى بيت الفتوة الذي سيصبح ملكاً للفائز بالقرعة . وجاء السنطوري وعصابته كما جاء عجاج وعصابته فتبادلوا تحيات السلام والتعاهد . وتعانق عجاج والسنطوري امام الجميع ، وقال عجاج بصوت سمعه جميع المتطلعين :

– انا وانت أخوان ، وسنبقى أخوين في جميع الأحوال .

فقال السنطوري بحماس :

– على الدوام يا سيد الجدعان !

وقف الحيّان متقابلين ، يفصل بينهما فراغ أمام مدخل البيت الكبير . وجاء رجلان – أحدهما من قاسم والآخر من رفاعـة – بمقطف ملىء بالقراطيس فوضعاه وسط الفراغ ثم تقهقر كلٌ الى قومه . وأعلن على الجميع ان القادوم هو رمز عجاج وان الساطور هو رمز السنطوري ، وانه وضعت نماذج مصغرة منها في القراطيس مناصفة . وجيء بغلام ليأخـذ – وهو معصوب العينين – من المقطف قرطاساً . مدّ الغلام يـده في

صمت متوتر ثم استردها بقرطاس . فتحه وهو ما يزال معصوب العينين وتناول ما فيه ورفع به يده فهتف القاسمية :

— الساطور .. الساطور .

مد السنطوري الى عجاج يده فتناولها الآخر وشد عليها باسماً . وتعالى هتاف حار :

— يعيش السنطوري فتوة حارتنا .

ومن صفوف الرفاعية تقدم رجل الى السنطوري مفتوح الذراعين ، ففتح له السنطوري ذراعيه ليعانقه ، لكن الآخر طعنه بسكين في قلبه بمنتهى القوة والسرعة . سقط السنطوري على وجهه قتيلاً . سيطر الذهول لحظة ثم انفجر الصياح والوعيد والغضب . وتلاقى الحيان في معركة دامية قاسية . لكن لم يكن يوجد في القاسمية من يستطيع الوقوف امام عجاج ، فسرعان ما نفذت الى قلوبهم الهزيمة ، وسقط من سقط ، وجرى من جرى ، ولم يجيء المساء حتى كانت الفتونة قد تقررت لعجاج . وبينا ضج حي قاسم بالعويل ، انطلقت الزغاريد من حي رفاعة ، وراحوا يرقصون في الطريق حول فتوتهم — فتوة الحارة — عجاج . وإذا بصوت يرتفع فوق الزغاريد صائحاً :

— هس ، اسمعوا ! اسمعوا يا غنم !

تطلعوا في عجب الى مصدر الصوت فرأوا يونس بواب الناظر يسير بين يدي الناظر نفسه الذي جعل يتقدم في هالة من خدمه . مضى عجاج نحو موكب الناظر وهو يقول :

— محسوبك عجاج فتوة الحارة وخادمكم !

حدجه الناظر بنظرة ازدراء وقال في الصمت الرهيب الذي غشي الحارة جميعاً :

— يا عجاج ، لا أريد في الحارة فتوة ولا فتونة !

ذهل رجال رفاعة ، وماتت على شفاههم بسمات الظفر والطرب ، وتساءل عجاج في دهشة :

— ماذا يقصد حضرة الناظر ؟ !

فقال الناظر بقوة ووضوح :

— لا نريد فتونة ولا فتوة ، دعوا الحارة تعيش في أمان .

فهتف عجاج ساخراً :

— أمان ! ؟

فسدد الناظر نحوه نظرة قاسية لكن الآخر تساءل في تحدّ :

— ومنذا يحميك أنت ؟ !

وإذا بالقوارير تنهال من ايدي الخدم على عجاج وأعوانه ، ودوي الانفجارات يزلزل الجدران ، وشظايا الزجاج والرمال تصيب الوجوه والاطراف وتفجر الدماء . وانقض الفزع على النفوس كما تنقض الحدأى على الفراخ ، فطاشت العقول وسابت المفاصل . وسقط عجاج وأعوانه فأجهز الخدم عليهم . وتعالى الصوات في حي رفاعة ، وزغاريد الشماتة في جبل وقاسم . وتوسط يونس الحارة داعياً الجميع الى الانصات حتّى ساد الصمت ، ثم صاح قائلاً :

— يا أولاد حارتنا ، جاءكم السعد والأمان بفضل حضرة الناظر أطال الله بقاءه ، فلا فتوة يذلكم او يغتال أموالكم بعد اليوم .

وارتفعت اصوات الهتاف الى السماء .

١٠٨

انتقل عرفة وأسرته بليل من بدروم حي الرفاعية الى بيت الفتوة على يمين البيت الكبير . بذلك أمر الناظر وليس لأمره ردّ . وجدوا أنفسهم في مأوى كالحلم . وراحوا يطوفون بالحديقة الغناء والمنظرة الأنيقة ، والسلاملك ، والبهو ، الى غرف النوم والجلوس والسفرة في الدور الثاني والسطح وما يزدحم بجدرانه وأركانه من بيوت الدجاج وبلاليص الارانب وأعشاش الحمام . ارتدوا لأول مرة ملابس فاخرة وتنفسوا هواء نقياً ،

وتشمموا روائح زكية . وراح عرفة يقول :
– صورة صغرى من البيت الكبير ولكن بلا أسرار ؟
فتساءل حنش :
– وسحرك ؟ ألا يعد من الأسرار .
ولاح الذهول في عيني عواطف وهي تقول :
– لا يحلم أحد بشيء كهذا .
وتغير الثلاثة منظراً ولوناً ورائحة . ولكن لم يكد يستقر بهم المقام حتى جاءهم جمع من الرجال ومن النساء ، قال أولهم إنه البواب وثانيهم الطاهي وثالثهم البستاني ورابعهم مربي الطيور والأخريات للدار ، فعجب عرفة لهم وسألهم :
– من أذن لكم بالمجيء ؟
فقال البواب انابة عنهم :
– حضرة الناظر .
وسرعان ما دعي عرفة الى مقابلة الناظر فذهب من فوره . ولما جلسا جنباً الى جنب فوق الايوان بالبهو قال قدري :
– سنتقابل كثيراً يا عرفة فلا يزعجك استدعائي لك .
الحق قد أقلقة المكان والمجلس والرجل لكنه قال ببشاشة :
– سيدي الخير والبركة !
– سحرك أصل الخير كله ، ترى هل أعجبتك الدار ؟
فقال عرفة في حياء :
– هي فوق الأحلام ، وبخاصة أحلام قوم فقراء مثلنا ، واليوم جاءنا الخدم اشكالاً والواناً !
فتفرس الناظر في وجهه وهو يقول :
– هم من رجالي أرسلتهم اليك ليخدموك وليحموك !
– يحموني !
فقال قدري وهو يضحك :

ــ نعم ، ألا تعلم ان الحارة لا حديث لها إلا انتقالك الى بيت الفتوة ؟ ويقولون فيما بينهم هو هو صاحب القوارير السحرية ، وأهل الفتوات موتورون كما تعلم ، والآخرون يموتون حسداً ، لذلك كله فأنت في خطر محيط ، ونصيحتي اليك ألا تأمن أحداً او تسير بمفردك او تبتعد عن دارك !

تجهم وجهه . ما هو الا سجن يحيط به الغضب والمقت . واستدرك قدري قائلاً :

ــ لكن لا تخف فان رجالي حولك ، واستمتع بالحياة ما شئت في بيتك وفي بيتي ، ماذا تخسر وراء ذلك الا الخلاء والخرائب ؟ ولا تنس ان اهل حارتنا يقولون ان سعد الله قتل بالسلاح الذي قتل به عجاج ، وان الوسيلة التي تسلل منها القاتل الى بيت سعد الله هي نفس الوسيلة التي تسلل منها الى البيت الكبير من قبل ، فقاتل عجاج وسعد الله والجبلاوي شخص واحد هو عرفة الساحر .

فهتف عرفة متشنجاً :

ــ هذه لعنة مسلطة على رأسي .

فقال الناظر في هدوء :

ــ لا تخف ما دمت في كنفي ومن حولك خدمي .

أيها اللئيم الذي أوقعني في سجنه ، ما أردت السحر الا للقضاء عليك لا لخدمتك ، واليوم يمقتني من أحبهم وأود خلاصهم ولعلي أقتل بيد أحدهم . وقال برجاء :

ــ وزع أنصبة الفتوات على الناس يرضوا عنك وعنا !

فضحك قدري هازئاً ثم تساءل :

ــ ولم اذن كان القضاء على الفتوات ؟

وأردف وهو يتفحصه بقسوة :

ــ انك تتلمس سبيلاً الى رضاهم ! دعك من هذا ، وتعوّد مثلي على مقت الآخرين لك ، ولا تنس ان ملاذك الحق هو رضاي عنك .

فقال في قنوط :

– كنت وما زلت في خدمتك !

ورفع الناظر رأسه نحو السقف كأنما يتسلى بتأمل زخارفه ، ثم اعاد رأسه اليه قائلاً :

– أرجو الا يلهيك متاع الحياة الجديدة عن سحرك !

فهز رأسه بالايجاب فقال الرجل :

– وأن تكثر ما استطعت من القوارير السحرية !

فقال عرفة بحذر :

– لست بحاجة الى اكثر مما لدينا منها .

فدارى الآخر حنقه بابتسامة وقال :

– اليس من الحكمة ان ندخل منها عدداً موفوراً ؟

لم يجب . ودهمه يأس . وتساءل هل جاء دوره هكذا سريعاً ؟ وسأله بغتة :

– سيدي الناظر ، اذا كان مقامي يضايقك فاسمح لي بالذهاب الى غير عودة .

فتظاهر الرجل بالانزعاج وتساءل :

– ماذا قلت يا رجل ؟

فقال وهو يواجهه بنظره صريحة :

– أنا أعلم أن حياتي رهن بحاجتك اليّ .

فضحك الرجل ضحكة لا مرح فيها ثم قال :

– لا تظنني أستهين بذكائك ، وأعترف لك بسلامة تفكيرك ، لكن كيف توهمت ان حاجتي اليك تقف عنـــد القوارير ؟ أليس في وسع سحرك ان يصنع أعاجيب أخرى ؟

لكن عرفة واصل حديثه الأول قائلاً بجفاء :

– رجالك هم الذين اذاعوا سر ما قدمت لك من خدمات ، لست

أشك في ذلك ، لكن يجب ان تذكر كذلك ان حياتك في حاجة الى ...

قطب الناظر متوعداً لكن عرفة قال دون تردد :

ـ أنت اليوم لا فتوات لك ، ولا قوة عندك الا بالقوارير ، وما لديك منها لا يغني عنك شيئاً ، فاذا متّ أنا اليوم تبعتني غداً او بعد غد .

مال الناظر عليه كالوحش فجأة فطوق عنقه بيديه وشد عليه حتى ارتعد جسمه . لكنه سرعان ما خفف من قبضتيه ، ثم سحبهما ، ثم ابتسم ابتسامة مقيتة وقال :

ـ أنظر ما كانت ستدفعني اليه سلاطة لسانك ! بينما لا توجد لدينا دواع للخصومة ، وفي وسعنا ان نستمتع بالنصر وبالحياة في سلام .

تنفس عرفـــة بعمق ليستّرد روحه المذعورة على حين واصل الآخر حديثه قائلاً :

ـ لا تخف على حياتك مني ، فسأحرص عليها حرصي على الحيـــاة نفسها ، تمتّع بالدنيا ولا تنس سحرك الذي يجب ان نجني أزاهر ثماره ، واعلم بأن من يغدر منا بصاحبه فقد غدر بنفسه !

تجهم وجها عواطف وحنش وهو يعيد على مسمعيهما ذلك الحديث في البيت الجـــديد . وبدا أن ثلاثتهم تعوزهم الطمأنينة الحقة في ظل حياتهم الجديدة . لكنهم تناسوا أسباب قلقهم عند العشاء حول مائدة حفلت بما لذ وطاب من طعام شهي ونبيذ معتّق . ولأول مرة ارتفع صوت عرفة وهو يضحك واهتز جذع حنش وهو يقهقه . ومضيا في حياتهما كما شاءت الظروف . كانا يعملان معاً في حجرة وراء البهو أعدّاها للسحر . ودأب عرفة على تسجيل الرموز التي اصطلحا عليها في كراسة لم يعلم بها سواهما احد . ومرة قال له حنش في اثناء العمل :

ـ يا لنا من سجناء !

فقال له محذراً :

ـ أخفض من صوتك فان للحيطان آذاناً .

فحدج حنش بصره نحو الباب في حقد ثم عاد يقول فيما يشبه الهمس :
– أليس من الممكن ان تصنع سلاحـاً جديداً نقضي به عليه من حيث لا يدري ؟
فقال عرفة بامتعاض :
– لن يتاح لنا ان نجربه سراً بين هؤلاء الخدم ، فهو لن يخفى عليه شيء من أمورنا ، وإذا قضينا عليه قضى علينا الموتورون من أهـل حارتنا قبل ان ندافع عن أنفسنا حيالهم !
– لماذا تعمل إذن بهذا الجد كله ؟
فتنهد قائلاً :
– لأنه ليس لي الا ان أعمل .
وكان يذهب عند الأصيل الى بيت الناظر فيجالسه ويشاربـه ، ثم يعود ليلاً الى داره فيجد حنش قد هيأ له الحديقة او الشربية غرزة صغيرة فيحششان معاً . ولم يكن معدوداً في الحشّاشين من قبل ، ولكن التيار جرفه . وطارده الملل . وحتى عواطف أخذت تتلقن تلك الأشياء . كان عليهم ان ينسوا الملل والخوف واليأس واحساساً محزناً بالذنب ، كما كان عليهم ان ينسوا آمال الماضي العريضة . ورغم ذلك فقد كان للرجلين عمل. اما عواطف فما كان لها من عمل . كانت تأكل حتى تتخم ، وتنـام حتى تمل الرقاد ، وتقضي الساعات الطويلة في الحديقة مستمتعة بشتى ألوان جاهها . وذكرت انها باتت تنعم بالحياة التي تحسّر عليها أدهم . ما أثقلها من حياة . وكيف تعد مطلباً تذهب النفس حسرات عليه ! لعلها كانت تكون كذلك لو لم تكن سجناً ولم يكن ما يحيط بها عداوة وبغضاء . لكنها ستلبث سجناً مطوقاً بالكراهية ، ولا مهرب منه الا حول المجمرة ! ومرة تأخر عرفة في بيت الناظر فخطر لها ان تنتظره في الحديقة . وتقدمت قافلة الليل وراء حادي القمر وهي جالسة تصغي الى انعام الغصون ونقيق الضفادع . وانتبهت الى صوت الباب وهو يفتح

فاستعدت للغاء القادم ، غير ان حفف ثوب قادماً من ناحية البدروم لفت سمعها ، ثم رأت من موقفها شبح خادمة على ضوء القمر مضت نحو الباب دون ان تدري بها . وتقدم عرفة كالمترنح فانتحت الخادمة ناحية الجدار الممتد من السلاملك فلحق بها ، ثم رأتهما يلتحمان وقد اخفاهما ظل الجدار من ضوء القمر ..

١٠٩

انفجرت عواطف كما ينبغي لامرأة من حارة الجبلاوي . انقضّت على الكائن المتلاحم كاللبؤة فهوت بقبضتها على رأس عرفة فتراجع ذاهلاً مترنحاً حتى اختل توازنه فوقع ، ثم أنشبت أظافرها في عنق الخادمة وانهالت على رأسها نطحاً حتى مزق صراخها سكون الليل . وقام عرفة من سقطته لكنه لم يجرؤ على الدنو من المعركة . وجاء حنش مهرولاً وفي اعقابه عدد من الخدم ، فلما عرف الموقف على حقيقته صرف الخدم ، وخلّص بين المرأتين بكياسة ولباقة حتى استطاع ان يعود بعواطف الى البيت وهي تقذف بسيل من السباب والشتائم واللعنات . ومضى عرفة مترنحاً الى المشربية المطلة على الخلاء وارتمى على شلتة وحيداً في الغرزة ، ثم مد ساقيه وأسند رأسه الى جدار وهو في شبه غيبوبة . ولحق به حنش بعد فترة قصيرة فاتخذ مجلسه امامه حول المجمرة صامتاً ، ورمقه بنظرة سريعة ثم عاد ينظر الا الأرض حتى قطع الصمت قائلاً :

ــ كان لا بد للفضيحة ان تقع .

فرفع اليه عينين خجلتين وقال ممعناً في الهرب :

ــ أشعل النار !

ولبثا في المشربية حتى قبيل الصباح . وذهبت الخادمة فحلّت محلها أخرى . وبدا لعواطف أن ذلك الجو المحيط بها يغري بزلة بعد

أخرى . وأخذت تؤول كل حركـــة تصدر عن زوجها تأويلاً سيئاً يتناسب مع ارتيابها حتى انقلبت الحياة جحيماً . وفقـــدت العزاء الوحيد الذي دانت تتسلى به في سجنها المليء بالمخاوف . فلا البيت بيتها ولا الزوج زوجها . سجن بالنهار وماخور بالليل . وأين عرفة الذي أحبته؟ عرفة الذي تحدى بالزواج منها السنطوري ، والذي عرّض نفسه للهلاك مرات في سبيل الحارة حتى ظنته رجلاً من رجال الرباب ، ما هو اليوم إلا وغد مثل قدري ومثلما كان سعدالله . والحياة الى جانبه عذاب مشتعل وخوف مؤرق . وعاد عرفة ليلة من بيت الناظر فلم يجد لعواطف أثراً. وشهد البواب بأنه رآها تغادر البيت أول الليل ثم لم تعد . وتساءل عرفة ورائحة الخمر تتطاير مع أنفاسه :

– أين ذهبت يا ترى ؟

فقال حنش باشفاق :

– ان تكن في الحارة فهي عند جارتها القديمة أم زنفل بائعة المفتقة.

فقال عرفة غاضباً :

– المرأة لا تؤخذ باللين ، هذه حكمة أهل حارتنا ، فلأهملها حتى تعود بنفسها ذليلة !

لكنها لم ترجع ، وانقضت عشرة أيام ، فقرر عرفة ان يذهب ليلاً الى أم زنفل متوخياً الا يشعر بذهابه أحد . وفي الميعاد المضروب تسلل من البيت متبوعاً بحنش . وما كادا يقطعان خطوات حتى سمعا اقداماً تتبعها فالتفتا وراءهما فرأيا خادمين من خدم البيت ، فقال عرفة لهما :

– إرجعا الى البيت .

فأجابه أحدهما :

– نحن نحرسك بأمر حضرة الناظر .

تميز غيظاً لكنه لم يعقّب . وساروا نحو ربع قديم في حي قاسم ، وصعدوا الى طابقه الاخير حيث توجد حجرة أم زنفل . طرق عرفة

الباب مرات حتى فتح عن عواطف نفسها بوجـه يعلوه النعاس . ولما تبينت وجهه على ضوء مصباح صغير بيدها قطبت متراجعة ، فتبعها راداً وراءه الباب . واستيقظت أم زنفل في ركن الحجرة وراحت تنظر بذهول نحو القادم . اما عواطف فقالت بحدة :

– ماذا جاء بك ؟ ماذا تريد ؟ إرجع الى بيتك المبارك عليك .

وهمست أم زنفل بانزعاج وهي تحدق في وجهه :

– عرفة الساحر !

وقال عرفة لزوجته دون ان يلقي بالاً الى المرأة المنزعجة :

– اعقلي وتعالي معي .

فقالت بالحدة نفسها :

– لن أعود الى سجنك ، ولن أفرط في راحة البال التي أجدها في هذه الحجرة .

– لكنك زوجتي .

فارتفع صوتها وهي تقول :

– زوجاتك هناك بالخير والبركة !

وقالت أم زنفل في نبرة احتجاج :

– اتركها لنومها وعُدْ في الصباح .

فرماها بنظرة قاسية دون ان يوجه لها كلمة واحـدة ثم نظر الى زوجته قائلاً :

– كل رجل وله زلة !

فهتفت :

– أنت نفسك زلة ولا كل الزلات .

فمال نحوها قليلاً وقال محركاً الحان الرقة في أوتار صوته :

– عواطف . أنا لا يمكن أن استغني عنك .

– لكني أنا استغنيت !

فتساءل بامتعاض :

– تبيعيني لغلطة أفلتت وأنا سكران ؟

فهتفت بتشنج :

– لا تعتذر بالسكر ، حياتك كلها أخطاء ، وستحتاج الى عشرات الأعذار لتبررها ، ولن أجني من ورائها إلا المتاعب والعذاب .

– هي على أي حال أفضل من الحياة في هذه الحجرة !

فابتسمت ابتسامة مريرة ساخرة وتساءلت :

– من يدري ؟ خبرني كيف تركك السجانون لتجيء إليّ ؟

– عواطف !

فقالت باصرار :

– لن أعود الى بيت لا عمل لي فيه الا التثاؤب ومعاشرة عشيقات زوجي الساحر العظيم .

وعبثاً حاول ان يثنيها عن اصرارها . قابلت لينه بالعناد ، وغضبه بالغضب ، وسبه بالسب ، فارتد عنها يائساً ، ثم غادر المكان متبوعاً بصاحبه والخادمين . وسأله حنش :

– ماذا أنت فاعل ؟

فقال بامتعاض وفتور :

– ما نفعله كل يوم .

وسأله قدري الناظر :

– هل من جديد عن زوجك ؟

فأجاب وهو يتخذ مجلسه الى جانبه :

– عنيدة كالبغل ربنا يحفظ مقامك !

فقال الناظر باستهانة :

– لا تشغل بالك بامرأة عندك خير منها !

وجعل يتفحص عرفة باهتمام ، ثم سأله :

ـ هل تعرف امرأتك شيئاً من اسرار عملك ؟
فبادره عرفة بنظرة مريبة ثم قال :
ـ السحر لا يعرفه الا ساحر !
ـ أخشى أن...
ـ لا تخش شيئاً لا ظل له من الوجود .
وامتد الصمت ثواني فعاد يقول في جزع :
ـ لن تمتد لها يد بسوء وأنا على قيد الحياة !
فكظم الناظر غيظه ، وابتسم ، واشار الى الكأسين المترعتين داعياً وهو يقول :
ـ من قال إن يداً ستمتد إليها بسوء ؟

١١٠

ولما توثقت الألفة بين قدري وعرفة ، جعل يدعوه الى سهراته الخاصة التي تبدأ عادة عند منتصف الليل . شهد عرفة سهرة عجيبة في البهو الكبير ، حفلت بكل ما لذ وطاب من مأكل ومشرب ، ورقصت فيها نساء جميلات وهن عرايا حتى كاد عرفــة يجن من الشراب والمنظر . في تلك السهرة رأى عرفة الناظر يعربد بلا حدود ، مثل وحش مجنون. ودعاه الى سهرة في الحديقة ، في خميلة يحدق بها مجرى ماء مضاء الوجه بنور القمر . وكان بين أيديهما فاكهة ونبيذ ، وأمامهما مليحتان احداهما لخدمة المجمرة والأخرى لخدمة الجوزة . وهب نسيم الليل يحمل عرف الازهار ونغم عود واصوات تغني :

يا عود قرنفل في الجنينة منعنع   يعجب الجدعان الحشاشة المجدع

كانت ليلة بدرية يلوح قمرها مكتملاً اذا مال غصن التوت الريــان مع النسيم ، أو يبدو أعيناً من الضياء خلل شبكة من الأغصان والأوراق

إذا رجع الغصن الى مستقره . وسرت من يد المليحة والجوزة نشوة الى رأس عرفة فدار مع الأفلاك ، وقال :

– رحم الله أدهم .

فقال الناظر باسماً :

– ورحم الله إدريس ، ماذا ذكّرك به ؟

– مجلسنا هذا !

– كان أدهم يحب الأحلام ، ولا يعرف منها الا ما أدخله الجبلاوي في رأسه .

ثم وهو يضحك :

– الجبلاوي الذي أرحته أنت من عذاب الكبر !

انقبض قلب عرفة وانطفأت نشوته فغمغم محزوناً :

– لم أقتل في حياتي الا فتوة مجرماً .

– وخادم الجبلاوي ؟

– على رغمي قتلته .

فقال قدري هازئاً :

– أنت جبان يا عرفة .

فهرب الى القمر ينظر اليه خلل الغصون تاركاً الغرزة لانغام العود ، ثم جعل يسترق النظر الى يد المليحة وهي ترص الحجر . واذا بالناظر يهتف به :

– أين انت يا ابن المذهول !

فالتفت نحوه باسماً وهو يسأل :

– أتسهر وحدك يا حضرة الناظر ؟

– لا أحد هنا يليق بمساهرتي .

– وحتى انا لا سمير لي إلا حنش !

فقال قدري باستهانة :

– عند درجة من السطول لا يهمك ان تكون وحدك .
تردد عرفة قليلاً ثم تساءل :
– ألسنا في سجن يا حضرة الناظر ؟
فقال الآخر بحدة :
– – ماذا تريد ما دمنا مطوقين بأناس يمقتوننا !
وذكر كلمات عواطف وكيف فضلت مسكن أم زنفل على بيته ، فقال متنهداً :
– يا لها من لعنة ..
– احذر ان تفسد علينا صفونا .
فتناول الجوزة وهو يقول :
– لتصفُ الحياة الى الأبد .
فضحك قدري قائلاً :
– الى الأبد ؟ حسبنا ان نضمن نفحة من نفحات الشباب مـدى عمرنا بفضل سحرك !
فلأ صدره من عبير الحديقة المتطيب بنداوة الليل العميق ثم قال :
– من حسن الحظ ان عرفة لا يخلو من فوائد !
ترك الناظر الجوزة ليد المليحة وهو يزفر دخاناً كثيفاً بدا مفضضاً في ضوء القمر ثم قال بحسرة :
– لمَ يدركنا الهرم ؟ ألذ الطعام نأكله وأبهج الشراب نشربه وأطيب العيش نهنأ به لكن المشيب يزحف في اوانه لا يرده شيء كأنه الشمس او القمر .
– لكن اقراص عرفة تحيل برودة الشيخوخة حرارة !
– ثمة شيء تقف أمامه عاجزاً !
– ما هو يا سيدي ؟
بدا الناظر حزيناً في ضوء القمر ، وتساءل :

– ما ابغض الأشياء الى قلبك ؟

لعله السجن الذي وضع فيه ، لعلها الكراهية المحدّقة بـــه ، لعله الهدف الذي تنكب عنه . لكنه قال :

– ضياع الشباب !

– كلا ، لا خوف عليك من ذلك .

– كيف وزوجي غاضبة ؟

– سيجدن دائماً سبباً او آخر للغضب .

واشتد هبوب النسيم مرة فارتفع حفيف الغصون وتوهجت الجمرات في المجمرة . وتساءل قدري :

– لماذا نموت يا عرفة ؟

فرمقه بكآبة ولم ينبس فأردف الآخر :

– حتى الجبلاوي مات .

كأن ابرة انغرزت في قلبه ، لكنه قال :

– كلنا أموات وأبناء أموات .

فقال في ضجر :

– لست في حاجة الى تذكيري بما قلت .

– ليطل عمرك يا سيدي .

– طال او قصر فالنهاية هي تلك الحفرة التي تعشقها الديدان .

فقال عرفة برقة :

– لا تدع الأفكار تكدر صفوك .

– انها لا تفارقني ، الموت .. الموت .. دائماً الموت ، يجيء في أية لحظة ، ولأتفه الأسباب ، أو بلا سبب على الاطلاق ، أين الجبلاوي؟ أين الذين تتغنى بأعمالهم الرباب ؟ هذا قضاء ما كان ينبغي ان يكون .

ولحظه عرفة فرأى وجهه شاحباً وعينيه تنطقان بالفزع ، فبدا التناقض صارخاً بين حاله وبين مجلسه ، فداخله قلق وقال برقة :

ـ المهم ان تكون الحياة كما ينبغي .

فلوّح بيده غاضباً وقال بحدة نعت الصفو نعياً :

ـ الحياة كما ينبغي وأحسن ، لا ينقصها شيء ، حتى الشباب تعيده الأقراص ، ولكن ما جدوى ذلك كله والموت يتبعنا كالظل ؟ كيف انساه وهو يذكرني بنفسه كل ساعة ؟

سر لعذابه ، لكنه سرعان ما سخر من مشاعره ، وتابع يد الحسناء بشوق وحنان ، وتساءل في سره منذا يضمن لي أن أرى القمر ليـلة أخرى ، ثم قال :

ـ لعلنا في حاجة الى مزيد من الشراب !

ـ سنفيق في الصباح .

وجد نحوه ازدراء . وظن ان ثمة فرصة متاحة فأراد ان يخطفها فقال :

ـ لولا حسد المحرومين من حولنا لتغير مذاق الحياة في افواهنا !

فضحك الناظر ضحكة ساخرة وقال :

ـ قول بالعجائز أجدر ! هبنا استطعنا ان نرفع حياة أهل حارتنـا الى مستوى حياتنا فهل يقلع الموت عن اصطيادنا ؟

فهز عرفة رأسه في تسليم حتى خفت حدة الرجل ثم قال :

ـ الموت يكثر حيث يكثر الفقر والتعاسة وسوء الحال .

ـ وحيث لا يوجد منها شيء يا أحمق .

فقال وهو يبسم :

ـ نعم ، لأنه معد مثل بعض الامراض !

فضحك الناظر قائلاً :

ـ هذا أغرب رأي تدافع به عن عجزك .

فقال متشجعاً بضحكة :

ـ نحن لا ندري عنه شيئاً فلعلـه أن يكون كذلك ، واذا حسنت احوال الناس قل شره ، فازدادت الحياة قيمة وشعر كل سعيد بضرورة

مكافحته حرصاً على الحياة السعيدة المتاحة .

– ولن يجدي ذلك قتيلا .

– بل سيجمع الناس السحرة ليتوفروا لمقاومة الموت ، بل سيعمل بالسحر كل قادر ، هنالك يهدد الموتُ الموت .

وندت عن الناظر ضحكة عالية ، ثم أغمض عينيه مستسلماً للحلم . وتناول عرفة الجوزة وشدّ نفساً طويلاً حتى اشتعل الحجر . وعاد العود بعد انقطاع يترنم وغنى الصوت الحنون « طوّل يا ليل » فقال قدري :

– أنت حشاش يا عرفة لا ساحر .

فقال عرفة ببساطة :

– بذلك نقتل الموت .

– لم لا تعمل انت وحدك ؟

– انى اعمل كل يوم ولكن ما اعجزني وحدي أمامه .

واستمع الناظر الى الغناء ملياً دون حماس ثم سأله :

– آه لو تنجح يا عرفة ! اي شيء تفعله لو نجحت ؟ !

فقال وكأنما أفلت منه القول :

– أردّ الى الحياة الجبلاوي .

فلوى الرجل شفتيه بفتور وقال :

– هذا شأن يعنيك بصفتك قاتله !

فقطب عرفة متألماً وغمغم بصوت غير مسموع :

– آه لو تنجح يا عرفة !

١١١

وعند الفجر غادر عرفة بيت الناظر . كان من السّطل في عالم مسحور غائم المسموعات والمرئيات ولا تكاد تحمله قدماه . مضى ناحية بيته في

حارة غارقة في النوم مفروشة الأديم بضوء القمر . وعند منتصف المسافة بين بيت الناظر وبيته — امام باب البيت الكبير — اعترضه شبح لم يدر من أين أتى ، وقال له فيما يشبه الهمس :

— صباح الخير يا معلم عرفة !

دهمه خوف لعله من المفاجأة انبعث ، لكنّ تابعيه انقضا على الشبح وأمسكا به ، وتفرس فيه فوضح لعينيه رغم ذهولها انه شبح امرأة سوداء مرتدية جلباباً أسود يلفها من العنق حتّى القدمين . أمر خادميه ان يتركاها فتركاها ثم سألها :

— مالك يا وليّة ؟

فقالت بصوت اكد انها سوداء :

— أريد ان احدثك على انفراد .

— لم ؟

— مكروبة تشكو اليك كربها !

فقال بضجر وهو يهم بالذهاب :

— الله يحنن عليك .

فقالت بضراعة نافذة :

— وحياة جدك الغالي الا ما سمحت لي .

فحدجها بنظرة غاضبة لكنه لم يحول عن وجهها عينيه ! تساءل أين ومتى رأى ذلك الوجه ! وإذا بقلبـــه يخفق خفقة أطارات السطل من رأسه . هذا الوجه الذي رآه على عتبة حجرة الجبلاوي وهو مختف وراء المقعد في الليلة المشئومة ! وهذه هي خادمة الجبلاوي التي كانت تشاركه حجرته ! وركبه خوف تخلخلت له مفاصله فحملق في وجهها فزعاً . وسأله أحد الخادمين :

— نطردها ؟

فخاطبها قائلاً :

ـ اذهبا الى باب البيت وانتظرا .

انتظر حتى ذهبا ، فخلا لهما المكان أمام البيت الكبير ، وراح يتفرس في وجهها الأسود الناحل وجبينها الضيق العالي وذقنها المدبب والتجاعيد المحدقة بفيها وجبينها . وقال يطمئن نفسه إنها من المؤكد لم تره تلك الليلة ، ولكن أين كانت منذ وفاة الجبلاوي وماذا جاء بها ؟! وسألها :

ـ نعم يا ستي ؟

فقالت بهدوء :

ـ لا شكوى لي ، وانما أردت ان أخلو اليك لأنفذ وصيّة !

ـ أية وصية ؟

فال رأسها نحوه قليلاً وهي تقول :

ـ كنت خادمة الجبلاوي وقد مات بين يدي !

ـ أنت !

ـ نعم أنا فصدقني .

ولم يكن في حاجة الى دليل فسألها بصوت مضطرب :

ـ كيف مات جدنا ؟

فقالت المرأة بنبرة حزينة :

ـ اشتد به التأثر عقب اكتشاف جثة خادمة ، وبغتة احتضر فسارعت اليه لأسند ظهره المختلج ! ذلك الجبار الذي دان له الخلاء !

زفر عرفة بصوت حار كدر سكون الليل ، وانخفض رأسه في حزن كأنما يداريه عن ضوء القمر ، وإذا بالمرأة ترجع الى حديثها الأول قائلة :

ـ جئتك تنفيذاً لوصيته .

فرفع رأسه اليها مرتعشاً ، متسائلاً :

ـ ماذا عندك ؟ تكلمي .

فقالت بصوت هادىء كنور القمر :

— قال لي قبل صعود السر الالهي « اذهبي الى عرفة الساحر وأبلغيه عني ان جدّه مات وهو راض عنه » .
فانقض عرفة كالملدوغ وهتف بها :
— يا دجالة ! ماذا تمكرين ؟ !
— سيدي ، حفظتك العناية .
— خبريني اي لعبة تلعبين ؟
فقالت ببراءة :
— لا شيء غير ما قلت والله شيهد .
فسألها بارتياب :
— ماذا تعرفين عن القاتل ؟
— لا أدري شيئاً يا سيدي ، منذ وفاة سيدي وأنا طريحة الفراش ، وأول ما فعلت بعد شفائي ان قصدتك .
— ماذا قال لك ؟
— اذهبي الى عرفة الساحر وأبلغيه عني ان جده مات وهو راض عنه.
فقال عرفة بتحدّ :
— كاذبة ! انتّ تعرفين يا ماكرة انني .. (ثم مغيراً نبرتـــه) كيف عرفت بمكاني !
— سألت عنك أول ما جئت فقالوا لي إنك عند الناظر فلبثت انتظر.
— ألم يقولوا لك إنني قاتل الجبلاوي !
فقالت بارتياع :
— ما قتل الجبلاوي أحد ! وما كان في وسع أحد ان يقتله .
— بل قتله الذي قتل خادمه .
فهتفت بغضب :
— كذب وافتراء ، لقد مات الرجل بين يدي .
وجد عرفة رغبة في البكاء لكنه لم يسفح دمعة واحدة ، ورنا الى المرأة

بطرف منكسر فقالت ببساطة :

ــ افوتك بعافية .

فسألها بصوت غليظ متحشرج كأنه صوت ضميره المعذب :

ــ اتقسمين على انك صادقة فيما قلت ؟

فقالت بوضوح :

ــ أقسم بربي وهو شهيد .

ومضت والوان الفجر تخضب الأفق فأتبعها ناظريه حتى اختفت ثم ذهب . وفي حجرة نومه سقط مغشياً عليه . وأفاق بعد دقائق فوجد نفسه متعباً لحد الموت فنام ، لكن نومه لم يستمر اكثر من ساعتين ثم ايقظه القلق الباطني . ونادى حنش فجاءه الرجــل ، فقص عليه قصة المرأة والآخر يحملق في وجهه كالمتزعج ، فلما فرغ من قصته ضحك حنش قائلاً :

ــ هنيئاً لك سطل الأمس .

فغضب عرفة وهتف به :

لم يكن ما رأيت سطلاً ، ولكن حقيقة لا شك فيها .

فقال حنش برجاء :

ــ نم ، أنت في حاجة الى نوم عميق .

ــ ألا تصدقني ؟

ــ كلا طبعاً ، وإذا نمت كما أود واستيقظت بعد حين فلن تعود الى هذه القصة .

ــ ولم لا تصدقني ؟

فضحك قائلاً :

ــ كنتُ في النافــذة وأنت تغادر بيت الناظر فرأيتك وأنت تقطع عرض الحارة نحو بيتك ، وقفت قليلاً أمام باب البيت الكبير ثم واصلت السير يتبعك خادماك !

فوثب عرفة واقفاً وهو يقول بظفر :

– إليّ بالخادمين .

فأشار حنش اليه محذراً ثم قال :

– كلا ، وإلا شككّا في عقلك .

فقال باصرار :

– سأستشهد بهما على مسمع منك .

فقال حنش متوسلاً :

– لم يبق لنا إلا شيء من الكرامة حيال الخدم فلا تبدده .

فلاحت في عيني عرفة نظرة جنونية ، وراح يقول ذاهلاً :

– لست مجنوناً ، وليس هو بالسطل ! مات الجبلاوي وهو عني راض .

فقال حنش بعطف :

– فليكن ولكن لا تدع أحداً من الخدم .

– اذا وقعت كارثة فستقع أول ما تقع فوق رأسك .

فقال بحلم :

– لا سمح الله ، فلندع المرأة لتحدثنا بنفسها ، أين ذهبت ؟

فقطب متذكراً ، ثم قال باشفاق :

– نسيت ان أسألها عن مسكنها !

– لو كان حقيقة ما رأيت لما تركتها تذهب !

فهتف عرفة باصرار :

– كان حقيقة ، لست مجنوناً ، وقد مات الجبلاوي وهو عني راض .

فقال حنش بعطف :

– لا تجهد نفسك فأنت في حاجة الى الراحة .

واقترب منه فربت رأسه ، وبحنوّ دفعه نحو الفراش ، وما زال به حتى أرقده . أغمض الرجل عينيه اعياء ، وما لبث ان نام نوماً عميقاً .

١١٢

قال عرفة بهدوء وتصميم :

— قررت ان أهرب .

فدهش حنش دهشة فوق ما يطيق حتى توقفت يداه عن العمل . ونظر بحذر فيما حوله ، ورغم ان حجرة العمل كانت مغلقة الا انه بدا خائفاً . ولم يكترث عرفة لدهشته ، ولم تكف يداه عن العمل ، وراح يقول :

— هذا السجن لم يعد يمدني الا بافكار الموت ، وكأن الطرب والشراب والراقصات ليست إلا الحــان الموت ، وكأنني أشم رائحة القبور في أصص الأزهار .

فقال حنش بقلق :

— لكن الموت نفسه ينتظرنا في الحارة .

— سنهرب بعيداً عن الحارة .

ثم وهو ينظر في عيني حنش :

— وسنعود يوماً لننتصر .

— اذا استطعنا الهرب !

— اطمأن لنا الأوغاد فلن يعجزنا الهرب .

وواصلا العمل ملياً في صمت ، ثم تساءل عرفة :

— أليس هذا ما كنت تود ؟ !

فتمتم حنش في حياء :

— كدت أنسى .. ولكن خبرني ما الذي دعاك اليوم الى هذا القرار؟

— ابتسم عرفة وهو يقول :

— ان جدي أعلن رضاءه عني رغم اقتحامي بيته وقتلي خادمه .

فعاودت الدهشة وجه حنش وهو يتساءل :

ـ أتغامر بحياتك لحلم رأيته في السّطل ؟

ـ سمه بما تشاء ، لكني واثق من انه مات وهو عني راض ، لم يغضبه الاقتحام ولا القتل ، لكن لو اطلع على حياتي الراهنة لما وسعته الدنيا غضباً .

ثم بصوت خافت :

ـ لذلك نبهني بلطف الى سابق رضاه !

فقال حنش وهو يهز رأسه عجباً :

ـ لم يكن من عادتك ان تتحدث عن جدنا باحترام .

ـ كان ذلك في الزمان الأول وأنا كثير الارتياب ، اما وقد مات فحقّ للميت الاحترام .

ـ الله يرحمه .

ـ وهيهات ان انسى انني المتسبب في موته ، لذلك فعلي ان أعيده الى الحياة اذا استطعت ، وان تيسر لي النجاح فلن نعرف الموت .

فرمقه حنش بأسى وقال :

ـ لم يسعفك السحر حتى اليوم الا باقراص منشطة وقارورة مهلكة !

ـ نحن نعرف من اين يبدأ السحر لكن لا نستطيع ان نتخيل اين ينتهي .

وأجال بصره في الحجرة قائلاً :

ـ ستتلف كل شيء الا الكراسة يا حنش ، فهي كنز للاسرار ، وسأجعلها فوق صدري ، ولن نجد الهرب عسيراً كما تتوهم .

ومضى عرفة كعادته مساء الى بيت الناظر . وقبيل الفجر عاد الى بيته . وجد حنش مستيقظاً في انتظاره فلبثا في حجرة النوم ساعة حتى يطمئنا الى نوم الخدم . وتسللا معاً الى السلاملك في خفة وحذر . وكان شخير الخادم النائم في شرفة السلاملك يتصاعد في انتظام، فهبطا السلم، واتجها نحو الباب . ومال حنش الى فراش البواب فرفع بيده هراوة

وهوى بها عليه لكنها أصابت جسماً قطنياً فارغاً وأحدثت صوتاً مزعجاً في سكون الليل . ثبت لهما ان البواب ليس في فراشه . وخافا ان يكون الصوت قد ايقظ أحداً فلبثا وراء الباب بقلب خافق . ورفع عرفة المزلاج وفتح الباب على مهل ثم خرج وحنش في اثره . وردا الباب وسارا لصق الجدران نحو ربع أم زنفل يخترقان ظلمة صامتة . واعترضهما في منتصف الحارة كلب رابض فوقف مستطلعاً ، وجرى نحوهما متشمماً ، وتبعهما خطوات ثم توقف وهو يتثاءب . ولما بلغا مدخل الربع قال عرفة همساً :

ــ ستنتظرني هنا ، وإذا رابك شيء فصفّر لي واهرب الى سوق المقطم .

دخل عرفة الربع فاجتاز الدهليز الى السلم ورقى فيه حتى غرفة أم زنفل ، ونقر على الباب حتى سمع صوت زوجته وهي تسأل عن الطارق فقال بسرعة وحرارة :

ــ أنا عرفة ، افتحي يا عواطف .

ففتحت الباب فطالعه وجهها الشاحب من أثر النوم على ضوء مصباح صغير بيدها . قال مباشرة :

ــ أتبعيني ، سنهرب معاً .

وقفت تنظر اليه في ذهول على حين ظهرت وراء كتفها أم زنفل، فقال :

ــ سنهرب من الحارة ، سنعود كما كنا ، اسرعي .

ترددت قليلاً ، ثم قالت بنبرة لم تخل من من غيظ :

ــ ما الذي ذكرك بي ؟

فقال بلهفة ولهوجة :

ــ دعي الملام لحينه فللدقيقة الآن ثمنها .

واذا بصفير حنش ينطلق وضجة تترامى فهتف في فزع :

ــ الكلاب ! ضاعت الفرصة يا عواطف .

وثب الى رأس السلم فرأى في فناء الربع أضواء وأشباحاً فارتدّ يائساً ، وقالت عواطف :

ــ أدخل .

فقالت أم زنفل بخشونة دفاعاً عن نفسها .

ــ لا تدخل .

وما فائدة الدخول ؟ وأشار الى نافذة صغيرة بدهليز المسكن وسأل زوجته بسرعة :

ــ علام تطلّ ؟

ــ المنور .

فاستخرج الكراسة من فوق صدره واندفع نحو النافذة منحياً عن سبيله أم زنفل ، ثم رمى بها . وغادر المسكن مسرعاً فأغلق الباب وراءه . وصعد درجات السلم القليلة المؤدية الى السطح وثباً . أطل من فوق السور على الحارة فرآها تعج بالاشباح والمشاعل . وترامت الى أذنيه ضجة الصاعدين اليه . وجرى الى السور الملاصق للربع المجاور من ناحية الجمالية فرأى اشباحاً تسبقه اليه وراء حامل مشعل . ارتد الى السور الآخر الملاصق لأحد ربوع الرفاعية فرأى من خلال باب سطحه انوار مشاعل قادمة ! وتملكه يأس خانق . وخيل اليه انه سمع صراخ أم زنفل . ترى هل اقتحموا مسكنها ؟ هل قبضوا على عواطف ؟ وإذا بصوت عند باب السطح يصيح به :

ــ سلم نفسك يا عرفة !

وقف مستسلماً دون ان ينبس بكلمة . لم يتقدم منه أحد لكن الصوت قال :

ــ إذا رميت بزجاجة انهالت عليك الزجاجات !

فقال :

ــ لا شيء معي .

انقضّوا عليه فطوّقوه . ورأى بينهم يونس بواب الناظر الذي اقترب منه وصاح به :

– يا مجرم .. يالئيم .. يا كافراً بالنعمة .

وفي الحارة رأى رجلين يسوقان أمامهما عواطف فقال بتوسل حار :

– دعوها فلا شأن لها بي .

لكن لطمة الموت هوت على صدغه فأسكتته .

١١٣

أمام الناظر الغاضب وقف عرفة وعواطف مقيدي اليدين الى ظهريهما . انهال الناظر لطماً على وجه عرفة حتى كلّت يداه وصاح به :

– كنت تناديني وأنت مبيّت الغدر يا ابن الزانية !

فقالت عواطف بأعين دامعة :

– ما جاءني الا ليصالحني !

فبصق الناظر على وجهها وصاح :

– اخرسي يا مجرمة .

فقال عرفة :

– انها بريئة ولا ضلع لها في شيء .

– بل شريكتك في قتل الجبلاوي وسائر جرائمك .

ثم وهو يهدر :

– أردت الهرب وسأهربك من الدنيا كلها .

ونادى رجاله فجاءوا بجوالين . دفعوا عواطف فسقطت على وجهها فسرعان ما قيدوا قدميها وأدخلوها في الجوال وهي تصرخ ثم ربطوا فوهته ربطاً محكماً . وصاح عرفة بانفعال جنوني :

– اقتلنا كما تشاء ، سيقتلك الحاقدون غداً .
فضحك الناظر ضحكة باردة وقال :
– عندي من القوارير ما يحمينا الى الأبد .
فصاح عرفة :
– حنش هرب ، بكل الأسرار هرب ، وسوف يعود يوماً بقوة لا تقاوم فيخلّص الحارة من شرّك .

فركله في بطنه فسقط يتلوى . وانقضّ عليه الرجال ففعلوا به ما فعلوه بزوجته ثم حملوا الجوالين خارجاً ، ومضوا بهما نحو الخلاء . وما لبثت عواطف ان اغمي عليها ولكن بقي هو يعاني العذاب . الى اين يسيرون بهما وماذا اعدوا لها من الوان الموت ؟ ايقتلونهم ضرباً بالنبابيت؟ بالاحجار ؟ بالنار ؟ أم رمياً من فوق الجبل ؟ يا لهذه الدقائق الأخيرة من الحياة المشحونة بأفظع الآلام ! حتى السحر لا يستطيع ان يجد لهذا المأزق الخانق مخرجاً . ان رأسه المتورم من لطمات الناظر يرقد اسفل الجوال فيكاد ان يختنق . ولم يعد له من أمل في الراحة الا بالموت . سيموت وتموت الآمال وربما عاش طويلاً ذو القهقهة الباردة . وسيشمت به الذين ودّ لهم الخلاص . ولن يدري احد ماذا سيفعل حنش . والرجال الذين يحملونه الى الموت صامتون ، لا تندّ عن أحدهم كلمة ، فليس ثمة الا الظلام ، وليس وراء الظلام الا الموت . وخوفاً من هذا الموت انطوى تحت جناح الناظر فخسر كل شيء وجاء الموت . الموت الذي يقتل الحياة بالخوف حتى قبل أن يجيء . لو رد الى الحياة لصاح بكل رجل .. لا تخف .. الخوف لا يمنع من الموت ولكنه يمنع من الحياة . ولستم يا اهل حارتنا احياء ولن تتاح لكم الحياة ما دمتم تخافون الموت .

وقال رجل من القتلة :
– هنا ..

فقال آخر من القتلة معترضاً :

— هناك الارض طرية .

ارتعد قلبه رغم انه لم يفهم للكلام معنى ،لكنها كانت لغة الموت على أي حال . واشتد به عذاب المتوقع حتى أوشك ان يصيح بهم ان اقتلوني ولكنه لم يفعل . وفجأة هوى الجوال الى الارض فشهق وارتطم رأسه بالارض فهصر الالم عنقه وعموده الفقري . وانتظر بعد لحظة وأخرى انقضاض النبـــابيت او ما هو أفظع . ولعن الحياة كلها من أجل الشر حليف الموت . وسمع يونس وهو يقول :

— أحفروا بسرعة حتى نعود قبل الصبح .

لمَ يحفرون القبر قبل القتل ؟ وخيل اليه انه يحمل المقطم فوق صدره . وسمع أنيناً ما لبث ان ميز فيه نبرة عواطف فندت عن جسده المقيــد حركة عنيفة . ثم ملأت دقات الحفر أذنيه ! فعجب من غلظة اكباد الرجال . واذا بيونس يقول :

— سيلقي بكما الى قعر الحفرة ثم يهال عليكما التراب دون ان يمسكما إنسان بسوء !

فصرخت عواطف رغم اعيائها ، وهتفت اعماقه بلغة لم يدرها أحد. ورفعتها أيد شديدة ، ثم رمت بهما الى قعر الحفرة ، فانهال التراب ، وارتفع الغبار في الغسق .

١١٤

انتشر خبر عرفة في الحارة . لم يعرف أحد أسباب مصرعه الحقيقية ، ولكن بالتخمين عرفوا انه أغضب سيده فدفعه هذا الى مصيره المحتوم. وذاع حيناً ما ان عرفة قتل بنفس السلاح السحري الذي قتل بـــه

سعد الله والجبلاوي . وفرح الجميع لقتله رغم مقتهم للناظر،وكثر الشامتون من أهل الفتوات وانصارهم ، فرحوا لمقتل الرجل الذي قتل جدهم المبارك وأعطى ناظرهم الظالم سلاحاً رهيباً يستذلهم به الى الأبد ! وبدا المستقبل قاتماً او اشد قتامة مما كان بعد ان تركزت السلطة في يد واحدة قاسية ، واختفى الأمل في ان ينشب بين الرجلين نزاع فيفضي الى اضعافها معاً ولجوء أحدهما الى أهل الحارة . وبدا انه لم يبق لهم الا الخضوع ، وأن يعتبروا الوقف وشروطه وكلمات جبل ورفاعة وقاسم أحلاماً ضائعة قد تصلح الحاناً للرباب لا للمعاملة في هذه الحياة .

ويوماً اعترض رجل أم زنفل وهي ذاهبة الى الدراسة فحيّاها قائلا :

– مساء الخير يا أم زنفل .

فرمقته بنظرة فما عتمت أن قالت بدهشة :

– حنش !

فاقترب منها باسماً ثم سألها :

– ألم يترك المرحوم شيئاً في مسكنك ليلة القبض عليه ؟

فقالت بلهجة من يقصد دفع الشبهة عن نفسه :

– لم يترك شيئاً ! رأيته يرمي بأوراق الى المنور ، فتسللت اليه في نهار اليوم التالي فعثرت بين القاذورات على كراسة لا فايدة منها ولا عايدة فتركتها ورجعت .

التمعت عينا حنش بنور عجيب وقال برجاء :

– مدّي لي يدك حتى أعثر على الكراسة :

فأجفلت العجوز وهي تهتف :

– ابعدوا عني ، لولا رحمة ربنا لهلكت في المرة الماضية .

فأودع يدها قطعة من النقود حتى سكن فزعها ، وواعدها آخر الليل حين تنام العيون . وفي الموعد المضروب تسلل بارشادها الى أسفل المنور . وأشعل شمعة ، وجلس القرفصاء بين اكوام الزبالة وراح يفتش

على كراسة عرفة . فرز الاكوام ورقة ورقة وخرقة خرقة ، وتخللت اصابعه الرماد والتراب وبقايا المعسّل وفتات الأطعمة المنتنة ، لكنه لم يعثر على ضالته . وصعد الى أم زنفل فقال لها بيأس غاضب :

– لم أجد شيئاً .

فهتفت المرأة ساخطة :

– لا شأن لي بكم ! انكم تجيئون ثم تتبعكم المصائب !

– حلمك يا أمي !

– لم تترك لنا الأيام حلماً ولا عقلاً ، خبّرني ماذا يهمك في تلك الكراسة ؟

فتردد حنش قليلاً ثم قال :

– انها كراسة عرفة .

– عرفة ! الله يسامحه . قتل الجبلاوي ، ثم أعطى الناظر سحره وذهب .

فقال حنش بحزن :

– كان من أولاد حارتنا الطيّبين لكن الحظ خانه ، كان يريد لكم ما اراد جبل وعرفة وقاسم ، بل وأحسن مما أرادوا .

فحدجته المرأة بنظرة ارتياب ، ثم قالت بغية التخلّص منه :

– لعل الزبّال اخذ الزبالة التي تركتُ الكراسة فيها ففتش عنها في مستوقد الصالحية .

وذهب حنش الى مستوقد الصالحية وسأل عن زبّال حارة الجبلاوي ، ثم سأله عن زبالة الحارة ، فسأله الرجل :

– تبحث عن شيء ضائع ! ما هو ؟

– كراسة ..

فلاحت في عين الزبّال نظرة مريبة لكنه قال وهو يشير الى ركن في الحجرة الملاحقة للحمّام :

ـ أنت وحظك ، فاما تجدها عندك واما تكون في النار .

ومضى حنش يفتش في الزبالة بصبر وأمل . لم يبق له من أمل في الحياة الا تلك الكراسة . هي أمله وأمل الحارة . قتل عرفة السيء الحظ مغلوباً على أمره ، لم يترك وراءه الا الشر وسوء السمعة ، فهذه الكراسة جديرة باصلاح اخطائه والقضاء على اعدائه وبعث الآمال في الحـــارة المتجهمة . واذا بالزبّال يسأله :

ـ ألم تعثر على مطلوبك ؟

ـ أمهلني ربنا يكرمك .

فهرش الرجل أبطيه متسائلاً :

ـ ما أهمية الكراسة ؟

فقال حنش دفعاً للقلق الذي انتابه :

ـ فيها حسابات المحل وستراها بنفسك !

وواصل بحثه رغم تزايد مخاوفه ، حتى سمع صوتـــاً غير غريب عنه يقول :

ـ أين قدرة الفول يا متولي ؟

ارتعدت فرائصه لدى سماع صوت عم شنكل بياع الفول بالحارة لم يلتفت نحوه ولكنه تساءل في جزع : ترى هل لمحه الرجل ؟ وهل يحسن به ان يهرب ؟ وزادت سرعة يديه في التفتيش حتى بدا كالأرنب الذي يحفر مأوى له .

وعاد عم شنكل الى الحارة ليقول لكل من يصادفه إنه رأى حنش رفيق عرفة في مستوقد الصالحية مكباً على التفتيش في الزبالة عن كراسة كما اخبره الزبال . وما ان بلغ الخبر بيت الناظر حتى ذهبت قوة من الخدم الى المستوقد ولكنها لم تجد لحنش أثراً . ولما سئل الزبال قال : إنه ذهب لبعض شأنه ، ولما عاد كان حنش قد ذهب ، ولم يدر ان كان عثر على ضالته أم لا . ولا يدري أحد كيف أخذ الناس يتهامسون فيما

بينهم بأن الكراسة التي أخذها حنش مـــا هي إلا كراسة السحر التي أودعها عرفة أسرار فنونه وأسلحته ، وانها ضاعت اثناء محاولته الهرب فحملت في الزبالة الى مستوقد الصالحيـــة حيث عثر عليها حنش . وانتشرت الاخبار من غرزة الى غرزة بأن حنش سيتم ما بدأه عرفة ثم يعود الى الحارة لينتقم من الناظر شر انتقام . وأكد الأقوال والظنون ان الناظر وعد من يجيء بحنش حياً أو ميتاً بمكافـــأة كبيرة كما أعلن ذلك رجاله في المقاهي والغرز . فلم يعد أحد يشك في الدور المنتظر ان يلعبه حنش في حياتهم . وارتفعت في الأنفس موجة استبشار وتفـــاؤل قذفت بعيداً بزبد القنوط والخنوع . وامتلأت القلوب عطفاً على حنش في مهجره المجهول ، بل امتد العطف الى ذكرى عرفة نفسه . وتمنى الناس لو يتعاونون مع حنش في موقفه من الناظر لعلهم يحرزون بانتصاره عليه نصراً لهم ولحارتهم ، وضماناً لحياة خير وعدالة وسلام . وصمموا على التعاون ما وجدوا اليه سبيلا باعتباره السبيل الوحيد الى الخلاص ، اذا كان من المسلّم به انه لا يمكن التغلب على القوة السحرية التي يحوزها الناظر الا بقوة مثلها مما قد يعدها حنش . ونما الى علم الناظر ما الناس يتهامسون به فأوحى الى شعراء المقاهي ان يتغنوا بقصة الجبـــلاوي ، وبخاصة مقتله بيد عرفة ، وكيف ان الناظر اضطر الى مهادنته ومصادقته خوفاً من سحره حتى تمكن منه فقتله انتقاماً للجد الكبير .

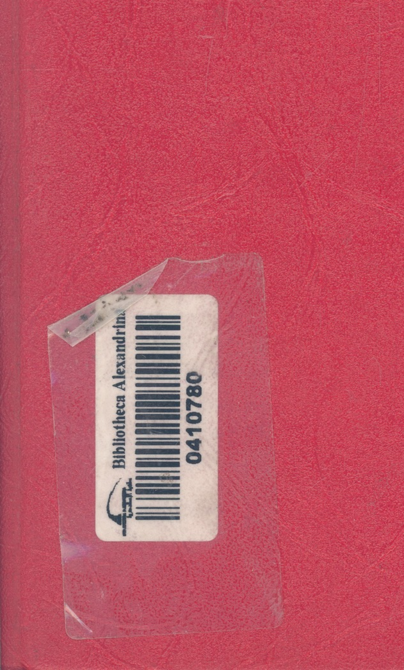
ومن عجب ان تلقى الناس أكاذيب الرباب بفتور وسخرية ، وبلغ بهم العناد ان قالوا : « لا شأن لنا بالماضي ، ولا أمل لنـــا إلا في سحر عرفة ، ولو خيرنا بين الجبلاوي والسحر لاخترنا السحر » ؟

ويوماً بعد يوم مضت حقيقة عرفة تتكشف للناس . لعلها تسربت من ربع أم زنفل التي علمت بالكثير عنه من عواطف على عهد اقامتها عندها . ولعلها جـــاءت عن طريق حنش نفسه فيما كان يعرض للبعض عن مقابلته في الاماكن النائية . المهم ان الناس عرفوا الرجل ، ومـــا

كان ينشده من وراء سحره للحارة من حياة عجيبة كالاحلام الساحرة. ووقعت الحقيقة من انفسهم موقع العجب فاكبروا ذكراه ورفعوا اسمه حتى فوق اسماء جبل ورفاعة وقاسم . وقال أناس إنه لا يمكن ان يكون قاتل الجبلاوي كما ظنوا ، وقال آخرون إنه رجل الحارة الأول والأخير ولو كان قاتل الجبلاوي . وتنافسوا فيه حتى ادعاه كل حي لنفسه .

وحدث ان اخذ بعض الشبان من حارتنا يختفون تباعاً ، وقيل في تفسير اختفائهم إنهم اهتدوا الى مكان حنش فانضموا اليه ، وانه يعلمهم السحر استعداداً ليوم الخلاص الموعود . واستحوذ الخوف على الناظر ورجاله ، فبثوا العيون في الأركان ، وفتشوا المساكن والدكاكين ، وفرضوا أقسى العقوبات على أتفه الهفوات ، وانهالوا بالعصي للنظرة أو النكتة او الضحكة ، حتى باتت الحارة في جو قاتم من الخوف والحقد والارهاب . لكن النـاس تحملوا البغي في جـلد ، ولاذوا بالصبر . واستمسكوا بالأمل ، وكانوا كلما أضر بهم العسف قالوا : لا بد للظلم من آخر ، ولليل من نهار ، ولنرين في حارتنا مصرع الطغيان ومشرق النور والعجائب .




Bibliotheca Alexandrina
0410780